[redacted]
عبد القادر ،حامد
في علم النفس
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01001760

[redacted] V.3

عبد القادر، حامد.

في علم النفس.

JUL 13 X 321

12 Aug 65

[redacted]

1 - Feb 72

JL 27 '58

DEC 18

JAN

19 May 69

Cat. Oct. 1945

قررت وزارة المعارف تدريس هذا الكتاب بدار العلوم العليا

150
A612fA
V.3
c.1

في علم النفس

الجزء الثالث

تأليف

محمد عطية الابراشي
خريج جامعتى اكستر ولندن
أستاذ التربية وعلم النفس
بدار العلوم

و

حامد عبد القادر
خريج جامعتى إكستر ولندن
أستاذ التربية وعلم النفس
بدار العلوم

59561

الطبعة الثانية ١٣٦٣هـ - ١٩٤٤م

طبع بمطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر

Cat. Oct. 1945

مقدّمة
للطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

حمدا لله على نعمائه ، وصلاة وسلاما على رسله وأنبيائه ، (وبعد) فيسرنا أن نقدم الطبعة الثانية من الجزء الثالث من كتابنا « فى علم النفس » بعد نفاد طبعته الأولى منذ مدة ليست بالقصيرة . وقد دعانا إلى إعادة طبعه ما لمسنا من حاجة المتعلمين إليه ، وكثرة الراغبين فى الحصول عليه ، من جمهرة القراء المثقفين . وسيجد القارئ الكريم أن هذه الطبعة تفضل سابقتها بما أدخل عليها من التنقيحات وبعض الإضافات .

ولا يسعنا إلا أن نتوجه بالشكر للصديق الجليل الأستاذ محمد عيسى البابى الحلبى الذى بذل مجهودا لا ينكر ، وعناية تشكر ، فى سبيل إظهار هذا الجزء وزميله الجزء الثانى فى وقت اشتدت فيه أزمة الورق ، وعز طبع الكتب . وإن شكرنا ليتضاعف حين نرى الجزأين وقد طبعا طبعاً متقنا يمثل الدقة ، وجمال الفن ، فى زمن يسير .

والله نسأل أن ينفع بهذه الطبعة كما نفع بسابقتها ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ؟

المؤلفان

ربيع الأول سنة ١٣٦٣ هـ . — مارس سنة ١٩٤٤ م .

مقدمة

للطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . والصلاة والسلام على رسوله الكريم ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد فوفاء بما وعدنا ، وإجابة لرغبة كثيرين من الطلبة والمربين ، وحبا لخدمة العلم والتعليم ، نقدم اليوم لقراء العربية فى الشرق عموما ، وفى مصر خصوصا الجزء الثالث من كتابنا « فى علم النفس » كما قدمنا لهم فى العام الماضى الجزأين الأول والثانى من هذا الكتاب .

وقد راعينا فى هذا الجزء كما راعينا فى سابقه السهولة فى الأسلوب ، والوضوح فى العبارة ، مع الدقة فى التعبير ، والبحث وراء الحقيقة ، حبا للوصول إلى الحقيقة لذاتها ؛ حتى يسهل الصعب ، ويتضح الغامض ، ويقرب إلى الأذهان ما بعد عنها ، من تلك الموضوعات التى لم تخدم بالعربية الخدمة اللائقة بها وهى :

الفكر ، والحكم ، والاستنباط ، والتعليل ، والتفكير الراقى ، والوجدان ، والانفعالات ، والعواطف ، والإرادة ، والأمزجة ، والأذواق ، والشخصية .

وزيادة فى التوضيح ، ومراعاة للأمانة فى التأليف ، قد وضعنا بجانب الاصطلاحات العلمية ما يقابلها باللغة الأجنبية ؛ تجنبا للخلط ، ومنعا للخطأ فى التفكير ، وليكون المطلع على بينة مما نريد . وقد ذيلنا كل فصل بالمراجع الأجنبية، ليرجع إليها من شاء أن يرجع .

وإنا لنقدم جزيل الشكر ، ووافر الثناء ، لمن قدروا ما بذلنا من مجهود فى الجزء الثانى ، ولمن أبدوا لنا بعض الملاحظات التى انتفعنا بها فى هذا الجزء .

ونخص بالشكر صديقنا الأديب الأستاذ محمد محمد عبد اللطيف أفندى صاحب المطبعة المصرية ؛ لدقته ، وأمانته فى عمله ، ووفائه بوعوده ، ولما قام به من معونة ، فى إصدار هذا الكتاب على هذا الوجه الكامل .

وختاما ندعو للمرة الأخيرة جميع المربين والقانونيين ، من آباء وأمهات ، ومعلمين ومعلمات ، وقضاة ومحامين ، فى مصر والبلاد العربية ، أن يتكرموا بأن يبدوا لنا مايعن لهم من آراء ، وأن يرشدونا إلى مايعثرون عليه من أخطاء ؛ لكى ننتفع بذلك فى الطبعة الثانية إن شاء الله تعالى .

والله الهادى إلى سواء السبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

حامد عبد القادر   محمد عطية الابراشى

القاهرة فى { ١٥ من رمضان ١٣٥٢ هـ
الأول من يناير ١٩٣٤ م

الفَصلُ الأوّل

الفكر

مقدمة :

تبتدئ الحياة العقيلة بالإحساس ، ثم ترق إلى مرتبة الإدراك الحسى ، ثم إلى مرتبة التصور ، ثم التخيل ، وقد تكلمنا عنها بإسهاب فى الجزء الثانى من هذا الكتاب . والآن نتكلم عن الباقى من عمليات الإدراك ، وهو المظهر الأول من مظاهر الشعور فنقول :

مراحل الفكر : (١)

يتضمن التفكير أربع مراحل مرتبط بعضها ببعض كل الارتباط ، وهى

١ — مرحلة الإدراك المعنوى أو التعقل (٢) . ويراد بالإدراك المعنوى : فهم معنى أو معان متعددة ينتزعها العقل من جزئى واحد أو جزئيات كثيرة ؛ فهو لذلك ينقسم قسمين : إدراك معنوى خاص (٣) ، وإدراك معنوى عام (٤) .

(١) Stages of thinking. (٢) Conception.

(٣) Individual conception.

(٤) General or collective conception.

فالخاص وهو الجزئى كأن تدرك الصفات الخاصة التى تتعلق بكلبك فتقول : إنه كلب كبير أسود أمين ، أرمنتى أو أمريكى ، عمره ثلاث سنين. وكإدراكك للمعارف السبعة وهى الجزئيات التى لا يصدق مفهومها على كثيرين كالضمير واسم الإشارة ...الخ . وكأن تدرك صديقك محموداً مثلا ، فمعلوماتك عنه نتيجة لتجارب متعددة ، وصلت إليها بعد خبرة طويلة . فرأيك فيه الذى يتمثل فى اسمه هو فى الحقيقة مجموعة من هذه التجارب التى اختبرته بها ، فقد رأيته فى أوقات مختلفة ، وتحادثت معه فى موضوعات مختلفة ، واتفقت معه على أشياء كثيرة ، وعرفت بذلك طباعه وأخلاقه ، ورغباته وميوله ، وما يحبه وما يبغضه ، حتى صرت عالما بما يتعلق به ، قادرا على الحكم عليه . فرأيك فيه قد تكون بالتدريج فى أثناء اتصالك به ، وأصبحت معلوماتك عنه كسلسلة متصلة من الحقائق، ناتجة عن سلسلة من التجارب المختلفة . فإذا ذكرت اسمه أو سمعت أحدا يتكلم عنه كان ذلك الاسم كرمز يذكرك بهذا الصديق وشكله وصفاته . وربما تتذكر حتى صورته التى ظهر بها فى موقف من مواقف الفرح أو الغضب أو المرض فى وقت ما ، فى مكان خاص .

ولا يعنينا هنا زيادة البحث فى هذا النوع من الإدراك .

أما الإدراك المعنوى العام أو إدراك الكلى فكأن تدرك الأسد إدراكا كليا بحيث تلاحظ الصفات العامة التى تشترك فيها جميع الأسود ، وتميزه عن غيره من بقية الحيوانات ؛ فتحكم بأنه أسد لا ضبع مثلا .

وسنتكلم عن هذا النوع بالتفصيل بعد الانتهاء من ذكر مراحل الفكر إجمالا .

٢ — مرحلة الحكم : وهى المرحلة التى تدرك فيها النسبة بين شيئين أو أكثر ، إيجابا مثل : للأجسام ثقل ، أو سلبا مثل : ليس النبات بمعدن .

٣ — مرحلة الاستنباط : وهى المرحلة التى ينتقل فيها العقل من أحكام خاصة إلى أحكام أخرى عامة أو العكس ، كما إذا قلت : الغازات أجسام مادية، وللأجسام المادية ثقل ، وتستنبط من ذلك حكما آخر ، وهو للغازات ثقل .

٤ — مرحلة التعليل : وهى المرحلة التى تتطلب معرفة العلة وشرحها ؛ كأن تقول : يجب أن تتجنب ذلك الجبل ؛ لأنه خطر إذا لم يكن هناك مرشد. أو أقفل الباب ؛ خوفا من التيار . وكأن يقول طفل لآخر يجب أن تأتى الآن ؛ لأن أمك تناديك .

ولنشرح كلا من هذه الأمور الأربعة فنقول :

إدراك الكلى

معناه :

إدراك الكلى هو : كل تفكير يتضمن إدراك المعانى العامة التى تنطبق على جميع أفراد نوع من الأنواع أو جنس من الأجناس ؛ كإدراك معنى ورقة البريد ، أيا كان شكلها ، ومن أى جهة كانت من بلاد العالم ، قديمة أو حديثة،

وكإدراكك معنى المدرسة أيا كانت، ومهما يكن نوعها ، صغيرة أو كبيرة ، ابتدائية أو ثانوية أو عالية ، إدراكا عاما يدخل تحته بوجه عام كل ورقة بريد ، وكل مدرسة . فإذا فكرت فى ورقة البريد من الوجهة التاريخية وغيرها ، وأنها استعملت منذ سنوات مضت ، وأرسلت فى البريد ، وحملت من جهة إلى أخرى ، وهى الآن تنظر فى مجموعة من طوابع البريد ، ولاحظت الصفات العامة التى تشترك فيها طوابع البريد عادة فى الحاضر والماضى والمستقبل — كان ذلك إدراكا للكليات .

ومن أمثلة إدراك الكلى أيضا تفكيرك فى الثروة الكبيرة من المعانى التى تحملها كلمة أُم فى جميع الأحوال ، وهى تشجعك فى عملك ، وتؤاسيك فى مرضك ، وتساعدك عند الحاجة ، وتوبخك عند التقصير . . .

مراحل إدراك الكلى

لإدراك الكلى خمس مراحل وهى :

١ — الملاحظة .

٢ — الموازنة بين الأشياء لمعرفة أوجه التشابه والتضاد بينها .

٣ — التجريد أو انتزاع الصفات العامة المشتركة بين الأشياء وتكوين صورة عقلية عامة منها مع ترك الصفات العرضية .

٤ — التعميم وهو إدخال ما يندرج من الأشياء تحت هذا المدرك الكلى .

٥ — التسمية وهى وضع اسم خاص للمدرك الكلى يميزه عن غيره .

ولنذكر كلمة عن كل منها فنقول :

١ — الملاحظة :

إن إدراك الكلى يقتضى ملاحظة الأفراد التى تندرج تحته ملاحظة بها ندرك خواصها وصفاتها الذاتية والعرضية . وتشمل الملاحظة التجارب العلمية للوصول إلى حقيقة من الحقائق أو قاعدة من القواعد العلمية .

٢ — الموازنة :

الغرض منها الانتباه إلى شيئين أو أكثر انتباها إراديا فى وقت ما؛ لمعرفة أوجه التشابه أو التضاد بين بعضها وبعض ، كأن توازن بين خط الطفل والنموذج ، أو بين نظريتين علميتين ، أو بين قضيتين قانونيتين ، أو بين وجه شخص يحادثك ووجه شخص آخر تعرفه من قبل ؛ لمعرفة الفرق أو الشبه بين الاثنين . وتدل الموازنة على نمو العقل . وبها تتبين العلاقة بين الأشياء .

وتقتضى التفكير فى المعلومات والتجارب السابقة ، والحقائق الموافقة أو المخالفة ، والنظر من جميع الوجوه ؛ لمعرفة الأسباب والمسببات ، والبحث عن النتائج .

شروط الموازنة :

١ — تسهل الموازنة إذا أحضرت الأشياء التى يوازن التلميذ بينها . فإذا أردت الموازنة بين الذهب والنحاس الأصفر ، أو بين الفراشة والذبابة ، أو بين

الحمامة واليمامة فان إحضار هذه الأشياء أو نماذجها أو صورها عند الموازنة أحسن من الموازنة بالاعتماد على الذاكرة والتخيل فقط .

ب — ينبغى أن تكون الأشياء التى توازن بينها قريبة بعضها من بعض حتى يمكن فحصها ومعرفة أوجه الشبه أو الخلاف بينها . وإذا كانت الموازنة بين أشياء تمر بسرعة ، كالموازنة بين أصوات ونغمات موسيقية ، فمن الواجب أن تجعل الأصوات بحيث يتلو بعضها بعضا فى الحال .

ج — يجب أن يكون العقل وقت الموازنة هادئا غير مضطرب أو مشغول بأعمال أخرى سابقة ، وأن تكون لديه القدرة على المجهود الكبير الذى يبذل فى الانتباه فى أثناء الموازنة .

وتجوز الموازنة بين الشيئين لمعرفة أوجه التشابه أو أوجه التخالف بينهما بحسب ما يقتضيه الحال . وفى الموازنة يتأثر الإنسان بميوله الخاصة ؛ فقد تجد شخصا يميل بطبيعته لرؤية أوجه الشبه ، فى حين أنك تجد آخر يميل بفطرته لمعرفة أوجه الخلاف . والطفل يميل بالطبيعة إلى معرفة أوجه الشبه أكثر من ميله لمعرفة أوجه الخلاف .

وفى إدراك الكلى يجب أن يستعين العقل بالإحساس والتخيل على استحضار الأشياء والانتباه إليها ، لمعرفة صفاتها العامة المشتركة وصفاتها الخاصة .

٣ — التجريد :

تعرف المرحلة الثالثة من مراحل إدراك الكلى بمرحلة التجريد ، وهى

متصلة كل الاتصال بمرحلة الموازنة ؛ فبعد الملاحظة والموازنة تنتزع الصفات العامة المشتركة بين الأشياء ، والمميزة لها عن غيرها ، وتترك الصفات العرضية وهذه العملية العقلية — عملية انتزاع الصفات المشتركة لا الخاصة — تسمى التجريد. والتجريد الراقى هو الذى يتضمن عملية التجريد العقلية المذكورة بعد الملاحظة والفحص والتحليل والموازنة .

٤ — التعميم :

بعد ملاحظة الأمثلة والموازنة بينها ، ومعرفة الصفات العامة المشتركة فيها التى تميزها عن غيرها ، وترك الصفات العرضية ، ينتقل الإنسان إلى المرحلة الرابعة وهى مرحلة التعميم ؛ وذلك بأن يجمع الصفات المشتركة ويطلق المعنى العام الذى يتكون منها على جميع الأفراد . وإن ترتيب المراحل السابقة على هذه الصورة هو الترتيب الطبيعى ، فالإنسان يلاحظ الأشياء أولا ، وبعبارة أخرى يدركها إدراكا حسيا ، ثم يوازن بينها ليعرف الصفات العامة فيها ، ثم يطلق المعنى العام على جميع أفراد الشىء ليصل إلى تعريف جامع مانع ، أو إلى قانون أو حكم عام .

٥ — التسمية :

ولا يتم تكوين المدركات الكلية إلا بالتسمية أى بوضع اسم معين لكل منها يشمل جميع الصفات المشتركة للأفراد التى من نوع واحد ، ويكون رمزا

لها يميزها عن غيرها ويخرج غيرها منها . فالتسمية رمز وضع ليدل على مسمى.
وللتسمية فوائد ، منها :

(ا) أنها تساعد العقل فى توضيح الأشياء وتحديدها وتمييزها من غيرها.
(ب) بها يربط العقل الأنواع المتماثلة بعضها ببعض .
(ج) تساعد فى معرفة الأشياء والتحقق منها .

نشأة إدراك الكلى

إن الطفل ينتقل من مرحلة الإحساس إلى مرحلة الإدراك الحسى تدريجيا، ثم يترقى من مرحلة الإدراك الحسى إلى مرحلة التصور، فالتخيل، فالتفكير. ويجب ألا نظن أن الطفل حينما يبتدئ فى التفكير يفكر كما نفكر نحن بالضبط ، كما أنه حينما يبتدئ فى التكلم لا يتكلم كما نتكلم نحن تماما ؛ فالأفكار الأولى للطفل أرقى من الإدراك الحسى قليلا . ويصعب علينا وقد نسينا المدة الأولى من الطفولة أن نعرف أفكار الطفل فى حياته الأولى ، أو نعرف بالضبط متى يبتدئ فى التفكير . وفى الطفولة يتعلم الطفل اللغة واستعمال الكلمات بالتقليد الانبعاثى أو التلقائى . والكلمات بالنسبة إلينا ما هى إلا رموز اصطلاحية للأفكار قد اتفق عليها كل مجتمع . وقبل أن يقدر الطفل على التكلم جيدا تراه يردد نغمات وأصواتا كأسماء لأشياء معروفة ، فيعبر عن ساعة الحائط بهذا الاسم (تِك تاك) ، مثلا ، وقد يسمى الأوزة (كواك كواك) ، ويقول لأمه (ماما) ، ولأبيه (بابا) . وإذا غيرت موضع هذه الساعة فقد يصعب عليه معرفتها . وإذا لبست أمه حلة أخرى فربما لا يعرفها . وبعد أن يكبر قليلا يمكنه أن

يعرف الساعة أينما وضعت ، ويعرف أمه مهما تغير من ملابسها ، وعلى ذلك ينتقل من الإدراك الحسى إلى التعقل[1] . وهنا يتبين أن إدراك الكلى مرتبط كل الارتباط بالإدراك الحسى .

فالأمور الأولى التي يدركها الطفل بوضوح هى الأشخاص والمحسات من الأشياء . ولكن إدراك شىء ما بوضوح يستدعى معرفته أولا ، ثم تمييزه عن الأشياء الأخرى . والطفل عادة يميل كثيرا إلى أن يلاحظ أوجه الشبه أكثر من ملاحظته أوجه الاختلاف ، وذلك فى المرحلة الأولى من الحياة . وحينما يبلغ من العمر ثمانية عشر شهرا قد يسمى علبة الكبريت (تك تاك) ، وقد يسمى الساعة بهذا الاسم أيضا ؛ لأنه يرى أباه يخرج هذه العلبة من الجيب الذى يخرج منه الساعة . وهذا هو وجه الشبه عنده بين العلبة والساعة . ولا يكاد يدرك أن هناك فرقا بين الاثنتين . وقد يدعو كل صديق لأبيه (بابا)، وكل صديقة لأمه (ماما) ؛ لأنه يرى شبها بين الرجال ، وتشابها بين النساء ، ولا يدرك الفرق بين ذلك الرجل وأبيه ، أو بين تلك المرأة وأمه . وهذا النوع من الإدراك مبهم غير محدود لا يزيد على الإدراك الحسى إلا قليلا .

وتلى هذه المرتبة من الإدراك مرتبة التعيين والتحديد التى تكون فيها المدركات الكلية معينة محددة واضحة ؛ فيدرك الطفل الفرق بين علبة الكبريت والساعة ، وبين ساعة الحائط ، والمنبه ، وساعة الجيب ، وساعة اليد ، وبين الساعة واللعب الأخرى التى تملأ باليد ، وبين أبيه وغيره من الرجال ، وبين أمه وغيرها من النساء . وهذه هى مرحلة إدراك الكلى ، مرحلة التفكير التى

(١) Ideation

يدرك فيها الطفل العلاقة والرابطة بين الأشياء المتشابهة والمختلفة ، فيفهم كل شىء على حقيقته . ويحتاج الطفل إلى سنوات حتى يصل إلى هذه المرحلة التى يستطيع فيها أن يلاحظ الأشياء ، ويوازن بينها ؛ فيعرف أوجه التشابه والتضاد فيها ، ويحللها تحليلا عقليا عميقا ، ويضم كل شىء إلى نوعه ، ويدخل الأشياء التى من نوع أو جنس واحد تحت مدرك كلى ، ثم يعرف اسما لهذا المدرك الكلى يميزه عن غيره . وبالملاحظة والتجربة والإرشاد والتعليم يستطيع الطفل أن يدرك الأشياء كما ينبغى .

وحينما يأخذ الطفل فى التفكير فى أى نوع من الأنواع تكون مدركاته الكلية كالجزئيات التى أحس بها شكلا وصورة ووضوحا وغموضا . فالطفل الذى لم ير إلا الكلاب الصغيرة يكون رأيه عن الكلاب مختلفا عن رأى طفل آخر رأى جميع أنواع الكلاب صغيرها وكبيرها ، ما للصيد منها وما للحراسة وما لغير ذلك . فالكلمات خداعة ، والطفل كثيرا مايتعلم الكلمات قبل أن يتعلم معانيها ومدلولاتها . وقد يعرف السفن التى فى كتابه ، ويحدثك عنها ، ويفكر فيها ، قبل أن يرى سفينة من السفن الحقيقية ؛ لأن المعلومات والأفكار كما تكتسب بالرؤية تكتسب أيضا بالقراءة والتعليم قصدا أو من غير قصد . والطفل لا يفهم من الكلمات ما نفهمه منها ، ولا يدرك كل ما يقال له . وإن تكليف الأطفال أن يحفظوا كلمات لا يفهمون لها معنى خطأ شائع بين المدرسين الذين يتجاهلون أن التفكير ينمو ببطء ، وأن الأطفال لا يدركون كل مايقال لهم ، ظنا بأنهم والكبار سواء فى الفهم والإدراك . وإن الجهل بالمعنى الحقيقى للكلمات وبمواضع استعمالها كثيرا ما يؤدى إلى المناقشة والخلاف فى الآراء

والأفكار. ومن القواعد المستحسنة فى البحث والنقاش الابتداء أولاً بتوضيح معانى العبارات والاصطلاحات المستعملة ، وذكر الغرض منها حتى يسهل الوصول إلى الحقيقة المنشودة ، ويقل الخلاف والنزاع ، ويمكن التفاهم مع الغير. ويختلف الناس فى تقدير الكلمات واستعمالها اللغوى تبعا لاختلاف البيئات والمهن . وقد نجد البيئات متقاربة والمهن متشابهة، ومع ذلك نجد اختلافا فى طريقة التفكير؛ فالصياد وتاجر السمك والطباخ — مع أن كلا منهم يستطيع أن يفهم الآخر — لا يفكرون جميعا فى السمك بطريقة واحدة ؛ فالأول يفكر فى صيده ، والثانى فى تجارته ، والثالث فى طهيه . وربما لا يستطيع أحد منهم أن يعرف السمك تعريفا علميا منطقيا كالعالم بالحيوان مثلا . فلتجارب الشخص وأعماله أثر فى تفكيره .

الفكر الأولى (١)

من المظاهر اللذيذة فى التاريخ العقلى للفرد النمو التدريجى لقوة الموازنة بين الأشياء ، والقدرة على فهمها . وبالملاحظة الدقيقة للأطفال فى الوقت الذى يبتدئون فيه بفهم المقصود من الكلمات واستعمالها يمكننا أن نتعلم كثيرا عن الطريقة التى بها تنمو هذه القوة من تلقاء نفسها بنموهم ، ونلاحظ الوسائل التى بها يخترعون أسماء من عند أنفسهم ، وعمرهم نحو سنة أو ١٥ شهرا ، والتى بها يزيدون مقدار الكلمات التى يتعلمونها من غيرهم .

(١) Early Notions

نمو القوة الإدراكية[1] :

بنمو الإدراك الحسى يستطيع العقل توضيح المعانى العامة وتصويرها . وبالإدراك الحسى نفسه تنمو قوتا الموازنة والتجريد بمعناهما العام ؛ وذلك باستعمال هاتين العمليتين بالتفصيل فى اختبار الأشياء المحسة من جميع النواحى التى يستلزمها تكوين المدركات الحسية الواضحة . وإن معرفة التشابه والتضاد بين الأشياء هى الطريقة الجوهرية فى تكوين الفكرة عن الشىء وخواصه . وفى السنة الأولى من الحياة تظهر هذه القوة التى بها يعرف الطفل التشابه أو التخالف بين الأشياء بشكل أولى ؛ فمعرفة صوت الأم مثلا وهو مرتفع أو هادئ ، ومعرفة صورتها فى القرب والبعد ، فى النهار والليل ، تستلزم طبعا أن يكون لدى الطفل قوة أولية خاصة فى موازنة الصفات المختلفة أو المتشابهة ، والصلة بينها فيعرف صوت أمه وشكلها فى جميع الحالات .

وبنمو تفكير الطفل يمكنه أن يربط الأشياء المتجانسة بعضها ببعض ؛ فيجعل اللبن والشاى والأرز فى أصناف الطعام ، وبالمثل يربط أنواع اللُّعب بعضها ببعض ؛ فيضع الحصان والدب مع الكلب فى جانب ، والحروف الأبجدية فى جانب آخر ، والأعداد فى جانب ثالث ، وهكذا . وهذا دليل على نمو قوة التفكير والإدراك لديه .

(١) Growth of Conceptual Power .

إدراك الكلى والتمييز :(١)

يلاحظ أن المدركات الكلية لدى الطفل تنمو بنمو عقله وقوة ملاحظته فى فهم الفروق والمشابهات بين الأشياء ، فتتضح أفكاره وتصير محدودة .(٢) وبالتدريج ينمو إدراك الطفل فيميز أباه من غيره ، ويعرف أمه من غيرها . فتراه يقول : هذا الشخص ، وذلك الرجل ، وهذا الكلب ، وهذه القطة . وهذه الحالة نفسها تدل على حقيقة أخرى ، وهى أن الطفل كثيرا ما يستعمل أسماء الأشياء الخاصة وهى النوع ، فتراه فى الأول يجمع الحيوانات التى تشبه الكلاب فى الشكل والصوت تحت اسم (هَوْ ، وَوْ) . وبالمثل يطلق كلمة تفاح على الفواكه على العموم ، أو على نوع معين منها كالكمثرى والخوخ والبرتقالى : وكذلك يفهم بطريقة تقريبية معنى كلمة (زهرة) قبل أن يدرك أسماء (الأقحوان) أو (أنواع الورد) .

والطفل فى حياته الأولى يظهر قوة كبيرة فى التعميم ؛ فتراه يربط الأشياء التى يمكن أكلها بعضها ببعض ، ويشير إلى الأنواع المختلفة من الطعام بكلمة « مَمْ » . وتلى هذه المرحلة مرحلة أخرى هى تمييز الأنواع المختلفة من الطعام بذكر صفة من صفاتها . فالسكر — وسنه أكثر من سنة — قد يكون فى نظره (سُومم) ، ثم تتلوها مرحلة الانتباه إلى المظاهر العادية للشىء ، فتراه يلاحظ لونه وحجمه وشكله .

Discrimination . (١)

The first three years of Childhood, by M. Perez (٢)

وبزيادة تجارب الأطفال ، ونمو قوة التجريد لديهم كثيرا ما يستعملون عبارات أو كلمات يحار الآباء فى معرفة المقصود منها ؛ لأنهم لا يستطيعون الوصول إلى ما يتصوره العقل الصغير من ربط الأشياء أو الحوادث ، وتشبيهها بعضها ببعض . وقد رأى طفل صغير ، عمره سنتان ونصف سنة ، فراخا مجتمعة بجانب جدار حائط فقال : « إنها تأخذ الشاى » ؛ مشبها اجتماع الفراخ بجلوس أسرة حول المائدة ، ظانا أن كل جماعة تجتمع على هذا الشكل تتناول شايا ، ورابطا فكرة الجلوس فى جماعة بالجلوس على المائدة . وربما لا يدرك الآباء هذا الربط والتشابه بين الفكرتين . وبالتدريج يترقى عقل الطفل الصغير فيستطيع تكوين الأفكار المجردة . ويظهر هذا التقدم باختفاء مثل هذه الأصوات « تاتا » ، « دادا » ، « تى تى » ، وظهور كلمات صحيحة تدل على الشىء المطلوب فيقول: شاى ، ماء ، لبن ، قط ، عصفور . . . الخ .

استعمال الصفات:

وتظهر علامات النجاح فى قدرة الطفل على التجريد باستعماله الصفات للأشياء ، وتدرجه من مجرد ذكر كلمات إلى ذكرها مع وصفها وعمره نحو ٢٢ شهرا ؛ فيقول : « ماء بارد ، لبن حلو ، قط كبير ، عصفور صغير » واصفا الماء بالبرودة ، واللبن بالحلاوة ، ثم القط بالكبر ، والعصفور بالصغر . وبذلك يترقى فى درجة التجريد .

وفى ابتداء السنة الثالثة ربما لا يكون لدى الطفل فكرة عن الأعداد ، وقد تكون عنده فكرة أولية يسيرة ، فيستطيع أن يفرق بين الواحد والثلاثة من

الأشياء ، فيميز التفاحة الواحدة من التفاحات الثلاث قبل أن يستطيع التمييز بين التفاحتين والثلاث . وإذا علمته أمه الأعـداد : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ثم رأى بعض التفاح مثلا فإنه قد ينطق بأى عدد يأتى إلى ذهنه ، فيقول عن أربع التفاحات إنها ثلاث تفاحات ، أو تفاحتان .

وحينما يكون الطفل فى السنة الرابعة من العمر قد يصعب عليه التمييز بين عدد الأشياء وحجمها ؛ فإذا رأى ثلاثة أنواع من الخرز فقد يسمى الأصغر بالعدد « ٤ » والمتوسط « ٥ » والأكبر « ٦ » . وينطبق هذا على القول القائل بأن الشعوب المتوحشة لا تستطيع أن تعد أو تحصى أكثر من خمسة .

أما الحيوانات الدنيا فيرى « پرز »[١] أنها تحس إحساسا أوليا بالأعداد البسيطة ، ويضرب لنا مثلا قد يدل على تميز الحيوان للعدد ، وهو أن القطة ترى حزينة إذا ماتت صغارها إلا قطيطة واحدة منها ، وقد يبدو عليهـا الرضا والاقتناع إذا ترك لها قطيطتان من خمس ، قائلا إنها ـ على هذا ـ يمكنها أن تميز بين الواحد والأكثر من واحد . ومما يؤيد الرأى القائل بتمييز الحيوانات الدنيا والطيور للأعـداد « من ١ ـ ٥ » ما ذكره (السير چون لوبوك)[٢] من أنه إذا كان فى عش الطائر أربع بيضات وأخـذت واحدة منها فإن الأم لا تظهر عليها علامات التأثر والحزن ، أما إذا أخذ منها اثنتان أو أكثر فإنها تترك العش وتهجره ، لحزنها وتأثرها .

وفى السنة الرابعـة أيضا من العمر لا يستطيع الطفل أن يميز بين أقسام الزمن ؛ فـكل وقت مضى يعـد فى نظره « أمس » ، وكل وقت سـيأتى فى

(١) راجع كتابه السابق . (٢) Sir John Lubbock .

المستقبل يعد فى نظره «غدا» . وحينما يكبر وتنمو ملاحظته ، ويقوى إدراكه، ينتقل إلى مرحلة أرقى ؛ فيمكنه أن يعرف الأعداد ، ويميز بين الواحد والأكثر من الواحد ، ويترقى من معرفة الماضى والمستقبل ، إلى معرفة الزمن وأنواعه فيقول : أمس ، واليوم ، وغدا ، وفى الأسبوع الماضى ، وفى هذا الأسبوع ، وفى الأسبوع المقبل ، وهكذا .

مدة النمو التام :

إن قوة التجريد ، وتحليل الأشياء ، ومعرفة مظاهرها العادية وصفاتها وعلاقاتها بغيرها لا تنمو النمو التام إلا ببطء ، وبعد سنين كثيرة . وتعرف مسميات الأسماء ، ويدرك منطوقها قبل أن يعرف التحليل الدقيق لمدلولها . ويشاهد هذا فى أن الأشياء المحسوسة تدرك قبل الأشياء المعنوية ؛ فالطفل — وعمره سنتان مثلا — يفهم أن « البطيخة أكبر من البرقوقة »، ولكنه لا يفهم الفرق بين الاسمين : « هذا وذلك » من أن الأول اسم إشارة للقريب، والثانى للبعيد . وبالمثل لا يفهم الصفات العقلية والخلقية فى مرحلة الطفولة ؛ لأنها أفكار مجردة ، أو صفات معنوية لا تدرك إلا فى مرحلة الشباب . وهى تختلف عن مرحلة الطفولة ، تلك المرحلة التى يميل فيها الطفل إلى المعلومات المحسة ، والتشبيهات الواضحة . أما فى مرحلة الشباب — وهى فى نحو السنة الثانية عشرة — فيمكنه أن يدرك الأشياء المعنوية ، وتلاحظ عليه عادة زيادة ظاهرة فى قوة التجريد . ومتى هذبت لديه قوة الملاحظة والتخيل كما ينبغى أظهر فى هذه المرحلة ميلا كبيرا إلى النظر إلى الأشياء وهى

فى مظاهرها العادية ، وتصير لغته التى يستخدمها عندئذ عامة ومجردة أكثر مما كانت فى المرحلة الأولى .

المدرك الكلى وتكوينه :

المدرك الكلى هو المعنى العام الذى يفهم من اللفظ ، ويشترك بين أفراد كثيرة ؛ كمعنى كلمة « جندى » ؛ فإنها لا تدل على صورة كاملة لشخص معين من الجنود معروف الطول والشخصية ، بل تدل على الجندى أيا كان ذلك الجندى ، ومهما تكن صفاته الحقيقية . وكمعنى كلمة « حيوان » ؛ فإنها لا تدل على صورة واضحة لحيوان معين ككلب خاص ، أو فيل معين ، بل تدل على الحيوان على العموم ، سواء أكان متوحشا أم مستأنسا ، صغيرا أم كبيرا ، من الحيوانات العليا أم من الحيوانات الدنيا .

ويتكون المدرك الكلى من المدركات الحسية (percepts) والصور الذهنية (Images) . ولكى يكون المدرك الكلى واضحا يجب أن تكون المدركات الحسية واضحة كل الوضوح ، وأن تكون الملاحظة دقيقة ، والموازنة صحيحة ، واللغة المستعملة سهلة مضبوطة . وليس فى استطاعة الطفل أن يدرك فى مرحلة الطفولة الأمور المعنوية ؛ فعالم الطفولة هو عالم المحسات لا المعقولات . ومن أنواع المدرك الكلى القواعد والأحكام العامة والتعريفات .

وإن تكوين المدركات الكلية يستلزم عملا عقليا كبيرا هو التميز بين

الأشياء بمعرفة أوجه الشبه أو الخلاف بينها ؛ ففى تكوين المدرك الكلى عن النبات مثلا وإدراكه لا نكتفى بمعرفة التكوين النباتى والوظائف النباتية ، بل يجب أن نعرف مميزات النبات التى تتشابه وتشترك فيها النباتات عامة ، ثم نعرف الفرق بينه وبين الحيوان والجماد . وهنا يكمل الإدراك ، ويتميز النبات من غيره . وحينما نفكر فى الأوربيين لا نكتفى بالتفكير فيهم وفى صفاتهم وعاداتهم المشتركة بينهم ، بل نفكر أيضا فى الفرق بينهم وبين الأسيويين والأفريقيين . . . مثلا ، حتى نعرفهم ونميزهم من غيرهم . وإذا أدركت صفات الأشياء وأضدادها زاد تحديدها ووضوحها وتميزها من غيرها ؛ فبالخفة يتضح الثقل ، وبالمرارة تعرف الحلاوة ، وبالرداءة يدرك الحسن ، و « بضدها تتميز الأشياء » . وإن الحكم على مادة ما بالخفة يكون بمثابة وضعها ضد مادة أخرى من المواد الثقيلة والموازنة بينهما .

فوائد المدرك الكلى :

للمدركات الكلية فوائد ، منها أنها :

١ — تساعدنا على وعى ما نعرفه والمحافظة عليه ؛ فهى وسيلة لجمع الملاحظات المختلفة وربطها بعضها ببعض ؛ فالطفل إذا تكونت لديه فكرة عامة من المعدن مثلا أدخل تحت هذه الفكرة عددا من المدركات الحسية المتنوعة .

٢ — هى ضرورية لترتيب الملاحظات وتنظيمها ؛ لأن وضع أشياء من

نوع واحد تحت اسم واحد يقلل من الفوارق ، ويوحد بينها بوضعها فى نظام واحد .

وبالمدركات الكلية يمكن إرجاع كل مادة إلى نوعها الخاص ومعرفتها وتمييزها من غيرها .

٣ — المدركات الكلية وسيلة لمعرفة القوانين العامة للحكم على الأشياء . وبها يسهل شرح ما نراه وتفسيره .

ولتحقيق هذه الفوائد يجب ربط المدركات الكلية أو المعانى العامة بأشياء خاصة ؛ كربط الأسماء بمسمياتها حتى يكون للمدرك الكلى معنى أو فائدة .

وفى تكوين المدركات الكلية ينبغى أن يجمع الطفل الأشياء ويصلها بعضها ببعض ، ثم يوازن بينها من غير أن يتدخل أحد فى عمله إلا عند الضرورة . وتتكون معظم الأفكار لدى الطفل بالإصغاء إلى غيره ، ومعرفة الطريقة التى بها تستخدم الكلمات وتستعمل .

اختلاف المدركات الكلية :

تختلف المدركات الكلية باختلاف الأشياء التى نلاحظها ، والصفات والمظاهر التى تماثلها ؛ فالكراسى والمناضد والأرائك مثلا يجوز أن تدخل تحت كلمة « أثاث » ، أو توضع ضمن المواد الخشبية إذا نظرنا إليها من جهة مادتها الأولية . والبرتقالية يجوز أن توضع تحت الأجسام الكروية ، أو الفواكه ، أو الأشياء الملونة بحسب مميزاتها الخاصة . ومن الممكن وضع الشىء ضمن فوائده أو مضاره ، أو شكله ومظهره الطبيعى ، أو التغيرات التى تعتريه .

التعريف والمدركات الكلية

التعريف هو تحديد معنى اللفظ من جهة مفهومه . وأهم عنصر فى تعريف المدركات الكلية لدى بعض علماء النفس هو الفائدة العملية للشيء ؛ فتعرف السكين — كتعريف الأطفال والعامة — بأنها آلة يقطع بها ، والملعقة شيء يؤكل به ، والكرسى شيء يجلس عليه ، والمنزل مايسكن فيه ، والحصان — فى نظر غير علماء الحيوان — حيوان نركبه أو نسوقه ؛ فنحن ننظر إلى الحصان من جهة فائدته ، أما علماء الحيوان فيفكرون فى صفاته وجميع مميزاته. وقد يكون العنصر العملى فى تعريفهم قليلا أو معدوما . ومن الصعب تعريف بعض أسماء المعانى مثل : علم النفس ، الشعر ، النثر ، المجتمع ، السياسة — بفائدتها العملية .

ولو سئل الطفل أن يعرف القط فقد يعرفه بتعريفات مختلفة بحسب الظروف والأحوال مثل :

(١) القط حيوان يخدش . (٢) القط حيوان يصيد الفيران .

(٣) القط حيوان يلعب مع الفيران . (٤) القط حيوان يموء .

ولو سئل الرجل أن يعرف الورق فقد يعرفه بتعريفات مختلفة بحسب الغرض الذى يفكر فيه إذ ذاك ؛ مثل :

١ — الورق مادة تحترق بسهولة وتستعمل لإيقاد النار .

٢ — « « تستعمل لكتابة الرسائل .

٣ — « « يمكن أن تلف بها البضاعة .

٤ — الورق شىء تقطع منه نماذج للملابس .
٥ — « « تلف به الأوانى الصينية .
٦ — « « لين قابل للضغط .

وقد يضحك المستمع من هـذه التعريفات التى عرف بها القط والورق ، ومع ذلك فهى تمثل الأفـكار التى يفـكر فيها الشخص عن الشىء فى الأوقات المختلفة . ومن الممكن إدراك الأشياء إذا ذكر الغرض أو الفائدة منها . ومثل هذه التعريفات السابقة لا تعد منطقية ؛ لأنها ليست جامعة مانعة ، بل هى ما يسمى عند المناطقة بالتعريف بالعرض العام وهو الرسم .

وتختلف الفوائد التى تذكر فى التعريف باختلاف الأشخاص وبيئاتهم ؛ فإذا سألت : ما الزيت ؟ فقد يجيب أحـد الأشخاص بأنه مادة للإضاءة ، ويجيب آخر بأنه مادة تستعمل لتسهيل إدارة الآلات حتى تحفظ من الـكسر ، وثالث يقول إنه مادة غذائية ، ويعده النجار مادة تـكسب الخشب لونا قاتما ، ويعرفه صانع الصابون والتاجر وعالم الطبيعة بتعريفات أخرى كل بحسب مايراه .

ومن الخطأ ابتداء الدروس مع صغار التلاميذ بذكر التعريفات ؛ لأنها معان مجردة لا يدركها التلميذ إلا إذا عرضت عليه بذكر أمثلة للقاعدة ، ثم ملاحظتها والمناقشة فيها ، لمعرفة الصفات المشتركة بينها ، واستنباط التعريف أو القاعدة منها . وبذلك ننتقل من السهل إلى الصعب ، ومن المحس إلى المعقول . وهذه هى الطريقة الاستقرائية . وسنتـكلم عنها بالتفصيل فى الفصل الرابع من هـذا الـكتاب عند شرح الاستنباط الاستقرائى والقياسى .

وإن التعريفات والبحث فيها — وإن كانت تعود التلاميذ الدقة فى التفكير —

ولكن من الصعب أن نطالب الصغار منهم بالتعريفات المنطقية ؛ فذلك فوق مستواهم . ويكفى أن يعرفوا الشىء تعريفا تقريبيا بحسب قواهم العقلية تعريفا يدل على فهمهم للشىء فقط .

تحديد الأفكار وتوضيحها بالتعريف :

إن أفكار الإنسان لا تكون واضحة دقيقة بالرجوع إلى الحقائق والأمثلة المحسة فحسب ، ولكن بالرجوع إلى كثير من الطرق الأخرى التى يمكن جمعها تحت كلمة « حد أو تعريف » . وإن تعريف الشىء تعريفا علميا دقيقا يقتضى أمرين :

أولا : شرحه بتبيين منطوق الكلمة ومفهومها ، وما تدل عليه من الصفات؛ فالطفل قد يدرك معنى كلمة « معدن » أو « إنسان » أو « شعب متمدين » وما إليها من المدركات الكلية المختلفة قبل أن يستطيع توضيح الأشياء التى تدل عليها ، وتندرج تحتها ، أو تخرج منها . وحينما ينمو عقله ويترقى من مرحلة التجريد إلى مرحلة أعلى منها هى التحليل يمكنه أن يدرك مدلول الكلمة ، ويستطيع أن يحتفظ بالصفات الجوهرية للمدرك الكلى ، وذلك بتعريفه تعريفا جامعا مانعا . فإذا عرف التلميذ أن « الزجاج » مادة شفافة قابلة للكسر تصنع من مواد معينة وهو موصل ردىء للحرارة ، ومن السهل أن يتحلل بها . . . . أمكنه بمعرفته هذه السلسلة من الصفات أن يستخدمها فى توضيح المدرك الكلى وهو الزجاج وتعريفه .

ثانيا : معرفة المعنى الدقيق للكلمة بتمييز معناها من غيرها مما يقابلها من

الكلمات التى تضادها أو ترادفها أو تقرب منها ؛ فلمعرفة معنى « عاقل » تجب الموازنة بينها وبين « أحمق » ، ومعرفة الفرق بينها وبين الكلمات التى تقرب منها مثل : « عالم » وحكيم. ولمعرفة معنى (شجاع) يجب أن نعرف معنى « جبان » ، ثم نعرف الفرق بين الشجاع « والمتهوّر » ؛ فإن الشجاعة — وإن كانت الحد الأوسط بين التهور والجبن — ولكنها إلى التهور أقرب . فالتفكير الواضح يستدعى معرفة معنى الكلمات بدقة ، ومعرفة الفرق بينها وبين غيرها مما يقابلها أو يقرب منها من الكلمات الأخرى .

ومن حيث إن المدرك الكلى يتكون بالبحث والفحص عن الأشياء فالرجوع أحيانا إلى كل ما ينطبق عليه الاسم يساعد فى معرفة حقيقة المدرك الكلى ووضوحه ؛ ففى تعليم الطفل معنى كلمة « معدن » ينبغى أن يعرف كل ما تشمله هذه الكلمة من أنواع المعادن الرئيسية المختلفة حتى يتضح لديه معنى « المعدن » .

علامات قوة الإدراك

يعرف النجاح فى قوة الإدراك بأشياء مختلفة وهى : ـ

(١) نمو قوة التجريد بالقدرة على وضع نتائج البحث والملاحظات الخاصة تحت رءوس عناوين عامة .

(٢) فهم المدركات الكلية بسهولة .

(٣) الوصول إلى الدرجة التى بها تفهم المعنويات ، كمعنى كل من : العمل ، الحياة ، المبدأ ، العقيدة ، وما إليها من المدركات الكلية المعنوية التى لا يفهمها إلا من أوتوا بسطة فى العلم .

(٤) القدرة على توضيح المدركات الكلية التى يكونها الطفل ، وتحديد العبارات التى يستعملها أو تعريفها بسهولة ، وتمييزها من العبارات الأخرى التى يمكن أن تتشابه معها .

الاختلاف فى قوة الإدراك

يختلف الأفراد كثيرا فى قوة الإدراك ؛ لاختلافهم فى الذكاء ، والميول والملاحظة والانتباه ، والصفات الغرزية ؛ فبعض الناس أسرع من بعض فى فهم أوجه المشابهة أو المخالفة بين الأشياء ، وفى تبين المظاهر العادية لها .

ويظهر الاختلاف فى قوة الإدراك بين الأفراد فى عدة أمور : ـ

(١) الاختلاف فى الذكاء ؛ فما يدركه طفل سنه أربع سنين ربما لا يدركه آخر فى سنه لكن أقل منه ذكاء .

(٢) الاختلاف فى الميول ؛ فهذا قد يميل إلى معرفة أوجه الشبه بين الشيئين ، وذلك قد يميل إلى معرفة أوجه الفرق بينهما ، والثالث قد يظهر مقدرة كبيرة فى ترتيب المعادن أو النبات ، والرابع قد يبدى قوة كبيرة فى التفكير فى الطبيعة ووسائلها ، والخامس قد يميل كثيرا إلى العلوم الرياضية ، والسادس قد يميل إلى الأمور الفلسفية والخلقية .

(٣) الاختلاف فى الملاحظة وقوتها أو ضعفها مما يؤدى إلى إدراك الشىء أو عدم إدراكه .

(٤) الاختلاف فى قوة الانتباه والاستنباط .

(٥) الاختلاف فى الغرائز ؛ فالأطفال يختلفون فى غرائزهم اختلافهم فى

أمزجتهم ، وأذواقهم ، وتكوينهم العقلى . وهذا الاختلاف يؤدى إلى ميل خاص نحو شكل معين من إدراك الكلى . فالولد القوى الملاحظة لأشكال الأشياء يظهر استعدادا خاصا للبحث عن المعلومات والأشكال الهندسية . والولد القوى العضلات الذى يميل إلى الأشياء العملية كثيرا مايشغل نفسه بالأعمال الآلية الخاصة ، والأفكار التى لها علاقة (بالميكانيكا) .

(٦) الاختلاف فى الخبرة والتربية مما يؤدى إلى الاختلاف فى قوة إدراك الشىء ؛ فما يدركه المتمرن الخبير فى مادة من المواد لايدركه المبتدئ ، وما يراه الشخص المثقف لايراه الجاهل ، وما يعرفه المتعلم لايعرفه غيره ، وما يلاحظه الأول من المظاهر العادية — لما يحيط به من الأشياء — قد يختلف عما يلاحظه الثانى منها . وليس الطبيب العام كالطبيب المتخصص بفرع من فروع الطب فى معلوماته عن هذا الفرع ؛ فالمتخصص ينتظر أن يعرف كل ماقيل من الأفكار عن مادته وكل مايتعلق بها ، أما غيره فيعرف طرفا من كل شىء .

الصلة بين إدراك الكلى والخيال

كثيرا مايعتمد الإنسان على الخيال الابتكارى أو التكوينى (١) فى تصور المدرك الكلى . وأحيانا لانجد هذا الأساس من الخيال ؛ ففى إدراك الكليات نحتاج كثيرا إلى هذا النوع من الخيال الابتكارى ؛ لأنه يصعب أن نعتمد دائما على المحسات . وبالخيال يمكن أن نقيس الكميات والأعداد الكبيرة على الكميات والأعداد الصغيرة القابلة لأن تدرك بالحواس ، وذلك بمضاعفتها

(١) Constructive Imagination

ومعرفة النتيجة ؛ فبطريق الحس مثلا يستطيع الطفل أن يدرك الفرق بين مجموعة مكونة من ٣ تفاحات وأخرى مكونة من ٤ تفاحات بالرؤية والعد . ولا يدرك معنى « خمسة » إلا إذا أخذ خمس تفاحات على حدة ، وخمس برتقاليات ، وخمسة أقلام ، وخمس كراسات ، ثم عدها واحدة واحدة حتى يعرف المقصود من هذا العدد : خمسة . وبطريقة القياس والخيال يمكن التدرج مع التلميذ لفهم هذه الأعداد الكبيرة : ٢٠ ، ٥٠ ، ١٠٠ ، ١٠٠٠ ، مثلا بالقياس على ما عرفه من الأعداد الصغيرة . وتكون الأعداد الكبيرة بمثابة رمز لنتيجة الأعداد المكونة من مجموعات صغيرة تمكن رؤيتها وإدراكها بالحواس .

وفى الهندسة قد يصعب على التلميذ الصغير أن يرسم خطا مستقيما ينطبق تمام الانطباق على التعريف الهندسى للخط المستقيم ؛ فيضطر إلى التفكير فى هذا الخط حتى يدرك الحد التام له إدراكا كليا . وبالمثل يجد كثيرون من المبتدئين فى دراسة العلوم صعوبة فى الوصول إلى الحقائق العلمية المحسة ؛ فيضطرون إلى الالتجاء إلى الخيال ، وتغيير التجارب معتمدين على الدليل العلمى والقواعد العلمية المعروفة من قبل .

وهناك فرق بين المعلومات الخيالية والمعلومات الحسية ؛ فمعرفتنا للعدد « ثلاثة » أو لشكل مثلث تعد من قبيل المحسات التى تمكن رؤيتها . ومعرفتنا للعدد ١ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ أو لصورة لها ألف جانب مثلا تعد من قبيل المعلومات الخيالية الرمزية . وإن المعلومات عن المحسات أتم وأكمل من المعلومات الخيالية الرمزية . ومن ذلك نعرف أهمية الخيال وعلاقته بالفكر ؛ فلا أحد يستطيع أن يكون مخترعا عظيما ، أو عالما جليلا ، أو فنانا دقيقا ، أو

أديبا كبيرا إلا إذا كان لديه قسط كبير من الفكر والخيال ، واستعان بهما على عمله . والسعيد الحظ من كانت عنده نسبة متعادلة بين الاثنين معا . ويلعب الخيال دورا كبيرا فى العلوم والفنون لايشعر به إلا العلماء ورجال الفن والمخترعون .

وضوح المدركات الكلية وخفاؤها

لقد ذكرنا فيما سبق كثيرا عن إدراك الكلى ومعناه ، ونشأته . . ولنذكر هنا العيوب الطبيعية فى إدراك الكليات ، وأحسن الوسائل لعلاجها فنقول :

قد تكون المدركات الكلية واضحة ، وقد تكون خفية . والوضوح والخفاء ناشئان فى الغالب عن فهم الشىء أو عدم فهمه . وإذا كانت الفكرة واضحة فى النفس فمن السهل التعبير عنها بلغة واضحة ، وأسلوب سهل ، حيث لاخفاء ولا غموض ، ولا عجمة ولا رَطانة . أما إذا كانت خفية فمن الصعب التعبير عنها لغويا بعبارة جلية سهلة . وهنا يكون الغموض فى الأسلوب ، وهو أكبر دليل على عدم وضوح الفكرة فى نفس الكاتب ؛ فيعجز عن تصويرها للقارئ أو يصورها بطريقة معوجة لاتفهم . وما اللغة إلا وسيلة للتفاهم ، فإذا لم يفهم الكاتب مايكتب فلا ينتظر أن يفهم القارئ مايقرأ ؛ فالغلام مثلا تتكون لديه فكرة واضحة عن الفحم مثلا إذا عرف جيدا خواص الفحم ومميزاته من غيره ؛ كسواد لونه ، وقابليته للكسر ، وقابليته للاحتراق ، واستعماله للوقود والتدفئة ، واستخراج غاز الاستصباح منه . . . الخ .

وتكون فكرته عنه خفية غامضة مبهمة إذا لم يدرك هذه الخواص ، ولم يفهم هذه المميزات التي يمتاز بها الفحم ، أو اختلطت في ذهنه بأشياء تشبهها فأصبحت خفية غير مفهومة لديه .

وإن الخفاء في المعنى أو المفهوم[١] يؤدى إلى الشك في الماصدق[٢] أي الشك في الأفراد التي تندرج تحت هذا الجنس .

أسباب خفاء المعاني العامة أو المدركات الكلية :

لخفاء المعاني العامة أسباب منها :

(١) أن خفاءها قد ينشأ عن خفاء المدركات الحسية[٣] ، أو خفاء الصور الذهنية[٤] ، أو الإهمال في طريقة التجريد . وهذا يشاهد كثيراً في تفكير صغار الأطفال، والجهلة من الناس الذين لا يستطيعون تمييز الأشياء ومعرفتها كما ينبغي ؛ فيقولون هذه شجرة ، وتلك كنيسة ، وهذا منزل ، ولكنهم لا يفكرون كما يجب في محتويات أفكارهم وما تتضمنه .

(٢) كثيرا ما تصير الأفكار غامضة بمضى الوقت ، وقلة التذكر . فالمدرك الكلى[٥] ينمو بالصور الذهنية للأشياء الحقيقية ، فإذا ضعفت هذه الصور الذهنية في الذاكرة وذبلت فإن الأفكار بالضرورة تقل في وضوحها فتصير غامضة . وإن التلميذ الذى نسى من قواعد العربية المواضع التي يجب

---

(١) connotation (٢) denotation (٣) percepts (٤) Images
(٥) concept

فيها كسر همزة إنّ ، والتى يجب فيها فتحها ، والتى يجوز فيها الفتح والكسر مثلا يخلط ويخطئ فى ضبطها ؛ فيكسرها حيث يجب الفتح ، ويفتحها حيث يجب الكسر ، لغموض القاعدة فى نفسه .

(٣) وقد يكون الخفاء ناشئاً عن خفاء اللغة لدى الطفل ؛ فهو فى حياته الأولى قد يسمع من أبويه أو معلميه ألفاظاً صعبة لا يدرك لها معنى ، أو لغة تستدعى معرفة الفروق الدقيقة بين الكلمات المتقاربة فى معانيها ، فيقع فى حيرة عقلية فى الابتداء ؛ فيصعب عليه أن يعرف الفرق مثلاً بين صحة الجسم وقوته ، أو بين الحذق والمهارة . . . حينما يسمع أباه أو معلمه يتكلم عنها . وقد يكون الخفاء ناشئا عن نقص فى اللغة أو قصور فيها ؛ كأن يجد كلمات غامضة خفية لا يجد لها تفسيرا فى معجم ، أو مقابلا فى مصطلح ، أو يكون للكلمة معان مختلفة ولا يدرى الطفل المعنى المقصود منها فى القطعة ، فربما لا يستطيع أن يميز فكرةً من أخرى . والمربون والمربيات كثيرا ما يضرون الطفل من الوجهة اللغوية من حيث لا يشعرون باستعمالهم اللغة من غير أن يراعوا الدقة فى استعمال الكلمات[١] .

---

(١) راجع : The Teacher's Handbook of Psychology, by : Sully ch. XIII P. 262. Abstraction & Conception (continued.)

دقة المدركات الكلية[1]

هناك فرق بين مجرد خفاء المدرك الكلى وعدم الدقة فيه ؛ فخفاء المدرك الكلى ينشأ - كما ذكرنا من قبل - من خفاء المدركات الحسية وعدم وضوحها ، أو خفاء الصور الذهنية ، أو من الإهمال فى طريقة التجريد ، أو من ترك الشىء مدة طويلة بغير تذكر ، أو من غموض اللغة وقصورها . وأما عدم الدقة فى المدرك الكلى فيحدث إما من النقص فى معرفة طرق الموازنة والتجريد وتمييز هذه المجموعة من تلك ، وإما من الضعف والتقصير فى تحليل أجزاء المدرك الكلى ؛ فالتفكير الدقيق يقتضى البحث عن العناصر الصحيحة الهامة وهى الصفات المشتركة بين الأشياء ، ثم أخذها وترك العناصر الخاصة الأخرى . وبعبارة أوضح يعد المدرك الكلى دقيقا إذا شمل جميع الأشياء التى تدخل تحته ، بحيث لا ينقص شىء منها .

وينشأ عدم الدقة فى الأفكار من شيئين :

(١) نقص فى التجريد .

(٢) فقد بعض العناصر الهامة ونسيانها .

ولنتكلم عن كل منهما فنقول :

---

(١) Accuracy of Concepts

عدم الدقة فى المدركات الكلية ينشأ عن النقص فى التجريد :

قد تكون الفكرة غير دقيقة لنقص فى طريقة التجريد ، أو فى تكوين الفكرة ، وبعبارة أخرى لنقص فى البحث . وهذا النقص فى البحث قد ينشأ من التسرع فى طلب الإجابة ولو بالتقريب . والأفكار الأولى للطفل كثيرا ما تكون غير دقيقة أو مضبوطة ، وكلها فى الغالب تقريبية ؛ وذلك لقلة تجاربه وضعف ملاحظته أو خطئه فيها ؛ فالطفل الذى لم ير من الورد إلا النوع الأحمر كثيراً ما يعد الاحمرار جزءاً من معنى الورد ، ويطلق الورد على النوع الأحمر فقط . وبذلك يخرج الأنواع الأخرى من الورد الملون بلون آخر ، وهو خطأ فى الفكرة ناشئ عن قلة التجارب ، بأخذ هذا المظهر العرضى (وهو احمرار الوردة) الذى لا تشترك فيه كل أنواع الورد ، وعده جزءاً جوهريا من معنى هذا المدرك الكلى وهو « الورد » . والطفل الذى لا يعرف من المعادن إلا الحديد والرصاص وما شابههما من المعادن الصلبة قد يطلق المعدن على كل ما هو جامد صلب فقط ، ولا يفكر فى الزئبق مثلا كنوع من أنواع المعادن . والطفل الإنجليزى الذى لم ير إلا الإنسان الأبيض قد يعد بياض اللون خاصة من خواص كل إنسان ؛ لأنه لا يفكر إلا فيمن رآهم فى البلد الذى يعيش فيه . وهذا الخطأ فى الفكر ناشئ عن نقص فى التجريد ؛ لعدم ملاحظة جميع أنواع الورد ، أو جميع أنواع المعادن أو الأجناس المختلفة من الناس .

وقد تكون الملاحظة سطحية ؛ للتسرع فيها وقصرها على الصفات الظاهرية العرضية فقط ، فتكون الأفكار غير دقيقة ؛ كما فى ملاحظة الأطفال والجهلة من الناس ؛ فإنهم ربما لا يلاحظون إلا جزءا وجزءا فقط من معانى الكلمات المستعملة أمامهم ، فيخطئون فى التفكير ؛ كأن يطلقوا السمك على كل ما يعيش فى الماء ، ويسموا كل ما فى البحر سمكا ؛ لأنهم لاحظوا فى السمك هذه الخاصة ، وهى المعيشة فى الماء ، فعدوا كل ما يعيش فى الماء سمكا . وهو خطأ ناشئ عن عدم الدقة فى التجريد الذى ترتب عليه إدخال الأشياء التى تعيش فى الماء وليست من فصيلة السمك فى السمك. وبالطريقة نفسها قد يسمى الطفل كل أكلة من الأكلات شايا ، مع أن الشاى ما هو إلا أكلة خاصة تؤخذ فى منتصف الساعة الخامسة بعد الظهر مثلا . والنتيجة : أن الخطأ فى الفكر ينشأ عن الخطأ فى الملاحظة ، والنقص فى التجريد ، فيحدث التخصيص حيث يجب التعميم ، والتعميم حيث يجب التخصيص ، فتكون الأفكار غير دقيقة .

(٢) عدم الدقة فى المدركات الكلية ينشأ عن فقد العناصر ونسيانها :

كما أن الأفكار تكون غير دقيقة وتكون غير مضبوطة إذا كان هناك خطأ فى الملاحظة، كذلك تكون غير دقيقة إذا فقد شىء من عناصرها بمضى وقت طويل عليها . وكل فقد لهذه العناصر أو نسيان يؤدى إلى عدم الدقة فى الفكرة ، وإلى الاختلاف بين الاسم والمسمى ؛ فالطفل الذى ينسى أن القسوة تتضمن أو تستلزم التعمد فى الإيذاء قد يقول إن أخاه قاس ، أو أمه قاسية إذا عاقبه أحدهما لذنب ارتكبه من غير أن يكون هناك قصد فى إيذائه . والطفل الذى

يتعلم أن مقـدار الزاوية لا علاقة له بطول الضلعين اللذين يكونانها أو قصرهما يقع فى الخطأ إذا أدخل هذا العنصر العرضى وهو طول ضلعى الزاوية أوقصرهما فى فكرته عن مقدار الزاوية .

ويجب أن نذكر القارئ بأن عـدم الدقة فى الأفـكار كثيرا ما يؤدى إلى الخطأ والخفاء فيها ، وأن خفاء الأفـكار وعـدم دقتها كثيرا ما يؤديان إلى الاضطراب فيها ، وخلطها بعضها ببعض . وحينما تـكون فكرة الشخص عن الشىء مشكوكا فيهاغير موثوق بها قديحدث خطر جديد ؛ كأن يترك العناصر الجوهرية ويذكر العناصر العرضية السطحية ؛ فيطلق الخاص على العام، أوالعام على الخاص ، ويحكم على الشىء حكما غير حقيقى يؤدى إلى الخطأ فى الأفـكار .

مراجعة الأفكار وإعادتها :

مما تقدم نعرف أن تـكوين المدرك الكلى لا يحتاج إلى الملاحظة والموازنة والتجريد والتعميم فحسب ، بل يحتاج أيضا إلى الدقة ؛ حتى تـكون الأفكار دقيقة مضبوطة واضحة ، لاخفاء فيها ولا خطأ . وإذا كانت الفكرة عن الشىء غير دقيقة فمن السهل مراجعتها وإعادة البحث فيها ، والرجوع إلى الأشياء المحسة التى تتعلق بهذا الشىء ، وملاحظة أوجه الشبه والخلاف بينه وبين غيره . وبهذه الوسيلة يمكننا أن نتجنب الخطأ فى أخذ أسماء لا حقيقة لها ولا قيمة وإطلاقها على أسماء حقيقية ، ونجعل أفـكارنا واضحة جديدة على الدوام . فإذا أراد المربى أن يتجنب بعد الأشياء عن حقائقها ، وانفصال الأسماء عن مسمياتها ، ذلك الانفصال الذى احتج عليه (كومنيوس) [1] فعليه أن يجدد أفـكار تلاميذه ،

(١) Comenius هو عمدة المربين من الألمان، وبطل من أبطال التربية: (١٥٩٢م-١٦٧١م)

ويحييها باستمرار برجوعه إلى توضيحها بالأشياء المحسة التى يحسها تلاميذه. والرجوع إلى المحسات والإعادة والمراجعة من أحسن الوسائل لتوضيح الأفكار الخفية وتذكرها.

تنويع المدركات الكلية وتقسيمها أو تركيبها وتحليلها:

إن تنويع الأشياء أو تصنيفها وتقسيمها يجعلان التفكير سهلا. ويكون التنويع بذكر المدركات الكلية التى من نوع واحد معا، بعد ملاحظة أوجه الشبه والخلاف التى بينها؛ فإذا اجتمعت لدينا هذه المدركات الكلية: ماحية (أستيكة)، فرجار، يراع، براءة (براية)، كناشة، مذكرة، كراسة... أمكننا أن نجمعها ونضعها تحت عنوان عام مثل «أدوات مدرسية». وإذا وجد عندنا مقياس حرارة، ومحقن، ومبضع أو مشرط، ومجهر أو منظار استطعنا أن نطلق عليها «أدوات طبية». وإذا وجد فى الحقل محصدة،[1] ومِفَصَّة،[2] وزحافة، ومِحَشّ (شرشرة)، ومنسف[3]، ومحراث، ونورج ـ سميناها «أدوات زراعية»؛ بأن نضع الأدوات الخاصة تحت عنوان أعم، بالانتقال من الخاص إلى العام فيقال: أدات مدرسية، أدوات طبية، آلات زراعية، عدد نجارة، آلات عمل... الخ. وفى كل خطوة من هذه نحتاج إلى ترتيب الأشياء الخاصة كل منها بجانب الآخر، بحيث نضع الأدوات المدرسية فى جانب، والطبية فى آخر، والزراعية فى ثالث، حتى تتميز كل منها من الأخرى، ثم نطلق عليها اسما عاما يشملها، بوضعها تحت جنس أعم. وهذا ما يدعى بالتنويع[4] أو

(١) آلة للحصد (٢) آلة لفص الذرة (٣) ما ينفض به الحب: لوح التذرية (٤) classification

التركيب . والحركة هنا تصاعدية حيث ينتقل الفكر من النوع إلى الجنس ، ومن الخاص إلى العام . ويكون التنويع بمعرفة الأدوات ونوعها ، والفرق بينها ، وفوائدها المدرسية أو الطبية أو الزراعية ، ثم وضعها بعد ترتيبها وتنظيمها تحت جنس عام .

أما التقسيم (١) فالحركة فيه تنازلية ؛ حيث ينتقل الفكر من الأجناس إلى الأنواع ، ومن العام إلى الخاص بتجزئة الشيء العام وتقسيمه بالتدريج إلى أقسام صغيرة ، لمعرفة الفرق بينها ؛ كأن نقسم الكتب مثلا إلى أنواع تختلف باختلاف الغرض منها : من كتب علمية ، إلى كتب أدبية ، أو لغوية ، أو كتب للتسلية . ثم نقسم العلمية إلى كتب طب وصيدلة ، وكتب طبيعة وكيمياء ، وكتب رياضة . ونقسم الأدبية إلى : كتب أدبية قديمة قيمة (كلاسيكية) ، وكتب أدبية حديثة : شعرية ونثرية ، وكتب لغات حديثة ، ولغات قديمة ، وروايات تمثيلية وقصصية ، رخيصة الطبع أو غاليته . . . وبهذه الطريقة نقسم الأشياء بطريقة منظمة ، ونوضح أوجه التشابه والتضاد بينها . وهذه هي طريقة التقسيم أو التحليل .

ويعد التنويع والتقسيم عمليتين عقليتين مركبتين لا يستطيع العقل القيام بهما إلا بعد أن تنمو مدارك الإنسان العقلية ، وتتسع دائرة تجاربه إلى حد كبير جدا ، وتتكون لديه مدركات كلية متشابهة من أنواع مختلفة ؛ فيستطيع حينئذ تنويع هذه المدركات ؛ بإدخال كل مجموعة متشابهة منها تحت نوع واحد ، أو تقسيمها ؛ بتحليلها إلى عناصرها وفروعها المختلفة .

---

(١) division

تربية قوة التجريد(١)

إن تربية قوة التجريد يجب أن تبتدئ بملاحظة المحسات ؛ فمن الأمثلة المحسة تتكون الأفكار الأولى للطفل ؛ فهو يميل فى طفولته إلى عالم الحس، ويجد لذة ومسرة فى هذا العالم ، عالم المحسات . أما الأمور المنوية فمكروهة لديه فى الصغر ؛ لأنها صعبة وشاقة عليه . ولكنه مع هذا يظهر استعداده للتفكير فيها ، ومعرفة أوجه الشبه بينها . وقد يفيض وجه الصغير بشرا وسرورا حينما يصل بنفسه إلى معرفة نقطة من أوجه الشبه بين شىء وآخر . وقد حدث أن طفلا عمره ٢٦ شهراً لاحظ كلباً يلهث بعد جريه ، فقال والسرور يملأ محياه : « هذا مثل بَف بَف » مريداً القطار . فهذا التشبيه يدل على نمو قوة التجريد والتفكير لديه .

الوسائل التى بها تربى قوة التجريد هى :

(١) التدرج فى ترتيب المواد :

يجب أن يراعى فى المواد الابتداء أولاً بالدروس التى تساعد فى تربية الحواس وقوة الملاحظة ، ثم يتدرج منها إلى دروس تختار بحيث تساعد الطفل

(١) Training the Power of Abstraction.

فى أن يفكر ويلتقط الأفكار الجديدة ، ويعرف أنواع الأشياء وصفاتها . ويجب أن يتذكر المدرس أن الدروس الأولى هى أهم الدروس ؛ لأن الأثر الأول يبقى ولا ينسى . ولذا تجب العناية باختيارها واختيار الأمثلة ، بحيث تناسب الطفولة وميول الطفل ، وتبين صفات الشىء الذى يدرس ، وتمثل ذلك الشىء نفسه . ففى درس على أنواع الطعام أو الأغذية يجب أن يبتدئ المدرس أولاً بالأطعمة العادية المشهورة كاللبن والخبز وما إليهما ، لا بالأطعمة النادرة الشاذة . وفى مبادئ علم النبات يحسن الابتداء بمعرفة الأنواع المعروفة من النباتات ، ويتدرج منها فى النهاية إلى معرفة النباتات الغريبة غير المعروفة . وفى دروس الهندسة تجب العناية بالمدركات الكلية الهندسية ، والإتيان بالأشكال المحسة السهلة أولا ، ثم التدرج منها أخيرا إلى غيرها ؛ ففى درس على المثلث مثلا يجب ألا يبدأ بمثلث غريب الشكل ؛ كأن يكون متساوى الضلعين صغير القاعدة ، بل يبتدأ بمثلث أضلاعه كبيرة وزواياه الثلاث واضحة ، ثم يستعين المدرس على توضيح الأشكال الصعبة ببعض الرسوم على السبورة . وفى درس على الجبال مثلا ينبغى الابتداء برسم الشكل المشهور قبل الأشكال الغريبة للجبال .

وفى تعليم الأعداد الأولية فى الحساب تجب الاستعانة أولا بالأشياء المحسة كالحصى الصغير والخرز والعدادات ، والإتيان بأمثلة متنوعة حتى يعرف التلاميذ هذه الأعداد ، ويفهموا الفكرة الجوهرية عنها . فالعددان ثلاثة وأربعة يمكن توضيحهما بعرض ثلاث كرات ، وثلاث تفاحات ، وثلاث

خرزات فى أشكال مختلفة هكذا — . . . . ، . : ، . ˙ . ، ˙ . ˙ ، . : ، . : ، ˙ . ˙
وبالمثل يمكن فهم العدد أربعة ؛ فإدراك الفكرة المجردة عن ثلاثة أو أربعة يكون بموازنة هذه المجموعات المختلفة ، وملاحظة عدد كبير من الأشياء المتنوعة التى يراها الطفل كل يوم فى حياته اليومية .

والأمثلة يجب أن يكون عددها كافياً ، وأن تكون متنوعة ؛ كى لا يكون هناك تسرع فى الموازنة ، ويكون المدرك الكلى واضحاً دقيقا . ولا ضرر أكبر من التسرع فى التعميم والاستنباط قبل التعقل . ولا يكفى المثال الواحد لاستنباط حقيقة من الحقائق أو قاعدة من القواعد العامة . ويجوز أن نقود التلميذ لمعرفة صفة واحدة من صفات المعدن كالثقل أو الشفوف بوساطة مثال أو مثالين من الأمثلة المختارة . أما إذا كان الدرس على معدن من المعادن أو نبات من النباتات التى لها كثير من الصفات المتعلقة بها ، فإنه لا يكفى أن يؤتى بمثال أو مثالين لفهم هذا المعدن أو النبات ، بل يجب أن يؤتى بكثير من الأمثلة المتنوعة التى تمثل صفات الشىء ، وتوضحها جميعا ، حتى يمكن استنباط القاعدة منها .

وفى هذه المرحلة من مراحل تربية قوة التجريد ينبغى أن يدعو المعلم الطفل الى أن يميز الأجسام الشفافة من غير الشفافة ، والصلبة من السائلة ، والعضوية من غير العضوية ، والمثلثات من المربعات وهكذا ، وأن يعوده ترتيب الأشياء ووضعها بنظام ؛ حتى تصير مدركاته الكلية محدودة مرتبة منظمة .

وبعد الانتهاء من عملية الموازنة بين الأشياء وترتيبها تجب تسمية التماثل

منها المرتبط بعضه ببعض باسم يدل عليه وعلى الصفات المشتركة فيه ، وتعريفه تعريفا خاصا بشرط أن تلاحظ قواعد التعريف ، ثم تختار الصفات الجوهرية والهامة فيـه ؛ حتى يكون جامعا مانعا موضحا لطبيعة الأشياء المشار إليها ، مساعداً فى معرفتها والتحقق منها . وإن التساهل فى التعريف أمر عادى بين الآباء والمدرسين ، وهو خطأ يجب تلافيـه . وللوصول إلى توضيح الأشياء بتعريفها ليس من الضرورى أن نكلف التلميـذ فى الابتداء أن يعرف جميع الصفات التفصيلية الدقيقة الخاصة بهـذه الأشياء ؛ فكلمة حمض يمكن أن نفهمها للطفل جيداً من غير أن نضع كل الأوصاف التى يفهمها الصيدلانى عنه. وبالمثل كلمة نبات يمكن أن نعرفها للأطفال من غير أن نبين لهم كل ما يفهمه العالم النباتى منها . وفى استعمال التعريفات يجب على المعلم الحرص فى التعبير ، والعمل على فهم حقائق الأشياء وصفاتها بعد البحث والتفتيش عنها ، لاستخراج التعريف منها ، وبنائه على الأفكار الجوهرية التى يؤيدها العقل بعد التحقق منها ، والتقاطها من عدة نماذج أو أمثلة مختلفة .

ومن القواعد المعروفة فى التربية أنه يجب الابتداء بمعرفة المسميات قبل معرفة الأسماء . وتدل هـذه القاعدة على أنه يجب أن يبنى كل تعريف على الموازنة بين بعض الحقائق وبعض . وهذه القاعدة تصلح فى تعليم الحساب والهندسة والطبيعة ومبادئ العلوم التى يبتدأ فيها بالأمثلة أو التجارب ، ثم يؤخذ فى المناقشة فيها ، لاستنباط قاعدة أو نظرية من النظريات . ومن العبث إرهاق الطفل بالتعريفات الرياضية قبـل التمرن على فهم الأشكال الهندسية السهلة

بفحصها ومعرفتها ، أو إرهاقه بحفظ التعريفات النحوية فى قواعد اللغة العربية؛ تلك التعريفات التى لا يدركها ولا يفهم لها معنى . ويستحسن الاكتفاء بتفهيم التلميذ الصغير طريقة استعمال التراكيب العربية ، والابتداء بالجمل كتابيا أو شفويا ، والموازنة بينها ؛ حتى يعرف متى يكون الرفع ، ومتى يكون النصب أو الجزم أو الجر . . . الخ .

(٢) شرح معانى الكلمات (١) :

إن التلميذ لا يمكنه أن يفهم الحقائق إلا إذا عرف أولا معانى الـكلمات التى يعبر عنها فى العبارات العامة . وفى الدروس الأولى فى الجغرافية والتاريخ كثير من العبارات الجغرافية والتاريخية التى لا يمكن إدراكها إلا بعد شرح مفرداتها ، ومعرفة الغرض منها .

وفى دروس الأخلاق يجب على المدرس أن يشرح الـكلمات الجديدة والصعبة ، ويعيد شرحها من حين إلى آخر . ومما يدل على مهارة المدرس قدرته على وضع الـكلمة الجديدة فى مثال مختار محس ، بلغة مناسبة واضحة . وتحسن الاستعانة بتجارب الطفل والالتجاء إليها مباشرة إذا أمكن ، حتى يدرك معانى هذه الفضائل الخلقية مثلا : اعتدال ، عدالة ، شجاعة ، حب وطن ، ويفهم معنى أضدادها ، ثم الرجوع بعد ذلك إلى الأمثلة التاريخية ، والقصص الأدبية المشهورة ، للاقتباس منها لشرح هذه الأخلاق . وإذا لم يستطع المدرس أن يلتجئ فى شرح كثير من العبارات التاريخية إلى أمثلة توضيحية من تجارب الطفل وجب عليه أن يستعمل التشبيهات التى يمكنه استعمالها ، والتى يمكن

(١) Explaining the Meaning of Words .

أخذها من معلومات الطفل وتجاربه ؛ لـكى يستطيع تفهيمها للتلاميذ بتكوين صور ذهنية جلية ، وأفـكار واضحة منها .

(٣) مراقبة الطفل عند استعمال الكلمات

لا شىء فى التربية العقلية يحتاج إلى عناية كبيرة كمراقبة الطفل عند استعماله الـكلمات ؛ فما يضر الطفل أن يلتقط كلمات ويستعملها لا لسبب إلا أن الكبار يستعملونها ، والسمع يستحسنها ، قبـل أن يدرك معناها . وينبغى أن يضع الطفل بحيث يشعر بالحاجة إلى الـكلمة قبل أن يعرفها ، حتى يسهل عليه معرفتها واستعمالها بالضبط فى وجهها الصحيح . وبذلك ينمو عقله ، وتكثر رغباته ، فيشعر بالاحتياج إلى معرفة كثير من الـكلمات الجديدة ومعانيها ، ويستطيع التعبير عن أفـكاره . وهذا مما يساعد على توضيحها .

وعلى المعلم أن يلاحظ الطفل كل الملاحظة فى أثناء تكلمه حتى يحفظه من استعمال الـكلمات فى غير مواضعها ؛ لأن التساهل فى الألفاظ فى الابتداء يؤدى إلى التساهل والغموض فى التفكير . ولا يمكن تجنب هـذا الخطر إلا بتمرين التلميذ على توضيح أفـكاره بقدر المستطاع ، وعلى شرح الـكلمات التى يستخدمها من المبدأ . وينبغى ألا يسمح له باستعمال أى كلمة قبل أن يفهم معناها . ثم ينبغى أن يسأل عن المعنى ، ويطالب بذكر أمثلة محسة لشرح الفكرة التى يقولها ، وتوضيح ما يذكره من العبارات ولو على وجه التقريب ، بحيث يكون المعـنى محـددا وواضحا ، يقتنع به المستمع . وحينما تتسع معلومات الطفل وتكثر تجـاربه يجب على المعلم أن يصلح هـذه الأفـكار الأولى ويستبدل بالتعاريف التقريبية غير الدقيقة تعريفات دقيقة مضبوطة .

المراجع بالإنجليزية : —

(1) How we Think, by John Dewey.
(2) Introduction to Psychology, by Loveday and Green, ch. XII. pp. 179 - 91
(3) Introduction to Psychology, by Calkins, ch. XVII.
(4) Structure and Growth of the Mind, by Mitchell, Lecture XIII.
(5) Manual of Psychology, by Stout. Bk. IV, chaps. IV and V.
(6) Analytic Psychology, by Stout vol. II.ch. IX.
(7) Fundamentals of Psychology, by Dumville, ch. VIII. pp. 129 - 158
(8) Teacher's Handbook of Psychology. by Sully. chaps XII and XIII.
(9) Textbook of Psychology, by William James.ch. XIV.
(10) Education as a science, by Bain. ch VII pp 191-197
(11) The First Three Years of Childhood, by M Perez.

الفصل الثانى

الحكم

إن الطريقة التى شرحناها فى الفصل الماضى عن التجريد وإدراك الكلى تمهد السبيل لتربية الفكر ، وبعبارة أخرى للحكم والتعليل .

معنى الحكم

يقصد بالحكم فى العبارة العادية : الوصول إلى نتيجة معينة فى مسألة من المسائل أو قضية من القضايا ؛ كالحكم الذى يصدره القاضى على المتهم بإثبات التهمة عليه ، أو تبرئته بنفيها عنه . ويقتضى الحكم أن نفرض من قبل وجود مسألة تحتاج إلى البحث؛ بأن تكون مشكوكا فيها ، أو تكون بها صعوبة فى تقدير شهادة الشهود . وفى اللغة يقصد بالحكم القضاء ؛ وقد حكم بينهم أى قضى ، ويقال حكم له وحكم عليه . وفى اصطلاح الفلاسفة تستعمل كلمة «حكم» بعبارة أعم ؛ فيقال حكم أى أصدر حكما متى أثبت شيئا لآخر أو نفاه عنه ، سواء أكان هذا الحكم واضحا معينا كقولك : « هذه وردة » ، و (اثنان

واثنان أربعة) ، أم كان قابلا للشك محتاجا إلى دليل مثل : (هذه أحسن طريقة) ؛ فإن هذا الحكم يحتاج إلى برهان يثبته . فعملية إصدار الحكم هى إثبات شىء لآخر أو نفيه عنه مع الاستعداد للبرهنة والإثبات بالدليل . وتسمى نتيجة هذه العملية (حكما) . وكل حكم يستلزم أن يعبر عنه بعبارة خاصة هى ما يسميه علماء المنطق (قضية) (١) ، وتشتمل على موضوع وهو المحكوم عليه ، ومحمول وهو المحكوم به ، ونسبة وهى العلاقة التى بين جزأى القضية ؛ فإذا قلت : النار محرقة ، فقد أثبت للنار قوة هى الإحراق . فالحكم هو إدراك العلاقة بين شيئين فأكثر إيجابا أو سلبا ، سواء أكان ذلك الحكم صوابا أم خطأ . أو هو عملية عقلية تنشأ عن مواجهة مشكلة من المشكلات تستدعى الاستعانة بالمعلومات والتجارب السابقة للتفكير فى حل هذه المشكلة والوصول إلى النتيجة أو الحكم .

ومن الواضح أن إثبات شىء لآخر أو نفيه عنه يستلزم فهم أمرين على الأقل هما الموضوع والمحمول وإدراك علاقة ما بينهما ؛ فالطفل حينما يقول : اللبن ساخن ، والملعقة نظيفة ، يفكر فى اللبن والسخونة ، والملعقة والنظافة ، ويدرك أن اللبن متصف بالسخونة ، والملعقة متصفة بالنظافة . والحكم يتضمن الثقة والتصديق بالشىء الذى نحكم به . وإذا انتفى هذا التصديق أو الاعتقاد لم يكن هناك حكم . ومن حيث إن الحكم مرتبة متأخرة عن التصور ، والتصور قد يكون صوابا وقد يكون خطأ ، فكذلك الحكم قد يكون صوابا إذا كان

(١) a proposition

التصور صحيحا ؛ بأن طابق الحقيقة والواقع ، وقد يكون خطأ إذا كان التصور غير مطابق للحقيقة والواقع .

وفى الحكم قد نثبت جنس الشىء مثل هذا حديد ، أو نظهر العلاقة بينه وبين شىء آخر مثل : إيرلندا واقعة فى غرب بريطانيا العظمى ، الحرارة تمدد الأجسام . أو نثبت مشابهة أو مخالفة بين شيئين مثل : الفرنسيون كاللاتينيين . — الخطوط المتوازية فى المستطيل متساوية . — طول ضلعين فى المثلث أكبر من طول الضلع الثالث . فكل حكم من الأحكام يثبت حقيقة من الحقائق ، أو يظهر العلاقة بين شىء وآخر ، أو يثبت مشابهته أو مخالفته له صراحة أو ضمنا . ولمعلومات الشخص وتجاربه أثر فى حكمه ؛ فكل شىء نعرفه يؤثر فى الحكم الذى نحكم به . ويتوقف وضوح الحكم فى القضاء على وضوح معلومات القاضى عن القضية . وقد نثبت أن ما نراه شىء حقيقى يمكن أن يلمس ، وأنه يبعد عنا بمسافة كذا ، وأنه يمثل مظاهر خاصة بحسب ما نعرفه عن الشىء فى حياتنا اليومية . وإن أسهل عملية من عمليات تحليل المادة كى تدرك إدراكا حسيا تتضمن حكما من الأحكام . وهذا الحكم قد يكون واضحا ، وقد يكون خفيا . وبحسب وضوح المدرك أو خفائه يكون الحكم .

ولكى يصل المعلم الى الحكم الذى يريده ينبغى أن يتدرج مع التلميذ من المحس إلى المعقول ، ومن الأمور العملية الى الأمور النظرية ؛ ففى الحساب مثلا يجب عليه أن يترك المسائل التى لا علاقة لها بحياة الأطفال ، والتى يبعد حدوثها فى الحياة العملية حتى ولو كانت مطبوعة فى الكتب المدرسية ، وأن يضع بدلا منها مسائل وتمرينات تلذ للتلاميذ ، ولها علاقة بحياتهم وبيئتهم ؛

بحيث تكون عملية بعيدة عن الأمور النظرية التى يصعب عليهم إدراكها ؛ فالطفل الصغير يمكنه أن يميز بين تفاحتين إحداهما أكبر من الأخرى ، وقد يختار الأولى لكبرها ، ويترك الثانية لصغرها . ويستطيع أن يدرك مميزات الأشياء ويفهمها أكثر من فهمه للعلاقة بينها ، ويتعلم أن يقول هذه التفاحة أكبر من البرقوقة ، وهذا البيت أكبر من البيت الآخر ، والكلب أكبر من القط ، حتى يتضح لديه بالتدريج معنى كلمة « أكبر » ، ولكنه يصعب عليه فى الابتداء أن يدرك أن نسبة

١ : ٣ : : ٥ : ١٥

أو نسبة ٧ : ١٢ : : ٢١ : ٣٦

وما إلى ذلك من الأمور النظرية التى يلجأ إليها المعلم أحيانا ، ويترك الأمور العملية . وبالتدريج يستطيع التلميذ أن يدرك النظريات والمعنويات ، ويمكنه أن يحكم على قطته فيقول : قطتى سوداء — قطتى صغيرة — قطتى لها عينان — قطتى أكبر من قطة جيراننا البيضاء — وبهذه الطريقة المحسة يمكنه أن ينتقل من هذه القطة إلى ثانية وثالثة ورابعة وهكذا ، حتى يعرف الحكم العام من أن كل القطط لها عينان ، والقطط أكبر من الفيران لكنها أصغر من الخيل . فمثل هذه الأقوال تسمى أحكاما ، سواء أكانت شخصية حول ذات معينة ، أو عامة حول جميع الأشخاص .

مقتضيات الحكم

يتطلب الحكم ثلاثة أشياء وهى :

١ — البحث والمناقشة فى الموضوع بالموازنة بين بعض الحقائق وبعض، والفحص عن كل حقيقة فحصا دقيقا .

٢ — تحديد الدعوى والعمل على إظهار الحق من الباطل .

٣ — الحكم الأخير الذى به تظهر الحقيقة ، وينتهى النزاع والجدل .

نشأة قوة الحكم

إن الطفل وعمره سنة يدرك كثيرا من الأشياء ، وإن كان لايستطيع التعبير عنها . وفى المدة الأولى من تكلمه تتكون لديه بذور الحكم التى لايمكنه أن يعبر عنها إلا بأصوات ورموز يرددها ، فيقول : (بَوْ — وَوْ) : أى هذا كلب، (مَمْ مَمْ) أى (أريد أن آكل .) . وقد يلاحظ الطفل شيئا ما فجأة على غير انتظار ، أو شيئا غريبا فى مادة ما ، ويعبر عن نتيجة ملاحظته بحكم من الأحكام . ومن المحاولات التى حاولها طفل اسمه (ك) وعمره تسعة عشر شهرا فى تكوين أحكام رمزية واضحة قوله : (دِتْ كِى) أى أختى تبكى، (كابنْ) أى شىء غريب فى اللبن ، (بَنْ جَا) : هناك لبن فى الفنجان . وحينما يبلغ من العمر سنتين تزيد معلوماته ، ويستطيع أن يلاحظ الأشياء

الجديدة أو الغريبة التى يراها ويلاحظ حجمها وموضعها فيقول مثلا : (دَهْ وَوْ وَوْ بير) مريدا هذا كلب كبير . وبازدياد قوة الملاحظة لديه ، ورغبته فى الاطلاع على الأشياء تكثر أحكامه وتزيد ، وتنمو قدرته على الموازنة بين الأشياء ، ومعرفة العلاقة بينها ، وتأخذ أحكامه فى التحسن تدريجيا ، وخاصة حينما يستطيع التكلم الكلام العادى .

ومن المظاهر اللذيذة فى المرحلة الأولى من نمو قوة الحكم لدى الأطفال معرفة أداة النفى « لا » واستعمالها فى كلامه . أما العلامة الأولى للنفى فهى هز الرأس ، ولكن هذا قد يكون علامة لعدم الرضا ، أو عدم الميل إلى الشىء . والطفل عادة لا يستطيع أن يكوّن جملة سلبية واضحة إلا فى السنة الثالثة من العمر تقريبا . وإن استعمال كلمة (لا) يستلزم أن يعرف الطفل شيئين : الصواب والخطأ . فيجيب بلا إذا سألته عن شىء لا يعتقده أو لم يفعله؛ كأن تقول له هل أخذت اللعبة ؟ لا . هل ضربت أخاك ؟ لا . وقد لوحظ طفلان فى السنة الثالثة من العمر يستعملان جملا إيجابية وسلبية معا ، ويقولان ما معناه : « هذه لعبتى لا لعبة أخى » ، «هذا قطى لا قطك» . ومعنى هذا أن الطفل حينما يبتدئ بأن يفهم معنى النفى يشعر بأنه مدفوع — حينما يقول جملة موجبة — لإظهار النفى صراحة . وبنمو قوته العقلية واتساع معلوماته وتجاربه تتسع دائرة الحكم لديه بالتدريج ، ويلتقط الأحكام العامة ، والأخبار التى يسمعها ممن يتصل بهم ، ويرددها كما سمعها : « الولد القذر لا يحبه أحد ، الولد المؤدب يقول متشكر ، الولد المهذب يقول من فضلك » . وبزيادة المجموعة التى يعرفها من الكلمات ، ونجاحه فى التجريد وإدراك الكلى ترقى أحكامه

بالتدريج ، حتى يستطيع أن يحكم أحكاما عقلية .

ويظهر نمو قوة الحكم لدى الطفل بزيادة احتراسه عند الحكم ، ونقده للأحكام ، وتمييز العلاقة بين الأشياء ، وتبيين مايمكن عمله وما يستحيل عمله ، والجائز ، وغير الجائز ، وقبول بعض الآراء ، ورفض بعضها الآخر الذى لايتفق معه فى الرأى . أما ميل الطفل إلى المبالغة فى الحكم أو التحريف فيه فقد يكون ناشئا عن مقدار تأثره بالشىء ، أى عن الوجدان ؛ رغبة منه مثلا فى الإتيان بشىء غريب أو مضحك . ولكن المربى يجب عليه أن يهذب هذا الميل ويصلحه بالتدريج حتى يعتاد الطفل الصدق فى القول ، والدقة فى الحكم . وإن ولع الطفل بالاستقلال فى الحكم علامة من العلامات التى تدل على قرب انتهاء مدة الطفولة . وبنمو قوة الحكم تنمو قوة الاستنباط أو الوصول إلى النتائج .

العلاقة بين المدرك الكلى والحكم

من حيث إن الحكم هو ربط فكرتين إحداهما بالأخرى فهو عملية عقلية تقتضى إيجاد فكرتين، ووصلهما بعضهما ببعض بطريق الإثبات أو النفى. فالمدرك الكلى جزء من الحكم غالبا . والحكم على كلى يستلزم تكوين المدرك الكلى من قبل . ولا يمكننا أن نحكم على الشىء إلا إذا تصورناه وعرفناه أولاً ؛ فالحكم على الشىء فرع عن تصوره . فلا نستطيع أن نقول : هذا حجر من الرخام ، أو هذه المادة شفافة إلا إذا عرفنا من قبل شيئا عن الحجر الأبيض من الرخام ، وشيئا عن الشفوف والرقة . وهنا يمكننا أن نحكم على الحجر بأنه

من الرخام ، أو على المادة بأنها رقيقة شفافة .

وإدراك الشىء إدراكا كليا يعد نتيجة لكثير من الأحكام نعرفها عنه ؛ كإدراك معنى كلمة « ثقيل » بالموازنة بين المواد الثقيلة والخفيفة ، وإدراك معنى «الحديد» بمعرفة خواصه وصفاته ، وربط هذه الخواص والصفات بعضها ببعض من ثقل وصلابة وشكل معدنى . . . الخ .

وكلما عرف الطفل من تجاربه بعض الصفات الجديدة للحديد مثلا توحَّد هذه الصفات بالتدريج ، ويكون لها أثر فى الحكم ؛ فبعد أن يعرف أن الحديد يصير رخوًا هَشًّا بالحرارة ، يأخذ هذه الحقيقة ويضمها إلى أفكاره السابقة عن الحديد ، فتزيد معلوماته عنه . فنتيجة الحكم أو عمليته تذكر أو تدخل فى عملية إدراك الكلى . والنمو المتتابع والزيادة المستمرة لمدركاتنا الكلية يتأثران بعمليات الحكم ؛ فكلما زادت الأفكار وترقت المدركات الكلية ترقى الحكم بزيادة العناصر . فالمدرَك الكلى والحكم يسيران جنبا لجنب ، ويساعد كل منهما الآخر .

ويبتدئ الطفل بإصدار الأحكام فى الوقت الذى يمكنه تمييز الأشياء بعضها من بعض . وما المدركات الكلية والأحكام إلا مظاهر مختلفة لطريقة واحدة . ويتضمن تكوين المدرك الكلى حكماً ، سواء أكان ذلك الحكم منطوقا ملفوظا ، أم مفهوما ملحوظا . وكل حكم يتضمن الانتفاع ببعض المدركات الكلية التى تكونت من قبل ؛ فلو عرف الطفل فكرة مجردة عن السواد والبياض أمكنه أن يحكم أحكاما ربما لا ينطق بها ، ولكنها تكون مفهومة لديه مثل هذه قطة .
— قطتى سوداء . — هذه القطة بيضاء .

عملية الحكم :

إن العملية العقلية التى توصل إلى الحكم الأخير قد تكون مختصرة سهلة ، وقد تكون مطولة صعبة . وإصدار الحكم يستلزم أمرين :

١ — أن تكون هناك مواد يمكن بحثها والاستفادة منها فى الوصول إلى الحكم . وهذه المواد التى تسهل لنا طريق الحكم على الأشياء هى تلك الأفكار والمعلومات التى استفدناها من بحثنا ، وتجاربنا الشخصية ، ومن آراء غيرنا ، ومن شهادة الشهود . فالتجربة والشهادة مصدران عظيمان يمكن الاعتماد عليهما فى الوصول إلى الأحكام . والقدرة على الحكم على مادة مّا تستلزم الرجوع إلى التجارب السابقة ، والتفكير فيها أولاً ، فالشخص لا يمكنه أن يحكم بأن هذه الزهرة أقحُوانة إلا إذا لاحظ أولاً خواص الأقحوان ، وهو نبات له نَوْر أبيض ، لا رائحة له ، يظهر فى فصل الربيع . كما لا يمكنه أن يحكم بأن هذا الحجر من الصوّان إلا إذا عرف بدقةٍ هذا النوع من الحجارة ، وخواصه التى تميزه عن الأنواع الأخرى ، وعرف من أين يؤتى به . ولا يكفى فى الحكم على طبيعة صخرة من الصخور أن نعرف شكلها الحقيق ، بل يجب أيضا أن نفكر فى مكانها ، وعلاقتها بغيرها من الصخور الأخرى .

وإن شهادة الشهود والتقاليد والسلطة والقانون عوامل رئيسية كبيرة فى تقدير الحكم وإصداره . وإن الطفل الذى يثق كل الثقة بتجاربه الشخصية ، ولا يفكر فى آراء غيره ، لا يستطيع أن يحكم على كثير من الأشياء . وللتقاليد

والسلطة والقانون أثر عظيم فى الحكم للشخص أو عليه . والشخص الذى يصدق كل ما يقال له ، ويعتقد كل ما يسمع ، من غير أن يفكر بنفسه فيما يخبر به وما يسمعه ليعرف ما إذا كان ذلك حقا أو باطلا ، صدقا أو كذبا — شخص لا تنبغى الثقة بحكمه ؛ لأنه لم يستعمل المواهب التى وهبت له، ولم يكلف نفسه التفكير فى الخبر أهو مطابق للواقع أم لا .

٢ — التفكير فى هذه المواد لمعرفة النتيجة التى تتضمنها وتشير إليها . وللإرادة دخل فى هذه الطريقة ، طريقة التأمل والتفكير فى المواد ؛ لأن الوصول إلى الحكم الصحيح يستلزم بحث الحقائق المرتبطة بالقضية ، وزنة كل حقيقة منها بميزان عادل ، ثم قبول الملائم منها ، ورفض ما سواه . وكل هذا يعد تمرينا خاصا للإرادة فى حصر الفكر حول شيء ما ، طوعا واختيارا . وكلما كانت هذه القدرة على حصر الفكر فى المحتويات العقلية كبيرة كان الحكم أسهل وأوضح .

ولكى نحكم على مادة ما يجب أن نكون قادرين على معرفة هذه المادة وتمييزها من غيرها مما يشابهها ، أو يخالفها ، أو يقرب منها من المواد الأخرى ؛ لأن الحكم يقتضى الموازنة بين الأشياء وتمييزها بعضها من بعض . ولا تقل أهمية هذه الموازنة فى الحكم وربط الأشياء بعضها ببعض عن أهمية معرفتها والتمييز بينها وبين غيرها .

وأسهل المواد التى يمكن تمييزها الأشياء المحسة . فقولنا « هذا حجر من الماس » يستلزم أن العقل وضع هذه المادة مع المواد الأخرى التى تشبهها أو تخالفها ، ثم وازن بينها وبين هذه المواد ، فعرف أوجه الشبه أو

الخلاف بينها ، ثم وضعها ورتبها مع نوعها من الماس . ولمعرفة نوع هذه المادة ووضعها مع طبقتها يحتاج العقل إلى أن يعرف العلامات والخواص الجوهرية لنوع حجر الماس ؛ حتى يميزه من غيره من الحجارة الأخرى التى تشتبه معه. وبالقدرة على تمييز الأشياء ، ومعرفة أوجه الشبه أو الخلاف بين الجديد منها والقديم ، يمكننا أن نحكم حكما صحيحا دقيقا .

وهناك عنصر آخر هام فى التفكير تجب ملاحظته عند الحكم ، وهوقمع الميول والرغبات النفسية ، وامتلاك النفس ؛ حتى لا تميل عقولنا إلى هذا أو ذاك متأثرة بوجداناتنا . ولكى يكون الحكم سديدا صائبا يجب أن نجرد أنفسنا من النزعات الشخصية ، والميل إلى هذا أو عدم الميل إليه، حتى لايكون الحكم مشوبا بالهوى والغرض . ولذا يجب أن يكون الحكم أو القاضى على الحياد ، بعيدا عن الأغراض والأهواء ؛ حتى يكون مثلا فى العدالة ونصرة الحق على الباطل ، والعمل لنصرة المظلوم وأخذ الحق له .

وإذا عرفنا طريقة الحكم ووصلنا إليه ، وجب أن نصوغه فى لغة دقيقة واضحة لا يشوبها غموض أو ركة فى التعبير ؛ حتى يدركها ويفهمها كل مستمع . وإن الفكرة الواضحة تؤدى إلى سلامة العبارة ووضوحها .

الإثبات والنفى (1):

إن أسهل أنواع الحكم هو الحكم الإيجابى بإثبات شىء لآخر . ولكن ليست جميع الأحكام إيجابية ، بل بعضها موجب وبعضها سالب . ويفرق

(1) Affirmation & Negation :

علماء المنطق بين الأحكام والقضايا الموجبة والأحكام والقضايا السالبة ؛ فقد نعتقد الشيء فنثبته ، وقد ننكره ولا نعتقده فننفيه ، مثل: هذا المنزل صحى ، وليس ذلك المنزل بصحى . والسلب معناه رفض الإثبات وعدم قبوله ؛ لأنه باطل ، لا يطابق الحقيقة والواقع ، ولا يسلم به العقل . وهو ينفى توهم الإثبات كقولك : إن السماء لن تمطر ، ردا على من قال : إن السماء ستمطر ، أو جوابا لمن سأل : هل السماء ستمطر ؟ والأحكام السلبية هامة فى تبيين أوجه الخلاف بين الأشياء ، فإذا قلت : هذا المثلث ليس بمتساوى الأضلاع ، وهذه الأعراض ليست أعراض الحمّى ، فمعنى هذا أنى نظرت إلى المثلث ، فوجدته يختلف عن المثلث المتساوى الأضلاع ، وبحثت فى الأعراض عند المريض فرأيت أنها لاتشابه أعراض الحمى . وإذا كان الحكم السلبى مبنيا على معرفة أوجه الاختلاف بين الأشياء ، فالحكم الإيجابى مبنى على معرفة أوجه الشبه بينها غالبا .

والخبر عند المناطقة يحتمل الصدق والكذب ، فيجب أن يحكم الشخص عقله ، ويستعين بتجاربه أو تجارب غيره ، حينما يطالب بالحكم . والإنسان فى حكمه يمثل القاضى فى أنه مطالب بالموازنة بين شيئين واختيار أحدهما ، وذلك يتوقف على معرفة أدلة الإثبات وأدلة النفى أولاً ، ثم اختيار أحد الرأيين الذى يتفق مع الحقيقة والعقل . فإذا عرض عليك تاجر عادى من تجار الجواهر نوعا من الماس ، وقال لك : « هذا ماس حقيقى » ، فقد تثق به وربما لا تثق ؛ خوفا أن يكون من الماس الكاذب ، حتى تستعين بخبير فى الماس ، فيؤكد لك الحقيقة والواقع . وإذا اتهم شخص فى قضية وادّعى أنه مذنب فالقاضى يضطر إلى تأجيل الحكم حتى يتعرف الحقيقة ويتأكد منها ، ويتبين

الحق من الباطل ؛ وذلك بدرس القضية ، واستماع شهود الإثبات وشهود النفى ، وتحكيم عقله بعد ذلك للحكم بإدانته أو براءته بحسب ما يقتضيه الحق ، وينادى به القانون .

والعقل إذا اقتنع بالشىء بعد بحثه وتمحيصه مال إلى تنفيذه ، والاعتراف به . وإذا لم يقتنع به وكان فى شك منه أنكره ، واستحال تنفيذه لو ترك ونفسه.

الحكم فى نظر علماء المنطق وعلماء النفس

إن علم المنطق يعد الحكم المكون من موضوع ومحمول ، المحتمل للصدق والكذب ، خبرا أوقضية ؛ وذلك بإثبات شىء لآخر أونفيه عنه . ويعد تركيب الأحكام والمقدمات قياسا بشروط خاصة تنظر فى القياس والأشكال فى علم المنطق . أما علماء النفس فيرون أن الجملة النحوية قد تمثل حكما من الأحكام ، ولكن ليس معنى هذا أن القدرة على تكوين الجملة النحوية تستلزم القدرة على الحكم ؛ لأن الحكم لديهم عملية عقلية مؤسسة على إدراك العلاقة بين شيئين أو أكثر .

يقول العلامة (تتخنر) (1): «إن الإنسان قد أطلق على نفسه أنه حيوان مفكر ، ولكنه قلما يفكر الآن ؛ لأننا جميعا قد نشأنا فى مجتمع تنتظرنا فيه الأحكام الموضوعة . وكل جيل يرث عن الأجيال التى سبقته كثيرا من الأحكام. فالحقائق التى تطلبت من أجدادنا مجهودات كبيرة من العمل للوصول إليها قد وصلتنا عفوا بلا تعب . والمجتمع قد صار منظما ، والنظم الاجتماعية

(1) Titchener.

قد وضعت ، والديانات قد سادت وانتشرت ، وقوانين الأخلاق وموازينها قد بسطت ، والمبادئ والقواعد العلمية قد نفذت واستعملت جميعها بيننا ، وأصبحنا نستخدم آثارها: من قطر حديدية ، وسفن بخارية ، وطائرات هوائية ، وبرق ولاسلكى ومذياع . . . الخ . وقد أصبحت الحياة أمامنا سهلة بفضل ما قامت به الأجيال السالفة من الأعمال والمخترعات . ويرى (تِتْخِنَر) أيضا أن هذه القضايا المنطقية: «الحشيش أخضر ، السماء زرقاء ، الشمس طالعة» ليست أحكاما؛ لأنها لا تدل على نتائج وصلنا إليها بعد تفكير أو بحث ومناقشة أو موازنة وتحليل ، وانتباه شديد ، ومجهود عظيم .

وإن نسبة كبيرة مما يدعى أحكاما فى نظر المنطقيين — حتى فى نظر الذين يقولون إن الحكم عملية عقلية — ليست فى الحقيقة أحكاما مطلقا ، وما هى إلا مجرد أفكار أو نتيجة أحكام قد تدعى أحكاما ميتة لا أحكاما حية . وإذا أردنا أن نحلل حكما حقيقيا أو عملية حقيقية من عمليات الحكم ، بطريقة حية من الفكر ، وجب إيجاد العناصر التى يتكون منها الحكم ، وأن تكون هناك نقطة معينة تتطلب حلا أو عملا عقليا . فالحكم فى نظر علماء النفس يخالف الحكم فى نظر علماء المنطق فى أن المنطقيين يكتفون بقولهم إن الحكم هو إثبات شىء لآخر أو نفيه عنه . وأما علماء النفس فلا يكتفون بذلك ، بل يشترطون أن يكون هذا الشىء مما يحتاج إلى بحث عقلى أو تجربة وانتباه ، سواء أكان ذلك الشىء عمليا يكتسب بالتجربة ، أم نظريا يحتاج إلى نظر ودراسة وتفكير . فكل حكم فى نظر علماء النفس يعد حكما فى نظر المنطقيين . وليس

كل حكم عند المنطقيين حكما عند علماء النفس . فبينهما العموم والخصوص المطلق . وعلى هذا الرأى تعد الأحكام البدهية التى لاتحتاج إلى نظر أو تفكير مطلقا أحكاما فى نظر النفسيين، فقولنا «الشمس طالعة» حكم فى نظر المنطقيين، وليس حكما فى نظر علماء النفس . أما أقوالنا مثلا : « العقل يؤثر فى الجسم ، الجسم يؤثر فى العقل، الذكاء يورث، الصفات الجسمية تورث » ، فتعدأحكاما فى نظر علماء المنطق والنفس معا ؛ لأنهما تحتاج جميعها إلى بحث وبرهنة على إثباتها أو نفيها .

ويرى الكثيرون من علماء النفس أن جميع الأحكام تستلزم شيئا من التفكير حتى الأحكام البدهية التى يتوقف إصدارها على فهم معنى كل من الموضوع والمحمول وإدراك النسبة بينهما على الأقل . والبدهيات وغيرها من الأمور النسبية؛ فالبدهى لدى الكبار قد يكون مشكلا لدى الصغار . والحق أن (تتخنر) مبالغ فى دعواه أن الإنسان أصبح غير محتاج إلى التفكير والحكم؛ إذ أنه لا يزال هناك كثير من المشاكل العلمية — كعلاج السرطان والسل والوقاية من الغازات السامة — التى تحتاج إلى كثير من البحث العلمى والتفكير المنظم للوصول إلى حلها . فالحكم لدى المناطقة هو مجرد إثبات شىء لآخر أو

نفيه عنه . أما الحكم عند علماء النفس فهو الحركة الفكرية التى ينشأ عنها

إدراك العلاقة بين شيئين أو أكثر .

فمثلا ا = ب يعد حكما عند المناطقة . أما علماء النفس فلا يعدون هذا حكما ، لأن كلا من ا ، ب رمز مدلوله غير معروف .

أنواع الحكم

للحكم أنواع : فإن اكتسب بالتجربة العملية سمى عمليا[١] ، وإن اكتسب بالنظر والاستدلال سمى عقليا أو إدراكيا[٢] ، وإن كان واضحا لا يحتاج إلى تفكير سمى بدهيا[٣] ، وإن كان مقصورا على فرد معين سمى خاصا ، وإن شمل جميع الأفراد سمى حكما عاما ، وإن شمل بعضهم سمى جزئيا ، وإن عرف بطريق التحليل سمى تحليليا ، أو بطريق التركيب سمى تركيبيا .

ولنتكلم عن كل منها فنقول :

(١) الحكم العملى :

يتضمن هذا الحكم الانتفاع بالتجارب العملية ، وتطبيقها بدقة فى الأحوال التى تماثلها . فهو يكتسب بالتجربة العملية كالخبرة الفنية التى اكتسبها صباغ إنجليزى استخدمه أحد أصحاب المعامل من الأسكوتلنديين بأجر كبير ، لمهارته فى الصباغة ؛ أملا فى أن يقوم هذا الصباغ بتعليم العمال الآخرين كيف يجيدون هذه المهنة ، حتى يصبحوا ماهرين فيها . أما الطريقة التى كان يستعملها هذا الصباغ فى خلط المواد بعضها ببعض فهى أخذ الأصباغ بيده من غير استعانة بوزن ، فكانت يده كميزان . وربما كان هذا هو السر فى مهارته فى عمله ، ولكن

---

(1) Practical (2) Gonceptual or Reflective (3) Intuitive

صاحب المعمل أراد أن يغير ذلك الصباغ طريقته ، ويحوله من الأخذ باليد إلى طريقة أكثر دقة وهى الوزن ، بحيث يزن كل مادة من الألوان على حدة ، ويخلطها بنسبة معينة ؛ حتى تمكن معرفة القواعد العامة لطريقته فى الصباغة . فلم يستطع الصباغ أن يغير طريقته التى اكتسبها بالنظر والتجربة الشخصية فى تقدير الأصباغ والألوان من غير احتياج إلى وزن أو ميزان . فرغبته فى الصباغة وميله إليها، وتجاربه العملية أكسبته — مدة اشتغاله بهذه المهنة — مهارة كبيرة فيها ، وقدرة على الحكم فى المسائل المرتبطة بها بمجرد النظر إليها ، حكما مبنيا على الخبرة والتجربة .

فهذا الحكم يسمى حكما عمليا . ومثله الممرض الذى يستدعى عند غياب الطبيب لإسعاف طفل أصيب باحتراق فى جسمه ؛ فيستعين بما شاهده من التجارب السابقة فى حوادث الاحتراق ، ويستخدم الطريقة التى كان يستخدمها الطبيب فى مثل تلك الحال ، ويسعف المحترق حتى يحضر الطبيب ، فيرى أن ما قام به الممرض يستدعى كل إعجاب ، ويبدى له سروره وارتياحه نحو الإسعافات التى قام بها .

وفى الحكم العملى يحتاج الشخص إلى :

(ا) الانتفاع بتجاربه العملية الماضية فى مواجهة المشاكل الجديدة التى تشبهها فى كثير من مظاهرها .

(ب) أن تكون التجارب الماضية واضحة لديه ، ولها أثر كبير فى نفسه يستدعى شدة الانتباه . وليست الأحكام العملية مقصورة على الإنسان؛ لأن الأذكياء من الحيوانات العليا كالكلب والحصان والفيل والقرد يمكنها أن تستفيد

بالتجارب العملية المرتبطة بمؤثر خاص كما ذكرنا من قبل فى موضوع التفكير(١)؛ فإذا وضعت كلبا فى قفص أغلق بابه، ثم فتحت المزلاج أمامه خرج من القفص. وإذا كررت العملية ووضعته فى القفص، وأغلقت عليه فإنه يقلدك، ويفتح المزلاج بنفسه، ويتخلص من حبسه فى القفص. وهذا يعد شكلا أوليا من الحكم العملى؛ أى أن الكلب قد ينتفع بالتجارب المختلفة فى التغلب على المشكلة التى تواجهه. وإذا وضع القرد فى قفص، ثم أغلق عليه بطريقة تختلف اختلافا يسيرا عن الطريقة السابقة، فإنه قد يصل إلى فتحه بالتقليد العملى. وبالمثل يقال فى الطفل فى مرحلة الطفولة، فإنه يعتمد على الأحكام العملية فى كل ما يقوم به، فهو يقلد غيره فى الحركات والسكنات، ويمكنه أن يدرك العلاقة بين الأشياء، ولو أنه قد يجد صعوبة فى فهمها أحيانا، لصغر سنه، وقلة تجاربه. فلو أغلق صندوق صغير أمامه ثم فتح، فمن السهل أن يكرر هذه العملية. أما كبار الأطفال فإنهم لن يجدوا صعوبة فى إغلاق باب أو فتحه، أو فى تنفيذ الأحكام العملية حتى ولو كانت جديدة؛ لأنهم يستطيعون الاستعانة بالتجارب الماضية التى تشبه تجاربهم ومسائلهم الحاضرة. ويتوقف الحكم العملى أو الآلى على التفكير فى مجموع التجارب السابقة، واختيار النافع منها، والتقاط المظاهر الهامة، وترك غيرها جانبا.

(١) ولكن الإنسان يمتاز بالتفكير والقدرة على الحكم، ومواجهة الحقائق الجديدة، والعمل على حلها، والتفكير فى المستقبل، والنظر فى النتائج البعيدة.

(٢) الحكم العقلى أو الإدراكى :

إذا رجعنا إلى المثال الذى ذكرناه عن الممرض فى حادثة الاحتراق اتضح لنا أنه استطاع أن يسعف الطفل ، ويعالج الحرق ، ويكتسب إعجاب الطبيب ، مستعينا بانتباهه الماضى إلى تجربة قد ساعد فيها الطبيب من قبل فى علاج حرق يشبه الحرق الذى استدعى لمعالجته عند غياب سيده . وإن المشابهة الظاهرية بين هاتين التجربتين قد مكنته من أن ينتفع فى الحادثة الثانية بالتجربة التى شاهدها قبل ذلك فعالج الحرق الثانى ، ونجح فى عمله ، وفعل ما يفعله الطبيب فى هذه الحال . ولكن إذا فرضنا أن المشابهة بين العمليتين كانت سطحية ، أو أن الحرق كان من نوع يخالف الأول ، فإن الحكم العملى لا يصلح هنا . وإذا كرر الممرض نفس العلاج السابق فقد يضر المريض . وفى هذه الحالة ينبغى أن يستدعى الطبيب الذى لا يخدع بالمشابهة السطحية ، ويلبس لكل حالة لبوسها ، ويعالج كل مريض بما يناسبه ، وكل مرض بما يصلح له ، علاجا مبنيا على النظر والتعقل والدراسة والبحث العلمى والتجربة . وليس الفرق بينه وبين الممرض أنه أكثر علما وتجربة فحسب ، بل تجاربه مبنية على ما شاهده بنفسه فى أثناء التمرين ، وما اطلع عليه من تجارب غيره ، وما قرأه ودرسه من الكتب الطبية ، وما وصل إليه ببحثه من النظريات العلمية ، والاختراعات الطبية . ولو صح أن الطبيب والممرض متساويان لأمكن الممرض أن يكون جراحا يقوم بالعمليات الجراحية لو مكث طويلا مع أحد الجراحين ؛ فالطبيب قد درس الطب ، ثم قام بتجربة نظرياته بنفسه ، مستعينا

بتجارب أساتذته ، حتى أصبح قادرا على الانتفاع بالقواعد الطبية والجراحية فى علاج أى حالة من حالات الأمراض التى اختص بمعالجتها . فالحكم العملى الذى استخدمه الممرض حكم قد يصلح فى بعض الأحوال ، وربما لا يصلح ؛ لأنه ليس مبنيا على علم أو بحث ، ولا يناسب كل حالة من حالات الاحتراق . أما حكم الطبيب على المريض مثلا فحكم عقلى أو إدراكى مؤسس على التعقل ، والبحث العلمى ، والتجربة الشخصية وغير الشخصية ، وعلى التجارب الطبية والجراحية المنقولة عن تجارب الشعوب السالفة والحاضرة فى الطب والجراحة .

وقد يقدر الطبيب فى نفسه المرض وعلاجه وهو فى طريقه ، قبل أن يرى المريض ، بمجرد سماعه عن حالة المريض ، والأعراض التى تبدو عليه . ويصل إلى الحكم الذى كان يمكنه الوصول إليه لو انتظر حتى يرى المريض بنفسه . وفى السنين الأولى من اشتغاله بالطب قد يفكر فى حالة خيالية من المرض تشبه فى طبيعتها حالة من الحالات التى رآها ، ويصل إلى حكم يمكنه أن يستعمله فى أحوال المرض الحقيقى فيما بعد . وقد يرجع إلى المسألة فى كتب الطب والجراحة قبل أن يغادر مكتبه ، ويعرف العلاج المناسب الذى نصح به علماء الطب كحل لهذه المشكلة الطبية التى استدعى من أجلها .

فالطبيب فى وصوله إلى الحكم العقلى يستعين بتجاربه وأحكامه السابقة التى وصل إليها بطرق مختلفة . وبكثرة التجربة يستطيع أن يختبر المريض ويصل إلى العلاج أو الحكم فى الحال ، فيقول : « عنده ملاريا » ، أو « هذا الحرق يجب أن توضع عليه ضمادة جافة » . وحينما يصل إلى درجة كبيرة من الخبرة

والمهارة يكون تقدير الحكم لديه سهلا ؛ كالحكم بأن «الجو اليوم جميل» ، فهذا الحكم يعد من البدهيات . وأحيانا يضطر الطبيب الماهر فى الحالات الجديدة أو الغريبة إلى كثير من البحث والفحص والتعليل حتى يصل إلى الحكم أو العلاج الضرورى .

ومن أمثلة الأحكام العقلية التى تحتاج إلى تفكير واستدلال قول العلماء : « العقل السليم فى الجسم السليم » ، «الجسم السليم يؤدى إلى العقل السليم» ، «الصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى » ، « الأجسام تتمدد بالحرارة وتتقلص بالبرودة » ، « كل كائن من الكائنات الحية يحتاج إلى غذاء » ، «أبناء المعتوهين معتوهون » ، « أبناء المسلولين لديهم استعداد للسل » ، « الأرض تجذب كل الأجسام إليها » ، « المعدن موصل جيد للحرارة » . فهذه الأحكام وما شابهها تحتاج إلى تفكير وبرهنة ، ونظر واستدلال .

(٣) الحكم البدهى أو السريع :

يرى العلامة « ما كلينان [1] » أن الحكم البدهى هو الحكم الوسط بين الحكم العملى والحكم العقلى ، كحكم الرجل الخبير الذى اكتسب مهارته بالخبرة والدراسة ، أو كحكم الطبيب الماهر على المريض بمجرد النظر إليه من غير تردد أو احتياج إلى فحص ؛ فإنه يرى ما لا يراه المبتدئ من الأطباء . والبدهى فى نظره قد يكون غامضا فى نظر غيره ؛ فبينما يفكر بعض الأشخاص المبتدئين فيما

راجع :

(1) Mac Lennan Stages in the Development of Judgment in Dewey's Studies in Logical Theory p.p. 139. ff

يجب أن يفعل فى مثل هذه الحال ، تجد الخبير يحتاج إلى نظرة واحدة لمعرفة المسألة التى تعرض عليه ، والحكم عليها بسرعة ، لأنه قد سبق له العلم بها ، وقد فكر فيها من قبل ، وعرف فائدتها وطريقتها فيتحرك فى الحال لتنفيذها ويصل إلى الحل والنتيجة فى الحال . ولا تنتظر سرعة الحكم من الطبيب فى مرضاه ، والمحامى فى قضاياه ، والقائد فى مواقعه ، والسياسى فى شئونه إلا إذا كانوا خبراء فى مهنهم ، ماهرين فى أعمالهم ، دقيقين فى ملاحظاتهم . فالحكم البدهى أو السريع هو ذلك الحكم الناشئ عن العلم والخبرة والتجاريب . والحكم فى هذه الحالة يشبه ما يكتسبه الإنسان بطريق العادة وكثرة التجربة . ويختلف الحكم البدهى — الذى أصبح بدهيا بالخبرة — عن الحكم العقلى فى أن الأول أصبح غالبا فى غنى عن التحليل والتركيب والتعليل التى لا يستغنى عنها الحكم العقلى ؛ لأن النتائج والحلول تأتى بسرعة ، وتعرف بنظرة واحدة ، والجزئيات والكليات تبدو فى الحال . ومن الأحكام البدهية تلك الأحكام المعروفة من قبل ، والمكتسبة من الوراثة الاجتماعية ، والمحادثة اليومية التى لا تحتاج إلى تفكير مطلقا ، مثل : هذا منزل ، وهذه برتقالية ، الصدق فضيلة ، الكذب رذيلة ، الجو جميل ، الجو بارد ، السماء فوقنا ، والأرض تحتنا . فهذه الأحكام وما شابهها لا تستدعى تفكيرا ؛ ولذا تسمى بدهية أيضا بالنسبة إلينا لا بالنسبة إلى الأطفال أو المتوحشين من بنى الإنسان . ويرى (تِتْخِنَر) أن الأحكام التى لا تحتاج إلى أى تفكير ليست أحكاما وإنما هى مجرد خواطر كما ذكرنا من قبل .

(٤) الأحكام الخاصة أو الفردية[١] :

هى تلك الأحكام التى تثبت شيئاً أو تنفيه عن شخص أو فرد من الأفراد سواء أكان ذلك الحكم صائباً مثل: مصطفى كمال تركى، نابليون ليس بمصرى، أم خطأ مثل : مصطفى كمال مصرى ، ونابليون ليس بفرنسى :

(٥) الأحكام العامة أو الكلية[٢] :

هى الأحكام التى تثبت شيئاً لجميع الأفراد أو تنفيه عنهم ، مثل : جميع الأحياء فى حاجة إلى الهواء ، لا شىء من الأحياء فى غنى عن الهواء . وهى مرادفة للقوانين والقواعد العامة مثل : « كل البذور تحتاج إلى حرارة ورطوبة حتى تنبت . »

(٦) الأحكام الجزئية[٣] :

هى التى تثبت حكما أو تنفيه عن بعض الأفراد ، مثل بعض المصريين متعلمون ، كثير من الصدف يؤخذ من البحر الأحمر ، بعض أطباء مصر ليسوا بمصريين .

(1) Individual Judgments. (2) Universal or Collective
(3) Particular

فالأحكام تختلف فى نوعها باختلاف القضايا التى تمثلها ، وأهمها الأحكام العامة ، ولكن الحصول عليها صعب لقلتها ، بخلاف الأحكام الفردية والجزئية فإنها كثيرة . وكما أن القضايا الحقيقية تحلّ بالأحكام ، فكذلك القضايا الخيالية المفروضة التى يفرضها المشرعون ويتخيلونها ، ويفرضون لها الفروض ، ويضعون لها المقدمات ، ويقدرون لها النتائج والأحكام .

(٧) الأحكام التحليلية[1] :

يقصد بها تحليل الشىء المركب إلى أجزائه المختلفة التى يتكون منها لفحصها والمناقشة فيها ، ومعرفة العلاقة بينها ، للوصول إلى قاعدة عامة ، مثل : الماء يتكون من الأكسوچين والهيدروچين .

(٨) الأحكام التركيبية :

هى النتائج التى تحدث من ضم الأجزاء المختلفة للأشياء بعد فحصها ومعرفتها والتوحيد بينها ، مثل : من الأكسوچين والهيدروچين يتكون الماء. ففى التحليل نسير من الكل إلى الجزء ، ومن العام إلى الخاص . وفى التركيب نسير من الجزء إلى الكل ، ومن الخاص إلى العام . وجميع أنواع الحكم تستلزم التحليل والتركيب للتأكد من النتائج والتثبت منها .

---

(1) analytic.

حبا فى الفائدة قد ذكرنا هنا أنواع الحكم الفردى والكلى والجزئى والتحليلى والتركيبى وإن كانت صلتها بعلم المنطق أكثر وأقوى من صلتها بعلم النفس .

صفات الحكم :

قبل الحكم تكون دعوى كل من المتقاضين فى موضع الشك ، فيأخذ القاضى فى بحث دعوى الطرفين ، وفحص حقائقها ، واستماع الشهود ، والمناقشة فيها مع مراعاة القانون لمعرفة الصواب من الخطأ ، وفصل الحق من الباطل ، والوصول إلى الحقيقة وهى الحكم الأخير . وبالوصول إلى هذا الحكم تحدد النتيجة التى كانت خفية مشكوكا فيها ، وتتبين الحقيقة . وحقائق القضية هى الأدلة والوقائع المتعلقة بها التى تذكر للوصول إلى نتيجة أو تكوين حكم .

وعند التفكير فى الحكم يستعين الحكَم بتجاربه ، وقد يستدل بالإشارة اليسيرة على معرفة الحقيقة . وقد يخدع بالمبالغة والمظاهر الخلابة ، ولذا يجب ألا يستهين بصغائر الأمور فى القضايا ، وألا يغتر بالمظاهر . ويحتاج الإنسان فى الحكم إلى خبرة ومهارة ، وحذق وبصيرة ، ومعرفة بالقانون ، ودراسة نفسية المجرم ، وفطنة ، وحضور بديهة ، ومقدرة على الحكم . وهذه المقدرة بعضها فطرى هبة من عند الله ، وبعضها مكتسب ناشئ عن الخبرة والتجاريب التى حدثت للشخص فيما مضى .

ومن الصفات الجوهرية التى يجب أن يتمسك بها الحكَم حتى يكون مصيباً فى حكمه : العدالة واليقظة والانتباه والصبر وحب الاطلاع والتجربة .
أما الغفلة والصلابة وسوء النية والميل إلى الأذى ، وتقلب الخاطر ، وسرعة التأثر ، وكثرة الكلام والطيش فلا يجوز أن يتصف بها القاضى . وليس

الحكم من الأمور الهينة السهلة ، فهناك دائما مخاطرة كبيرة عند الاختيار والحكم . ولذلك تجد القاضى المفكر العادل يحكم وهو مشغول البال ، قلق الفكر ؛ خوفاً من أن يخطئ فى حكمه ، فيعفو عن المجرم، أو يعاقب البرىء.

وبإصدار الحكم يُقفل باب الجدل والمناقشة فى القضية ، وبانتهائها يكون الحُكْم بمثابة مبدأ أو قاعدة يمكن الاسترشاد بها فى الأحوال التى تشابهها فى المستقبل كحكم القاضى فى المحكمة ، فإنه يوقف النزاع ، ويساعد فى الأحكام التى تشبه هذه القضية فى المستقبل إلا إذا حدث ما يدعو إلى تغيير هذا الحكم . وبهذه الطريقة يمكن وضع قواعد قانونية بالتدريج تصبح قانوناً يسترشد به المحامى والقاضى .

الصفات التى يجب أن تتحقق عند الحكم

إن أحكام الإنسان كأفكاره تختلف فى درجة الصواب والخطأ ، والكمال والنقص . ويختلف الناس فى حكمهم ؛ لاختلافهم فى عقولهم وميولهم وبيئتهم . وأهم الصفات التى يجب أن تتوافر فى الحكم الجيد هى :

(١) الوضوح : بمعنى أن المدركات الكلية التى يتكون منها الحكم تكون واضحة ، وكذا العلاقة بينها . فالحكم بأن « الصدق منج » يكون واضحا فى نفس المتعلم بقدر وضوح معنى كلمتى : « الصدق » و « منج » فى نفسه ، وبقدر وضوح العلاقة بين الصدق والنجاة فى نظره ؛ لأن الحكم لا يكون

جليا واضحا إلا إذا أدرك العقل كل ما يتعلق به من محكوم عليه، ومحكوم به، ورابطة بينهما.

أما أسباب الخفاء والغموض فى الحكم فهى :

(ا) الخفاء فى العبارة وعدم تحديدها.

(ب) ضعف الملاحظة مما يؤدى إلى الإبهام والخفاء فى إدراك الأشياء على حقيقتها، وفهم العلاقة بينها. فالشخص إذا لم يلاحظ المادة وموضعها بالنسبة لغيرها من المواد الأخرى المتصلة بها ولم يراع الترتيب الطبيعى للحوادث بدقة — لا يستطيع الحكم على هذه المادة.

(ج) ضعف التذكر يؤدى إلى خفاء الحكم ويعوق وضوحه، فإذا لم يستطع العقل أن يستحضر ويتذكر صفات الشىء ومميزاته فإنه لا يستطيع أن يحكم عليه حكما محدوداً مضبوطا. وكذلك نسيان كثير من الحقائق بعد تركها مدة طويلة من غير إعادة أو مراجعة قد يكون سبباً فى خفاء الحكم وعدم وضوحه. فالولد إذا نسى الأسس التى بنيت عليها قاعدة من القواعد أو عقيدة من العقائد ربما لا يدرك ما تتضمنه هذه القاعدة أو هذه العقيدة إدراكا جليا واضحا، وقد يخطئ فيها إذا سئل عنها.

(د) تغلب العاطفة والوجدان على العقل فى أثناء الحكم قد يكون عقبة فى سبيل ملاحظة الشىء ملاحظة دقيقة، وتمييز الأفكار بعضها من بعض مما يؤدى إلى المبالغة بل الخطأ فى هذا الحكم الذى يصدر تحت تأثير العاطفة

القوية . كحكم المحب لصديقه ، والعدو على عدوه ، وكالأحكام والاعتقادات التى يقبلها الإنسان من غيره بدون تفكير أو تحكيم للعقل ، فإنها كثيراً ما توصف بأنها لا تتفق مع العقل وهذا يفسر قول الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة * ولكن عين السخط تبدى المساويا

فإن هذه العين التى تتأثر بالرضا أو السخط قد تبالغ فى الحكم ، فتصور الحسنة بالسيئة ، وتبدل السيئة بالحسنة ، فتغير الحقائق ، وتشوه الأحكام ، فتجعل الحق باطلا ، والباطل حقا ، فيكون الحكم مبهماً يدعو إلى التساؤل والاستفهام .

(٢) الدقة :

قد تكون الأحكام دقيقة ، وقد تكون غير دقيقة ، كالأفكار سواء بسواء . فالحكم الدقيق هو الذى يتفق مع الحقيقة والواقع كل الاتفاق ، ويعبر عنه بعبارة صحيحة واضحة ، بحيث لا تتعارض المقدمات مع النتائج ، أو الأسباب مع المسببات . وإن القضايا الخفية التى لا تفهم بوضوح كثيراً ما يساء فهمها ، ويصعب الحكم فيها . ومما يؤدى إلى التساهل فى الحكم وعدم الدقة فيه :

(ا) عدم الدقة فى الملاحظة والخطأ فى الاستنباط للإهمال أو لقلة التجارب .

(ب) تغلب العاطفة والوجدان قد يؤدى إلى تغيير الحقائق والمبالغة فى الحكم ، فيصير بعيداً عن الحقيقة . ولذا يجب على القاضى والمدرس أن يجردا أنفسهما من سيطرة العاطفة والأهواء فى أثناء حكمهما ، وأن يحكما العقل

لا العاطفة فى كل ما يصدرانه من الأحكام ؛ حتى تضمن العدالة ، ويعرف الحق من الباطل ، وينال كل فرد حقه .

(ج) نقص تجارب الحكم ، وجهله بالحياة الاجتماعية وبالظروف التى تحيط بالمذنب ، والبيئة التى يعيش فيها ، مما يكون سببا فى عدم الدقة فى الحكم.

(د) إهمال القوانين والنظم التى تجب مراعاتها عند الحكم .

(٣) عدم التردد فى إصدار الحكم عند الوصول إلى النتيجة :

ذكرنا فيما مضى أن من صفات الحكم الجيد الوضوح والدقة ، ونذكر هنا أن من الصفات المستحسنة أيضا فى الحكم عدم التردد عند الوصول إلى النتيجة الأخيرة ؛ فالعقل الذى يتردد فى الحكم ، وتنتقل به الميول التى تتنازعه وتسيطر عليه من هنا إلى هناك ، ولا يستطيع التغلب على هذه الميول ـ يعد ضعيفا لا يصلح للحكم .

ويلاحظ أن الأطفال كثيراً ما يتسرعون فى الحكم وهو خطأ ، وأحيانا يترددون إذا سألتهم : أى هذين الشيئين أحسن ؟ متأثرين ببعض المؤثرات المسيطرة على عقولهم . وهو خطأ أيضا يجب تداركه ، وتعويدهم التروى ثم التنفيذ عند ظهور النتيجة . وإذا قلنا بعدم التردد فليس معنى ذلك أننا نطالب بالتسرع فى الحكم ؛ فإن التسرع أيضا من العيوب التى يجب تجنبها فى الحكم ؛ لأن الحكم الجيد يقتضى التروى والتفكير فى القضية وظروفها ، والبواعث التى أدت إليها ، وفى نفسية المجرم والشهود ، والتفكير فى الشهادة ، وهل هى تتفق مع العقل والمنطق أم لا . وبعد دراسة القضية ومقدماتها ، والانتهاء منها ،

الوصول إلى النتيجة يمكن ذكر الحكم وهو النتيجة . وإذا قلنا بأن التردد في الحكم خطأ فكذلك التسرع فيه ، والتوسط خير الأمور .

(٤) ثبات الحكم واستقراره :

إن ثبات الحكم واستقراره من الصفات التى ينبغى أن تكون فيه بحيث لا يكون وقتيا ؛ فإن الحكم بشىء اليوم وبضده غداً معناه أن قوة الحكم لدى الشخص ضعيفة غير مهذبة . وفى الطفولة يكثر التردد فى الفكر فتجد الطفل يناقض نفسه فى حكمه على الأشياء وقيمتها ؛ لقلة تجاربه ، ونقص تربيته العقلية ، وعدم تهذيب قوة الحكم لديه ؛ فتراه يثبت اليوم ما نفاه بالأمس .

وإننا لا نقصد بثبات الحكم واستقراره أن أحكامنا يجب ألا تتغير مطلقا؛ فإن الأحكام قابلة للتغير بحسب التأثيرات والظروف الجديدة ، والتطورات فى الآراء والقوانين والاختراعات . كما لا نقصد بهذا الثبات العناد أو المكابرة فى الحكم ؛ فإن الرجوع إلى الحق عند ظهوره خير من التمادى فى الباطل. والجمود العقلى أو عدم اللين يدل على قلة فى التجربة ، وضيق فى العقل . ومن الأمور الأساسية فى التربية العقلية الاستعداد لقبول كل رأى جديد ما دام صحيحا يقبله العقل ، ويؤيده الدليل . ويقل الجمود العقلى أو عدم المرانة لدى الأطفال ؛ لأنهم عادة يقبلون ما يلقى عليهم من الآراء حينما يدركونها ، ويتأثرون بأفكار غيرهم ممن يحيطون بهم . فجودة الحكم تستلزم أن يكون وسطا بين هذين الطرفين وهما : (١) التقلب وعدم الثبات (٢) العناد بغير حق ، بحيث يكون ثابتا ، قابلا للتغيير إذا ثبت خطؤه . فالقاضى كما يجب عليه أن يثبت على رأى من الآراء كذلك

يجب عليه أن يخضع للحق إذا ثبت خطله فى رأيه ، وألا يكون معاندا متمسكا بحكمه إذا أظهرت له الظروف والعلوم والتجارب وجوب تحويره أو تغييره .

(٥) الاستقلال فى الرأى مع احترام آراء الغير :

هناك صفة أخرى يجب أن تتوافر فى الحكم أو القاضى ؛ تلك الصفة هى الاستقلال فى الرأى مع احترام آراء الغير . وليس الغرض من هذا أن يرفض الإنسان آراء غيره ، ويستخف بمعتقداتهم وأحكامهم ؛ فهذا يعد غرورا وعنادا ، وجمودا عقليا . بل الغرض أن يكون لدى الحكم نصيب كبير من الاستقلال فى التفكير والرأى ، مع احترامه لما يقوله غيره ، مادام مطابقا للحقيقة والواقع ، بحيث لا يخضع من غير تفكير لما يلقى عليه من الآراء ، ولا يستهين بآراء غيره مادامت صحيحة . ومن الخطأ أن يثق الإنسان بكل مايقال له من غير أن يفحص عنه ، ويزنه بميزان العقل والعدالة .

(٦) العلم بالشىء :

لا يستطيع الشخص أن يحكم على الشىء حكما صحيحا إلا إذا كان على علم وخبرة به . وإن الحكم من غير معرفة كثيرا ما يكون مشوبا بالخطأ .

ترتيب الأحكام وتنظيمها

وينبغى ترتيب الأحكام التى وصل إليها العلماء بالبحث والتجربة ترتيبا دقيقا بحيث يرتبط بعضها ببعض ، ويتكون منها مجموعة علمية منظمة . وكل علم من العلوم — كالطبيعة ، وعلم النبات ، وعلم الاجتماع — ما هو إلا مجموعة علمية من الأحكام والقواعد العامة المرتبة المستنبطة من التجارب المختلفة لتكوين وحدة علمية متشابهة متصل بعضها ببعض ، اتصالا يسهل تذكرها ، والانتفاع بها عمليا فى أى وقت انتفاعا تاما .

ويتطلب العلم وضع هذه الأحكام والقواعد العامة بشكل مجموعة متلائمة مرتبة . فإذا لم تكن متلائمة فإنه يجب البحث ثانية فى المقدمات والتجارب التى استنبطت منها ، وتحليلها مرة أخرى تحليلا دقيقا ، والموازنة بين بعض الحقائق وبعض بكل دقة ، واستنباط النتائج ، وتكوين أحكام من جديد مع اتخاذ طريقة الاستقراء فى الوصول إليها ، وطريقة القياس فى إثباتها ، والتأكد من صحتها .

وفى الجامعات الأوربية والأمريكية كثيرون من علماء البحث يقضون أوقاتهم فى البحث عن أشياء قد يظن أنها محالة ولا يمكن تحقيقها ، أو أنها بعيدة عن الأمور الجوهرية فى الحياة . وإذا سئل هؤلاء العلماء عن السبب فى قضاء وقتهم الثمين الذى لا يقدر فى حل قضايا لا يمكن تنفيذها عمليا قالوا إنهم لا يبحثون إلا وراء الحقيقة ، طلبا للحقيقة ، وحبا للوصول إليها . وما الحقيقة

إلا اسم لحكم منظم يقبله العقل والمنطق . وإن الحقائق والقواعد التى لاقيمة لها عمليا عند استعمالها فى شئون الحياة قد يكون لها فائدة نظريا فى تقريب الطرق العلمية من الكمال . وإذا لم تظهر لها فائدة عملية فى الابتداء فقد تفيد فائدة كبيرة ، وتثمر ثمرة عظيمة فى النهاية ، فى مسائل الحياة ، بطرق مختلفة قد تمر علينا ولا ندركها .

وإن الفلسفة وهى علم العلوم (١) وإن كانت « لاتطعم كعكا » (٢) كما يقول الإنجليز فى أمثالهم — لاعتقادهم أنها غير عملية — لها أثر كبير فى تحسين صنع الكعك ؛ لأن الفلسفة تؤدى إلى تنظيم المعلومات ، وربط الحقائق العلمية بعضها ببعض بطريقة مرتبة ، ولهذا التنظيم أثر كبير فى الحياة العملية. وكم استفدنا من نظريات العلماء التى كان يظن فى بادئ الأمر أن من المحال تنفيذها وتطبيقها عمليا . وما الاختراعات الحديثة إلا أثر من آثار التجارب العلمية التى كان يقال إنها لافائدة منها ؛ فالزراعة قد تقدمت فى البلاد المتمدنة ، والطب قد أسس على أساس جديد أكثر متانة ودقة ، والصناعات تطورت تطورا عجيبا . كل هذه نتيجة للأبحاث والنظريات العلمية . وإن الطبيعة لم تزودنا بكل مانريده من الأشياء الكمالية ، ولكن العقل والتجربة يسهلان الاختراع الموصل إلى الكمال فى الحياة .

ويجب على المربى ألا ينسى أن عمله يحكم عليه فى النهاية بالمستوى العملى الذى وصل إليه تلاميذه ، بحيث يكون لمعلوماتهم فى آخر الأمر فائدة عملية . وإن الواجب الإنسانى يقتضى العمل للانتفاع بالعلم النظرى فى حياتنا العملية .

---

(١) "Science of Sciences" (٢) Philosophy bakes no cakes.

والبحث ولو أنه ينشأ عن رغبة شخصية كثيرا ما يؤدى إلى رقى المجتمع . وربما لا يفكر الباحث فى أثناء بحثه فيما يمكن أن ينتجه بحثه من الفوائد العملية . وربما لا يكون الباعث له على البحث حب الوصول إلى الحقيقة فحسب ، بل اللذة والرغبة فى البحث حبا للاطلاع . والمجتمع هو الذى يستفيد بنتيجة البحث ، ويجنى ثماره فى النهاية .

تربية قوة الحكم

إن تربية قوة الحكم لدى الطفل تبتدئ مع تربية قوة الملاحظة لديه ، وترتبط بها تمام الارتباط ؛ وذلك بتشجيعه على الموازنة بين بعض الأشياء وبعض من جهة الاختلاف والتشابه بينها ، وملاحظة أشكالها وحجومها ، والمسافات التى بينها (١) ، ثم التعبير عما لاحظه من النتائج ، باستمالته إلى وصف الشىء الذى يراه ، وقص ما حدث له من الحوادث ، وتمرينه على إعادة ما سمعه تماما ، وعلى قبول الخبر إن كان صحيحا ، ورفضه إن كان خطأ ، وتعويده الدقة فى القول ، بتهذيب ما لديه من الميل الطبيعى إلى المبالغة فيما يقول ، وبتعويده التفكير فيما يستعمله من الألفاظ وفهم مضمونها . وبهذه الوسائل يستطيع المربى أن يعود الطفل التفكير فى القول ، والدقة فى الحكم ، ومقاومة الميول النفسية ، والرغبات

(١) ارجع إلى :
Miss Edgeworth' Practical Education' III. p. 196

الشخصية ، إلا إذا ثبت بالبرهنة حسن هذه الميول والرغبات وصحتها . وهذه من أهم النقط فى التربية الاستقلالية التى ينقاد فيها الشخص للعقل أكثر من انقياده للعاطفة فيما يقوله وما يحكم به .

ويجوز أن نغتفر للأطفال بعض المبالغة فى أحكامهم ؛ لأنهم يجدون مسرة من الزخرفة فى القول والتعبير . أما الشدة المتناهية فى استعمال الدقة فى المرحلة الأولى من الطفولة فقد تؤدى إلى التردد فى الحكم ، وعدم الثقة بالنفس. ولذا ينبغى الحزم فى تربية الطفل ، وتشجيعه على الاستقلال فى تفكيره وحكمه ، وتعويده الدقة من غير التجاء إلى كثرة التردد وقلة الثقة بنفسه .

ويجب أن نفرق فى تربية الحكم بين الاستقلال التام فى الرأى ، والخضوع التام لسلطة الغير ، وأن نعود الطفل تكوين الفكرة والرأى بنفسه، كى لا يقبل ما يسمع من غير تفكير . ولتمرينه على الحكم يجب أن يعود الحكم بنفسه، ولكن لا يعطى كل الحرية فيه ، بل يلاحظه المربى ، ويرشده إلى مواطن الخطأ إذا أخطأ. ولا يستحسن أن يسمح لطفل صغير — تجاربه محدودة، ومعلوماته قليلة — بالحكم فى النقط المعقدة ، والمسائل الصعبة ، وما ينبغى وما لا ينبغى ، وما يجوز وما لا يجوز . ويحتاج المربى إلى حكمة كبيرة ، ومهارة عظيمة ، فى التوفيق بين إعطاء الطفل الحرية التامة فى الحكم ، وبين تقييد حريته فيه تقييدا كبيرا . فيترك له الحرية التامة مثلا فى الحكم على المناظر الطبيعية وجمالها ، والأعمال الفنية وأشكالها ، ويقيده فى الحكم على الأمور المعقدة التى فوق مستواه .

وتنبغى ملاحظة الفروق فى الأمزجة عند تربية الحكم لدى الطفل ،

فللأمزجة والميل إلى القسوة أو الرأفة ، والشدة أو اللين ، تأثير كبير فى الحكم ؛ فالطفل الجبان الكسلان الذى لا يثق بنفسه ، ويميل إلى الاتكال على غيره فى جميع شئونه ، يحتاج إلى تربية خاصة ، تختلف عن التربية التى يحتاج إليها طفل متهور مخدوع بنفسه ، مبالغ فى الثقة بها. فكلاهما يحتاج إلى تهذيب خاص يتفق مع مزاجه وميوله . ومن حيث إن الأمزجة مختلفة فالحكم يختلف باختلافها واختلاف الأذواق .

وبنمو عقل الطفل وذكائه يجب أن توسع دائرة أعماله الحرة حتى يسهل عليه التعود بالتجربة على الحكم ، وأن يعطى مجالا واسعا فى تمرينه على الحكم بنفسه مع إرشاده عند الضرورة . وفى دراسة التاريخ دراسة عقلية مجال للتمرن على الحكم من الوجهة الخلقية وغيرها . وبدراسة الفنون والأدب يتمرن على الحكم بجمال الشىء أو عدمه وعلى النقد الأدبى .

وإن الرجل الذى يحسن الحكم على ما يصادفه من الأمور يعد رجلا مثقفا مهما يكن تعليمه . والمدرسة التى تعنى بتربية القدرة على الحكم لدى تلاميذها وتخرجهم قادرين على وزن الأشياء بميزان العقل ، والحكم عليها حكما صحيحا خير من تلك التى تهمل تربية الحكم لديهم وتخرجهم مخازن متسعة ، مملوءة بالمعلومات ، ولديهم درجات عالية تدل على مهارتهم فى مواد خاصة ، ولكنهم لا يحسنون التصرف فى الأمور ، ولا يزنون ما يسمعونه بميزان الفكر والمنطق .

ويستطيع المدرس أن يعلم التلاميذ كثيرا من الحقائق ، ولكن ليس الغرض تلقينهم هذه الحقائق والمعلومات ، بل الغرض أن يفهموها ، ويدركوا أسبابها

ويصلوا إليها بأنفسهم إذا أمكن ، بحيث تترك لهم فرصة للتفكير كى لايكونوا آلات يرددون مايسمعون . أما إذا صعب عليهم الأمر فيصح إخبارهم بالشىء. وينبغى تشجيعهم على البحث عن الأسباب ، والسؤال كلما شعروا بصعوبة أو احتاجوا إلى الاستفهام ، ثم العناية بتربيتهم تربية عقلية ، وحثهم على الانتفاع بأحكام غيرهم وتجاربهم مع منحهم الحرية فى التفكير للوصول إلى الحكم الصائب.

المراجع بالإنجليزية : —

(1) The first three years of Childhood, by M. Perez, chap. X.
(2) Practical Education, by Edgeworth, chap. XXIII.
(3) The Teacher's Handbook of Psychology, by Sully. chap. XIV.
(4) Psychology, by Angell, pp. 225 - 234.
(5) Logical Bases of Education, by Welton, ch. V.
(6) Psychology applied to Education. by Compayre. ch. VI.
(7) Science of Thought, by Everett, pp. 93 - 105
(8) Psychological Principles of Education. by Horne. ch. XIII.
(9) The Educative Process, by Bagley. ch. X.

الفَصلُ الثالِثُ

الاستنباط

تعريفه :

الاستنباط أرقى أنواع التفكير . وعرفه (ميلر)[١] بأنه « التفكير المنظم » ؛ أى المراعى فيه القوانين والقواعد العلمية . أو هو البحث العقلى بطريقة منظمة ، للوصول إلى حقيقة مجهولة ، بمساعدة حقائق معلومة .

ويختلف عن البحث الآلى كل الاختلاف . فإذا احتجتَ إلى كتاب مثلا وذهبت إلى موضعه فى المكتبة فلم تجده ، فأخذت تنظر هنا وهناك ، تبحث وتفتش عنه فى المنزل ، من غير تفكير منظم فإن ذلك البحث يكون آليا . وإذا وجدت أن البحث بهذه الطريقة متعب ، وغير مجد ، فجلست مفكرا سائلا نفسك ، : أين يمكن أن يكون ذلك الكتاب ؟ أظن أنه حيث وضعته أخيرا . وقد تذكر الغرض الذى كنت تستعمله من أجله ، والموضع الذى تركته فيه ، فتذهب فتجده هناك . فبحثك هذا غير آلى ؛ لأنه مصحوب

(١) فى كتابه : Miller's Psychology of Thinking, p. 291.

بالتفكير ، مؤسس على حقائق معلومة ، وبذلك وفرت على نفسك البحث الآلى من غير جدوى ، والوقت الضائع بلا ثمرة ، والمجهود الذى كنت تبذله من غير فائدة . وإذا لم تفتش فى المنزل والمكتبة عن الكتاب فإنك تبحث فى ذاكرتك على الأقل ؛ لمعرفة بعض الأدلة التى تساعدك على تذكر مكان الكتاب . فتذكر هذه الحقيقة وتلك ، وتفكر فى كل الجهات حتى تذكر شيئا يمكنك من الوصول إلى الشىء المفقود . ومن هذا المثل يتبين لنا أثر التفكير وفائدته فى الوصول إلى الحقائق المجهولة ، ونعرف الفرق بين طريقة التجربة والخطأ أو الصواب من جهة ، وطريقة البحث العقلى من جهة أخرى .

الاستنباط أرقى أنواع التفكير :

إذا قلنا إن الاستنباط هو الفحص العقلى عن الحقائق المعلومة فإنا لم نذكر إلا نصف الحقيقة وتركنا النصف الآخر ؛ فالمستنبط لا يبحث فحسب ، ولكنه يجد أيضا . فكما أنه يفحص عن الحقائق المعروفة ، كذلك يعمل للوصول إلى حقائق مجهولة حتى يجدها . فهو لا يكتفى بأن يفتش فى ذاكرته عن الأشياء المرتبطة بالموضوع الذى يبحث عنه ، بل يفكر حتى يرى الحل واضحاً ، ويدرك الحقيقة الجديدة ، ويلمسها فى موضعها . وهذا النوع من الإدراك هو المسمى « الاستنباط » . فالاستنباط عملية عقلية يراد بها الوصول إلى قاعدة مجهولة ، أو قانون جديد ، بدراسة حقائق أخرى معلومة تكون مؤدية إلى هذه القاعدة المجهولة . وفيه نستدل بالمعلوم على المجهول ، وبالمحس على المعقول .

أمثلة للاستنباط:

ولتوضيح العملية الإدراكية فى الاستنباط نذكر الأمثلة الآتية :

(١) تعارف طالبان جديدان من الطلبة فى إحدى الكليات ، فلما سأل كل منهما الآخر عن أبيه ، وجدا أن أبويهما كانا طالبين بقسم القانون ، بتلك الكلية من قبل . وبالسؤال ثانية عن السنة التى كان بها الأبوان فى الكلية وجدا أنهما كانا بها سنة ١٩٠٠ ؛ أى كان أبو الأول فى نفس السنة التى كان بها أبو الثانى . فاستنبطا من ذلك أن أبويهما يجوز أن يعرف كل منهما الآخر . فهنا مثلا حقيقتان ذكرهما الطالبان وهما : « كان أبواهما فى هذه الكلية بقسم القانون — وكان ذلك فى سنة ١٩٠٠ » . ومن هاتين الحقيقتين استنبطا حقيقة ثالثة جديدة كانت مجهولة لهما من قبل ، وهى أن أبويهما يجوز أن يعرف كل منهما الآخر . فالاستنباط هو النتيجة الأخيرة التى تستنبط من حقيقتين أو أكثر ، وتحتوى هذه النتيجة على حقيقة جديدة تستلزمها الحقائق المعروفة من قبل .

(٢) وإذا وقفت خديجة وفاطمة جنبا لجنب أمكنك أن ترى من الأطول منهما ، ولا يعد هذا استنباطا ، ولكنه إدراك حسى . أما إذا لم تقف إحداهما بجانب الأخرى ، ثم ذكر لك أن خديجة طولها كذا ، وفاطمة أطول منها ببوصتين ، فمن هاتين الحقيقتين يمكنك أن تستنبط أن خديجة أقصر من فاطمة . وهذا استنباط سهل .

(٣) وفى الاستنباط قد تكون الموازنة غير مباشرة ؛ كأن أضع يدىّ

حول جذع شجرة ، فتمس إحداهما الأخرى ، ثم ألفهما حول شجرة أخرى فلا تماسان . فأستنبط أن الشجرة الثانية أغلظ من الأولى ، ولو أنها ربما لاترى كذلك . وإذا قلنا إن :

ا = ب

ب = ﺟ

∴ ا = ﺟ ؛ لأن الشيئين المساويين لشيء واحد متساويان .

فبضم الحقائق المعلومة بعضها إلى بعض يمكن استنباط حقيقة جديدة ، أو قاعدة عامة ، أو مبدأ عام . وباستنباط هذه القاعدة العامة يمكنك الانتفاع بها فى بعض الأحوال الخاصة ؛ كأن يقدم لك بائع الجواهر خاتما من الماس جميل المنظر . ويقول لك : « إن ثمنه جنيه » ، فتذكر القاعدة العامة وهى أن « كل ماس حقيقى غال » ، فتدرك أن هذا النوع من الماس يجب أن يكون تقليديا ؛ لأن أى خاتم من الماس الحقيقى يساوى أكثر من جنيه . وهذا مثل من الموازنة غير المباشرة ؛ لأنك لم توازن خاتما بخاتم ؛ لعدم خبرتك ، ولعجزك عن أن ترى الفرق بينهما بالنظر ، ولكنك عرفت النتيجة من الموازنة بين الخاتم وثمنه ، فوجدت أن الثمن لا يتفق هو والماس الحقيقى .

وإذا كانت الحقائق أو المقدمات صحيحة حسا وعقلا كانت النتائج صحيحة ، وإذا كانت المقدمات خطأ كانت النتائج كذلك . وكما تتبع النتيجة المقدمات فى الصواب والخطأ ، كذلك تتبعها فى الوضوح والخفاء . فإذا كانت المقدمات واضحة كانت النتائج واضحة ، وإذا كانت خفية كانت النتائج كذلك . وقد يؤدى الخفاء فى المقدمات إلى الخطأ فى النتائج ؛ فإذا قلت إن محمداً وعليا

كلاهما يشبه كمالا ، فهل يمكنك أن تستنبط أن كلا منهما يشبه الآخر ؟ قد تظن ذلك لأول وهلة ، ولكن إذا لاحظت أن المشابهة ليست محدودة تماما حتى تصلح للموازنة غير المباشرة ؛ لأن محمدا قد يشبه كمالا فى أمر من الأمور ، وعليا قد يشبهه فى شيء آخر ، وعلى ذلك ربما لا تكون هناك مشابهة بين محمد وعلى. فخفاء المقدمات أو غموضها يؤدى إلى غموض النتيجة .

وقد تكون المقدمات غير منتجة ، كأن تقول :

كل كاتب مصرى واضح العبارة .

لكن (چيمس) ليس بكاتب مصرى .

فهنا لا يمكنك أن تستنبط أن (چيمس) ليس بواضح العبارة ؛ لأن كون (چيمس) ليس بكاتب مصرى لا يستلزم أنه غير واضح العبارة .

الشروط التي يجب أن تتحقق فى الباحث

إن المفكر الذى يبحث فى النتائج لاستنباطها يجب أن يكون صافى الذهن، قوى الملاحظة ، ينظر بعين العدالة والصبر إلى المقدمات التى تعطى له ، حتى يدرك الصلة الحقيقية بينها . وكثيرا ما يساعد الرسم والأشكال الهندسية على توضيح الحقائق الهامة ، وعدم خلطها بغير الهامة . وبذلك يسهل الوصول إلى النتيجة الصائبة .

والاستنباط مبنى على معرفة أوجه الشبه بين الحقائق المعلومة ، والارتباط بينها . فأنا مثلا قد أستدل على أن السماء ستمطر إذا نظرت إليها فوجدتها متلبدة بالغيوم ، ووازنت بين منظرها الآن ، ومناظرها التى رأيتها من قبل ، تلك

المناظر التى تبعها نزول المطر . فملاحظة تلبد الغيوم من قبـل ، ثم نزول المطر بعـد ذلك يجعلانى أتنبأ بنزوله حينما أرى السماء متلبدة بالغيوم . وبالاستنباط يمكننا أن نعرف أشياء جديدة من حوادث مرتبطة بها .

ومجمـل القول أن الاستنباط (inference) هو أرقى أنواع التفكير ، ويكون بفحص حقيقتين فأكثر من الحقائق الواضحة الصحيحة لاستنباط حقيقة أخرى منها . ويسمى بعضهم الاستنباط بالاستدلال ، ولـكن هذه التسمية لا تصلح إلا فى الاستنباط القياسى .

الاستنباط الأوّلى والراقى

قد يكون الاستنباط أوّليا ، وقد يكون راقيا : فالأول كانتقال العقل سريعا من حقائق خاصة إلى حقائق أخرى بدون ذكر للسبب أو الأساس الذى بنيت عليـه النتيجة . كالاستنباط الفطرى للحيوانات الدنيا حينما تشـعر باقتراب الفريسة ، أو اقتراب الأعداء . وكاستنباط الأطفال قبـل أن يعرفوا استعمال اللغـة العامة والأفـكار المجردة ؛ فإن استنباطهم للنتائج فطرى ناقص يحتاج إلى تهذيب . وهناك فرق بين الاستنباط الأولى والاستنباط المنطقى ؛ فالاستنباط الأولى ناقص وغير موثوق به ، كاستنباط الطفل ، فإنه قد ينتقل مباشرة من حقيقة إلى أخرى لمجرد المشابهة بينهما كما ذكرنا ؛ كأن يستنبط أن تلك القطعة من الخشب تطفو على سطح الماء ؛ نظرا لأن القطع الخشبية الأخرى قد طفت. ولـكنه قد يكون مخطئا فى استنباطه لأنه لم يسأل نفسه هـذا السؤال وهو : « هـل كل أنواع الخشب تطفو على سطح الماء ؟ » وفى جميع العلوم يستخدم

الاستنباط أو القياس المنطقى لإثبات النظريات والقواعد . ويكون الاستنباط المنطقى بترتيب الأحكام المكونة من قبل ترتيبا منطقيا يبين العلاقة بينها بمجرد النظر إليها ، ثم التعبير عن هذه العلاقة بشكل حكم جديد يستنبط من الأحكام المذكورة — وهذا هو الاستنباط المنطقى أو القياس . وهو صحيح سواء أكانت الأحكام التى حكمنا بها قد استعرناها من غيرنا ، أم وصلنا إليها وكوناها بأنفسنا واستخرجناها من موضوعات أولية .

الصلة بين الحكم والاستنباط

إن هناك صلة كبيرة متبادلة بين الحكم والاستنباط ، كالصلة بين إدراك الكلى والحكم . والاستنباط بشكله الأعلى (وهو الاستنباط المنطقى) لابدأن يسبق بالحكم . ففيه ينتقل الشخص من أحكام وحقائق معلومة إلى أحكام أخرى جديدة . فأساسه الحكم الذى يتخذ وسيلة لاستنباط حكم جديد. وإن الطفل قبل أن يستطيع النقاش فى أن هذه المادة المعينة تطفو على سطح الماء يجب أن يكون قد حكم وعرف من قبل أن جميع المواد التى هى أخف من الماء تطفو عليه . فالاستنباط المنطقى يجب أن يسبق بأحكام أخرى . وفى معظم أحكامنا إن لم يكن فى جميعها تجد عنصرا من عناصر الاستنباط . ولكى تعرف مادة من المواد ويتحقق منها يذهب العقل عادة إلى أبعد مما يلاحظ فعلا فى الوقت نفسه . فمثلا إذا قلتُ : « هذا حجر صوَّان » فأنا أذهب إلى أبعد من ذلك وهو : أنه صلب ، وأن احتكاكه بحجر آخر يحدث شررا

يتطاير . . . الخ : وإذا قلت « هذه القطعة من النقود زائفة » فإننى أذهب إلى أنها ليست فضة مثلا ، وأن منظرها يدل على كذا ، ورنتها يتبين منها أنها زائفة . وإذا حكمت بأن « هذه الصورة ليست جيدة » فقد يستنبط من هذا كثير من الأحكام الضمنية التى فى نفسى وهى : الرسم ردىء ، الظل خفيف ، لا تناسب فى الصورة بين هذا اللون وذاك ، إن ما نراه فى الطبيعة يخالف ما نراه فى هذه الصورة . . . وما إلى ذلك من الأحكام المختلفة التى يلاحظها رجال الفن عند رؤية الصورة . وكل حالة من حالات الاستنباط تستلزم حكما جديدا أو نتيجة جديدة . فطرق الاستنباط تساعد فى الوصول إلى الحكم . وإن الأحكام التى نصل إليها تعد عناصر مبدئية يبنى عليها الاستنباط . فالصلة بين الحكم والاستنباط صلة متينة متبادلة بينهما .

انواع الاستنباط

قلنا إن الاستنباط قد يكون أوليا ، وقد يكون راقيا ؛ أما الراقى فنوعان : استقرائى وقياسى ، ولنشرح كلا منهما فنقول :

(١) الاستنباط الاستقرائى : Inductive inference

هو الذى ينتقل فيه من الأمثلة والأحكام الخاصة إلى القواعد والأحكام العامة :

ويستخدم فى الأبحاث العلمية ، وفى التدريس لصغار التلاميذ . ويسير فيه العقل

سيراً تصاعديا فينتقل من الأمثلة والتجارب إلى القوانين العامة، ويدعو الأطفال إلى التفكير والبحث والاستنباط، معتمدين على أنفسهم وتجاربهم التى يشاهدونها ويلاحظونها فى دراستهم . ففى درس القواعد ننتقل من الأمثلة إلى القاعدة بعد المناقشة فى الأمثلة والموازنة بينها ، وترك الصفات العرضية، وأخذ الصفات المشتركة، ثم استنباط القاعدة منها . وفى درس الطبيعة إذا أريد تفهيم التلاميذ أن « البذور فى إنباتها تحتاج إلى الرطوبة والدفء » يمكننا أن نأتى بستة صناديق صغيرة ، ونضع فى أحدها تربة خصبة رطبة ، وفى الآخر تربة خصبة جافة ، وفى الثالث رملا رطبا ، وفى الرابع رملا جافا ، وفى الخامس قطعة رطبة من الإسفنج ، وفى السادس قطعة جافة منه . ثم نبذر البذور فى هذه الصناديق الستة بحيث تكون البذور مغطاة بطبقة صغيرة من التراب أو الرمل أو الاسفنج . ثم نأتى بستة صناديق أخرى ، ونملؤها ونبذرها بالطريقة عينها ، ثم نضع الستة الصناديق الأولى فى حجرة دافئة ، ونضع الستة الثانية فى مكان تقرب درجة حرارته من نقطة التجمد . ثم يكلف التلاميذ ملاحظة هذه التجارب المختلفة من يوم لآخر ، حتى يمضى وقت يكفى لظهور النبات. وكل صندوق من هذه الصناديق يمثل فكرة من الأفكار العامة ، وتجربة من التجارب. وبملاحظة هذه الصناديق يمكنهم أن يستنبطوا منها الأحكام الخاصة الآتية :

(ا) فى الحجرة الدافئة :

(١) تنبت البذور فى التربة الخصبة الرطبة .

(٢) لا تنبت البذور فى التربة الخصبة الجافة .

(٣) تنبت البذور فى الرمل الرطب .
(٤) لا تنبت البذور فى الرمل الجاف .
(٥) تنبت البذور فى الإسفنج الرطب .
(٦) لا تنبت البذور فى الإسفنج الجاف.

(ب) فى الحجرة الباردة التى تقرب درجة حرارتها من نقطة التجمد:

لا تنبت البذور مطلقا ، سواء أ كانت فى تربة رطبة أم جافة ، فى رمل رطب أم جاف ، فى إسفنج رطب أم جاف .

ومن هذه الأحكام الخاصة يستطيع التلاميذ أن يستنبطوا هذا الحكم العام أو القاعدة العامة : « الرطوبة والدفء ضروريان لإنبات البذور » .

وبالطريقة نفسها يمكن الوصول بالملاحظة والاستقراء ومعرفة أوجه التشابه والتضاد فى الأمثلة إلى استنباط الأحكام العامة ، سواء أ كانت إيجابية أم سلبية . وتعرف جميع القواعد الهامة فى العلوم بطريقة الاستنباط الاستقرائى غالبا . ومن أهم الأمثلة التى يمكن أن يمثل بها فى هذا النوع من الاستنباط أيضا : قانون جاذبية الأرض . ولاستنباطه يستطيع التلميذ أن يلاحظ أن لعبه ، وكتبه ، وملاعقه ، وسكاكينه ، وغيرها من المواد والأشياء تقع جميعها إلى الأرض إذا لم تجد من يمسكها . وبالتدريج يمكنه أن يوازن بين هذه الحقائق ، ويدرك الصفة الجوهرية والحقيقة العامة فيها . فيستنبط أن هذه أجسام مادية ، وأن جميع الأجسام المادية قابلة للسقوط على الأرض أينما وجدت إذا تركت ونفسها ، لجذب الأرض لها . فالاستنباط الاستقرائى نوع من

الاستنباط يقصد به الوصول إلى قاعدة عامة أو قانون عام . وفيه ينتقل العقل من الأمثلة أو الجزئيات إلى الكليات أو الحقائق العامة . وكما أن الاستقراء يكون كاملا كذلك يكون ناقصا ؛ فالاستقراء الكامل كالذى ذكرناه فى إنبات البذور ، وقانون جاذبية الأرض . والاستقراء الناقص كالأحكام العامة التى يستنبطها الأطفال من مثال واحد أو أمثلة قليلة . ففى الطفولة يميل الطفل بفطرته إلى التسرع فى الاستقراء والاستنباط . مثال ذلك ما حدث من طفل عمره سنتان ونصف سنة قد فهمه أبواه أنه سيكبر وينمو فى الوقت المناسب . وقد وجد عصاً صغيرة فأخذ يستعملها كأنها عصا للمشى والاتكاء عليها . فقالت له أمه : إنها صغيرة جدا لا تصلح للاستعمال . فأجابها : « سأستعملها للمشى حينما تكبر » ؛ ظانا أن جميع الأشياء تنمو مثله فى الوقت المناسب كلما كبرت . فاستنباطات الأطفال والجهلة من الناس ناقصة غالبا ؛ لأنها مشوبة بالتسرع ، وعدم الدقة ، وضعف الملاحظة ، وقلة التجربة . ومن الاستقراءات الناقصة أن يقول الولد : «النحل يموت» ، «الطير يموت»، «الخيل تموت» ، ثم يوازن بين هذه الحقائق ، ويستخرج الصفات المشتركة فيها حتى يصل إلى هذه الحقيقة العامة وهى : « كل الكائنات الحية تموت» . ولكى يكون هذا الاستقراء كاملا يجب أن يصل هذه الحقيقة وهى : « كل الحيوانات تموت » بحقيقة أخرى تقرب منها ، قد وصل إليها بالطريقة نفسها وهى : « كل النباتات تموت » ثم يصل هذه بالحقيقة السابقة وهى : « كل الحيوانات تموت » ويستنبط تلك النتيجة المعقولة المقبولة وهى : « كل الكائنات الحية تموت . »

وبإرشاد التلميذ يمكنه أن يتجنب التسرع، وعدم الدقة فى الاستنباط ، ويعود

الحيطة والاحتراس فيه ، والدقة فى فحص الأمثلة واختبارها ، لمعرفة أوجه الشبه الجوهرية وتمييزها من أوجه الشبه السطحية ، فيعرف مثلا أن النمو — فى حكاية العصا — مرتبط بالأشياء الحية ، فيحصر فكره فى الكائنات الحية لا فى غيرها .

وإذا لم يجد الباحث أمثلة يستعين بها على استقرائه فإنه يضطر إلى أن يفرض فرضا عاما ، يناسب التجربة التى يقوم ببحثها . وبعد أن يفرض هذا الفرض يبدأ باستنباط نتائج هذا الفرض . فإذا كانت الفروض صحيحة كانت النتائج كذلك . وإذا كانت غير صحيحة كانت النتائج مثلها . وفى هذه الحال يجب الابتداء من جديد فى فرض فروض أخرى .

والبحث لا يستلزم الوصول إلى النتيجة ؛ فالعالم قد يخفق فى بحثه لإهماله نقطة من النقط مثلا ، وقد يقعد به الضعف أو المرض عن إتمام بحثه ، وقد تكون لديه العزيمة ، ولكنه يكون ضعيفا فى تفكيره وتخيله . وربما لا يرى ما يدعو إلى الفحص والاستقصاء ؛ لأن كل شىء يبدو فى نظره طبيعيا ، ويظن أن العلم قد كمل ، ولم يبق هناك شىء يحتاج إلى البحث والاختراع . وقد وصف العالم (هيلموتز) المخترع الكبير الطريقة التى بها كان يخترع فقال : « إنه كان يزود نفسه فى الصباح بكل ما يستطيع حمله من المعلومات التى يمكنه جمعها عن المادة التى يبحث فيها . وبعد الظهر كان يخرج للتنزه والمشى ، فمن غير أى مجهود يقوم به كانت هذه الحقائق والمعلومات المختلفة تتجمع لديه بشكل جديد ، وتوحى إليه بشروح وتفسيرات وحقائق جديدة لم يفكر فيها هو أو غيره من قبل » . وقد يعجز العالم البحاثة عن رؤية النتائج بوضوح . وربما

لا يكون العالم حاضر البديهة فلا يستطيع أن يرى الحقائق التى تستدعيها الفروض .

الاستقراء العلمى

الاستقراء العلمى هو ذلك النوع المنظم من الفحص والبحث للوصول إلى نتيجة عامة . ويحتاج إلى دقة فى الملاحظة ، ومعرفة كثير من الأمثلة ، وتحليلها بدقة وعناية ، وتقييد نتائج التحليل وآثاره ، والتمييز بين الجوهرى منها والعَرضى ، والضرورى وغير الضرورى . فلمعرفة أسباب الاحتراق مثلا نوازن بين كثير من المواد فى كثير من الأمثلة ، كالموازنة بين احتراق الفحم فى الموقد وبين لهيب الغاز وغيرها . وبتحليل المواد والمحافظة على الجوهرى منها والاستغناء عن العرضى يمكن الوصول إلى إيجاد مواد معينة قابلة للاحتراق والاشتعال بالاتحاد بالأكسوچين .

وتستلزم طريقة الاستقراء العلمى زيادة على ما ذكر العناية بالتجارب . هذا وبتغيير المظاهر والتجارب يمكننا أن نعرف المواد التى يمكن حذفها والاستغناء عنها مع إبقاء النتيجة كما هى من غير إضرار بها ، ونعرف المواد التى لا يمكن حذفها أو الاستغناء عنها . فى البحث عن سبب اتحاد المواد القابلة للاحتراق (بالأكسوچين) نجد أن (النتروچين) فى الهواء يمكن الاستغناء عنه وحذفه ، ومع ذلك يستمر الاحتراق ، فى حين أن الأكسيچين لا يمكن الاستغناء عنه مطلقا .

ومما تقدم يتضح أن الاستنباط الاستقرائى الحسن يقتضى عناية كبيرة وصبرا كثيرا فى البحث ، ويتطلب قوة مدربة على الملاحظة . أما اختبار الحقائق والفحص عنها فحصا دقيقا فيقتضى أمرين :

أولا : أن يكون هناك عدد كاف من الأمثلة والتجارب للفحص عنها.

ثانيا : التحليل الدقيق للبحث عن النتائج التى تلاحظ فى أثناء التجربة .

أما إذا كانت الأمثلة قليلة وغير كافية فإن ذلك يؤدى إلى التسرع فى التعميم واحتمال الخطأ فى النتيجة ؛ كما يحدث حينما يقول الطفل « إن معلمه ظالم » مستنبطا ، ذلك من حالة أو أكثر من الحالات التى حدثت له ، وأدت إلى عقابه ، ناسيا الذنب الذى أذنبه ، أو الإهمال الذى ارتكبه . وأما إذا كان التحليل غير دقيق فإن النتيجة قد تكون خطأ .

ومجمل القول أن الطريقة الاستقرائية تقتضى أن يجرد الباحث نفسه من الميول والنزعات ، وأن يكون مستعدا لقبول أى نتيجة يظهرها له الفحص ، سواء أكان ينتظر هذه النتيجة أم كان ينتظر غيرها ، وسواء أكانت تتفق مع ميوله أو لا تتفق . ذلك إلى ما تستدعيه من صبر فى البحث، ودقة فى التحليل ، وكثرة فى الأمثلة ، وعناية بالنتائج ، وقوة فى الملاحظة ، ومعرفة الأمور الجوهرية من العرضية . وفى بطون التاريخ وعلوم الحيوان والنبات والطبيعة والكيمياء كثير من الأمثلة والتجارب التى يمكن ترتيبها ، وبحثها ، والانتقال فيها من الجزئيات إلى الكليات ، أو من الأمثلة إلى القاعدة أو القانون العام .

(٢) الاستنباط القياسى أو الاستدلال : Deductive inference

قد تكلمنا عن المرحلة الأولى وهى مرحلة الاستنباط الاستقرائى ، تلك المرحلة التى يصل بها العقل إلى حكم عام بعد فحص حقائق وأحكام خاصة والموازنة بينها . والآن نتكلم عن المرحلة الثانية وهى مرحلة الاستنباط القياسى؛ تلك المرحلة التى يطبق فيها الحكم العام على كثير من الأمثلة الخاصة التى تندرج تحته. وبذلك ينتقل من القاعدة العامة إلى الأمثلة التى تتفق هى وهذه القاعدة. فالاستنباط القياسى حركة فكرية تنازلية ، بعكس الاستنباط الاستقرائى فإن الحركة الفكرية فيه تصاعدية . ويعد القياس بمثابة التطبيق على القاعدة التى استنبطت من مرحلة الاستقراء . كأن تذكر قاعدة من القواعد ، ثم تشرحها بالأمثلة التوضيحية ؛ كى تكون واضحة فى نفوس التلاميذ . فبالاستقراء يحصل الطفل بالملاحظة والتعليم والإرشاد على الحقائق والمعلومات العامة . وبالقياس ينتفع بهذه الحقائق والمعلومات العامة فى فهم الأمثلة الخاصة . فإذا عرف أن « كل شخص معرض للخطأ » أمكنه أن يستعمل هذه الحقيقة العامة ، فيقول إن أخاه معرض للخطأ ، ومربيه ومربيته كذلك. ففى الاستنباط القياسى أو الاستدلال ينتقل العقل من القاعدة الكلية إلى الجزئيات لفهم هذه الجزئيات والتثبت منها . ومن الاستنباط القياسى القياس المنطقى . ومثاله فى حالة الإيجاب : سقراط إنسان ؛ وكل إنسان فانٍ ، فسقراط فان . أو القط حيوان ، وكل حيوان يتألم ، فالقط يتألم ، ومثاله فى حالة السلب : هذا الطفل كسلان ، والطفل الكسلان لن ينجح ، فهذا الطفل لن ينجح . أو الولد المؤدب لا يحتقر الفقراء ، وهذا الولد يحتقر الفقراء ، فهذا الولد ليس بمؤدب .

وكما أن معرفة أوجه التشابه والتضاد ضرورية فى الاستنباط الاستقرائى كذلك هى ضرورية فى الاستنباط القياسى .

استخدام الاستنباط القياسى فى تطبيق القواعد وشرحها

يستخدم الاستنباط القياسى فى تطبيق قاعدة من القواعد أو نظرية من النظريات العامة على الأمثلة والتمرينات المتعلقة بها . كما أنه يستخدم فى شرح المسائل التى تحتاج إلى شرح ، وتوضيحها والبحث عن نتيجتها ولو بالاستعانة بقاعدة أخرى معروفة من قبل كوسيلة جديدة للايضاح . فإذا أخبر التلميذ مثلا بأن الهواء له وزن ، وأنه قابل للضغط ، أمكنه أن يستكشف بنفسه أن الطبقات السفلى من الهواء أكثر كثافة من الطبقات العليا . ومن الممكن الابتداء بقاعدة خاصة — لا بقاعدة عامة — ثم نبحث عن قاعدة أعم منها قد تندرج تحتها تلك القاعدة الخاصة . وهذا هو ما يدعى بالشرح أو التفسير[١] . وبالشرح تتضح القواعد الجديدة الخفية أو النادرة بذكر أوجه الشبه بينها وبين قاعدة أخرى معروفة واضحة . وهذا هو الشرح الممكن استعماله مع صغار الأطفال الذين لا يستطيعون فهم القواعد العامة .

الفرق بين الاستنباط الاستقرائى والقياسى وأثرهما فى التعليم

مما تقدم نعرف أن الاستنباط الاستقرائى هو الطريق الطبيعى فى التفكير ، حيث يبتدئ الطفل بملاحظة الأمثلة أولاً للوصول منها إلى القاعدة . ففيه

(١) explanation

يسير العقل من المحس إلى المعقول ، ومن الخاص إلى العام ، ومن الجزئى إلى الكلى. فالحركة الفكرية فيه تصاعدية، وهو أحسن وسيلة للإبداع والاختراع وهو بمثابة التركيب .

أما الاستنباط القياسى فعلى العكس ؛ إذ يبتدئ فيه العقل بالفحص عن القواعد العامة وملاحظتها ؛ للتحقق والتثبت منها ، لمعرفة إن كانت صوابا أو خطأ ، وذلك باختبار الجزئيات التى تدخل تحت القاعدة العامة . ففيه ينتقل العقل من المعقول إلى المحس ، ومن العام إلى الخاص ، ومن الكلى إلى الجزئى . فالحركة الفكرية فيه تنازلية ، وهو بمثابة التحليل والبرهنة .

فالاستقراء يؤدى إلى وضع الحقائق والقواعد العامة وتحديدها كقول سقراط : « العلم هو الفضيلة » . والقياس يؤدى إلى توضيحها واختبارها بالتحليل الدقيق ،وشرحها وتفسيرها، كاستنباط سقراط من القاعدة العامة السابقة أن « الشرير هو الجاهل ، وأن الإنسان ليس بشرير باختياره » . فالاستقراء يزودنا بالقواعد العامة، والقياس يقوم باختبارها والفحص عنها، فهو يتوقف على الاستقراء . ولئن قام الأول بإيجاد القواعد إن الثانى يقوم باستعمالها وتطبيقها .

وتكثر الطريقة القياسية فى معظم الكتب المدرسية القديمة حيث يبتدأ فيها بذكر القاعدة ، ثم يؤخذ فى شرحها بالتمرينات عليها ، وهى طريقة قديمة. أما الكتب الحديثة فتتمثل فيها الطريقة الاستقرائية ؛ فى تعليم اللغات يتعلم التلاميذ اللغة قبل القواعد ، وفى العلوم الرياضية تذكر الأمثلة قبل القاعدة ، وفى الطبيعة يبتدأ بالتجارب والاختبارات قبل النتائج ، وفى التاريخ تذكر التفصيلات أولاً ثم تستنبط منها الأحكام .

وفى الاستقراء تستخدم الملاحظة والشرح ، ويعتاد التلميذ الاعتماد على نفسه فى البحث والاستقلال فى عمله . وإن التلميذ الذى يبحث بنفسه حتى يصل إلى الحقائق مسترشدا بالمعلم يفهم هذه الحقائق ، ويقدرها حق قدرها أكثر من التلميذ الذى يلقن المعلومات والحقائق. ويحتاج الاستقراء إلى كثير من الصبر والوقت . أما القياس فتستخدم فيه الذاكرة والتطبيق ، وبه يعتاد التلميذ الاتكال على غيره فى البحث ، ولكنه يستطيع أن يصل إلى معلومات أكثر فى وقت أقل .

والحق أنه لا غنى عن استعمال الطريقتين فى التدريس ؛ بأن يبتدئ المدرس بالاستقراء ، وينتهى بالقياس ؛ فيأتى بالأمثلة ، ويناقش التلاميذ فيها حتى يصل إلى القاعدة . ثم يطبق عليها شفويا وكتابيا بالتمرينات حتى يتضح الغامض ، ويسهل الصعب ، وتفهم القاعدة . ولا يمكن أن يكون التعليم كله استقرائيا ؛ لأنه يستدعى وقتا طويلا ، وطريقته بطيئة . ولكن يمكن استخدام الاستقراء فى ذكر الأمثلة أولاً لاستنباط القاعدة منها . كما أنه لا يمكن الاعتماد على التلقين بالطريقة القياسية كما فى مدارس اليسوعيين .

يقول (هربرت سپنسر) : « يجب أن نقلل من تلقين الأطفال بقدر المستطاع ، وأن نشجعهم على البحث بأنفسهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . »
وإننا نترك للمدرس الحرية فى استعمال الطريقة التى يراها صالحة ، بأن يستعمل الاستقراء لتكون المادة حية شائقة ، والقياس للتأكد من فهمها ولتوضيحها وتنظيمها وربطها بعضها ببعض .

وتحسن الطريقة الاستقرائية فى بعض العلوم ، والقياسية فى بعضها

الآخر ، والأفضل الجمع بين الطريقتين ، وخاصة فى المدارس الابتدائية . وتعد العلوم الطبيعية والكيمياء وعلم وظائف الأعضاء من العلوم الاستقرائية؛لأنها تحتاج إلى كثير من الملاحظة الدقيقة، والتجربة، والصبر فى الفحص عن الحقائق، وتحليل الظواهر؛ للوصول إلى القوانين العامة، والبرهنة على مطابقة الحقيقة للواقع.

وفى تعليم قواعد اللغة العربية والعلوم الرياضية يستحسن مع صغار التلاميذ اتباع الطريقة الاستقرائية. ولا يجوز معهم استخدام الطريقة القياسية بإعطائهم بعض القواعد قبل إعطائهم الأمثلة وفهمها ، والمناقشة فيها .

وفى المدارس الثانوية والعالية تجد أن جميع العلوم فى الغالب تعلم بالطريقة القياسية ؛ بمعنى أن القياس يلعب دورا هاما فى مرحلة التعليم الثانوى والعالى ؛ فتذكر القواعد والنظريات أولاً، ثم توضح بكثير من الأمثلة والتمرينات عليها . فبالاستقراء نخترع ونصل إلى القوانين العامة . وبالقياس نوضح هذه القوانين بالتطبيق . وتعد العلوم الرياضية من أحسن الوسائل لتعويد الطالب الدقة فى التعبير وفى التفكير .

المراجع بالإنجليزية :—

(1) Psychology of Thinking, by Miller.
(2) The Teacher's Handbook of Psychology, by Sully. chaps. XIV. and-XV.
(3) Psychological Principles of Education, by Horne. ch. XIV.
(4) Senses and Intellect, by Baldwin, ch. XV.
(5) Briefer Psychology, by William James, ch. XXII.
(6) Logical Bases of Education, by Welton, chs. V, VI, and IX.
(7) Psychology, by Woodworth, ch. XVIII.

الفَصلُ الرّابعُ

التعليل : Reasoning

تعريفه :

هو عملية عقلية يراد بها ذكر السبب ، وربطه بالمسبب ، وشرح الأحكام والحقائق الطبيعية وغيرها ؛ لتوضيحها ، أو تثبيتها ، أو التحقق منها .

أمثلة للتعليل :

١ — أنا لا أستطيع أن ألحق بالفرقة ؛ لأن الطبيب منعني من ذلك .
٢ — يجب ألا تؤخر عمل اليوم إلى الغد ؛ لأن للغد أعمالا أخرى تنتظره .
٣ — يجب أن ينام الطفل مبكرا ، حتى يأخذ قسطه الكافي من النوم .
٤ — من حيث إن الحر شديد فيجب ألا يخرج الطفل الآن .
٥ — لقد رضينا بالقيام بهذا العمل، فيجب أن نؤديه خير أداء .
٦ — ينبغي أن تحفظ نفسك من الرطوبة ؛ خوفا من المرض .

٧ — غدا الخميس ، ولذلك سأذهب إلى الخيالة مساء مع بعض الأصدقاء .

٨ — ينبغى ألا ترفع صوتك فى أثناء المحادثة ؛ لأن ذلك ليس من آداب التخاطب .

٩ — يجب أن تضع لعبك فى مكانها ؛ لأن موعد نومك قد حان .

١٠ — لا تحدث ضوضاء ؛ لئلا تقلق أخاك الصغير .

١١ — لماذا تكتب كثيرا عن الطفل ؟ لاعتقادى أن الطفل أبو الرجل ، كما يكون الطفل اليوم يكون الرجل غدا .

١٢ — لماذا تنادى بتعميم التعليم ؛ لأنى أعتقد أن التعليم حق من حقوق الإنسانية، وأنه هو الوسيلة الوحيدة لرقى الأمة .

١٣ — لماذا تقول بتعليم الأم ؟ لأن :

الأم مدرسة إذا أعددتها * أعددت شعبا طيب الأعراق

١٤ — لم تطالب بفتح المدارس ؟ لأن فى فتح المدارس إغلاقا للسجون .

١٥ — يجب أن تستذكر دروسك من الآن ؛ لئلا ترسب آخر السنة .

وما إلى ذلك من الأمثلة التى تشرح فيها الحوادث الكونية ، وتذكر فيها الأسباب ، وتربط فيها العلة بالمعلول ، والسبب بالمسبب .

تعليلات الأطفال

إن التجارب اليومية التى تمر على الطفل وتحدث له باستمرار تبين له معنى السبب ، فسرعان ما يدرك أن الطعام يزيل الجوع ، وأن الماء يطفئ الظمأ ، وأن

الضرب المبرح يؤدى إلى الألم ، وأن أعماله الخاصة تنتج نتائج معينة، فيجد أنه يمكنه كسر العصا بثنيها إذا لم تكن غليظة ، ويمكنه فتح الباب بإدارة اليد أو المقبض ثم دفعه . وعند ما يكبر الطفل يلاحظ أن الأشياء التى تحيط به مرتبط بعضها ببعض بالطريقة نفسها ارتباط العلة بالمعلول ، والسبب بالمسبب . فظهور الشمس مرتبط بضوء النهار ، والمطر ينشأ عنه ابتلال الشوارع . وبهذه الأمثلة وغيرها من التجارب المختلفة من هذا النوع يتبين للطفل بالتدريج معنى كلمة « سبب » . وبالملاحظة والتجربة يترقى حتى يصل إلى هذه القاعدة العامة وهى: « كل شىء يحدث له سبب »

ويكون الطفل فكرته الأولى عن السبب بأعماله التى يقوم بها ، والنتائج التى يراها من تلك الأعمال ؛ فيرى أن رميه للفنجان على الأرض يؤدى إلى كسره ، ويسأل وهو فى سن الثلاث أو الأربع كثيرا عن الأسباب ؛ فيقول مثلا: لماذا لا أذهب إلى المدرسة مع أخى؟ لماذا لم تذهب الخادم إلى المدرسة؟ لماذا تنمو الأزهار ؟ لماذا تتحرك الأشجار والقطار سائر ؟ وما إلى ذلك من الأسئلة المختلفة التى تتطلب ذكر الأسباب .

ويميل الأطفال بفطرتهم إلى الانتقال من الخاص إلى العام بطريقة غريبة فى استنباط الأسباب للحوادث التى يشاهدونها أو يسألون عنها . ويظهر ذلك فى سرعة استنباطهم لأى مشابهة ، وفى تعليلاتهم الأولى ، ظانين أن سبب الأشياء واحد ، وأن الأعمال يمكن أن تنفذ بطريقة واحدة . فقد يظنون أن الحانوت الجميل يحتوى على الأشياء الجميلة ، وأن الحانوت الردىء يحتوى على أشياء رديئة ، وقد حدث ذات يوم أن قال طفل عمره سنتان وعشرة أشهر

تقريبا إنه سيضع ماء مغلى على قطعة من خبز أراد أن يتخلص منها ، ظانا أن الخبز يذوب فى الماء كما يذوب السكر فى اللبن . وهو هنا مخطئ فى فكره وتعليله؛ لاعتقاده أن الخبز كالسكر . ولما رأى أن السكر يذوب فى اللبن وغيره ظن أن الخبز مثله فى ذلك .

وكثيرا ما يخطئ الطفل فى تعليله لتسرعه فى الحكم لأقل مشابهة، ولرغبته فى معرفة السبب ، فيعلل تعليلا لا علاقة له مطلقا بالنتيجة . وقد ناقش طفل صغير عمره سنتان أمه قائلا : « إن اللبن أبيض لأنه من بقرة بيضاء صادف أن رآها من قبل . وذات يوم وجد اللبن باردا فقال « إنه من بقرة باردة » ، معتقدا أن البقرة الباردة تدر لبنا باردا . هذه التعليلات وأمثالها تثير الضحك، ولكنها تدل على إدراك الأطفال للأسباب ، وتدعو مربيهم إلى إصلاح أخطائهم، وتفهيمهم الأسباب الحقيقية ، وتربية قوة الملاحظة فيهم .

نشأة قوة التعليل

قد قلنا فى موضوع الحكم إن قوة الاستنباط تنمو بنمو قوة الحكم. وقلنا إن الاستنباط أرقى أنواع التفكير . وقد لاحظنا عند كلامنا عن التعليلات الناقصة أن التعليلات الأولى للطفل تكون غير متقنة ؛ لضعف ملاحظته ، وقلة تجاربه ، وخطئه فى تشبيهاته ، وسوء فهمه لشرح الحوادث والأشياء التى يراها . وقد حدث أن طفلا فى أوائل السنة الثالثة من عمره سأل أمه هذا السؤال: « من وضع البذور فى البرتقالية » ظانا أن البذور توضع فى البرتقالية؟ كما يوضع الزبيب فى الكعك .

وفى نهاية السنة الثالثة من العمر تجد الطفل عادة يحير أمه من كثرة الأسئلة عن السبب فى كل شىء يراه أو يسمعه ؛ فهو يردد دائما كلمة « لماذا » . وهذا يدل على نمو قوة التعليل لديه ، وعلى أن لديه فكرة غامضة عن أن لكل شىء سببا يمكن شرحه ، أو علة يمكن ذكرها .

وحينما ينمو عقل الطفل تجده يظهر مقدرة كبيرة فى اختيار الأشياء التى يراها، وفى الفحص عنها وتحليلها إلى أجزائها المختلفة، وفى الموازنة بين بعض تجاربه وبعض . وبهذه الوسيلة يستطيع الوصول تدريجيا بطريقة الاستقراء إلى بعض القواعد العامة .

وفى نهاية السنة الرابعة كثيرا ما يلاحظ الأطفال وهم يستعملون هذه العبارات : « بعض الناس » ، « معظم الأولاد » ، « على العموم » مما يدل على قدرتهم على تمييز الأشياء بالتدريج ، وعنايتهم بوضع الحقائق العامة . وقد حدث أن فتاة عمرها خمس سنوات وتسعة أشهر سألت أمها هذين السؤالين : ما الذى يحدث الهواء ؟ هل هناك مروحة كبيرة أحدثته ؟ وفى الغالب يقدر الطفل على تمييز الأشياء بعضها من بعض فى نهاية الطفولة أو بعدها .

وكما أن الطفل يستطيع أن يصل إلى الحقيقة بطريقة البحث الاستقرائى يمكنه أيضا وسنه ثلاث سنوات أو أربع أن يطبق قاعدة سهلة على مثال خاص بطريقة البحث القياسى . والتطبيقات التى يستعملها الطفل كثيرة ؛ فهو يعرف أن هذا الشىء ثقيل ، وأن حمل الأشياء الثقيلة يضر ، وأن الطائر يتألم ، وأن شد أجنحته يؤلمه ، ويعد ذلك من القسوة فى معاملة الطيور . وهذه التطبيقات تحتاج إلى شىء من الملاحظة لمعرفة أوجه التشابه أو التضاد بين الأشياء .

وتظهر قوة التعليل فى معرفة التطبيقات الخفية لقاعدة من القواعـد ، أو نظرية من النظريات ، أو حكم من الأحكام ، وهى تأتى من كثرة التمرينات ، وزيادة معلومات التلميذ عن الحقائق العامة ، ومعرفة طريقة استخدامها والانتفاع بها . وبعد التمرينات السهلة يمكنه فيما بعد — حينما يستطيع البحث القياسى — أن يحل تمرينات صعبة ، ويقوم بالبرهنة على بعض النظريات .

الاختلاف فى المقدرة على الحكم والتعليل

كما أن الناس يختلفون كثيرا فى الميول والمقدرة العقلية كذلك يختلفون فى حكمهم وفى تعليلهم. فالشخص يمكنه أن يوازن بين الأشياء ويفحص عنها جزءا جزءا ثم يحكم ، ولكنه قد يختلف عن غيره فى حكمه ، وبخاصـة القضايا المختلف فيها ؛ فما يعده هـذا عدلا قد يعده ذاك ظلما ، « ولـكل وجهة هو موليها » . وقد اعترف الشاعر الإنجليزى (بوب[1]) بهذه الحقيقة فى شـعره حيث يقول : « إن أحكامنا كساعاتنا ، ليس فيها واحـدة تسير كالأخرى ، ومع هذا فـكل واحد يعتقد صحة ساعته . »

وكما أن الناس يختلفون فى الحـكم كذلك يختلفون فى المقـدرة على تعليل الأشياء ؛ فمثلا قد تعرض على شخصين مسألة من المسائل لحلها، فتجد أحدهما يحلها فى الحال مستعينا بقانون عام أو قاعـدة عامة لها علاقة بها ، فى حين أن الآخر لا يمكنه حلها . وقد يسألان عن الحـكمة فى كذا أو البرهان على كذا ، فيجيب أحدهما ، ويعجز الآخر ؛ إما لأن الأول أقدر على التعليـل من

(١) Pope

الثانى ، وإما لأنه أكثر استعدادا لاستخدام معلوماته القديمة فى الوصول إلى معلومات وحقائق جديدة .

وهذا الاختلاف قد يكون عاما وقد يكون خاصا ؛ فمحمد قد يجيد الحكم على أشياء لا يجيد علىٌّ الحكم عليها ، وقد يظهر تقدما محسا فى أمور فنية تحتاج إلى خبرة وذوق . وبالمثل قد يكون محمد أحسن من علىٍّ فى التعليل دائما ، وقد يظهر فوقه فى نوع خاص من أنواع التعليل . فهناك « عقل استقرائى (١) » يميل إلى الاستقراء والبحث العقلى ، ويجد لذة فى تتبع المظاهر والقوانين ، وملاحظة الحقائق وتحليلها ؛ وذلك كالعالم الطبيعى الذى يبحث فى الطبيعة وخواصها ومظاهرها .

وهناك أيضا « العقل القياسى » الذى يميل إلى الحقائق المعنوية العامة أكثر من ميله إلى الحقائق المحسة ، ويظهر مهارة فى التوحيد بين هذه الحقائق وفهمها وتطبيقها على الأمثلة الخاصة ؛ كالعالم الرياضى الذى يعرف القاعدة أولاً ، ثم يطبقها ويستعملها فى كثير من التمرينات ؛ ليرى صحتها من خطئها ، ويتثبت منها .

وليس الاختلاف فى المقدرة على التعليل مقصورا على ما ذكر ؛ فهذا قد يحسن التعليل فى الجغرافية والتاريخ ، وذاك قد يجيد التعليل فى علم الطبيعة ، وذلك قد يجيده فى النظريات الفلسفية وشرحها . وهذه الفروق التى بين الأفراد فى المقدرة على الحكم والتعليل قد تكون ناشئة عن الاختلاف فى الميول الطبيعية أو الاختلاف فى التربية والبيئة والظروف .

وتستدعى المقدرة على الحكم مقدرة فطرية على تشريح المادة وتجزئتها

---

(١) Inductive mind

وتحليلها ، ومقابلتها بغيرها، وتمييز كل نوع منها من غيره . وللتجارب والتربية والتعليم أثر كبير فى الحكم على الأشياء؛ فدقة الحكم تتوقف على هذه المؤثرات؛ فالحكم على الأشياء الفنية يقتضى رجالا فنيين للحكم عليها بما لهم من الخبرة والتجربة فيها. ومثل ذلك يقال فى المقدرة على البرهنة والتعليل ؛ فالأشخاص يختلفون فى قدرتهم على تعليل الحوادث وشرحها ، واستنباط القواعد من الأمثلة ، وانتزاع الحقائق المطلوبة ، ومعرفة أوجه التشابه أو التضاد . ولتنمية المقدرة على التعليل فى ناحية مايحتاج الإنسان إلى التدرب عليه فى تلك الناحية. فالتلميذ الذى يميل إلى (الميكانيكا) إذا أعطى الفرصة للتدرب على الأعمال (الميكانيكية)، وملاحظة آثار قوى الطبيعة ونتائجها يصير قادرا على تعليل الأمور المتعلقة بهذا العلم .

تربية قوة التعليل

Training of the Reasoning Power

إن تربية قوة التعليل لدى الأطفال تسير يدا بيد وجنبا لجنب مع تربية قوة الحكم . وفى المرحلة الأولى من الطفولة تطالب الأم بإرضاء غريزة حب الاطلاع التى تبدو فى كثرة الأسئلة التى يسألها ابنها رغبة فى الاطلاع والمعرفة، معرفة كل شىء يحيط به من الأشياء الغريبة أو الجديدة . وكثيرا مايظن الآباء أن هذه الأسئلة نصف آلية، ولا غرض للأطفال منها إلا إتعاب آبائهم. والحق أن الأطفال لايقصدون إتعاب الآباء بكثرة الأسئلة، وأنهم حقيقة يسألون رغبة

فى المعرفة والفهـم ، وإن كانت أسئلتهم تدل على تقلب الخواطر لديهم ؛ فبينما يستفهمون عن شىء فى المنزل إذ ينتقلون فجأة إلى السؤال عن شىء رأوه فى الحديقـة ، وهكذا . ولـكن ذلك يوجب كثرة العناية بتعويدهم حسن السؤال وترتيب الأسئلة، كما يوجب إقناع هذه الغريزة بأن تشرح للأطفال ماخفى عليهم وتجيب عمـا سألوا عنـه كلما سنحت الفرصة بطريقة سهلة يفهمونها . ولله در الفيلسوف والمربى الإنجليزى (چون لوك) [1] حيث يقول : « شجعوا ميـل الطفل إلى كثرة الأسئلة بقدر ماتستطيعون، وأقنعوا رغباته ما دمتم قادرين على ذلك » ، وما دام قادرا على فهم ما تقولون .

وإننا إذا نصحنا للآباء والمعلمين بتشجيع الأطفال على أسئلتهم والإجابة عنها فإننا ننصح لهم بالعناية بأن تـكون أجوبتهم بطريقة تشجعهم على البحث بأنفسهم عن أسباب الأشياء، وذلك بأن يفتحوا لهم الباب، ويتركوا لهم القيام بالبقية. وإن كلمة أو كلمات تستخدمها فى إرشاد الأطفال إلى طريق الحل والجواب ستثمر ثمرة حسنة فى وقت ما إذا عودتهم التفكير بأنفسهم والثقة بها فى كل عمل يعملونه. حتى لا يعتادوا الـكسل العقلى ، والاعتماد التام على غيرهم .

وقد تـكون أسئلة الطفل فى بعض الأحوال محرجة، وقد يكون من الصعب الإجابة عنها ؛ فقد يسأل: لماذا السماء زرقاء ؟ ولماذا نرى ماء البحر أزرق ؟ ولم تجرى الأشجار والقطار سائر ؟ وكيف يحـدث النور حينما تضغط على الزر الـكهربى ؟ ولم أرى القمر يبـدو أحيانا صـغيرا وأحيانا كبيرا ؟ وكيف يولد

(١) راجع :
Some Thoughts concerning Education, by john Locke

الإنسان؟.. وما إلى ذلك من الأسئلة التى تحتاج فى الإجابة عنها إلى علم وحكمة فى معاملة الأطفال ومخاطبتهم . وقد حدث أن طفلة عمرها أربع سنين ونصف سنة قد ساقت أمها بأسئلتها إلى أصعب المسائل الفلسفية ؛ فقد رأت هذه الطفلة نحلة على زجاج النافذة ، فأرادت أن تمسكها بيدها ، فقالت لها أمها : يجب ألا تمسكيها أو تمسيها لئلا تلسعك . فأجابت الطفلة : ولم لاتلسع الزجاج يا أمى ؟ فقالت الأم : لأنه ليس له أعصاب . فسألت الطفلة : وما معنى الأعصاب؟ولماذا تحس الأعصاب ؟... فصغار الأطفال يجب أن يعرفوا أن هناك أشياء كثيرة لايمكنهم الآن أن يفهموها، وأن يعودوا أخذ بعض الحقائق أحيانا من غير سؤال أو إلحاح فى معرفة السبب . تقول (جورج إيليت[1]) الكاتبة الإنجليزية : « إذا ذكرت لطفلك البرهان على كل شىء جعلته وحشا غريب الخلقة » ، وهى بذلك تقصد أن هناك نقطا دقيقة قد يسأل عنها الطفل، ويحسن استعمال الحكمة معه فى الإجابة عنها بلغة تناسبه ، مع مراعاة الأدب واللياقة .

ولكن تربية قوة التعليل تحتاج إلى أكثر من الإجابة عن الأسئلة التلقائية التى يسألها الأطفال؛ تحتاج إلى أن يسألهم الآباء والمعلمون عن براهين الأشياء، وعن أسباب الحوادث التى تحدث منهم؛ فسؤالك الأطفال يدعوهم إلى التفكير فى الجواب ، ويستنهض هممهم للبحث عن الأسباب. وإن الاستفهام من الطفل عن الباعث الذى دعاه إلى كذا ، وعن السبب فى كذا يساعده فى معرفة أن لكل شىء سببا خاصا ، وغرضا معينا . وينبغى تعويد الطفل الاستفهام عما

(١) George Eliot

يجهله ، وتوجيه انتباهه إلى الحوادث التي تحدث ، وتشجيعه على البحث لمعرفة طريقة حدوثها . ويجب العناية التامة باختيار المسائل التى تناسبه وتمكنه معلوماته السابقة من حلها ومعرفة أسبابها .

ويجدر بالمربين تحذير التلاميذ التسرع فى التعليل ، والتمسك بالأسباب العرضية ، وترك الأسباب الجوهرية ؛ تجنبا للخطأ فى طرق الاستقراء والقياس وينبغى تفهيمهم طرق استنباط القواعد العامة من الأمثلة ، وتطبيقها على الأمثلة ومساعدتهم فى معرفة الأشياء التى تدخل تحت القاعدة والتى تخرج منها وتعويدهم الدقة فى استعمال اللغة ، خوفا من الإبهام والالتباس .

المواد التي يمكن استخدامها فى تدريب قوة التعليل :

إن تربية قوة التعليل ينبغى أن تبتدئ فى المنزل بوساطة الآباء والأمهات ثم فى المدرسة بوساطة المعلمين والمعلمات ، للحصول على المعلومات العادية فى الحياة اليومية عن الأشياء . وإذا ابتدأت التربية العقلية فى المنزل فمن السهل تكملتها فى المرحلة التالية بالدراسة المنظمة فى المدرسة . وجميع المواد الدراسية تساعد على التربية العقلية التعليلية إذا وضعت فى يد مدرس ماهر ؛ فدراسة الجغرافية الطبيعية يمكن أن تكون وسيلة لدراسة الظواهر الطبيعية أو معرفة أسبابها . والتاريخ إذا أحسن تعليمه يمكن الانتفاع به فى معرفة الأسباب والنتائج للأفعال الإنسانية . ودراسة العلوم قد تستخدم فى تعويد الطفل الدقة التامة فى التفكير ، وفى التعبير ، وفى ترتيب المعلومات ترتيبا منطقيا ، وفى استنباط القواعد العامة بطريقة الاستقراء ، وتثبيتها بالتطبيق عليها بطريقة القياس .

المراجع بالإنجليزية : –

(1) The Teacher's Handbok of Psychology, by Sully, chaps. XIV & XV.
(2) Introducton to Psychology, by Loveday and Green chap. XV. pp. 210 - 230.
(3) Psychology of Reasoning, by Binet.
(4) How we think, by Dewey.
(5) Structure and Growth of the Mind, by Mitchell. pp. 338 - 75.
(6) Principles of Psychology, by James, vol II, ch. XXII.
(7) Logical Bases of Education, by Welton. chs. V, VI, and IX.
(8) Thinking and Learning to Think, by Schaeffer. ch. XVI.
(9) The Psychological Principles of Education, by Horne, ch. XIV.
(10) Psychology, by Woodworth, ch. XVIII.

الفصل الخامس

التفكير الراقى

أهميته :

لسنا فى حاجة إلى المبالغة فى أهمية التفكير والقول بأن تربيته تعد من أهم الأغراض التى يجب أن تعمل التربية والتعليم لتحقيقها والوصول إليها ، بل هى الغرض الأول من الثقافة والتهذيب . وإن تعريف الإنسان بأنه «حيوان ناطق» أى مفكر ولو بالقوة يدل على الفرق الجوهرى بين الإنسان والحيوان؛ فالحيوان تحركه الغرائز والميول الفطرية ، فتصدر منه حركاته وأفعاله غير مصحوبة بفكر أو تفكير . أما الإنسان فيمكنه أن يعمل ـ والغرائز والميول تدفعه ، والوجدان يؤثر فيه ، والتفكير يقوده ، والتربية ترشده ، والتجارب تساعده ـ لتحسين المستقبل والوصول إلى الكمال أو مايقرب منه ، مستعينا بالماضى والحاضر . ومن الممكن تلخيص فوائد التفكير فيما قاله (جون ستوارت مل [١]) من أن استنباط النتائج هو وظيفة العقل ، وهو الغرض الكبير من الحياة ،

(١) راجع .John Stuart Mill, System of Logic, Introduction

وأن الإنسان يحتاج فى كل يوم وساعة ولحظة لزيادة معلوماته ، وملاحظة كل حقيقة جديدة لهـا علاقة بعمله ، حتى تتسع تجاربه ، وتكمل آراؤه . ووظيفة القاضى مثلا ، أو القائد ، أو الطبيب ، أو المزارع المعرفة والتثبت من الدليـل ثم التنفيذ ؛ أى تنفيذ القانون أو الخطة أو التجربة وفق ما وصل إليه كل منهم من النتائج . ويتوقف الحـكم عليهم أو لهم على الطريقة التى بها أدوا أعمالهم، وقاموا بواجباتهـم . فالعقل هبة إلهية ثمينة يجب الانتفاع بها فيما خلقت له وهو التفـكير .

الداعى إليه

إننا نفـكر حينما نشعر بالحاجة إلى التفـكير ؛ كأن يكون الأمر خفيا أو مشكوكا فيـه ، فيستدعى ذلك إعمال الفـكر ، والروية ، والموازنة بين بعض الحقائق وبعض . وإن الطبيعة الإنسانية تقضى على الإنسان بأن يفـكر حينما يعرف أنه لا يصـل إلى ما يرغب فيـه إلا بالتفـكير . ومعظم الناس فى الحياة يستسهلون قبول آراء غيرهم ومعتقداتهم اقتصادا فى الوقت والعمل ، ولـكن ذلك لا يمنع الإنسان أن يفـكر فيما يسمع وما يقرأ ، فلا يقبـل إلا ما يتفق والعقل، وتؤيده التجربة. وقد يفـكر الشخص كثيرا ثم يخطئ فى النتيجة ، وقد يفـكر ولا يستطيع الوصول إلى حل مطلقا ؛ فقد يقضى العالم عدة سنوات فى بحث مسألة واحدة كالوسائل التى بها تمـكن الوقاية من الغازات السامة ، وقد يصـل إلى غايته وربما لا يصل ، وقد يجد النتيجة التى ينشدها وربمـا لا يجدها . وقد يضل الطريق لسبب تافه ، وقد يحصل عرضا على نتائج صحيحة

— حتى فى صعاب المسائل — من غير تفكير . فالتفكير هو تنظيم الحالات العقلية وحصرها فى طريق خاص للوصول إلى نتيجة معينة تطمئن لها النفس. والغرض منه معرفة العلاقة التى تربط الأشياء بعضها ببعض ، والوصول إلى الحقائق والقواعد العامة .

الأمور الجوهرية فى التفكير أربعة وهى :

(١) الشك والتردد أو الشعور بالحاجة إلى التفكير ، لحل مشكلة تواجه الإنسان ، وهذا هو الداعى أو الباعث والمنبه .

(٢) تنظيم الحالات العقلية وترتيبها ، وحصرها فى طريق خاص .

(٣) فحص مايتسنى من الآراء ، وتحليلها ، والموازنة بين بعضها وبعض .

(٤) اختيار أحسنها للوصول إلى الغاية المنشودة .

فالشخص إذا وجد نفسه فى مشكلة ، وكانت معلوماته أو تجاربه ناقصة ، شعر بالصعوبة ، وأخذ يفكر فى طريقة بها يتخلص من هذه المشكلة ، فيضعها أمام عينيه ، ويفكر فى حلها حلا تستريح له النفس ، مسترشدا بما عرفه من قبل ، ويفحص عن كل حل يبدو له ، بعين النقد البرىء ، ويستمر فى بحثه ونقده حتى يصل إلى الرأى الأخير أو النتيجة . ويقتضى هذا تحليل كل رأى ووزنه بالعقل والمنطق ، وتقليب الشىء فى أوضاعه ووجوهه المختلفة ، والموازنة بينه وبين غيره إن أمكن ، حتى نصل إلى العنصر الصحيح فنأخذه ، ونرفض غيره ، ونحتفظ بالأمور الجوهرية ، ونترك الأشياء العرضية .

ويستلزم التفكير انتباها مستمرا نحو غاية معينة ، سواء أكانت معروفة أم مبهمة . أما الفكر المشتت فلا يؤدى إلى نتيجة ؛ كما إذا لعب بالشخص الخيال المطلق وهو يفكر فى الطريقة التى بها يستطيع أن يكون غنيا مثلا ، فتنتقل أفكاره من الشرق إلى الغرب بسرعة كبيرة ، ويتخيل صورا مختلفة للحصول على غرضه ، فيتصور نفسه وقد ذهب إلى رحلة مع جماعة من الأصدقاء ، فى سفينة أبحرت بهم ، حتى وصلوا إلى جزيرة من الجزائر ، فنزلوا على شاطئ مجهول ، نظيف الرمال ، وهناك انتقلوا إلى غابة من الغابات ، أو مغارة من المغارات ، وأخذوا يحفرون فى الأرض بفؤوسهم ، فعثروا على صندوق مدفون تحت الأرض ، غطاؤه جميل ، فكسروه ، فوجدوه يتلألأ ذهبا وفضة ، فهللوا وكبروا ، وفرحوا واستبشروا ، ثم تركوا هذا الصندوق ، والتفتوا إلى يمينهم ، ثم إلى شمالهم فوجدوا كنوزا لا تعد ، هنا وهناك . كل هذه الصور قد يتخيلها الشخص وهو مضطجع على فراشه بين النوم واليقظة . فإذا مارجع إلى عالم الحقيقة وجد أن هذه الصناديق (كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا .)

وأما التفكير الذى يرمى إلى غاية معينة فكأن يضرب عمال السكة الحديدية ، وتتعطل القطر عن السير ، وأنت فى بلدك فى أثناء العطلة تقضى الصيف فى الريف مع أسرتك ، ثم أردت العودة إلى القاهرة ، فتفكر فى الحل ، والمسافة بين البلد والقاهرة تستغرق ست ساعات بالقطار السريع . أتذهب سيرا على الأقدام ؟ هذا فوق المقدرة . أتسافر فى عجلة ؟ إن ذلك يستغرق أياما . أتسافر فى طيارة ؟ إن هذا يستدعى أجرا فوق ما تستطيع . أتأخذ سيارة ؟

نعم . ولكن هب أن (البترول) قد نفد فما ذا تفعل ؟ يمكنك شراء البترول من أى مدينة تمر بها ، ولكن للاحتياط يجب أخذ كمية كافية من البترول. وأخيرا تعزم على السفر بالسيارة ، وتكتفى بهذا الحل . وبينما يفكر الإنسان فى الحل قد يتخيل أمورا حقيقية ، وقد يتخيل أشياء لن تحدث . ويختلف الناس فى مقدرتهم على التغلب على الصعوبات التى تعترضهم ؛ فمنهم من يوفق إلى الحل بغير مجهود كبير ، ومنهم من يحار فى أسهل الأمور (ويغرق فى شبر من الماء) كما يقول المثل العامى ، ومنهم من يظهر مقدرة كبيرة فى الأمور العملية ، ومنهم من يفوق فى إبداء النظريات التى لا يمكن تنفيذها ، ومنهم من يكون ماهرا فى أمر خاص .

الفرق بين تفكير الطفل وتفكير الرجل

ليس التفكير مقصورا على الكبار من بنى الإنسان ؛ فهو هبة فطرية وهبها الله للنوع الإنسانى . وكما أن الرجل يفكر ، كذلك الطفل يفكر . والفرق بين تفكير هذا وذاك إنما هو فرق فى الدرجة والطريقة والترتيب ؛ فتفكير الرجل المتعلم ينتظر أن يكون مرتبا منطقيا . أما تفكير الطفل فسطحى غير مرتب ، ولكنه قد يكون منطقيا . وتبدو عليه علامات التفكير قبل أن يبلغ من العمر ثلاث سنوات ؛ فإذا فقد لعبته بحث عنها ، وإذا غاب رفيقه فى اللعب أخذ فى السؤال عنه ، وإذا كسر فنجانه ، أو سمع الرعد ، أو رأى الطائرة ابتدأ يفكر ويسأل أسئلة مختلفة ناشئة عن حبه للاطلاع ، ولكنها تدل على التفكير . وقد يصيب الطفل فى تفكيره ، وقد يخطئ . وكثيرا ما يكون

السبب فى خطئه عدم الترتيب وسوء النظام . وقد يجد لذة فى التفكير فى تمرين من التمرينات ، أو قطعة من القطع . والمهم وجود الباعث على التفكير .

ويظهر تفكير الطفل وذكاؤه من أقواله ، وتشبيهاته ، وتعليلاته للأشياء وأفعاله ، وحله للمشكلات ، وتخلصه من المصاعب . وإذا أصغيت إلى أحاديث الأطفال التقطت من كلامهم كثيرا من الجواهر ؛ كأن يقول الطفل : لماذا سمى الحمام حماما ؟ ألأن الماء فيه حام؟ لماذا سميت مصفاة ؟ ألأنها تصفى أوراق الشاى ؟ وقد ذكر الدكتور (كمنز[1]) بإفريقية الجنوبية الإنجليزية أن طفلا عمره سنتان وثلاثة وعشرون يوما جلس بجانب أمه فى حجرة الأكل وهى تستعمل آلة الخياطة ، وأخذ يعوقها ويشغلها عن إدارتها المرة بعد الأخرى . فلما حضر أبوه أخذه على ركبته وأسكته ، فسئم الطفل هذا التدخل ، ثم طلب من أبيه أن يذهب معه إلى حجرة الجلوس حيث يوضع الحاكى . فوافقه أبوه، ورافقه لاستماع الموسيقا . وما كاد يفتح أبوه الباب ، ويدخل الحجرة حتى جرى الطفل قائلا : « اجلس وحدك يا أبى » ، ثم رجع وأقفل الباب عليه وعلى أمه . وبهذه الوسيلة تخلص من أبيه . ومما يحكى أن طفلا إنجليزيا عمره خمس سنوات ترك من غير غطاء الفتحة التى يعملونها بجانب باب البيت ليرمى منها الفحم إلى المخزن الأرضى ، فقال له أبوه : لا تفعل ذلك مرة أخرى ؛ فقد يأتى الخباز أو ساعى البريد فيقع فيها ، فتكسر رجله ، فيذهب إلى القاضى ويقول : إن رجله كسرت فى منزلى ، وأصبح عاجزا عن الكسب . ويطلب من القاضى الحكم على بدفع أجرة الطبيب ، وتعويض له كل أسبوع . فأجابه الطفل : لكن

(١) Kimmins

كيف يمكنه أن يذهب إلى القاضى لو كانت رجله مكسورة ؟ فالطفل يمكنه الجدل والنقاش ، ولكنه قد يختلف عن الرجل فيهما . وإذا كانت سنه سبع سنين مثلا ، وكان ترتيبه التاسع والعشرين ، وقلت له أرجو أن يكون ترتيبك الأول فى الشهر الثانى ، فقد يجيبك : لا ! إن من الصعب أن أكون الأول مرة واحدة ، ولكن من السهل أن أكون العشرين ثم العاشر ثم الخامس وهكذا بالتدريج. فهذا الطفل لا نقول إنه مفكر فحسب، ولكننا نقول إنه يفكر تفكيرا منطقيا . ولا نقصد بذلك أن الطفل مصيب دائما ، فقد يخطئ فى تفكيره كما يخطئ الرجل ، ولكن أفكار الرجل تكون أقرب إلى الصواب لخبرته واطلاعه وتجاربه فى الحياة .

تفكير الطفل فى نفسه ونمو أفكاره الخلقية

يبتدئ تفكير الطفل فى نفسه حينما يعرف جسمه وأعضاءه . وهذه المعرفة لا تكتسب إلا ببطء ؛ ففى السنة الأولى من حياته لا يعرف جسمه وأعضاءه ، وقد يعض يده أو ذراعه كأن هذه اليد أو هذه الذراع عضو أجنبى منفصل عنه. ولغيره من المتصلين به تأثير كبير فى تزويده بالأفكار عن نفسه ، وفى تأديبه وتفهيمه الأفكار الخلقية ، كالأدب فى المعاملة والمحادثة حينما يكون قادرا على الفهم . وفى السنة الثالثة من العمر يشعر بالوجدانات الداخلية من المسرات والآلام ، والمخاوف والآمال ، وتتكون لديه فكرة عن نفسه ككائن يحس ويدرك ، ويفرح ويتألم ، وله رغبات كثيرة يريد تنفيذها . وبعبارة أخرى يتدرج ويترقى فى إدراكه ووجدانه ونزوعه .

وبنمو قوة التفكير لدى الطفل تنمو أفكاره عن نفسه ، ويستطيع أن يعبر عن حالاته النفسية الداخلية . والطفل فى المرحلة الأولى من الحياة ينتبه عادة إلى الأشياء التى تحيط به ، وكثيرا ما يتحول انتباهه من شىء إلى آخر؛ لأنه لا يمكنه أن يحصر انتباهه فى الشىء مدة طويلة . ويشعر بالسرور إذا كان هناك ما يسره ، ويتبدل سروره ألماً إذا وجد ما يؤلمه ، ولكن بمجرد انتهاء الحالة الوجدانية الوقتية من سرور أو ألم ينسى هذه الحالة وما يتعلق بها . وفى الابتداء يتوجه انتباه الطفل إلى الأمور المحسة التى يحس بها . أما الحياة العقلية والانتباه إليها والتفكير فى حقائقها ففوق مستواه ؛ لأنها تستلزم مجهودا عقليا فوق مقدرته ، والانتقال به من عالم المحسوسات إلى عالم المعقولات فى الوقت الذى لا يستطيع فيه أن يدرك ذلك العالم الثانى .

ومن العوامل الهامة فى التأثير فى الطفل وتربيته عقليا وأدبيا نفوذ المربين الذين يقومون بتربيته ، وتجاربه الخاصة فى الأمور العقلية والأدبية ؛ فيسر إذا وصل إلى حل المسألة بنفسه كما يسر إذا مدحته ، ويتقبل اللوم والإصلاح إذا أخطأ ، ويبدى علامات الرضا والاستحسان والفخر إذا كان هناك ما يرضيه أو ما يستحسنه أو ما يفخر به .

تفكير الطفل وآراؤه عن غيره

حينما يكبر الطفل ويستطيع أن يعرف نفسه تمكنه معرفة الكائنات الحية وغيرها ، والتميز بين هذه وتلك ، ويكون لنفسه أحكاما وآراء دقيقة عن غيره من الأشخاص المتصلين به .

وإن العلم بالنفس وبالغير يؤثر كل منهما فى الآخر ؛ فالطفل بالتعلم يعرف أن أمه وإخوته من الـكائنات الحية يشعرون كما يشعر ، ويأكلون كما يأكل ، ويتكلمون كما يتكلم . وإن ملاحظاته لغيره تساعده فى زيادة معلوماته عن نفسه وتوضيح هـذه المعلومات . وإذا شاهـد أنواعا جديدة من التعذيب والإيلام أمكنه أن يتخيل مقدار ما يستطيع أن يتحمله من العذاب والألم . وإذا رأى ما يستطيع أن يقوم به طفل آخر من العمل أمكنه أن يعرف نفسه وقدرته من جهة هذا العمل . وبالموازنة بين الأعمال المختلفة للشخص الواحد وأعمال غـيره من الناس يتعلم الطفل الحكم على الناس وأعمالهم ، فيحكم على هـذا بالشفقة ، وعلى ذلك بالقسوة ، وعلى زيد بالعقل ، وعمرو بالحمق ، وعلى هـذا بالطيبة ، وذاك بالخبث ، فيقول هذا شفيق ، وذلك قاس ، وزيد عاقل ، وعمرو أحمق ، وهذا طيب ، وذاك خبيث . وبهذه الوسيلة تتضح آراء الطفل وأفـكاره عن غيره من الناس . وبتمرين قوة التفـكير لديه يستطيع أن يضع كل شخص يعرفه فى المـكان المناسب له ، وفى الطبقة التى تناسبه ، وفى القسم الذى يصلح له بحسب الصفات الخاصة التى يظهرها ويتصف بها ، سواء أكانت هذه الصفات عقلية أم خلقية أم جسمية .

التفكير الإنسانى والسلوك الحيوانى

يقولون : الإنسان حيوان مفكر ولو بالقوة . ولـكن هل الإنسان وحده هو الحيوان المفـكر ؟ وإجابة عن هذا ينبغى أن نذكر بعض التجارب التى جربت على الحيوانات حتى يتبين لنا إن كانت تفـكر أو لا تفـكر . يرى البعض

أن الحيوانات العليا تفكر ، مستندين إلى ما يشاهدونه من أفعالها ؛ فالكلب مثلا قد رئى يفتح الباب برفع المزلاج بأنفه ، ولكن قيام الكلاب والقطط والقردة ببعض الأعمال التى يقوم بها الإنسان كفتح الباب لا يدل على أنها تفكر تفكير الإنسان ، وليس معنى ذلك أننا ننكر قبولها للتعلم ؛ فهى تستطيع أن تتعلم إذا وجد دافع قوى أو حاجة شديدة تدعوها إلى القيام بعمل ما . فإذا أخذت كلبا أو قردا لا يعرف كيف يفتح الباب ثم فتحت الباب أمامه برفع المزلاج ، فإنه لا يمكنه أن يتعلم الفتح بمجرد مشاهدته إياك وأنت تفتح الباب ، ولكن إذا وضعته فى قفص وهو جائع ، وأغلقت عليه الباب بالمزلاج ، ثم وضعت له طعاما خارج القفص ، فإن ذلك باعث قوى يدعوه إلى محاولة فتح الباب ، ورفع المزلاج مرارا حتى ينجح فى فتحه بعد الإخفاق عدة مرات . وإذا أعيد إلى القفص مرة بعد أخرى وهو فى هذه الحال ، وكررت العملية نفسها فإن خطأه يقل بالتدريج حتى يستطيع فى النهاية أن يرفع المزلاج من غير تردد ، ويفتح الباب فى الحال إذا حبسته فى قفصه . وهنا يمكننا أن نحكم بأن هذا سلوك حيوانى لا يرى فيه شىء من التفكير الراقى ، وهو سلوك ناشئ عن قوة دافعة غرزية تظهر آثارها فى القيام بحركات خاصة . وإن أحوال التفكير التى تظهر على الإنسان لا تظهر فى الكلب أو القرد مثلا ، وقد يرى أثر من آثار التفكير فى (الشمبانزى) والقردة الشبيهة بالإنسان . ومجمل القول أنه ليس هناك ما يدل على أن الحيوان يبلغ أقل منزلة يبلغها الإنسان فى تذكر الأشياء التى لاحظها من قبل . أما الإنسان فإنه يتذكر هذه الأشياء إلى درجة ما ، وتترك أثرا فى نفسه . وسلوكه يختلف عن سلوك الحيوان ، فمثلا لو فرضنا

ووضعناه فى قفص نجد أنه يقوم بأشياء لا يقوم بها الحيوان مثل :

١ — الانتباه إلى الشىء وبحثه وفحصه من كل الوجوه للوصول إلى طريقة بها يتغلب على المشكلة التى وقع فيها .

٢ — التفكير وهو مقفل عينيه أو محملق بهما ، باذلا جهده فى تذكر أى شىء يساعده على كشف الحقيقة ومعرفتها .

٣ — الاستعانة بالتجارب السابقة التى قد تساعد على معرفة الحل .

وإن التفكير الإنسانى — ولو أنه لا يخرج عن طريقة التجربة والمحاولة المرة بعد الأخرى للوقوف على النتيجة — يختلف عن السلوك الحيوانى فى التجربة ثم الخطأ للوصول إلى الحل . وليس من الضرورى فى التفكير أن يصيب الإنسان ، ويعرف النقطة الصحيحة لأول وهلة ، فقد يخطئ ، وقد يتذكر شيئا يوحى إليه بآخر ، وهذا يوحى إليه بثالث وهكذا حتى يصل فى النهاية إلى النقطة المناسبة التى يريدها ويبحث عنها . وإن بحث الإنسان عن الشىء المناسب كبحث الرجل الضال فى طريقه عن السبيل الموصل ، ولو أنه فى الأول يستعين بتذكر التجارب ، وفى الثانى يستعين بالسؤال أو بالسير من طريق إلى آخر ، حتى يصل إلى المكان الذى يريده . ولنا أن نجعل التفكير بطريقة المحاولة والخطأ فى دائرة العمليات العقلية .

وإن من له دراية بالهندسة ـ وهى علم يتطلب التفكير ـ يمكنه أن يدرك أن البراهين الهندسية وإن كانت فى الحقيقة موضوعة بطريقة منظمة فى الكتب بحيث تنتقل من الفرض والدعوى إلى البرهنة والوصول إلى النتيجة الأخيرة ، إلا أن هذه البرهنة جافة لا تمثل مطلقا الطريقة العقلية الحية فى التفكير

المقصود . ولحل تمرين من التمرينات ينبغى أن تبتدئ بمعرفة الفرض أولاً فى القضية أو التمرين ، وتعرف ما يطلب منك البرهنة عليه ، ثم تنظر فى القضية وتفكر فيها ، فتجد فكرة جديدة قد توصلك إلى بعض الشىء ، وهذه قد تذكرك بأخرى ، وهكذا تستمر فى محاولتك بالتجربة والخطأ أحيانا ، مستعينا بمعلوماتك السالفة حتى تصل إلى المطلوب .

اختلاف الناس فى التفكير

لقد ذكر (جون لوك [١]) الفيلسوف الإنجليزى أن الناس يختلفون فى التفكير ؛ فمنهم :

١ — من يعتمد على غيره فى تفكيره ، وقلما يفكر بنفسه ، ولكنه يفكر كما يفكر غيره من آبائه وأجداده وأساتذته ، ويوافقهم فيما يبدونه من الآراء ، ولا يكلف نفسه بحثا أو تفكيرا ، بل يقلد غيره فى أفكاره تقليدا غير مصحوب بفحص أو نقد أو تمحيص .

٢ — ومنهم من تتغلب عليه العاطفة فى أفعاله ومناقشاته ، فينقاد لها أكثر من انقياده إلى التفكير ، فيصغى إلى وجدانه أكثر من إصغائه إلى عقله ، ولا يعمل بآراء غيره إلا إذا وافقت طباعه ورغباته وميوله .

٣ — ومنهم من يفكر فيما يقول وما يفعل ، محكما العقل والمنطق والتجربة ، معتمدا على نفسه فى بحثه وتفكيره ، حتى يصل إلى الحقيقة المنشودة ، ولا يعارض فى الاستعانة بتجارب غيره إن وجدت ، ويجمع الحقائق والملاحظات

(١) John Locke

التى يمكنه استخدامها فى تفكيره للوصول إلى غرضه . وهذا ما يدعى بالتفكير المنطق [١] وهو أرقى أنواع التفكير .

٤ — ومنهم من يضيق عقله فيفكر بنفسه ، ولكنه لا يتقبل آراء غيره مطلقا .

وينشأ الاختلاف فى التفكير عن اختلاف الناس فى مقدرتهم العقلية ، ومعلوماتهم وظروفهم التى تحيط بهم ؛ فمنهم العبقرى والذكى والغبى والمتوسط . ومنهم من لا يثبت على حال فيتخبط فى تفكيره تخبط العشواء . ومنهم من يفكر بهدوء فيما يعرض له من الأمور الغريبة أو الغامضة حتى يصل إلى فهمها وتفسيرها . ومنهم ذو القريحة الوقادة والبديهة الحاضرة . وما أقل هذا النوع! ومنهم البطىء فى تفكيره الذى يضطرب عقله لأقل مشكلة من المشاكل .

والإنسان معرض للخطأ فى التفكير . ولا فائدة فى الوصول إلى أمر لا يسلم به العقل أو لا يمكن تنفيذه والبرهنة عليه عقليا وعمليا . وينبغى تعويد التلاميذ البحث والتفكير والاستدلال على ما يقولون بما يعرفونه من الحقائق والتجارب السابقة ، وبما توحى به عقولهم ، حتى يتجنبوا الخطأ فى الفكر أو اللغة ، أو الاستنباط .

طريقة التفكير

من الأغراض الهامة التى يجب أن تعمل التربية الحديثة للوصول إليها جعل الأفراد قادرين على أن يفكروا مستقلين غير معتمدين على غيرهم فى

(١) Logical Thinking

كيرهم . وإننا إذا نظرنا نظرة عامة إلى الطرق المستعملة فى التعليم بالمدارس كمنا لأول وهلة بأن هذه الطرق قد أهملت التفكير الإهمال كله ، وصيرت طفال آلات فى أيدى المدرسين ، آلات تنقل ماتملأ به السبورة نقلا خاليا التفكير . فالكراسات نظيفة ومملوءة ، أما التلاميذ فلا يفهمون شيئا ا ينقلون ، اللهم إلا بعض أفراد من الأذكياء ، وقليل ماهم . فعلى المربى يفكر أولاً فى تربية حواس الطفل ، ثم يقوده بعد ذلك إلى تربية الفكر عناية بالتربية العقلية ، تلك التربية الاستقلالية .

بين (هربارت وديوى) فى طريقة التفكير :

ولنوازن الآن بين مايراه (فردريك هربارت) الألمانى ومايراه (جون ديوى) فيلسوف الأمريكى (١) فى طريقة التفكير فنقول : إن هربارت يرى أن شرح كل تجاربنا الجديدة بمساعدة معلوماتنا القديمة ، ووصل الأولى بالثانية عقولنا . وتسمى هذه النظرية بنظرية « الترابط » . (٢) وفيها يقول هربارت: إن وظيفة المدرس أن يوقظ الأفكار المناسبة التى لها علاقة بالدرس الجديد بين الأفكار التى عرفها التلميذ من قبل ، ويصلها بالأفكار الجديدة التى تعرض (٣) يه » . ولتنفيذ هذه النظرية وضع هربارت وأتباعه من بعده طريقة عملية كن أن تتبع فى دروس كسب المعرفة ، وتحتوى على خمس خطوات هى : —

(١) فى كتابه : "How we Think." (٢) apperception
(٣) راجع الفصل الخاص بالترابط فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ص ٢٢٥

(١) التمهيد أو الإعداد : Preparation

(٢) العرض : Presentation

(٣) الربط : Association

(٤) الترتيب أو الاستنباط : Systematization

(٥) التطبيق : Application

ففى الخطوة الأولى يمهد للدرس بإعداد أذهان التلاميذ بالأسئلة وغيرها من الوسائل المشوقة للمادة الجديدة . وفى الخطوة الثانية تعرض هذه المادة عليهم ، وتفهم لهم بالمناقشة والبحث والمحاورة أو الإخبار بحسب ما تقتضيه الحال . وفى الثالثة تربط المعلومات الجديدة بالقديمة ،وتربط الأفكار الجديدة فى الدرس بعضها ببعض ، ويوازن بين القديم والجديد بمعرفة أوجه الشبه أو الاختلاف بينهما ؛ حتى يمكن الوصول إلى الخطوة الرابعة ، وهى مرحلة الترتيب والتنظيم أو الاستنباط . ولكن الطريقة لا تكمل إلا بالخطوة الأخيرة وهى التطبيق أو الإعادة والمراجعة للتأكد من معرفة الدرس ، وتثبيته فى أذهان التلاميذ ، والانتفاع به .

وأما طريقة التفكير فى نظر (ديوى) فهى — وإن اتفقت مع طريقة هربارت فى كثير من الوجوه — تختلف عنها فى أمور جوهرية تستلزمها ، حينما نأخذ فى تطبيقها واستعمالها فى التربية والتعليم . والمراحل التى اختارها (ديوى) لطريقته خمس أيضا وهى : —

(١) الشعور بالصعوبة أو المشكلة .

(٢) معرفة موضع الصعوبة أو المشكلة وتحديدها .

(٣) الإيحاء أو الإشارة إلى الحل الممكن .
(٤) التفكير فى هذا الحل وفى طرقه ، والاستدلال على صحته .
(٥) الملاحظة والتجربة للوصول إلى قبول الحل الموعز به أو رفضه .

فالخطوتان الأخيرتان هنا تتفقان تماما مع الخطوتين ذاتيهما فى طريقة (هربارت) . وأما الخطوات الثلاث الأولى فتختلف عنها فى خطوات هربارت؛ فعلى نظرية هربارت يجب على المدرس أن يفكر فى درسه من قبل ، ويعمل على أن يكون فى مستوى الطفل ، ويفكر فى الطريقة التى يستعملها فى تدريسه، وفى المقدمة والأسئلة والأجوبة ، والأمثلة ، وطريقة المناقشة فيها ، واستنباط القاعدة منها ، وربطها بغيرها . . . وعلى نظرية (ديوى) يجب أن يشعر الطفل نفسه بالصعوبة أو المشكلة والحاجة إلى التفكير فيها ، ويعرف موضعها ، ويعمل للتغلب عليها بنفسه إذا أمكنه ، وإلا أوعز إليه بالحل ، ثم يترك ليفكر فيه بنفسه، فيرسم خطة للحل يأخذ فى اختبارها مستعينا بتجاربه ومعلوماته السابقة ، ويستمر فى محاولته حتى يصل إلى النتيجة الأخيرة .

وهنا يتضح الفرق بين طريقتى هربارت وديوى فى التفكير ، فالأولى تمهد للمتعلم كل السبل ، وتفتح له كل الطرق المؤدية إلى المعرفة ، ولا تترك له فرصة كبيرة للتفكير بنفسه؛ لأن معظم العبء فيها ملقى على عاتق المدرس . أما الثانية فتعود التلميذ الاعتماد على نفسه فى التفكير، وتكلفه البحث بنفسه عن الحل، مستعينا بتجاربه السالفة فى التغلب على الصعوبات التى تعترضه، ولا تسمح لغيره بمساعدته إلا عند الضرورة القصوى. وهى من هذه الوجهة تعده للحياة الاستقلالية؛ فالإنسان فى هذه الحياة لا يمكنه أن يعيش معتمدا على غيره دائما ؛ فكثيرا ما يضطر إلى

مواجهة المشاكل — وما أكثرها — على غير انتظار ، ولن يجد الحل المناسب لها معدا له ينتظره ، ولن يرى على الدوام مدرسا يساعده فى التغلب على كل مشكلة تقف فى سبيله . لذلك ينصح (ديوى) بأنه يجب تعويد الطفل الاعتماد على نفسه فى التخلص من المصاعب والمشكلات ، حتى يعد نفسه لكل حالة من الحالات التى تفاجئه فى الحياة ، فيتصرف فيها بعقله تصرفا مملوءا بالحكمة وحسن التدبير. ومن السهل الاستعانة بالمعلومات السابقة والخيال والقياس فى الوصول إلى حل المشكلات الجديدة بالبحث المنظم .

ومن الاعتراضات التى يعترض بها على طريقة (ديوى) أن الطفل قد يعتاد بعض العادات السيئة التى يصعب التخلص منها فى المستقبل إذ ترك ونفسه مدة طويلة، يحاول طرقا مملوءة بالأخطاء كى يجد الحل ، فى حين أنه فى طريقة (هربارت) تحدد له الإجابة ، فيقبل خطؤه. ولقد أجاب (ديوى) فى كتابه : (١) « الديمقراطية والتربية » بأن الوسيلة الوحدة للتخلص من هذه الصعوبة هى أن تحدد البيئة التى فيها الطفل ، وتحدد الأمور التى يمكنه القيام بها بحيث تكون فى مستواه ، ثم يراقب ويرشد عند الحاجة فقط . وبهذه الطريقة يعتاد الاعتماد على نفسه فى التفكير من المرحلة الأولى فى التعليم . و بالتدريج يمكن تعويده فى النهاية التفكير بنفسه فى جميع الظروف التى تحيط به ، وذلك بمنحه مقدارا أكبر من الحرية فى البيئة التى يعمل فيها . فطريقة هربارت تعد من أحسن الطرق فى التعليم إذا نظرنا إلى كسب المعرفة والمعلومات كنتيجة للتربية وغرض لها . وطريقة (ديوى) تعد خير طريقة

(١) راجع الفصل الثالث من كتاب ديوى. "Democracy and Education"

للتفكير المستقل والتربية العقلية ، ولكن المعلم الذى يتبعها لا يشعر تماما بأنه هو القائم حقيقة بتعليم الطفل ؛ لأنه يراقب بيئته بطريقة غير مباشرة ، ويسمح له بالحرية فى اختيار عمله الخاص فى تلك البيئة .

وإن (ديوى) لا يكتفى بقوله إنه لا يمكن أن يحدث تفكير حقيق إلا إذا كان هناك شعور بصعوبة أومشكلة يجب أن تحل ، بل يضيف إلى ذلك أن الصعوبة أو المسألة يجب أن تكون لها علاقة بالشخص نفسه بحيث يعدمسئولا عنها ، ومطالبا بها حتى يضطر إلى التفكير فى حلها . ولا فائدة فى وضع صعوبات خارجية بعيدة عن الشخص ولا صلة له بها . ومعنى هذا أنه يجب النظر فى المناهج العامة نظرة أخرى حتى تكون متصلة بالتلاميذ وميولهم وغرائزهم وبيئتهم وحياتهم كل الاتصال . وبدلا من أن نبحث نحن المعلمين عن المسائل التى يجب تكليف الطفل حلها ينبغى أن نبحث عن الصعوبات التى يشعر الطفل نفسه بصعوبتها ، وعن الوسائل التى بها نعطيه الفرصة فى حلها والتغلب عليها . ومن النتائج التى وصل إليها علماء النفس بالتجارب حديثا أن الدروس يجب أن ترتب وتوضع حول الرغبات الحيوية للأطفال ؛ فإن ذلك أكثر فائدة ، وأحسن أثرا فى تربيتهم وتعليمهم .

طريقة المشروع وأثرها فى التفكير

من الطرق الحديثة التى يمكن أن تتبع فى تربية الاستقلال فى التفكير تلك الطريقة الشائعة فى أمريكا وهى طريقة المشروع (١) . وإن القاعدة الجوهرية

(١) Project Method

فيها أن أعمال الأطفال تدور حول مشروع أو مشروعات تعين لهم لتنفيذها والقيام بها بعد البحث فى الطرق المؤدية إلى ذلك ، بدلا من أن تكون محصورة فى موضوع سطحى يطالبون به كحفظ قاعدة من القواعد . ومن المشروعات التى يقوم بها التلاميذ فى المدارس الأمريكية السائرة على هذه الطريقة يمكننا أن نقتبس المشروعات الآتية لنتبين ما يستطيع التلاميذ القيام به إذا أعطوا الفرصة :

تربية الدجاج ، وتنظيم المكتبات المدرسية والتعهد بما فيها من كتب ، والأعمال التكوينية ، والمطالعة الفنية ، والقيام بطبع المجلة المدرسية ، وكتابة تاريخ الثورة الفرنسية بشكل صحيفة يومية يفرض ظهورها إبان تلك الثورة ، وتأليف كتاب عن جغرافية المقاطعة أو البلدة التى ينتسب التلميذ إليها ، ووضع خطة لتمثيل رواية تمثيلية ، والقيام بكتابة المصروفات المدرسية ، وأعمال المصارف ، ومعرفة الغلات الزراعية فى كل فصل من فصول السنة ، ودراسة الأنواع المختلفة من الأراضى لمعرفة طريقة استخدامها فى الزراعة ، والنباتات التى يحسن أن تزرع فيها ، وإعداد الملعب المدرسى وتجهيزه بأنفسهم ، والقيام بأعباء الحكم الذاتى داخل المدرسة ، وما إلى ذلك من المشروعات الأخرى التى لاعدلها والتى تعد النشء للتفكير وتكوين الأشياء وتمده للحياة التى تنتظره. وفى هذه الطريقة يضطر المدرس إلى مساعدة التلاميذ فى معرفة الأشياء الجوهرية التى يستدعيها تنفيذ المشروعات التى كلفوها تنفيذا دقيقا . وكل ما يتعلمه التلاميذ هنا تعلم ناشئ عن الرغبة والميل ، ولذا يستفيدون أكثر مما يستفيدونه بالطرق العادية فى التعليم .

وتحتاج[(١)] طريقة المشروع إلى مهارة كبيرة من المدرس؛ لأن عمل الأطفال هنا فردى يستدعى كثيرا من العناية حتى يربى كل طفل تربية كاملة من كل وجهة: روحية وعقلية واجتماعية وجسمية ووجدانية. ولو اتبعت هذه الطريقة، وسمح للتلاميذ ببعض الحرية فى اختيار أعمالهم ومشروعاتهم التى يرغبون فيها، ويميلون إليها، واجتهد المربى فى الانتفاع بمواهب كل طفل على حدة، وتوجيهها إلى الطريق المستقيم الذى يصلح لها وتصلح له — فإن الأطفال يجتهدون فى دروسهم ويقومون بواجباتهم خير قيام، ويتقدمون فى أعمالهم. ولن يكون واجب المدرس حينئذ مقصورا على إعداد المادة، وإلقائها على التلاميذ، وتكليفهم حفظها، بل واجبه تحويل نشاط الطفل، وتسييره فى مجراه الطبيعى، وهدايته إلى الطرق الصالحة التى يمكنه الانتفاع بها علميا، والسير به بحسب مواهبه وقواه. ومن الممكن تعليمه المواد وإجادتها بوساطة المشروعات التى يرغب فى القيام بها، بدلا من تعليمه إياها بالإكراه والتكرار قبل أن يشعر بالحاجة إليها، اعتمادا على أنه سيحتاج إليها فى المستقبل.

وكثيرون من المدرسين العصريين ذوى الضمائر الحية يشعرون بأن جزءا كبيرا من مجهودهم يضيع سدى ولا يعرفون لذلك سببا. وما السبب فى الحقيقة إلا اتباع الطرق العقيمة فى التعليم، تلك الطرق التى يعتمد فيها على المدرس كل الاعتماد، ويهمل التلميذ كل الإهمال، أو يعمل من غير غرض معين يجتهد

---

(١) من أراد التفصيل عن طريقة المشروع فليرجع الى.

(1) Dewey's School and Society".

(2) Miss Woods' "Educational Experiments in England"

فى الوصول إليه ، أو يدرس أشياء ليس لهـا صلة به ، أو ليس لها أهمية كبيرة فى الحياة . ولو كانت محاضرات التربية وعلم النفس مثلا ناشئة عن شعور الطلبة بالحاجة إليها لاستفادوا كثيرا منها ، ولكنهم يعملون للامتحان، وللامتحان فقط ، ولذلك لا يستفيدون منها الفائدة المرجوة ، ولا يشعرون بفائدتها إلا عند قيامهم بالتعليم فى إحدى المدارس ؛ فهنا يشعرون بالوقت الذى أضاعوه ، والدروس التى أهملوها . ولن يثمر التعليم ، ولن ينتج أحسن النتائج إلا إذا اتبعت طرق التعليم الفردى[١] فى المدارس كطريقة المشروع و « دالتون » ومنتسورى ، واللعب ، وديكرولى [٢] وونتكا .[٣]

أنواع التفكير

أنواع التفكير كثيرة وهى :

(١) التفكير لحل المسائل العملية :

لو كلفنا حـل مشكلة من المشكلات العملية فقـد نستطيع أن نحلها فى الحال ، وربما لا نستطيع أن نعرف الحل ، فنفكر فيه ، مستخدمين حواسنا، مستعينين بتجاربنا المـاضية ، فنلاحظ أشـياء قد تذكرنا بأمور عرفناها من

(١) ارجع إلى كتاب « الاتجاهات الحـديثة فى التربية » للأستاذ محمـد عطيه الابراشى
(٢) مرب بلجيكى . (٣) ونتكا بلدة فى الولايات المتحدة بالقرب من شيكاغو . وتنسب هذه الطريقة الى الدكتور كارلتون واشبورن الأمريكى .

قبل ، فنستعملها فى حل هـذه المسألة أو المشكلة العملية ، وقد ننجح ، وربما لا ننجح فى الحل فنرفض هذه الأمور لعـدم فائدتها ، ونحاول حلا آخر نظنه صالحا فنجده غير منتج . وبالاستمرار فى البحث والتجربة قد ننجح فنصل إلى الطريق الموصل ، والدليل الهادى ، ونرى الحل الأخير للمسألة . ولنذكر مثلا لهذا النوع من التفكير :

خرج شابان للرياضة فى غابة من الغابات ، فقضيا الصباح متنقلين فى أنحاء الغابة هنا وهناك . وفى الظهر جلسا على شاطئ نهير صـغير ، وتناولا غداءهما ثم استراحا من عناء المشى . وعند ما أرادا العودة إلى المنزل بعـد العصر سارا فى الغابة فى الطريق الموصـل إلى المنزل كما ظنا . وبعـد مدة من المشى ليست بالقصـيرة وجدا أنهما عادا إلى المـكان الذى ابتـدءا السير منـه حيث كانا يأكلان .

وهنا أخـذا يفكران ويعللان ما حدث لهما هكذا : قال أحـدهما : كثيرا ما يحدث عند اختراق الغابة من غير دليل أو بوصلة أن الإنسان يسير فى شكل دائرة من حيث لا يشعر .

فقال الآخر . « هذا ما حدث لنا ، وقد نقع فيما وقعنا فيه إذا سرنا ثانية من غير تفكير . فلنجلس ، ولنفكر فى الأمر مليا . »

وأخذ الاثنان يفكران ويبحثان عقليا عن الحل ثم سأل الأول : « ما رأيك فى أن نتبع النهير ؟ »

فأجاب الثانى : « إن هذا الرأى لا يصلح ؛ لأن طريق النهير صعب ، وغير معبد ، وليس من السهل أن نتتبعه . »

الأول : « وما رأيك فى أن نسترشد بالشمس فى طريقنا ، ونعرف الجهات بوساطتها ؟ »

الثانى : « إن الضباب والغيوم قد حجبت الشمس عنا ، ولا نستطيع الآن أن نعرف الشرق من الغرب ، أو الشمال من الجنوب . »

الأول : « عجبا لهذه الغيوم ! إنها سائرة بسرعة . ولو اتبعناها ساعتين من الزمن ، وسرنا متتبعين لها ، فإننا سنخرج من الغابة على أى حال ، فى أى جهة من الجهات . »

الثانى : « فلنحاول هذا الحل » .

وبمحاولته وصلا إلى النتيجة ، وخرجا من الغابة ، ووجدا أنهما فى الطريق العام ، وهناك سألا عن السبيل الموصل إلى المنزل . وبهذه الوسيلة حلت المشكلة . وفى حلها نجد هذه الخطوات :

ا — الرغبة الكبيرة فى إيجاد الحل .

ب — الانتفاع بالملاحظة .

حـ — تذكر الحقائق المناسبة للحل .

د — السعى للوصول إلى الحل .

(٢) التفكير المنطق أو تبرير النفس : Rationalization or self-justification

بينما كنا فى المسألة السابقة فى حاجة إلى البحث عما يجب أن يفعل ، نجدنا هنا فى حاجة إلى أن نتلمس السبب أو المبرر الذى أدى إلى أننا فعلنا كذا أو سنفعل ، أو السبب الذى حملنا أو يحملنا على تنفيذ هذا الفعل مثلا . فنحن هنا

مطالبون بالتفكير فى الأسباب التى أدت إلى عملنا ، والبواعث التى حملتنا عليه كى نبرر مركزنا أمام أنفسنا وأمام الجمهور ، ونتجنب موضع النقد ، نقد غيرنا لنا أو نقدنا لأنفسنا . وقد يكون الباعث الحقيقي الذى دعانا إلى فعل الشىء مجهولا لنا . وقد نعرف الباعث ولكننا لا نحب أن نعترف به ، أو لا نود أن نذكره لأحد . ويجب أن يكون الباعث مقبولا يسلم به العقل حتى نستطيع أن نبرهن على حسن عملنا ، ونداقع عنه ، ونستريح من جهته .

فالطفل مثلا قد يكون فى منتهى الأدب مع والدته ، وقد يخلص فى مساعدتها حتى فى الأشياء التى لا تطلبها منه ، فإذا سألته عن السبب فى هذه المساعدة أجاب بأنه لا غرض له سوى المساعدة . فى حين أن الغرض أو الباعث الحقيق الذى دعاه إلى هذا التفانى فى الأدب والمساعدة هو رغبته فى أن يفوق أخاه فى المركز عند والدته منافسة له .

وقد يكون الشخص قائما بعمل من الأعمال ثم تعرض له الرغبة فى الذهاب لرؤية المتسابقين فى كرة القدم ، فيختلق لنفسه الأعذار ، ويبرر مركزه أمام نفسه أو أمام غيره ، ويقول إنه فى حاجة إلى العناية بصحته ، وإن الرياضة ستزيل ما لديه من السآمة والملل ، وسيكون عند عودته أقدر على إتمام هذا العمل على خير ما يكون . أو يقول إن إخوانه ينتظرونه فى الملعب ، ولا بد من ذهابه إليهم لتشجيعهم ، لأنه يعرف بعض اللاعبين .

فرغبات الإنسان تظهر فى أقواله وفى أفعاله ، وتوحى إليه البراهين والأدلة التى يدافع بها عن نفسه أمام من يسأله عن السبب ، أو أمام نفسه ، وتحسن له الشىء حتى تجعله فى نظره من الضروريات . فالبحث عن الأسباب والمبررات

التى حملتنا على ما قمنا به من الأعمال نوع من التدرب على التفكير . فالإنسان حيوان مفكر ، والتفكير ميزة من المزايا التى يمتاز بها ، وبهذه الموهبة يمكنه أن يبرهن لك على ما يقول ، ويبرر ما يفعل ، ويخلق لنفسه المعاذير فى كثير من الأحيان ؛ إرضاء لنفسه أو إرضاء لغيره .

(٣) الشرح أو التعليل

هذا النوع من التفكير — كالنوع السابق — فى أنه يبتدئ بشىء يدعو إلى نوع من السلوك الإنسانى . كالاستفهام عن سبب ظاهرة من الظواهر الطبيعية ، أو نوع من السلوك الإنسانى كأن يسأل الرجل الإنجليزى وقد آلمه برد الشتاء : « لماذا يكون الجو باردا فى يناير ؟ » فيبحث المسئول عقليا عن الأسباب ، ويستحضر معلوماته السابقة — كما يحدث حينما يحاول حل مشكلة من المشاكل العملية — فيجيب : « ربما يكون السبب وجود كثير من الثلج فى ذلك الشهر » . ولكن ما السبب فى هذا الثلج ؟ وقد يستمر الحوار والسؤال والجواب حتى يصل مثلا إلى أن السبب فى البرد فى يناير هو ظهور الشمس قليلا فى ذلك الشهر ، وعدم ارتفاعها فى السماء حتى فى وقت الظهر ، مع هبوب الرياح الباردة فى ذلك الوقت من العام . وهذا الشرح لا بأس به ؛ فهو يذكر بتلك القاعدة العامة وهى : إذا هبت ريح باردة ، ولم يكن هناك مدد مستمر من الحرارة فلا بد من حدوث البرد . فشرح ظاهرة من الظواهر الطبيعية هو استنباطها من قاعدة عامة مسلم بها . ولفهم هذه الظاهرة يجب أن ترى كمثل من أمثلة هذه القاعدة العامة . وفهم الظاهرة يؤدى إلى الاقتناع بها ، ويزيل عنك

الشك والخوف من جهتها ، ويمنحك الشعور بالقوة والغلبة . وقد تكلمنا فيما مضى بإسهاب عن التعليل فى فصل خاص ، فارجع إليه إن شئت .

(٤) التطبيق : Application

فى عمليات التفكير التى ذكرناها إلى الآن يبتدئ العقل بالحكم الخاص وينتقل منه إلى القاعدة العامة التى تتفق فى الاستعمال مع هذا الحكم الخاص . والتفكير كما يكون بالانتقال من الخاص إلى العام كذلك يكون بالانتقال من العام إلى الخاص كما فى التطبيق هنا ؛ بأن يُبتدأ بذكر القاعدة العامة أولاً ، ثم يؤخذ فى البحث عن الأحوال الخاصة والأمثلة التى تنطبق عليها تلك القاعدة العامة .

ولكن ما الغرض من هذا النوع من التفكير أو ما السبب الذى يحمل على البحث عن الأمثلة بعد معرفة القاعدة العامة ؟ هناك أغراض وأسباب كثيرة تحمل على تطبيق القاعدة أو القانون العام ؛ كالتأكد من القاعدة أو توضيحها وتثبيتها بالأمثلة ، أو الانتفاع بها فى معرفة طريقة استعمالها ، أو تجربتها فى بعض الأحوال الخاصة لمعرفة الفائدة العملية منها ، أو للتأكد من معناها . فالبحث فى التطبيق يختلف عن الأبحاث التى ذكرناها فى أنواع التفكير السابقة ؛ فبدلا من أنك كنت تبحث فى الأنواع السابقة عن الأدلة والبراهين والشواهد والقواعد العامة تجد أنك هنا تبحث فى ذاكرتك عن الأحوال الخاصة التى يصدق عليها القانون العام ، وتطبق عليها القاعدة العامة. فإذا قلت مثلا : « كل الحيوانات دمها بارد إلا الطيور والحيوانات الثدية »

أمكنك أن تستنبط منها أن السمك والضفدع والضب والعنكبوت والحشرات والسرطان البحرى والدود باردة الدم ؛ لأنها تدخل فى القاعدة العامة وتندرج تحتها. وبذلك يكمل فهمك للقاعدة المذكورة . فالتطبيق يوضح القواعد ويثبتها. وهو مبنى على الاستنباط القياسى الذى تكلمنا عنه فيما مضى .

(٥) الشك : Doubt

إن الحكم العام قد يدعو إلى التفكير إذا شككت فيه ، ورغبت فى إظهار حالات تخالفه ؛ كأن تسمع من رجل لا تثق به قضية أو قاعدة عامة . فعدم ثقتك بهذا الرجل يحملك على أن تشك فيما تقول ، وتبحث فيه بنفسك ؛ لمعرفة إن كان قوله صوابا أو خطأ ، صدقا أو كذبا . وقد يذكر أحد المتظاهرين بالعلم المحبين للظهور قاعدة من القواعد ، فتريد أن تبين له خطأه فيها حتى يخفف من غلوائه ، ويقلل من ادعائه ، فتناقشه وتحاول أن تنتصر عليه وتهزمه بالحجة والعقل ، فتبحث عن شىء يخالف هذه القاعدة التى ذكرها حتى تسكته وتفحمه؛ كأن يقول : « كل السياسيين غير موثوق بهم » ، فترد عليه بقولك : « إنك تدعى أن كل السياسين غير موثوق بهم ، ولكن جورج واشنطون كان سياسيا ، فبحسب دعواك يجب أن يكون غير موثوق به ، ولكنه كان موثوقا به من الجميع . فدعواك العامة باطلة ، ويجب أن تسحبها . »

(٦) التحقيق : Verification

هذا النوع العام من التفكير يبتدئ بذكر قضية عامة ، ثم يراد التحقق

من صحتها والبرهنة عليها ، بالبحث عنها فى كثير من الأسئلة والحالات الخاصة ؛ ليرى ما إذا كانت النتيجة تتفق مع القضية المذكورة أم لا. ولهذا النوع من التفكير فوائد كثيرة ، وهو المستعمل فى البحث العلمى . فى الاختبارات العلمية يذكر الفرض أو الدعوى أولاً ، ثم تترك الدعوى للتحقق منها بالبرهنة وإقامة الحجة . فإذا أمكن إثباتها بالدليل القاطع قبلت ، وسلم بصحتها ، وعدت قانونا طبيعيا مؤيدا بالحجة والبرهان . وقبل البرهنة تكون الدعوى صالحة لأن تقبل أو ترفض ، ويجوز أن تكون صوابا أو خطأ . ولكن كيف تمكن البرهنة على صحتها أو خطئها ؟ الجواب : من الممكن البرهنة على صحتها أو خطئها باختبارها وتجربتها فى عالم الحقيقة والتجربة لمعرفة النتيجة .

ومن الأمثلة العلمية على هذا النوع من التفكير وهو التحقيق بالبرهنة الدورة الدموية التى استكشفها البحاثة (هارفى[١]) ، فإنها كانت فى أول الأمر تعد حدسا أو فرضا مشكوكا فيه . فلو كان الدم يدفعه القلب خلال الشرايين ، ثم يعود إلى القلب عن طريق الأوردة فإن سير الدم فى أى وريد يجب أن يكون نحو القلب . وإن سيره فى أى شريان يجب أن يكون فى اتجاه معاكس . وبالاختبار قد ثبت ما قاله (هارفى) من أن الشريان وعاء يحمل الدم من القلب ، والوريد هو وعاء يحمل الدم إلى القلب . والأول يحمل دما أحمر فى الدورة الدموية الكبرى ، وأزرق فى الدورة الصغرى ، والثانى يحمل دما أزرق فى الدورة الكبرى ، وأحمر فى الدورة الصغرى . كما ثبت أيضا أن هناك أنابيب صغيرة تسير من الشرايين الدقيقة إلى الأوردة الدقيقة . وباختراع المجهر سهل

(١) William Harvey (وليام هارفى طبيب إنجليزى (١٥٧٨ ــ ١٦٥٧م)

إثبات هذه الدورة الدموية بالملاحظة مثل غيرها من الحقائق العلمية ، وصارت الدورة الدموية حقيقة علمية معترفا بها من جميع العلماء والأطباء .

وليس من السهل إثبات كل ما يفرض من الفروض ؛ فمعظمها يموت عند الابتداء فى البرهنة . ولئن كان من السهل أن نحدس ونفرض الفروض ، إن من الصعب أن نثبت بالبرهان كل ما نفرضه . وقد يكون الحدس داعيا كبيرا ومنبها إلى استكشاف حقيقة جديدة أو اختراع حديث . وإن العلم يمقت تلك الفروض المتراكمة حوله إذا كانت غير حقيقية ولم تثبت بالدليل ؛ لأنها قد تضر إذا استعملها المهمل استعمالا بغير احتراس ودقة . ومن الواجب على كل إنسان يفرض فرضا أو يدعى دعوى أن يستعمل هذا الفرض ويختبره بقدر المستطاع فى كثير من الحالات ؛ حتى يرى ما إذا كان من الممكن تحقيقه والعمل به أم لا . وإذا لم تسمح الأحوال للمدعى بأن يثبت فرضه أو نظريته بالتجربة — كأن يموت قبل أن ينتهى من بحثه — فعلى زملائه من العلماء أن يقوموا ببحث هذه النظرية ، وتجربتها ؛ ويتموا ما قام به ، حتى يتأكدوا من صحتها أو خطئها .

التفكير فى علمى النفس والمنطق

ليس علم النفس هو العلم الوحيد الذى يبحث عن التفكير والحكم والتعليل ، فعلم المنطق أيضا يبحث عنها ، بل إنه قد سبق فى هذا البحث ، ولكن وجهة بحثه تختلف عن وجهة البحث فى علم النفس ؛ فالمنطق يبحث عن الوجهة المنطقية : هل هذه المقدمات صحيحة أو فاسدة ؟ وهل هذا الحكم صحيح أو فاسد ؟ وهل هذه النتيجة صواب أو خطأ ؟ فهو بذلك يبحث عن الطريقة المثلى فى

التفكير والحكم والتعليل من غير تعرض إلى شرح أو تفسير فى الاستنباط ، أو تعرض إلى الغرض من البحث ، أو الوقت المحتاج إليه ، أو الصعوبة التى تقف فى سبيله . بخلاف علم النفس ؛ فإنه يعتبر الشرح أو التفسير أو التعليل نوعا من أنواع التفكير ، ويبحث عن التفكير والحكم والتعليل من حيث الغرض منها ، والمجهود الذى يبذل فى سبيلها ، والصعوبة التى تعترضها، وطريقة التغلب عليها ، من غير نظر فيها أهى صحيحة أم فاسدة . كما أنه يبين لنا الفرق بين التفكير الإنسانى والسلوك الحيوانى ، والفرق بين تفكير الطفل وتفكير الرجل ، وبين تفكير الفرد وتفكير المجتمع ، والفرق بين عقلية السليم وعقلية الشاذ ؛ فهو يبحث عن الفكر من حيث هو .

أما الاستنباط فى المنطق فهو استخراج نتيجة من مقدمتين أو حقيقتين معروفتين أو أكثر من الحقائق . وهذه النتيجة هى حقيقة جديدة استنبطت من الحقيقتين المذكورتين مثل :

المقدمة الصغرى : سقراط إنسان .

المقدمة الكبرى : وكل إنسان معرض للخطأ .

النتيجة : سقراط معرض للخطأ .

ومن الممكن فى الحل والتطبيق ، أو الشك والتحقيق أن نرمز بالحرف «س » للشىء المجهول المراد معرفته . فإذا عرفنا أن س = م ، وب = م كانت س = ب . وبحسب الفروض تكون النتائج ، فإن كانت الفروض صحيحة كانت النتائج كذلك ، والعكس .

الخاتمة :

إلى هنا قد وصلنا إلى نهاية البحث فى التربية الفكرية ، وانتهينا من المظهر الأول للشعور وهو الفكر أو الإدراك . وسنبتدئ فى الفصل التالى بالتكلم عن المظهر الثانى وهو الوجدان . ومما تقدم عرفنا أن الإنسان من الطفولة الأولى يحس ، ثم يدرك ما يحس به ؛ ثم يحصل على تجارب ومعلومات ، ثم يتذكر ما مضى ، ويتخيل بعض الأشياء ، ويدرك الحقيقة فى معناها العام ، ويحكم ، ويستنبط من الجزء إلى الكل ، ومن الكل إلى الجزء ، ويبرهن ويعلل ، ويشرح ما يستدعى الشرح . فالحياة العقلية للإنسان أعجوبة الأعاجيب ، ومعجزة المعجزات . وقد أعطى الإنسان العقل ليستخدمه فيما خلق له من التفكير ، مسوقا بالوجدان ، للوصول إلى معرفة الحقيقة ، حبا للحقيقة . ومن الواجب على المربين أن يشجعوا المتعلمين على التفكير معتمدين على أنفسهم حتى ينتفعوا بما وهبه الله لهم من عقل ، وأن يشاركوهم فى شعورهم ، ويخلصوا إليهم فى تعليمهم ، حتى يحيوا فى مستقبلهم حياة كاملة .

المراجع بالإنجليزية :—

(1) How we Think, by John Dewey.
(2) The Psychology of Education, by David K. Fraser, Section IV, ch. I.
(3) The A. B. C. of Psychology, by C. K. Ogden, chapter XIII.
(4) Fundamentals of Psychology, by Dumville, chapter VII.
(5) Psychology, An Introductory Manual for the Use of Students, by F. Ryland, chapter IX.
(6) The Teacher's Handbook of Psychology, by Sully, chapter XII.
(7) Manual of Psychology, by Stout, Book IV, chapter II.
(8) Democracy and Education, by John Dewey, ch. III.

الفَصلُ السَّادِسُ

الوجدان

إن التجارب لا تزال تبرهن لنا على أن للوجـدان أثرا بل آثارا كبيرة فى حياة الإنسان . وربما يكون من الأمور التى يعني بها علم النفس الحديث البحث فى الوجدانات والانفعالات والعواطف . وليست عناية علم الأخلاق والتربية الخلقية بهـذه القوى الوجدانية بأقل من عناية علم النفس بها ؛ فقد قدر الأخلاقيون الوجدان حق قدره ، واعترفوا بما له من النفوذ بل السيطرة على السلوك الإنسانى . ومن المربين من يقول بأن السعادة الإنسانية متوقفـة على تربية الوجدان ، وضبط الانفعالات ، وتنمية العواطف العليا التى يترتب عليها التخلق بالأخلاق الطاهرة ، وإقامة العدل ، والإحسان إلى الناس ، وانتشار المحبة والتعاون فيما بينهم . ولا يبعد أن يأتى يوم تسود فيـه العاطفة ، فينتظم السلوك الإنسانى ، بعد أن فشل المنطق الجاف، والفكر البارد فى محاولة نشر لواء السلام . وبعد أن قضت الانفعالات الجامحة على الأخوة الإنسانية . ولم يفلح الغضب الثائر فى إقامة العـدل . فلنا فى قيمة الوجدانات والانفعالات والعواطف — باعتبارها دوافع قوية لها آثار ظاهرة بينة فى سلوك الإنسان — ما يبرر الوقوف عندها ، وإيفاءها حقها من العناية .

بعد هـذا التمهيد نقول : إن للشعور – كما علمت – ثلاثة عناصر أو مظاهر هى : المعرفة أو الإدراك ، والوجدان ، والنزوع أو الإرادة ، وإن كل حالة شعورية لا بد أن تشمل هـذه المظاهر الثلاثة ، عظم كل منها أو صـغر . والغالب أن يكون ظهور هذه العناصر على هذا الترتيب ؛ إذ أنك ترى أو تسمع شيئا مثلا ، فتشعر بلذة أو ألم ، فتندفع إلى عمـل من الأعمال . والعمل هنا يشمل الإقبال والإحجام .

وقلما يختلف هـذا الترتيب ؛ كما فى الجائع الذى يحس بالجوع ، فيدركه فيسعى فى الحصول على الطعام ؛ فالوجدان هنا سبق الإدراك ، ثم تبعهما العمل أو النزوع .

والظاهر أن الطفل يشعر بالألم أو السرور قبل أن يدرك معنى الأمور السارة أو المؤلمة ، وقبل أن يفهمها فهما تاما ؛ أى أن مرتبة الوجدان تسبق المرتبتين الأخريين فى تجـارب الطفل فى أول عهده بالحياة ، أو تتغلب عليهما لدرجـة نستطيع معها أن نقول إن حياة الطفل فى عهد الطفولة الأولى وجدانية أكثر منها إدراكية أو نزوعية .

وإننا لنرى من الضرورى هنا أن نعيـد ما أشرنا إليـه فيما مضى من أن عناصر الشعور متصلة تمام الاتصال لا يمكن فصل أحـدها عن الآخرين ، فلا وجود لأحدها باعتباره صفة مستقلة قائمة بذاتها منعزلة عن باقى الصفات التى توصف بها أى عملية عقلية . فلا تفهمن أيها القارئ الـكريم أن تخصيص فصل للـكلام على الوجدان معناه أنه شىء منعزل ، له وجود منفصل عن وجود غيره من مظاهر الشعور .

ومن الواجب أن تعرف أن تسمية كل من الإدراك أو الوجدان أو النزوع عنصرا من عناصر الشعور من باب التسامح ؛ لأن العملية العقلية ليست كالمركب الكيمياوى الذى يمكن تحليله إلى عناصر متفرقة أو منعزلة كما يحلل الماء إلى عنصريه ، وإنما هى شىء واحد له مظاهر متعددة ، إذا نظرت إليها سميتها إدراكا من ناحية ، ووجدانا من ناحية ثانية ، ونزوعا من ناحية ثالثة .

وأقرب شىء نمثلها به هو جسم له مادة وحجم وشكل ولون ، فكما أنه لا وجود لأحد هذه الأشياء دون الأخرى كذلك لا يمكن وجود عملية عقلية دون المظاهر الثلاثة ، ولا وجود أحد هذه المظاهر من غير عملية عقلية تشمل المظهرين الآخرين . وكما أننا لا نستطيع تحليل الجسم إلى مادة وحجم وشكل ولون كذلك لا نستطيع تحليل العملية العقلية إلى عناصر منفصلة .

فنحن لا نتكلم على أحد العناصر وحده إلا مضطرين ، لأننا لا نستطيع أن نفهم العمليات العقلية تمام الفهم إلا إذا فهمنا مظاهرها واحدا واحدا .

فالوجدان إذا مظهر من مظاهر كل عملية عقلية ، أو ناحية خاصة من نواحيها ، تلك هى : ناحية اللذة أو الألم — أيا كان نوع أحدهما أو مقداره .

فنحن نشعر حينا بالسرور ، وآخر بالحزن ، وطورا بالراحة ، وآخر بالقلق ، وتارة بالرضا ، وأخرى بالسخط ، وآونة نتفاءل ، وأخرى نتشاءم ؛ فالسرور والراحة والرضا والتفاؤل حالات وجدانية تدخل تحت اللذة . والحزن والقلق والسخط والتشاؤم حالات وجدانية أخرى تدخل تحت الألم . فنستطيع إذا أن نقول إن الوجدان هو ناحية اللذة أو الألم التى تتكيف بها كل عملية عقلية .

صفات الوجدان

والوجدان على العموم كالإحساس في أنه يختلف كمًّا وكيفية واستمرارا ؛ فالسرور الذى تشعر به عند النجاح فى الامتحان أقوى وأشد من ذلك الذى تشعر به عند رؤية صورة جميلة . وليست اللذة التى تشعر بها فى حالة الفرح من نوع تلك التى تشعر بها فى حالة الراحة العامة أو الرضا أو التفاؤل . وليس الألم الذى يصحب الحزن مثل ذلك الذى يصحب القلق أو السخط أو التشاؤم فى الكم أو الكيفية . ومن اللذة أو الألم ما يستمر طويلا باستمرار سببه أو بالتفكير فى منشئه . ومنهما ما ينقطع بانقطاع سببه أو بالكف عن التفكير فيه.

وبالإضافة إلى اختلاف الوجدانات فى كمها وكيفيتها ومدة استمرارها نرى أنها تختلف أيضا فى تأثيرها فى النفس ؛ فهناك وجدانات تحدث آثارا سلبية ، وأخرى تحدث آثارا إيجابية ؛ فالأولى هى التى تهدأ معها النفس وتطمئن ولا تثور، والثانية هى التى تثور لها النفس وتتحرك وتتحفز للقيام بعمل من الأعمال. فأنت إذا رأيت منظرا أنيقا هدأت نفسك ، واطمأن خاطرك . أما إذا رأيت وردة حسنة اللون والشكل فإنك تندفع إلى تناولها وشمها . وإذا غضبت تحفزت للوثوب على من أغضبك والانتقام منه .

وهذا الاختلاف فى التأثير فى النفس نسبى فقط ؛ إذ أن كل وجدان مهما يكن يوجد فى النفس نشاطا ورغبة فى العمل ، صغر ذلك النشاط أو عظم. فالذى نريده هو أن هناك تجارب وجدانية يكون فيها الهدوء أظهر ، وأخرى تكون فيها الثورة النفسية واضحة .

والأفراد يختلفون من هذه الناحية ؛ فمنهم من يرى منظرا حسنا فتظهر عليه علامات النشاط والرغبة فى الحركة لرؤية جميع أجزاء المنظر واضحة جلية ، ومنهم من يراه فيبقى فى مكانه هادئا لا يبدى حراكا ، ولا تظهر عليه إلا علامات الارتياح . ومع هذا لا ننكر أن لكل من اللذة والألم ناحيتين إحداهما إيجابية والأخرى سلبية . وبذلك تكون مراتب الوجدان الظاهرة أربعا وهى : —

(١) مرتبة السرور أو الانتعاش : ويدفع الإنسان إلى سلوك إيجابى يدل على الفرح والغبطة .

(٢) مرتبة الراحة : وتحمل الإنسان على الهدوء والسكينة والاطمئنان .

(٣) مرتبة الحزن: ويحمل المرء على الانقباض ، والاكتفاء بإبداء التحسر .

(٤) مرتبة القلق أو التألم : ويدفع الإنسان إلى القيام بعمل يقصد به التخلص من هذا القلق أو الألم .

وإن ملاحظتنا للحيوانات العليا — وهى تقوم بأعمال انبعاثية إيجابية أو سلبية ، وأخرى انقباضية إيجابية أوسلبية — لتحملنا على القول بأن مثل هذه الحيوانات تشعر بما يكاد يشبه مانشعر به من الوجدان .

علاقة الوجدان بالإحساس :

علمت أن الإدراك والوجدان على اختلافهما مرتبطان ، وعلى تباينهما متصلان. وأظهر ما تكون الصلة بين الوجدان والإحساس أو الإدراك الحسى.

ويظهر ذلك من أنك تقول إن هذه الصورة سارة ، وذلك الطعام لذيذ ، وتلك الرائحة مريحة أو كريهة. فالسرور واللذة والراحة والكراهة حالات وجدانية ناشئة عن الإحساس أومتصلة به .

وكثيرا مانسمى الوجدان إحساسا وبالعكس ؛ كما تقول إنى أحس بالجوع ، أو أشعر بألم الحرق ، مع أن الأولى أن يسمى الأول وجدانا ، والثانى إحساسا لأنه ناشئ عن تأثر الأعصاب تأثرا مباشرا ، أما الجوع فناشئ عن تغير عام فى أحوال الجسم .

ويميل السلوكيون إلى اعتبار الانفعالات من قبيل الإحساسات العامة التى تنشأ عن تغيرات جسمية باطنية وظاهرية .

فالعلاقة بين الوجدان والإحساس ظاهرة جدا لدرجة أن علماء النفس يختلفون فى وضع الحد الفاصل بينهما ، فمنهم من يجعل الإحساسات الجلدية الشديدة من الوجدان ؛ لأنها تحدث آلاما مباشرة . ويميل السلوكيون ومن إليهم إلى إرجاع الوجدانات بما فيها الانفعالات إلى إحساسات خاصة أو عامة .

اختلاف الوجدان باختلاف الإحساس :

(١) ترى أنك إذا تناولت جزءا صغيرا من طعام شهى شعرت بشىء من اللذة ، فإذا تناولت جزءا كبيرا منه زاد التذاذك به . وإذا شممت رائحة لطيفة خفيفة سررت لها ، فإذا قويت زاد سرورك منها .

(٢) وترى أن اختلاف مذاق الأشياء وروائحها يؤدى إلى اختلاف فى

السرور أو الألم الذى ينشأ عن ذوقها أو شمها ؛ فالسرور عند شم الورد ليس كالسرور عند شم الفل ، والألم الذى تشعر به عند تناول أحد الأدوية يختلف عن الألم الذى تشعر به عند تناول غيره .

(٣) وترى أنه كلما طال إحساسك بالأشياء السارة زاد سرورك حتى يبلغ أقصاه ، ثم يأخذ فى النقصان حتى يزول .

فمن هذه الأمثلة تعرف أن الوجدان يقوى بقوة الإحساس ، ويضعف بضعفه ، ويختلف نوعه باختلاف نوع الإحساس ، ويزيد ويستمر باستمرار الإحساس إلى حد ما .

وقد قام العلماء بعدة تجارب أثبتت ذلك ، وبينت ارتباط الوجدان بالإحساس ارتباطا كبيرا .

الفرق بين الوجدان والإحساس :

ليس معنى ارتباط الوجدان بالإحساس أنهما شىء واحد ، أو أنهما متماثلان من جميع الوجوه . فمما لا نزاع فيه أنهما أمران مختلفان ؛ لأن موضع الإحساس هو الحواس الخاصة أو العامة ، أما موضع إدراك الوجدان فهو العقل . ألا ترى أن شخصين مختلفين قد يريان شيئا واحدا كمنظر أو صورة فيشعر أحدهما بوجدان خاص عند رؤيته ، ويشعر الآخر بوجدان آخر قد يكون أقوى أو أضعف لدرجة تقارب من العدم ؟ هذا مع أن إحساس كل منهما بما رأى يساوى إحساس الآخر .

فالإحساس شىء والوجدان شىء آخر . ولو كانا شيئا واحدا لتساوى

جميع الناس فى أحوالهم الوجدانية إذا تساووا فى إحساساتهم ، مع أن الواقع غير ذلك كما علمت ؛ لأن الإحساس متعلق بالمحسات أى بالأشياء الخارجية ، فهو موضوعى [١] ؛ لا يختلف باختلاف الأشخاص المتساوين فى القوة الإحساسية. أما الوجدان فحالة نفسية متعلقة بالنفس أكثر من تعلقها بالمؤثرات الخارجية ، ولذا تختلف باختلاف الأشخاص فى بيئاتهم وتربيتهم وتجاربهم الماضية ؛ فهى ذاتية [٢] أكثر منها موضوعية .

وهناك فرق ثان بين الإحساس والوجدان ؛ ذلك هو : أن الإحساس يكون واضحا محدودا ، يستطيع الإنسان تعيين موضعه ، وبيان صفاته المشخصة له ، المصورة لكمه وكيفيته ومدة استمراره ؛ تلك الصفات التى تجعله صالحا لأن يكون مادة منها تتكون المعرفة الصحيحة . أما الوجدان على العموم فغامض لا يبلغ منزلة الإحساس فى التحدد والوضوح ، فليس من السهل وصفه وتحديد موضعه ، رغم كونه يشبه الإحساس فى أن له كما وكيفية وامتدادا زمنيا .

وهذا راجع إلى فرق ثالث هو : أن الإحساس خاضع لإرادتنا ؛ فنحن نستطيع أن نقويه ، ونعنى بالمدركات الحسية فنوجه نحوها انتباهنا ، فيزداد وضوحها . أما الوجدان فخارج عن دائرة إرادتنا ؛ ولذا لانستطيع جعله أوضح ولا أجلى بمحض إرادتنا ، إلا إذا زدنا فى قوة الإحساس المتصل به ، وجعلناه أكثر وضوحا وجلاء .

(1) Objective. (2) Subjective.

علاقة الوجدان بالإدراك على العموم :

فالإحساس والوجدان شيئان مختلفان ، ولكنهما مع ذلك مرتبطان أحدهما بالآخر . وإذا نظرنا إلى العمليات الإدراكية الأخرى وجدنا أن للوجدان علاقة بكل منها ؛ فالانتباه إلى الصورة الجميلة والتجارب اللذيذة سار ، وكذلك تصور المناظر الخلابة ، وتخيل مستقبل حسن براق مملوء بالآمال ، وتذكر بعض التجارب والحوادث السارة ، والتفكير فى حل مشكلة سهلة الحل . والسرور لهذه الأشياء يختلف باختلافها كما وكيفية ومدة .

أما الانتباه إلى الصور القبيحة ، والأضواء المضطربة ، والمناظر المشوهة فمؤلم ، وكذلك كل انتباه يصحبه إجهاد للقوى العقلية ، وتصور شبح مخيف ، وتخيل مستقبل مظلم ، وتذكر حادثة مؤلمة ، والتفكير فى حل مشكلة معقدة .

فالوجدان إذا يصحب العمليات الإدراكية العليا ، كما يصحب الإحساس الخاص والعام .

الوجدان والنزوع :

من اللذات الحسية ما ينشأ عن إرضاء نزعات ورغبات حسية سابقة مرتبطة بحاجات عضوية أولية ؛ كالرغبة فى الطعام عند الجوع ، وفى الشراب عند العطش . فسد هذه الحاجات يحدث سرورا زائدا على السرور الذى يحصل بتناول الطعام أو الشراب نفسه ؛ ولذا يكون سرور من اشتد جوعه برؤية الطعام أو بتناوله أكثر من سرور الشبعان أو قليل الجوع بذلك ،

فبمقدار الرغبة يكون السرور الناشئ عن إرضائها .

وهناك نزعات نفسية فطرية غرزية انبعاثيــة ، مرتبطة بالدوافع النفسية الوراثية التى نسميها غرائز ؛ كالنزوع إلى الهرب عنـد الخوف ، وإلى الانتقام من العدو عند الغضب ، وإلى الضحك عند التعجب وانبساط النفس ؛ فإرضاء هذه النزعات أيضا مريح للنفس محدث للسرور ، وعدم إرضائها محدث للألم . وهناك نوع ثالث من الرغبات والنزعات ، قد يسمى الرغبات أو النزعات المكتسبة، الناشئة عن صفات نفسية مكتسبة ثابتة تسمى العواطف ؛ كالرغبة فى الدفاع عن المظلومين ، وفى طاعة القانون الناشئة عن عاطفة محبة الحق ، وكالرغبة فى جمع الأزهار ، وتنسيق الحجرات ، وتنظيم الطرقات ، وسماع الموسيقا ، ورؤية المناظر الجميلة، وهذه رغبة ناشئة عن عاطفة محبة الجمال . وكالرغبة فى مساعدة الفقراء ، وإنشاء المساجد والمستشفيات والملاجئ ، تلك الرغبـة الناشئة عن عاطفة محبة الخير . فإرضاء هذه الرغبات سار ، وعدم إرضائها مؤلم .

فالسرور أو الألم فى هـذه الأمثلة كلها نتيجة لهذه الأعمال المختلفة التى يترتب عليها إرضاء الرغبات الحسية والغرزية والمكتسبة أو عـدم إرضائها . فالوجدان إذاً قد يكون نتيجة للنزوع .

وإننا نشاهد فى تجاربنا ما يؤيد عكس هـذه القضية ؛ أى أن الوجدان قد يكون سببا فى النزوع ؛ وذلك أن لكل تجربة سارة أو مؤلمة واقعة بالفعل ناحيــة وجدانيــة سارة أو مؤلمة ، مصاحبة لهـا ، وقد قامت الأدلة على أن السرور أو الألم الذى يصحب التجربة السارة أو المؤلمة يدعو إلى انتشار العضـلات أو انقباضها . وإننا نشاهـد آثار ذلك الانبساط أو الانقباض فى

السلوك الخارجى؛ فالإنسان يحاول ما استطاع أن يطيل فى أمد التجارب اللذيذة السارة — لا سيما إذا علم أنها نافعة مفيدة ، ويجتهد فى ترك التجارب المؤلمة — وبخاصة إذا علم أنها ضارة .

وليس هذا كل ما يحصل ، بل إن تذكر الحوادث التى صارت فى طيات الماضى يكون سارا إذا كانت تلك الحوادث سارة ، ومؤلما إذا كانت مؤلمة . ثم إن ذلك السرور أو الألم ينزع بالإنسان إلى عمل من الأعمال ، فهو يحاول أن يعيد التجارب السارة ، ويتجنب وقوع التجارب المؤلمة . وبقدر سروره أو ألمه فى الماضى يكون مقدار محاولته الإعادة أو التجنب .

على أن لذكريات الماضى أحيانا ناحيتين : إحداهما سارة ، والأخرى مؤلمة، فالسرور ينشأ عن تذكر اللذة الماضية ، وعن الأمل فى التمتع بها مرة أخرى . أما الألم فيرجع إلى احتمال انقطاع تلك الحوادث السارة ، وعدم تكرار حدوثها . وكلما قوى الأمل فى عودة الماضى السار ضعف الألم الناشئ عن احتمال انقطاعه وعدم وقوعه مرة أخرى .

فالسرور الذى يصحب التجارب السارة يدعو الإنسان إلى الاستمرار فيها، وإعادتها بعد انقطاعها . أما الألم فيحمل الإنسان على بتر التجارب المؤلمة ، والسعى فى عدم حصولها . وما الاستمرار فى العمل ، والسعى فى إعادته أو تركه والسعى فى تجنبه إلا أعمال داخلة فى دائرة النزوع .

تعليل الوجدان

ذهب العلماء فى تعليل الوجدان وبيان أسبابه مذاهب شتى ، نذكر منها ما يأتى :

(١) التعليل المادى الجثمانى [1]

ومعناه أن الوجدان راجع إلى تغييرات مادية خاصة تحدث فى الجسم ، فينشأ عنها الشعور بالسرور أو الألم . وقد أجريت تجارب لإثبات ذلك ؛ فوجد مثلا أن القلب يبطئ فى دقاته وأن التنفس يسرع عند السرور . أما عند الألم فقد شوهد العكس ؛ أى أن القلب يسرع فى ضرباته ، وأن حركات التنفس تكون بطيئة . ولكن تجارب أخرى أجريت فلم تؤد إلى تلك النتيجة ؛ إذ شوهد أن القلب قد يسرع فى ضرباته عند السرور ، وأن حركات التنفس قد تكون سريعة عند الألم . وتستطيع أن تجرب ذلك بنفسك ؛ فإنك إذا أسرعت فى حركات التنفس فربما لا تشعر بلذة غير عادية ، كما أنك قد لا تشعر بألم إذا تنفست ببطء .

ومع ذلك فقد أصبح مما لا شك فيه الآن أن السرور والألم يصحبهما تغيرات عضوية متعددة فى الجهاز العصبى ، وفى الدورة الدموية ، وحركات

(1) See Psychology, by R. S. Woodworth P. 175 - 6.

التنفس، والهضم ، والإفرازات الغدية الداخلية . ولكن الذى لم يعرف بالضبط حتى الآن التغيرات العضوية التى تصحب السرور ، وتلك التى تصحب الألم .

ومن العلماء (١) من يرى أن للوجدان علاقة بعملية البناء والهدم التى تحدث فى الجهاز العصبى ؛ فالسرور يحدث من زيادة الأول على الثانى ، والألم يحدث من نقصه عنه ، فإذا تعادلا نشأ عن تعادلهما الشعور بحالة وجدانية محايدة ؛ لا هى بالسرور ولا هى بالألم .

ومنهم من ينقض هذه النظرية ، ويرى أن السرور راجع فى هذه الحالة إلى التخلص من المواد الداثرة المتجمعة فى الأنسجة ، لا من زيادة البناء على الهدم ، وأن الألم يحدث من تجمع تلك المواد فى الأنسجة ، لا من زيادة الهدم على البناء ، ذلك :

(١) لأن السرور قد يصحبه نشاط عصبى شديد يؤدى إلى هدم الأنسجة العصبية ، كما يحدث لمدمنى السكر الذين يغالون فى تناول المواد المخدرة ، ويجدون فى ذلك لذة وسرورا .

(٢) لأن بناء الأنسجة يحدث بالعمل العادى الذى لا يصحبه لذة ، فى حين أن هدمها قد يحدث فى أثناء الراحة الزائدة على حدها ، بدليل أن الأعضاء التى تهمل تضمر و تضعف .

وهناك نظرية أخرى قريبة من السابقة يرى واضعها أن السرور يتوقف على وجود كمية من الطاقة المدخرة فى الجهاز العصبى فى أثناء الراحة، وأن الألم

(1) See. A Manual of Psychology, by G. F. Stout P. 392 - 397

ينشأ عن استنفاد هذه الطاقة ، ونقصها عن حاجة المخ والحواس . وهناك من التجارب مايؤيد هذه النظرية ؛ فكل حاسة نالت قسطا وافرا من الراحة تكون أقدر على الاستمتاع بلذات الحياة ، أما الحاسة المجهدة فلا تحس بلذة ، مهما يكن المحس به لذيذا فى ذاته .

وهذه النظرية أيضا ناقصة لا تبين لنا إلا السبب فى قوة الوجدان أو ضعفه إذا كان من نوع واحد ، فهى تذكر لنا السبب فى قوة الإحساس على العموم بعد راحة الحاسة ، ولكنها لا تبين لنا سبب اختلاف الوجدان فى نوعه على فرض وجود الطاقة الكافية ، ولا تشرح لنا السبب فى أن بعض الإحساسات يكون مؤلما ولو كان ضعيفا ، وأن بعضها يكون سارا ولو كان قويا ؛ ألا ترى أن حاسة الذوق تتألم لأقل مقدار من المرارة ، وتتلذذ بالحلاوة ولو عظم مقدارها؟ وأن حاسة الشم تتأفف لأقل كمية من الرائحة الكريهة ، وتستلذ الرائحة الطيبة حتى فى حالة قوتها ؟

فهذه النظرية على كل حال لا تبين لنا سبب اختلاف أنواع الوجدانات الناشئة عن استخدام حاسة واحدة من المفروض أنها مزودة بكمية خاصة من الطاقة .

(ب) التعليل العقلى للوجدان : (1)

ويراد به أن السرور ناشئ عن سير العقل فى عمله سيراً مطرداً دون حدوث

(1) See. "Psychology", by R.S. Woodworth, P. 177.

صعوبات أو عقبات ، وأن الألم راجع إلى طروء بعض الصعوبات أو العقبات التى تحول دون سير العقل فى طريقه بسهولة ، وتجعله يتباطأ أو يتردد . ويؤيد هذا الرأى ما نشعر به من الألم حينما نكون فى حالة تردد ووسوسة وتباطؤ ، لا ندرى ماذا نصنع ، وما نشعر به من السرور حينما نسير فى أعمالنا سيراً حثيثا دون تردد وتلعثم .

ولكن هناك اعتراضين على هذا الرأى :

أولهما : أننا نشعر بألم عند ما نعمل الأعمال التى لا نميل إليها ، ولكننا إذا أقبلنا عليها لسبب آخر غير السرور منها ، وواصلنا السير فيها حتى أصبحت من عادتنا المنظمة ، فإننا لا نشعر بلذة فى أثناء عملها بعد تكرارها . فمثل هذه الأعمال تسير بنظام ، ومع ذلك لا يصحبها شعور باللذة . فكل منا يلاحظ أن بدء الأعمال غير المألوفة كركوب الدراجة أو قيادة السيارة أو القراءة أو الكتابة يكون مؤلما إلى حد ما ؛ ولكن تعود أحد هذه الأعمال يجعله مريحا لنا مدة من الزمن ، حتى إذا ما ألفه الإنسان وكرره ، وصار عادة من عاداته لا يشعر بلذة فى أثناء القيام به لذاته ، مع أنه يقوم به بنظام وانسجام ، دون تردد أو تلعثم .

ثانيهما : أننا نرى من الصعب أن نعتقد أن الأعمال العقلية المضطربة البطيئة يصحبها ألم ، وأن سير العقل سيراً منسجماً يصحبه دائما سرور ولذة ، نعم لا نستطيع أن نعتقد ذلك ما دمنا نعلم أن الأعمال الغرزية — مادية كانت أو عقلية — التى ترمى إلى المحافظة على النفس تسرع وتجد فى الظهور عند ظهور المثير المؤلم ؛ فالإنسان يحاول التخلص من الألم عند حصوله ، ويسعى

فى الفرار منه بكل وسيلة ممكنة، وذلك لا يتم إلا بسرعة التيارات العصبية فى سيرها، وانتقالها من مكان إلى آخر بسهولة، أى لا يتم إلا بسير العقل سيراً مطرداً.

(ج) التعليل البيولوجى للوجدان:

ومؤداه أن السرور يعتبر دليلا على سير الكائن الحى سيراً يدعو إلى نموه وتقدمه، وحسن استعداده للحياة، ومقاومة البيئة التى يسكنها، وأن الألم يصحب سير الكائن الحى سيرا يؤدى إلى وقوف نموه، أو إلى تأخره فى طريق النمو والتطور، وعدم قدرته على مقاومة بيئته. وفى ذلك يقول العلامة الإنجليزى سَلِى[1]: «إن اللذة أو الألم لا يصحبان أحوالا عضوية من شأنها أن تساعد على تقوية أعضاء خاصة وتقدمها وحدها، أو على تأخرها دون غيرها، ولا يدلان على وجود أحوال تؤثر فى أعضاء خاصة فحسب، وإنما يدلان على وجود حالات عضوية تساعد على تقدم الكائن العضوى كله، أو على تأخره كله باعتباره كلا لا يتجزأ».

وهذا التعليل عام وغامض: أما كونه عاما فظاهر من أنه يشمل التعليلين الأول والثانى؛ لأننا نستطيع أن ندخل فى الحالات العضوية التغيرات العصبية والعضوية والعضلية والإفرازية الداخلية. وكذلك سلوك المخ أو العقل سلوكا مضطربا أو مطردا خاليا من التردد والتلعثم، الذى يرجع إلى كيفية سير الخلايا المخية والتيارات العصبية.

(1) Sully

وأما كونه غامضا فلأننا لا نعرف منه إذا كان الوجدان يعتبر نتيجة لتلك الحالات العضوية المذكورة ، أو سبباً لها ، أو مجرد دليل عليها يحدث معها فى آن واحد . فإذا فرضنا تعاقبهما فما السبب فى السابق منهما ؟ وإذا فرضنا تلازمهما وتصاحبهما فى النشأة فما السبب فيهما معا ؟ إننا بعد فهم هذا التعليل لا نستطيع الإجابة عن هذه الأسئلة . ولذا نعده تعليلا قاصرا غير مرضىّ .

(د) التعليل الفطرى للوجدان:

يرى الأستاذ (وُدورْث) الأمريكى[1] أن الوجدان ناشئ عن استعداد الكائن الحى استعدادا طبيعيا لتعديل مجموعه العصبى وتهيئه تهيؤا خاصا، بحيث يحمل على الاستمرار فيما هو سارّ من التجارب ، وعلى بتر ما هو مؤلم منها. أما ما ليس بسار ولا مؤلم من التجارب فإنا نقف منه موقفا سلبيا ، فلا نقبل عليه ونستمر فيه ، ولا نفر منه . ولذا لا نشعر بسرور ولا ألم بالنسبة له .

فالسرور على هذا الرأى يصحب تهيؤ الحيوان تهيؤا عصبيا خاصا ، ينشأ عنه توجهه نحو الاستمرار فى العمل ، أو على الأقل ترك الحالة كما هى عليه . أما عدم السرور فيصحب التوجه نحو ترك التجربة والتخلص منها . «فالشىء المر غير لذيذ لأن عندنا استعدادا طبيعيا خاصا للسعى فى التخلص من طعمه عند ذوقه، وهذا معنى أنه غير لذيذ. والشىء الحلو لذيذ لسبب مشابه لهذا السبب.»

فصاحب هذا الرأى — على ما يظهر — يرى أن كلا من العنصر النزوعى الذى هو السعى فى التخلص من المؤلم أو الاستزادة من السار ، والعنصر

(١) R. S. Woodworth راجع كتابه السالف الذكر ص ١٧٧ — ١٧٨

الوجـدانى الذى هو الشعور بالألم أو بالسرور ناشئ عن اسـتعداد عصبى فى الحيوان للقيام بالأمرين معا . وهذا مسلم به . ولـكن لنا أن نسأل : أيهما يسبق الآخر ؟ المعقول أننا نشعر بألم المؤلم فنسعى فى التخلص منه ، وأننا نشعر بلذة اللذيذ فنسعى فى استبقائه أو الاستزادة منه ؛ أى أن الحالة النزوعية تعقب الحالة الوجدانية ، وإن كنا لا نلاحظ تعاقبهما لسرعته .

فـكل من هـذه التعليلات ناقص ، معبر عن جزء من الحقيقة ، لا عن الحقيقة كلها ، فأولى بنا وأحرى أن نعتبرها أسـبابا مختلفة لأنواع الوجدان المتعددة .

أنواع الوجدان : (١)

إن خير أساس نعتمد عليه لبيان أنواع الوجدان هو أسبابه أو متعلقاته . وهو ينقسم من هذه الناحية إلى :

(١) حسى أومادى : كالجوع والعطش ، والسرور لمنظر سار أوشم رائحة حسنة ، والتألم لرؤية منظر قبيح أوسماع نغمة مستهجنة .

(٢) عقلى أومعنوى : كالخوف والغضب ، والحب والـكراهة .

(١) الوجدان الحسى :

نستطيع أن نعرف الوجـدان الحسى بأنه إحساس مؤلم أولذيذ . ويعتبر

(١) هذا الموضوع مقتبس من كتاب الأستاذ (سلى) السابق الذكر ص ٣٧٨ وما بعدها.

أبسط أنواع الوجدان ؛ إذ ليس من المستطاع تحليله إلى ما هو أبسط منه ، فهو يتحقق بمجرد السرور أو الألم .

وينشأ عن تأثر أعصاب الحس الداخلى أو الخارجى تأثرا ماديا مباشرا سارا أو مؤلما ؛ فهو إذا نتيجة للإحساس الداخلى أو الخارجى كما ترى فى الأمثلة السابقة .

وللوجدان الحسى صفات، منها :—

(١) أنه يعتبر فى مستوى الحسيات ؛ أى أنه مرتبط بالحس الخاص أو العام ، وليست له علاقة بعالم المعقولات أو المستوى الإدراكى . أما الوجدان المعنوى فمرتبط بعالم المعقولات ، داخل فى المستوى العقلى الإدراكى .

(٢) أنه من الممكن تحديد موضعه ولو على وجه التقريب ؛ فموضع الإحساس بألم الجوع هو منطقة المعدة ، وموضع الإحساس بألم العطش هو منطقة الحلق والمرىء . وأما الوجدان المعنوى فليس له عضو ولا موضع خاص فى الجسم .

(٣) أن تجاربنا له تكون واضحة ظاهرة ، من السهل تحديدها ووصفها. أما الوجدان المعنوى فغامض ؛ من الصعب تحديده ووصفه .

(٤) أن الشعور بالوجدان الحسى لا يكاد يختلف باختلاف الأفراد . أما الاختلاف فى الوجدان المعنوى باختلاف الأفراد فقد يصل إلى حد بعيدجدا ؛ فمن الناس من هو بطىء الغضب ، ومنهم من هو سريع التأثر بحيث يغضبه أتفه الأشياء .

والوجدان الحسى إما (ا) حسى خاص ، وإما (ب) حسى عام أو عضوى .

(ا) فالحسى الخاص ينشأ عن تأثر إحدى الحواس الخمس مباشرة بمؤثرات خارجية ؛ كالألم الناشئ عن تأثر العين بإحدى المواد الغريبة ، واللذة التى نشعر بها عند تناول طعام شهى ، وكالتألم لرؤية منظر مهوش ، أو التلذذ عند التدخين أو احتساء نوع من الشراب ، أو سماع نغمة موسيقية خاصة .

وقد أثبتت التجارب أن أشخاصا يولدون وعندهم ميل فطرى لأشياء خاصة تسرهم رؤيتها أو الاشتغال بها؛ كما فى بعض الأشخاص الذين يميلون إلى الأرقام أو الخطوط ، أو إلى نوع خاص من الألوان، أو عندهم نفور فطرى من أشياء أخرى كالسواد أو الصفرة ، أو من بعض الحيوانات .

وعلى مر الزمن وبكثرة التجارب توجد عند الإنسان ميول مكتسبة لأطعمة أو روائح أو ألوان خاصة ، كما هى الحال فيمن يفضلون السمك على اللحوم ، أو يميلون إلى أنواع خاصة من الفواكه دون غيرها ، وفيمن يحبون أكل لحم خاص ، أو التدخين ، أو شرب أنواع خاصة من المياه المعدنية ، وغيرها من المشروبات . ومن الناس من يتعلم كيف يكره أطعمة أو أشربة خاصة لسبب من الأسباب . فالوجدان الحسى الخاص كما ترى إما فطرى وإما مكتسب .

(ب) ويراد بالوجدان العضوى ذلك الذى يرجع إلى أعصاب الحس الباطن المتصلة بالمراكز السفلى ، وهى : المخيخ والنخاعان والعظيم السمباتوى ؛ وذلك كالجوع والعطش، والشبع والرى ، والتعب والراحة ، وغير ذلك من الآلام التى

تنشأ من تأثر أحد الأعضاء الباطنية ، كالقلب والرئتين والكبد والكليتين .

وأظهر فرق بين الوجدان الحسى الخاص والوجدان العضوى أن الأول أوضح وأجلى وأشد تأثيرا فى النفس ، وأسهل تحددا ؛ أى أن أوصاف الوجدان الحسى تظهر فيه أكثر مما تظهر فى الوجدان العضوى .

(٢) الوجدان المعنوى :

هو تعلق الشعور بمعنى من المعانى السارة أو المؤلمة ؛ كالفرح ، ومحبة الأهل والوطن والجاه ، والغضب والخوف والحزن والخجل والحسد والغيرة ، وكراهة الأعداء والظلم ، وبغض كل ما هو قبيح .

فاللذة أو الألم الذى نشعر به فى مثل هذه الأحوال ليس ناشئا عن تأثر الأعصاب بمتعلق الوجدان المادى ، ولكنه ناشئ عن معنى ندركه فيه ؛ فأنت تكره عدوك لا لشخصه ، ولكن لمعنى فيه وهو المداوة ، بدليل أن الكراهة تزول إذا تصافيتما وأصبحتما صديقين ، وكذلك يقال فى غير الكراهة من الوجدانات المعنوية .

والوجدان المعنوى إما : —

(١) مطلق : ويكون فى العادة عنصرا من عناصر إحدى الغرائز . ويسمى بالانفعال ؛ كالخوف والغضب ، والاشمئزاز ، والتعجب . وإما :

(٢) مقيد : ويسمى بالعاطفة ، كمحبة الوطن ، واحترام النفس ، وكراهة الظلم ، والخوف من عمل القبيح .

نشأة الوجدان وتطوره :

إن آثار الوجدان لتظهر واضحة جلية على الطفل فى حياته الأولى ، وإن أول مانلاحظ عليه فى الأسابيع الأولى من حياته تأثره تأثرا شديدا بالتغيرات الجسمية العضوية ؛ فهو يبكى إذا جاع ، ويسر إذا شبع ، ويتألم إذا اعتراه اضطراب فى الهضم ، أو قلق فى مضجعه ، أو تعب من قلة النوم .

وفى الشهر الثالث أو الرابع من عمره يتغلب وجدانه الحسى الخاص ، حيث تأخذ حواسه الخاصة فى القوة والتأثر بالمؤثرات الخارجية السارة إلى حد قلما يقدره الكبار حق قدره .

وأشد الأشياء تأثيرا فى الطفل فى هذا العصر من عصور حياته ملمس الأشياء وألوانها ، والنغمات والمقاطع الصوتية . وقد دلت التجارب الحديثة على أن الأطفال من السابعة إلى الرابعة عشرة يفضلون ألوانا خاصة على غيرها . وقد وجد أن معظمهم يحبون الأزرق والأحمر والذهبى ، وتقريبا جميع الألوان الممتزجة التى يحبها الكبار ، وهى الألوان المتقابلة كالأزرق مع الأصفر ، والأحمر مع الأخضر .

يكبر الطفل فتنمو عضلاته ، ويميل إلى النشاط ، ويحب الحركة والانتقال من مكان إلى آخر بكل حرية ، وينبعث إلى تناول الأشياء وتقليبها بيديه ، ويجد فى ذلك سرورا ظاهرا ، ويكره الحجر عليه وتقييد حريته بأى وسيلة من الوسائل . ولا يزال يجد فى اللعب حتى يلحقه التعب فيدركه الألم ، فيميل إلى الراحة ، ويجد فى النوم لذة وسرورا . وفى أثناء يقظته تراه يحب التغير والانتقال من حال إلى حال ، والجرى وراء كل مايخلب لبه ، ويجتذبه نحوه ،

ويجلب له السرور ، فكأنه بذلك يقول لنا إنى أحب الحرية فى الحركة ، وأولع بالتغيير فى البيئة ، وأميل إلى كل جديد ، وأمقت الاستعباد ، وأكره البيئة الثابتة المملة .

ينتقل من مستوى الإحساس إلى مستوى الإدراك ، فتظهر عليه علامات الانفعالات ، فيغضب ويخاف ، ويحب ويكره ، وهو إذا خاف أوغضب أو كره لا يتبع حدا وسطا ، بل إن خوفه شديد ، وغضبه ظاهر ، ومحبته بينة ، وكراهته واضحة .

فانفعالات الطفل شديدة حادة ، وهى مع ذلك سريعة فى ظهورها ، سريعة فى خمودها وزوالها ؛ إذ هو يغضب بسرعة لأدنى سبب ، ويزول غضبه لأقل سبب أيضا ، وأقل معاكسة تبكيه بكاء مرا ، وأقل تغيير فى البيئة يضحكه ؛ كما إذا رأى لونا براقا جذابا ، وهو فى ذلك بالإنسان المتوحش أشبه ، وإليه أقرب . وما ذلك إلا لأنه ينقصه التفكير والروية وضبط النفس ، فهو يخضع لتجاربه الحسية الوقتية المرتبطة ببيئته الحاضرة ، لا للفكر والمنطق ، والنظر إلى المستقبل .

ومما يلذ للإنسان أن يرى الطفل وهو كالألعوبة فى يد الانفعالات ؛ فتارة تقذف به إلى الحدة والاضطراب العصبى العنيف ، وأخرى تنزل به إلى الهدوء والسكينة التامة ، والفرح الظاهر ، وربما لا يكون بين هذه الحالة وتلك إلا فترة قصيرة ، فتراه يبدأ ضاحكا ، وينتهى باكيا ، أو بالعكس ، وما ذلك إلا لكونه يحس فيتأثر . ولكون إحساساته مضطربة لا تستقر على حال ترى انفعالاته كذلك جامحة مضطربة متقلبة .

وهـذا بعينه هو السبب فى أننا نراه متقلبا فى محبته و كراهته ؛ فهو يكره اليوم ما أحب بالأمس ، ويغضب الليلة ممن صاحب البارحة ، وينفر فى عيشته ممن أقبل عليه فى ضحاه ، ويتوجه فى ليله نحو ماهجر فى نهاره .

وهو فى تصرفاته هذه محب لنفسه، متأثر بالغرائز الفردية، يسعى فى الحصول على رغباته الشخصية ، ويقبل على كل مايجلب له السرور ، ويحب كل من يرضى رغباته ، ويكره كل ما يؤلمه ، ويبغض كل من يحول بينه وبين مايشتهى ، يحب والديه لأنهما يعطفان عايه، ويحب حاضنته ومن يتوددون إليه من الأجانب لأنه يلحظ فيهم شفقة عليه، ورأفة به ، ويحب مَرْضَعه لأنه أشد الأمكنة اتصالا به .

فإذا رأينا منـه ذلك التقلب فلا نعجب ، فتلك طبيعته التى طبع عليها ، وتلك سنة الله فى خلقه ، فلا مفر من الاعتراف بها ، واتخاذ الوسائل لتهذيبها وإصلاح شأنها .

ولا ينبغى لنا مع ذلك أن نطأطئ للطفل الرءوس ، ونغدق عليه عبارات المدح والاستحسان، ونغلو فى إطرائه والثناء عليه ، فإن ذلك مميت لشخصيته. قتال لعواطفه . بل من الواجب أن نرتفع به من هذا المستوى الحسى إلى المستوى المعنوى الاجتماعى الذى هو مستوى العواطف ، حتى إذا ماوصل إلى مستوى العواطف انتقلنا به من العواطف الحسية إلى العواطف المعنوية الدنيا ، ثم إلى العواطف العليا كما سترى فيما بعد .

المراجع بالإنجليزية : ـ

(1) Manual of Psychology, by Stout, ch. V.
(2) Psychology, by Woodworth ch. IX.
(3) Fundamentals of Psychology, by Dumville .ch.XI.
(4) The Teacher's Handbook of Psychology, by J. Sully, ch. XV.
(5) Psychological Principles of Education, by Horne, ch. XV.
(6) Social Psychology, by Thouless, p. 104-5.
(7) Introduction to Psychology, by Loveday & Green. ch. VII.

الفصل السابع

الانفعالات

إن الحالة الانفعالية أظهر حالة نفسية يتجلى فيها الوجدان بأجلى مظاهره، وتظهر فيها آثاره الباطنية والظاهرية واضحة جلية إلى أقصى حد ممكن. وإننا نريد بالانفعالات تلك الوجدانات الهائجة، والدوافع النفسية الثائرة القوية، التى تحمل الإنسان على العمل، وتعاوده كل يوم بل كل لحظة من لحظات حياته، فتسبب له الفوز والنجاح، وتعاونه على إخضاع الظروف المعارضة، وتذليل صعوبات الحياة، والتغلب عليها، أو تجلب له الخزى والعار، والمرض العضال، والحزن المستمر، والإخفاق الدائم.

وليس الانفعال مقصورا على الغضب كما كان يظن؛ بل إنه يشمل كل وجدان حاد كالخوف والفرح والحزن والأسف والندم والحقد والحسد والأمل والتفاؤل والتشاؤم. ولا نكون مبالغين إذا قلنا إنه قلما تمر على الإنسان لحظة دون أن يكون فى حالة انفعال ظاهر أو مقهور، حاد أو ضعيف. ولكن بعض الأشخاص الذين ينقصهم ضبط النفس قد يصيرون ألعوبة فى يد بعض الانفعالات الحادة التى تملك عليهم قيادهم، وتمسك بأزمتهم،

وتقودهم أنى شاءت، فيصبحون نهبا لها ، ويصيرون عبيدا لتصرفاتها الهوجاء، فتضعف أجسامهم ، وتخور قواهم . وقد تلتهمهم أمراض الانفعالات التهاما ، فتضطرب أعصابهم فجأة ، أو تقف قلوبهم عن العمل بغتة ، فيلحقهم الموت العاجل . فالحزن الشديد قد يكون مميتا ، والغضب العنيف قد يودى بصاحبه. وكثيرا مايكون الفرح الفجائى الشديد سببا فى الهلاك السريع . هذا فى حين أن الانفعال الذى لايجد له منفذا ، ولا يحصل له على رغبة ، ولا يصل إلى غاية ، بأى وسيلة من الوسائل ينتقل من العقل الظاهر إلى أعماق العقل الباطن، ويصير مآله عالم الوجدانات المكبوتة ، فيسبب أمراضا عصبية خطرة قد ينشأ عنها اضطراب الشخصية ، وتوالى الأمراض العقلية التى يستعصى علاجها ، ويطول أمدها .

فيجدر بنا أن نلم بهذه الظاهرة النفسية النفاذة الأثر ، ونتعرف حقيقتها وآثارها فى الجسم والعقل ، ونعرف كيف تنمو وتقوى ، وكيف تضعف وتهذب ، لنكون على بينة من أمرها ، ونقدر على كبح جماحها، وضبطها قبل استفحال أمرها .

تعريف الانفعال :

علمت مما تقدم أن الانفعال وجدان عقلى فطرى مطلق . ولكن هذا تعريف مجمل ، فإذا أردنا تعريف الانفعال تعريفا أوضح من هذا نقول كما قال الأستاذ (ودورث) (١) : « إنه حالة شعورية ثائرة تعترى الحيوان » ؛ فالثورة

(1) See his Book : Psychology p. 118.

الشعورية أو الوجدان الثائر هو أخص مميزات الانفعال . وإنما قيل «شعورية» لأننا إذا قلنا بأن الانفعال لا شعورى كان هناك تناقض فى الألفاظ . نعم إن الإنسان قد يكون منفعلا ، دون أن يلاحظ أنه منفعل ؛ أى من غير أن يدرس حالته العقلية وقت الانفعال . ولكن من المستحيل أن ينفعل دون أن يعلم ، وأن تضطرب أحواله العضوية اضطرابا عاما وتبقى حالته العقلية هادئة ساكنة .

وإنما قيل « تعترى الحيوان » لأن الانفعال عملية جسمية — عقلية ؛ أى أنها تؤثر فى الجسم والعقل معا ، فيلاحظها المنفعل فى نفسه ملاحظة ذاتية ، ويستطيع غيره ملاحظتها برؤيته، أو إجراء تجربة عليه ، إذ أن وجهه وشفتيه تحمر، وقلبه يضطرب، ونبضه يزداد ، وتنفسه يبطئ، ودورته الدموية تسرع ، وتظهر عليه تغيرات جسمية أخرى من السهل مشاهدتها .

فالانفعال حالة عامة ، أو حالة شعورية كاملة . ولذا يقول العلامة (بولدوِن[1]) فى تعريفه : « إنه حالة شعورية كاملة تتضمن عنصرا وِجدانيا ظاهرا ، وميلا نشاطيا خاصا، تثيره حادثة خاصة محسة أو معقولة » . ويقرب من هذا قول الأستاذ براون : « إن الانفعال وجدان واضح ينشأ مباشرة إما عن التفكير فى شىء أو أشياء ندركها إدراكا حسيا أو نتذكرها أو نتخيلها، وإما عن انفعالات سابقة » . فمن هذه التعريفات ترى أن الانفعال نوع من الوجدان يمتاز بشدته ، وبكونه فطريا شعوريا متعلقا بشىء يدركه الإنسان

(1) See: Dictionary of Philososphy & Psychology, Edited by M. Baldwin, Article "Emotion".

إدراكا حسيا، أو يتصوره، أو يتذكره، وبأنه تصحبه ثورة جسمية عقلية عامة.

وصف عام للانفعالات :

(١) وتوضيحا [١] لما تقدم نقول إن كل انفعال يعتبر حالة خاصة بالمنفعل لايمكن وصفها ، ولا تحليلها إلى عناصر تستوعبها ؛ ولذا لايستطيع أن يصف أحد منا انفعال غيره ؛ فكل أدرى بحالته الانفعالية الخاصة التى تعتريه عند الانفعال ، فلكى يعرف الشخص معنى الغضب تماما لابد أن يجربه ، ولكى يفهم معنى الخوف لابد أن يعانيه .

وليس معنى هذا أن الانفعال وجدان بسيط ليست له عناصر يتركب منها؛ إذ الواقع أن كل انفعال يشمل حالات نفسية متعددة خاصة به ، ومع ذلك لا نستطيع أن نصف هذه الحالات بالضبط ، ولا نستطيع أن نعددها بحيث يكون مجموعها مساويا للانفعال ، وإننا لو حاولنا حصر الحالات التى تدخل فى تكوين أحد الانفعالات — على ما يظهر لنا — لبقيت بقية تقصر اللغة عن تسميتها ووصفها .

فنحن إذا قلنا إن الغيرة مثلا تتركب من الغضب ، والحزن ، وتوبيخ الضمير وغير ذلك من الحالات الوجدانية الخاصة بالغيرة ، فإننا لانريد أن نقول إن مجموع هذه الحالات هو الغيرة نفسها ؛ لأن الشعور الذى يشعر به من يجرب الغيرة شعور نفسى خاص به ، يدخل فى تكوينه عنصر نفسى آخر غير تلك

(1) See. Groundwork of Psychology, by Stout, p. 167.

العناصر المذكورة، فمهما يبلغ الانفعال من التعقد والتركيب فلا بد أن يدخل فى تركيبه عنصر نفسى خاص ليس من المستطاع تسميته .

(٢) ومع كون الانفعال حالة نفسية [1] نجد أنه لا بد أن يتصل بشىء خارجى يسمى « متعلق الانفعال » ، فلكل انفعال اتجاه نفسى نحو شىء من الأشياء الخارجية ، فأنت تغضب من شىء أو شخص أثار غضبك ، وتخاف شيئا دعا إلى الخوف ، وتأسف على فقد عزيز لديك ، وتفرح بالحصول على أمر يسرك .

وإذا كان متعلق الانفعال غامضا غير محدود تماما فإن النفس تميل إلى تحديده وتشخيصه ، فمن طبعه الغضب ، يغضب لأتفه الأسباب ، بل قد يغضب لما قد لا يثير الغضب مطلقا ، أو لما قد يسر فى الأحوال العادية . والفرح يحدث نشوة فى النفس تحمل الإنسان على السرور من كل شىء ، حتى من ذلك الذى قد يغضب عادة . والحقد يتحرك فى نفس الحقود حتى فى ظروف لا تثير الحقد مطلقا فى نفس غيره . والمتفائل ينظر إلى الناحية السارة من كل شىء . والمتشائم ينظر إلى نواحى الحياة المظلمة . وفى مثل هذه الأحوال قد يتحول متعلق الانفعال من شىء إلى آخر : فمن أغضبه رؤساؤه فى محل عمله يظهر غضبه على أهله ، والخادم الذى أغضبه سيده يغضب على مرءوسيه .

(٣) ولكل انفعال ناحية نزوعية خاصة به ، أو اتجاه نزوعى خاص به ، فالغضبان يميل إلى معارضة من أغضبه وإهلاكه إذا قدر ، فإن لم يقدر ضرب الأرض بقدميه ، أو رفس ما يصادفه من الأوانى برجليه . ويصحب الفرح

(1) Subjective.

نشاط نفسي يدعو إلى السرور والسخاء والنشاط العام والانتباه الطليق الانهماكى الذى لا يشوبه جهد ولا ألم، ولا يتوجه إلى غاية عملية؛ فالفرح يلعب ويطرب، ويسرح ويمرح، ويضحك ويغنى، ويرقص ويصفر، ويمنح السائل مالم يكن ليمنحه فى أحوال أخرى.

ولذا يوصف كل من الغضب والفرح بأنه انفعال « إقدام » ؛ لما يصحبه من نشاط عام ظاهر يتوجه ضد العدو فى حالة الغضب، ويظهر أثره فى الحركات الحرة الطليقة فى حالة الفرح. أما كل من الحزن والخوف فيسمى انفعال « إحجام » ؛ لأن النشاط الجسمى والعقلى فى كل منهما يكون على العموم مقيدا محجورا عليه ؛ فالحزين يعكف على التفكير فيما أصابه، ولا يفكر فى غير ذلك إلا مع شىء من الألم والتكلف ؛ يدل على ذلك قولنا إن فلانا « منغمس » فى الأحزان، فهو فى حاجة إلى من ينقذه وينتشله من مصابه. ويعترى الحزين انقباض واضطراب عام فى الوظائف الحيوية، يصحبه بكاء وتحسر وشكوى، وحركات تخفف الآلام، وتخلى السبيل أمام التيارات العصبية التى لا تجد لها غير ذلك منفذا ؛ لأن السلوك العادى معطل غير متوجه نحو مقاومة البيئة، والتغلب على الظروف الخارجية، ولكنه متوجه نحو التأسف للمصيبة، والتحسر على خسارة لا أمل فى عوض منها.

أما الخوف فتارة يحمل الإنسان على القيام بأعمال بها يتجنب مصيبة أو خسارة يتوقع حدوثها، وأخرى يضعف القوى الإنسانية لتعلقه بأمر غريب، أو بشر على الأبواب. وقد يشتد الخوف لدرجة يصبح معها الخائف مضطرب الأعصاب، أو فى حالة شلل لا يستطيع معه الحركة مطلقا ؛ وهذا ما يسمى

بجاذبية الخوف . وقد يصحبه نشاط عصبى ، ويقظة لا شعورية يستطيع معها الإنسان الإقدام ومقاومة المخيف ، والتخلص من المآزق الحرجة بالقيام بأعمال مدهشة تعد من المعجزات .

ولكن الخوف الشديد على العموم يحجب عن الخائف ضياء التفكير ، ويحول بينه وبين المهارة فى أعماله الجسمية والعقلية عند الخوف ، ويقضى على سرعة الخاطر ، وقوة البديهة . ولا يستطيع مقاومة الأخطار المخيفة إلا من قويت إرادته ، وهدأت ثائرته ، وثبت فؤاده .

(٤) ويعتبر(١) كل انفعال حالة وجدانية مركبة تصحبها تغيرات جثمانية متعددة ، ظاهرية وباطنية ؛ واضطرابات عصبية من المستطاع ملاحظتها ، فأنت إذا لاحظت نفسك أو غيرك وقت الخوف مثلا وجدت أن جميع الوظائف الجسمية والعقلية فى حالة اضطراب ؛ فهناك انقباض عام ، وضيق نفسى قد يصل إلى درجة الإيلام ، وتغيرات فى الأحوال الجثمانية الداخلية وفى السلوك والمظاهر الخارجية ؛ فالقلب مضطرب ، والوجه والشفتان محمرة ، والحلق جاف ، والتنفس خفيف ، ويقف الشعر ، وتتفتح العينان ، وتتمدد الحدقة ، وترتعد العضلات والفرائص ، ويزداد الضغط الدموى ، ويسرع النبض ، ويقل الدم الذى يغذى العضلات غير الإرادية ، ويغزر الذى يمد العضلات الإرادية ، وتتسرب المواد السكرية المخزونة فى الكبد إلى الدم ، فتزيد فى النشاط العام ، وتقف عملية الهضم وقتيا ، وتفرز الغدد الكلوية « الأدرنالين » بكثرة

(1) See Introduction to Psychology, by S.S:Brierley, P. 84-86:

فتنتشر فى الدم ، وتنشط جميع العمليات السابقة ، وتمنح الدم قدرة غير عادية على سرعة التجمد ، وتساعد العضلات المجهدة فى استعادة قوتها .

فهذه التغيرات الجثمانية هى التى تساعد الحيوان على القيام بأعمال غير عادية فى حالة الانفعال الشديد من جهة ، وتكون سببا فى الضعف العام ، وسوء الهضم ، والاضطراب العصبى من جهة أخرى .

ولقد تبلغ (١) هذه التغيرات الجثمانية عند الخوف والقلق درجة تنسى معها الحالة الوجدانية ، ويظن الأطباء خطأ أن هذه التغيرات والاضطرابات لا ترجع إلى اضطراب وجدانى ، ولكن إلى خلل مادى عضوى اعترى القلب أو المعدة أو الجهاز العصبى ، فيحاولون عبثا علاج المريض بطريقة مادية قلما تفلح .

هذا من حيث الاضطرابات المادية الجثمانية ، أما من حيث الاضطرابات العقلية فأهم ما يلاحظ فى المنفعل ضيق دائرة الشعور ، وتخصصه ، وقصره على أشياء محدودة ؛ فالمنفعل فى حالة الانفعال العنيف يصير أصم أعمى ؛ فلا يسمع ولا يرى إلا ماله علاقة بالغاية التى يرمى إليها الانفعال ، وربما لا يحس بما يحدث له من آلام فى أثناء انفعاله ، وقد ينسى جميع مبادئه ويتغاضى عن نواياه السابقة ، وينسى أيمانه المؤكدة ، والعهود الوثيقة التى أخذها على نفسه . وقد يصل به الأمر إلى أن ينتهج طريقا آخر فى الحياة ، ويسلك مسلكا غير مسلكه العادى ؛ فيصبح رجلا غير الرجل ، ويكتسب شخصية غير شخصيته التى يعرفها الناس ، ويعتريه ما يسمى « بانقسام الشخصية (٢) » . وحينئذ يتعدى الانفعال حدوده ، ويخرج عن دائرة وظيفته الحيوية التى هى تنظيم السلوك والاستعداد للطوارئ ،

(1) See Psychology of Everyday Life, by J. Drever, P.35.
(2) Dissociation.

فتسد المسالك العصبية التي تربط الوظائف الحيوية المخية والعقلية بعضها ببعض، تلك الوظائف التي ينشأ عن ارتباطها انسجام السلوك، وضبط النشاط والسلوك. ومتى سدت هـذه المسالك صار الإنسان عاجزا عن ضبط عضلاته وحواسه، فلا تستطيع تأدية وظائفها، فلا يقدر المرء على التكلم، ولا على ضبط رغباته وكتم ميوله الساذجة الوحشية.

والغالب أن تكون هـذه الاضطرابات مؤقتة، فيكون انقسام الشخصية بهذه الـكيفية مؤقتا أيضا لا يلبث أن يزول، فيعود المرء إلى حالاته الطبيعية بعـد تقشع سحب الانفعال. وفي حالة أخرى قد يدوم الاضطراب، ويستمر انقسام الشخصية، فيؤدي ذلك إلى مرض عصبي ظاهر. وقد حدثت حوادث متعددة من هذا القبيل إبان الحرب الـكبرى، وكانت الاضطرابات العصبية – على اختلاف أنواعها – تعزى إلى فزع الجنود من دوي القنابل التي كان يلقيها الأعداء عليهم.

(٥) ومن المشاهد أن الانفعالات تظهر في كل طور [1] من أطوار الحياة؛ فالخوف والغضب مثلا يظهران من عهد الطفولة الأولى، ويلازمان المرء طول حياته؛ إذ أن الوليد يغضب إذا حجرت على حريته في الحركة، ويخاف عند سماع صوت مرتفع فجأة. والرجل يغضب أو يخاف إذا ظهر له ما يغضبه أو يخيفه. فـكل فرد صالح لأن يغضب أو يخاف مهما تكن سنه، إلا أن الانفعال يختلف قوة وضعفا باختلاف الأفراد في طبائعهم وطرق تربيتهم.

(٦) ومثيرات الانفعال كثيرة؛ فالطفل يخاف أشـياء كثيرة، ويغضب

(1) See Educational Psychology, by Sandiford, p.134-6.

لأسباب متعددة ، ويعتريه الخجل فى مواقف مختلفة . ويخاف الراشد من الأشباح والمناظر المخيفة ، ومن ضياع وظيفته ، ومن إخفاقه فى حياته الزوجية. ويغضب عند رؤية عدوه ، وعند التدخل فى شئونه الخاصة ، وعند مس شرفه بأذى ، وعند التعدى على حقوقه .

(٧) ويعقب الانفعال حال نفسية خاصة قد نسميها الحالة المزاجية [1] ؛ فالغضبان يظل غضبا مدة طويلة حتى بعد زوال أسباب الغضب ، والفرحان يستمر فرحا طويلا ، وهكذا . بل إننا نشعر بالغضب من حين لآخر عند تذكر سببه .

ولهذا المزاج أثر ظاهر فى السلوك ، إذ الغضبان يتأثر بحالة عصبية خاصة يصعب عليه معها أن يحسن المعاملة ، أو يقبل الرجاء ، أو يسيغ الطعام أو الشراب ، ولذا يستحسن تركه حتى تهدأ العاصفة ، ويذهب أثر الغضب .

(٨) ومن آثار زوال التوازن العقلى فى أثناء الانفعال ، وتحكم الوجدان فى الفكر ، وعدم القدرة على وزن الأمور بميزان الحكمة أن المنفعل يكون أميل إلى المحاباة وغلظ القلب والسفه ، وعدم الاعتدال فى الأحكام ؛ فالغضبان يهذى ، ويسب عدوه ، ويصفه بما ليس فيه ، ويصدر ضده أحكاما قاسية لا صحة لها ، ثم إنه بعد أن تهدأ العاصفة ، ويذهب أثر الغضب ، ويعود إلى رشده ، يدرك خطأه ، ويعجب للظروف التى دفعته إلى الحكم بمثل تلك الأحكام القاسية الباطلة . ولا عجب ؛ فعين الرضا عن كل عيب كليلة ، وعين السخط يقظة حادة .

(1) Mood.

الحالة المزاجية

نرى من المناسب فى هذا المكان أن نحدثك بإسهاب عن الحالة المزاجية التى أشرنا إليها فى الفقرة السابقة فنقول : —

إن هذه الحالة إما انفعالية وإما عرضية اتفاقية .

(١) فالانفعالية هى الحالة التى تعقب الانفعال مباشرة(١) ، وتتصل به اتصالا تاما ظاهرا . والحد الفاصل بينهما هو زوال المثير الذى أثار الانفعال ؛ فما دام الإنسان يحس بذلك المثير أو يفكر فيه فهو فى حالة انفعال ، أما إذا زال المؤثر ، وكف الإنسان عن التفكير فيه ، وبقى متأثرا به فإنه يكون متأثرا بالحالة الانفعالية . وأظهر مميزات الحالة المزاجية الانفعالية أن المتأثر بها يكون أقرب إلى التأثر بمثيرات الانفعال التى قد تظهر فيما بعد . فمن تمكن الخوف من نفسه أخافه أقل شىء . ومن صار ضحية الغضب غضب لأقل الأسباب . بل إن المتأثر بالحالة المزاجية الانفعالية قد يكون عرضة للتأثر بمثيرات وعوامل خارجية ليس من شأنها أن تثير انفعالات فى الأحوال العادية ؛ فالغضب الذى يظل متأثرا بالغضب يزيد غضبه إذا احتك به مفتاح الحجرة ، أو اعترضه الكرسى فى طريقه ، أو استعصى عليه قلمه ، أو وجد فى حبره خللا ، كأن الانفعال الهادئ يبحث عن شىء يتعلق به ، ويود الحصول على علة يتعلل بها لتكون مبررة لثورته وظهوره .

(1) See Introduction to Psychology, by Loveday & Green, P. 141, Psychology of Everyday Life, by Drever P. 35 & McDougall's Outline of Psychology, P. 359.

(٢) أما الحالة المزاجية العرضية فتعترى الإنسان فى أوقات خاصة ، ولا يستطيع إرجاعها إلى انفعال سابق عليها ؛ فأنت قد تبدأ يومك وأنت جذل شاعر بالصحة والراحة والسرور النفسي ، ويظل هذا الشعور ملازما لك طيلة يومك فتنظر إلى ما حولك بمنظار السرور ، وتؤول كل حادثة تحدث لك تأويلا مريحا للنفس ، وتحسن معاملة الناس ، وترى أن كل شىء فى الوجود على ما يرام ، فأنت فرح متفائل ، تنظر فترى أمامك مستقبلا مملوءا بالآمال .

تشعر هذا الشعور فى حين أن غيرك قد يكون كئيبا كاسف البال ، مغتما متكدرا ، متشائما متبرما بالناس ، لا يحتمل الأذى ، ولا يقبل المداعبة ، ويؤول كل كلمة تقال عنه تأويلا مؤلما لنفسه ، وينظر إلى الأشياء نظرة الحزين الذى لا يسره شىء ، ولا يرضيه عمل .

فأنت وهو فى هاتين الحالتين لستما متأثرين بانفعال خاص ، ولم يحدث أن تأثرتما بانفعالات فى اليوم السابق . وقد يحصل أنك تتأثر بانفعالات تغير قليلا من حالتك النفسية السارة تغييرا يبقى لحظة أو لحظات ، ثم يزول وترجع إليك حالتك العامة . وهو أيضا قد يسر ويضحك برهة ، ولكن سرعان ما تعود إليه حالته المزاجية المتغلبة عليه .

ومن الناس من تتقلب أحوالهم المزاجية تقلبا سريعا لأدنى سبب ظاهر ؛ وهؤلاء « المزاجيون » الذين تعتريهم حالات مزاجية مختلفة من حين إلى آخر ؛ فأنت ترى أحدهم مسرور النفس ، طيب الخاطر ، واسع الصدر . وبعد وقت قصير ترى الحال قد تبدلت ، فالمزاج مضطرب ، والكآبة متغلبة ، والحزن بين . وذلك المزاجى لا يقبل التفاهم ، ولا يحتمل أقل أذى ولا أى ملاحظة عليه ، ولا

أى كلمة تقال عنه . وإننا عادة نصف المزاجى بصفة منسوبة إلى الانفعال المتغلب عليه ؛ فنقول مثلا إنه فى حالة غضبية ، أو فى حالة سرورية أو حبية أو بغضية .

وبعد فما أسباب هذا التقلب؟ وبم نعلل ظهور هذه الحالة المزاجية العرضية؟ إننا نفهم السبب فى أن من ثار غضبه ، يظل غضبان مدة طويلة حتى بعد زوال أسباب الغضب ، ونعرف لماذا يظل الخائف خائفا ولو حيل بينه وبين الأشباح المخيفة ، وندرك سبب تأثر الفرح بفرحه ، والحزين بحزنه ، والآسف بأسفه بعد انقضاء أسباب الفرح أو الحزن أو الأسف . نعم نفهم أسباب هذه كلها لأن التهيجات العصبية ، والاضطرابات الجسمية ، والتغييرات الجثمانية التى صحبت الانفعال لا تذهب دفعة ولا تزول فجأة ، بل تبقى حينا بعد زوال المثيرات الخارجية . ويستلزم بقاؤها تأثر الشعور أو الحالة العقلية بها ؛ فالحالات المزاجية الانفعالية تعتبر فى مثل هذه الظروف آثارا تابعة للانفعالات ؛ فهى فى هذه الحالة تشبه الصور اللاحقة (١) التى تعقب الإحساسات . وكما أن الصور اللاحقة لا تبلغ منزلة الإحساسات الأصلية فى الوضوح والجلاء كذلك نرى هنا أن الحالات الانفعالية لا تبلغ منزلة الانفعالات نفسها والثوران والتهيج . وهذا طبيعى ؛ لأن التغيرات الجسمية التى تصحبها لا تبلغ منزلة تلك التى تصحب الانفعالات نفسها .

وهذا الفرق يحدث فرقا فى السلوك أيضا ؛ أى أن سلوك الإنسان وقت تأثره بالحالة المزاجية لا يبلغ من الشذوذ ما يبلغه عند تأثره بالانفعال ؛ فالمزاجى لا يضرب بقدميه ، ولا يهذى ، ولا يغالى فى السب واللعن والإقذاع فى

(١) انظر الجزء الثانى من هذا الكتاب ص ٢٧٥ .

القول ، فهو لذلك أقرب إلى الشخص العادى من المنفعل بالفعل . ومع ذلك نرى المتأثر بحالة مزاجية غضبية مثلا يغضب بسرعة ، لأن حالته النفسية والجثمانية تساعد على ذلك ، ومثل هذا يقال فى الحالات المزاجية الانفعالية الأخرى - فأسبابها إذاً ظاهرة لأن كلا منها يعد ذيلا للانفعال المرتبط به . أما أسباب الحالات العرضية فترجع أحيانا إلى تغيرات عضوية ، أو إلى حالة الجسم العامة ؛ كالمرض ، والجوع ، والمغص ، وسوء الهضم ، والاضطراب العصبى ؛ فكل من المريض والجائع والمغوص ومعتل الأعصاب يكون عرضة لحالات مزاجية عرضية ؛ فيفرح أو يغضب أو يحزن أو يقلق بسرعة . ويظل فرحه أو حزنه طويلا ، حتى إذا ما زال سبب هذه الحالة عاد الشخص إلى حالته الطبيعية .

وقد وجد بالتجارب أن سوء الهضم وداء المفاصل ومرض السكر من أسباب ظهور الغضب ، وأن زيادة الإفراز الدرقى من أسباب ظهور الخوف والذعر . وهذا يوجب علينا أن نفكر طويلا قبل معاقبة الطفل على سأمه ومله ، وسوء سلوكه ، وميله إلى الكآبة والحزن ، والتأثر الوجدانى السريع ؛ فقد يكون جائعا أو عطشا أو متألما من برودة أو حرارة ، وربما يكون مصابا بأمراض لا نعلمها ، أو متأثرا باضطرابات جثمانية أوعصبية لا نفهمها ، وإنما الذى يفهمها هو الطبيب ، فمن الواجب حينئذ عرضه عليه .

وأحيانا تكون البيئة الطبيعية مسئولة عن ظهور الحالة المزاجية العرضية ، فأنت تشعر بالسرور ، ويتولد لديك نشاط وإقبال على العمل إذا كان الجو حسنا ، والمناخ صافيا ، والحجرة منظمة منسقة مستوفية لشروط الصحة ، مستكملة

لما يتطلبه الذوق السليم . ولكن إذا اغبر الجو واكفهر ، أو ضاقت الحجرة أو أظلمت فإن الإنسان يشعر بضيق نفسى ، وتعتريه الكآبة والملل ، مع أنه قد يكون فى الحالة الثانية أصح جسما وعقلا ، وأشد استعدادا للعمل منه فى الحالة الأولى .

وقد يكون السبب فى الحالة المزاجية الخاصة كبت الانفعال أو عدم التمكن من إظهاره ؛ فأنت إذا أغضبك غضبا شديدا شخص أقوى منك أو أكبر سنا أو منزلة ، ولم تجد الفرصة لإظهار غضبك فإنه قد يظل كامنا فى ضميرك إلى أن تخلو بنفسك ، أو تعود إلى بيتك ، وحينئذ تظهر تلك الحالة الغضبية التى تكون بمثابة صدى لذلك الانفعال المتهور الذى لم يظهر فى حينه . وإذا ظهرت تلك الحالة فقد تكون وبالاً على الأهل والأقارب وأثاث البيت .

وإذا كبت الانفعال مدة طويلة انتقل إلى اللاشعور ، وظهرت آثاره من حين إلى آخر فى الشعور بصورة حالة مزاجية عرضية . فمن الحالات المزاجية العرضية مايرجع سببه إلى انفعالات أو وجدانات مكبوتة ؛ أى أن السبب فيها قد يكون لا شعوريا .

وأكثر الحالات المزاجية استمرارا ، وأقربها إلى الأمراض العصبية ما يكون سببه تضارب بعض الميول الانفعالية ؛ فإذا أغضبك من تحب فغضبك منه يستدعى غضبك عليه ومهاجمته ، ومحبتك إياه تقتضى عطفك عليه ، وحينئذ يحدث تضارب ، فإذا لم تحل العقدة اعترى الإنسان قلق ، ولازمه طويلا حتى يحدث مايحل المشكلة ، أو يتغلب أحد الانفعالين على الآخر .

وكذلك إذا لم يستطع شخص ضبط نفسه فعاب أو جبَّه أحد أصدقائه

بدون حق، فإنه يحمل معه حالة نفسية مزاجية تصاحبه سحابة نهاره، وتكدر عليه صفوه، وتعرقل مساعيه، وتعطل سير نشاطه، حتى يتخذ الوسائل الفعالة للقبض على زمام نفسه، وإرجاع الحالة إلى ما كانت عليه من قبل بينه وبين صديقه بالاعتذار إليه اعتذارا صريحا، أو إظهار الندم والأسف بأى وسيلة من الوسائل.

فلهذه الحالات النفسية المزاجية كما ترى آثار فعالة فى السلوك الإنسانى، وقد يكون من الصعب التغلب عليها؛ فيقضى المرء يومه كله متأثرا بإحداها؛ يرى ما تريده أن يرى، ويسمع كما تحب أن يسمع؛ فالمتأثر بالكآبة يرى أن كل شىء يسير على عكس ما يريد، وأن لا شىء فى العالم يستحق العناية، لأن الأفكار التى تتوارد على نفسه أفكار كآبة وحزن وأسف؛ فكل شىء خطأ فى نظره، وكل ما يعمله الناس خطأ فاحش، وكل ما يحدث أمامه من أسباب اللذة والسرور لا قيمة له؛ لأنه لا يراه ولا يشعر به، ولا تتوجه نفسه لملاحظته والعناية به. وبعكس ذلك المتأثر بالفرح وانشراح الصدر؛ فكل شىء فى نظره هادئ، وكل ما يعمله وكل ما يقع من غيره حسن.

والحازم من يتنبه لمثل هذه الحالات النفسية الطارئة، ويملك عليها زمامها، فيتحكم فيها — بدلا من أن تتحكم فيه أو تؤثر فى سلوكه، وتملك عليه زمامه، فتقوده إلى حيث تهوى. والتغلب على هذه الحالات لا يتم إلا لمن كان لإرادته أثر فعال فى وجداناته الشاذة.

مباحث عامة فى الانفعالات

ليس البحث فى الانفعالات وآثارها من مستحدثات العصر الحاضر ؛ بل إن ذلك يرجع إلى النصف الثانى من القرن الماضى ، حيث حصل فى أوروبة انقلاب فكرى عام شمل جميع نواحى البحث العلمى ، فلم تكن الانفعالات من بين المباحث النفسية بأقل من غيرها حظا من هذا الانقلاب ؛ فقد حاول العلماء محاولة جدية منذ عصر (دارون) إلى الوقت الحاضر أن يحلوا معمياتها، ويدركوا أسرارها متبعين فى ذلك عدة طرق. وقد وصلوا بعد بحوثهم المتواصلة إلى نتائج قيمة نلخصها لك فيما يأتى : —

(ا) مباحث دَارْوِن:[1]

بحث (دَارْوِن) العالم الطبيعى الإنجليزى المشهور — (١٨٠٩ — ١٨٨٢) — الانفعالات من ناحية مظاهرها الخارجية . وكان غرضه الأساسى أن يعرف قيمة تلك المظاهر من الناحية الحيوية (البيولوجية) . وقد أدى به البحث إلى وضع ثلاث نظريات شرحها فى رسالة ظهرت فى سنة ١٨٦٢ باسم : « مظاهر الانفعالات فى الإنسان والحيوان» . وخلاصة ماذكره (دارون) فى هذه الرسالة أنه من الممكن إرجاع معظم المظاهر الانفعالية إلى ثلاث قواعد هى : —

(1) See Eductaional Psychology, by P: Sandiford, p. 130.

(١) قاعدة العادة النافعة المصاحبة للانفعال :

ويريد بذلك أن بعض مظاهر الانفعالات الخارجية تعتبر بقايا العادات كانت حيوية مفيدة للحيوان فى العصور الماضية بصفة مباشرة ، ولكنها الآن فقدت هذه الصفة. مثال ذلك : التكشير عن الأنياب ، وقبض الراحة بقوة عند الغضب . فهاتان كانتا عادتين مفيدتين فى إدخال الروع فى نفس العدو ، وفى الاستعداد للدفاع عن النفس. وكذلك تخفيض الشفة السفلى عند زاويتى الفم عند الاشمئزاز ؛ الذى كان يستخدم للتخلص من الطعام الردىء الطعم ، ورفع الحاجبين عند التعجب ، الذى لايزال يعتبر دليلا على الرغبة فى المعرفة .

(٢) قاعدة التقابل :

ويريد بذلك أن بعض المظاهر الخارجية مضاد للمظاهر التى تحدث فى حالة انفعالية مضادة للحالة الراهنة ؛ فارتخاء العضلات فى حالة الخضوع والتقرب مظهر مضاد لصلابتها وتوترها عند حب السيطرة والظهور. وإننا نلاحظ أن الكلب مثلا — حينما يريد إظهار المحبة — يتظاهر بمظهر مضاد لما يظهر عليه عند الغضب والميل إلى العداء .

(٣) قانون التأثر العصبي :

ومعنى ذلك أن بعض المظاهر الانفعالية يرجع إلى مجرد تأثر الأعصاب عند الانفعال تأثرا قهريا لا أثر للتعود فيه ، دون أن يكون لذلك فائدة حيوية ظاهرة ؛ وذلك كإفراز العرق عند التألم ، والارتعاد عند الذعر ؛ والوثب والقفز عند الفرح .

وتعتبر القاعدة الأولى أهم هـذه القواعد لأنها كشفت لنا اللثام عن معانى كثير من المظاهر الانفعالية ، وبينت لنا فوائدها الحيوية .

(ب) نظرية جيمز ـ لانج :(١)

بحث العالم النفسى الـكبير الأستاذ (وليم جيمز) فى العلاقة بين الانفعال والتغيرات الجسمية الباطنية ، فوصل إلى نتيجة خاصة أذاعها فى الناس سنة ١٨٨٤ ، ثم وصـل إلى النتيجة عينها الأستاذ (كارل لانج) الدانيمرقى سـنة ١٨٨٥ ، دون أن يكون على علم بمباحث جيمز . ولاتفاق هذين العالمين فى الرأى تسمى النظرية التى وضعاها نظرية جيمز ـ لانج .(٢)

ويدعى واضعاها ومن تبعهما أن المنبـه الذى يثير الانفعال يؤثر أولا فى المراكز العصبية السفلى المتصلة مباشرة بالأعضاء والغدد الداخليـة ، فتحدث فى هـذه تغـيرات وإحساسات ينشأ عنها الشعور العقلى الخاص الذى يسمى « الانفعال » . فالانفعالات على هـذا الرأى فى أساسها وحقيقتها مثـل الإحساسات ؛ فـكما أن الإحساس هو تغيرات فسيولوجية تحـدثها المؤثرات الخارجية فى الحواس والمراكز الحسية كذلك يعتبر الانفعال نتيجة للتغيرات المادية الجثمانية المتعددة النواحى التى تحدثها إدراكات خاصـة فى الأعضاء الداخلية . وكل انفعال خاص يعتبر نتيجة لتغيرات أو إحساسات جثمانيـة باطنية خاصة .

(١) هذه هى التسمية التى ارتضاها معظم علماء النفس . ولـكن بعضهم كالأستاذ جون آدمز يميل إلى تسميتها نظرية لانج ــ جيمز لسبب غير وجيه .

(٢) James - Lange Theory.

ولو أن القائلين بهـذه النظرية أضافوا إليها أن كل إحساس باطنى ينشأ عنـه انفعال تصحبه صورة ذهنية خيالية ، كما أن كل إحساس تصحبه صورة ذهنية أيضا ، لكانت نظريتهم هذه مقبولة ، ولـكنهم يغالون فى تقدير الناحية المادية ، ويجعلون الانفعال نتيجة لتغيرات مادية فقط .

وقد ذهبوا أبعد من هذا ، فبدلا من أن يقولوا إن الوجدانات والانفعالات تحملنا على القيام بالأعمال عكسوا القضية ، وقالوا إن التغيرات الباطنية والمظاهر الخارجية هى التى تسبب الانفعالات . وفى ذلك يقول جيمز : — « إن الانفعال نتيجة للمظاهر الخارجية لاسببٌ لها . وإننا نقول ـ وفق ماتقضى به البديهة ـ إننا نفقد ثروتنا ، فنأسف ، فنبكى ؛ وإننا نصادف دُبًّا فنخاف فنجرى . وإننا نسب ، فنغضب ، فنصفع من سبنا ـ ولـكن النظرية التى أدافع عنها الآن تعترف بخطأ هذا الترتيب ، فإن الحالة العقلية الثانية لا تنشأ عن الأولى مباشرة. بل إن المظاهر الجسمية تحتل منزلة تتوسط الحالتين . فالأدق والأقرب إلى العقل أن نقول : « إننا نحزن لأننا نبكى ، ونغضب لأننا نصفع ، ونخاف لأننا نرتعد ، لا أننا نبكى أو نصفع أو نرتعد بسبب الحـزن أو الغضب أو الخوف . فبدون الحالة الجثمانية التى تحدث على أثر الإدراك لا يكون لـكل من الحزن أو الغضب أو الخوف معنى زائد على مجرد الإدراك ، ولا يكون لأيها لون ولا قوة انفعالية. وإننا لا نستطيع أن نتصور انفعالا خاليا من جميع أنواع الوجدان أو الإحساس الجسمى . وكلما فـكرتُ وأنعمت النظر فى أحوالى الانفعالية زاد تأكدى من أن كل ما لدى من طباع ونزعات حبية أو شهوانية يتكون من تلك التغيرات الجثمانية التى نسميها عادة مظاهر أو نتائج لتلك الانفعالات ، وظهر لى أنى لو

كنت فى حال ضرر جسمى لخرجت من دائرة الحياة الوجدانية ، وما شعرت بانفعال مطلقا ، سواء فى ذلك الرفق والحنان والغضب والكراهة ، ولحييت حياة مملة عمادها الإدراك المجرد والمعرفة المحضة الجافة ؛ فكل انفعال نتيجة اتحاد مجموعة من العناصر ، وكل عنصر ناشئ عن عملية جثمانية معروفة تماما ، والعناصر كلها تغيرات عضوية يعتبر كل منها أثرا عكسيا لإدراك المثير الخارجى . »[1]

ويقول فى موضع آخر بصدد علاج الانفعالات الحادة : —

« إنك إذا لم تجب داعى الثورة النفسية ضعفت ثم ذهبت ، وإن عددت من واحد إلى عشرة قبل إظهار غضبك تبين لك بعد ذلك سخف الاستسلام له . ولتعلم أن قول الناس : « اصفر لتحتفظ بشجاعتك » ليس من المجاز فى شىء . »

« وإذا جلست طيلة يومك جلسة الحزين الكاسف البال ، وأكثرت من أناتك وزفراتك ، وأجبت عن كل سؤال بصوت خافت كئيب فإن حزنك يستمر ويطول عليه الأمد . فلتأخذ عنى نصيحة ليس أجل منها قيمة فى التربية الخلقية كما يشهد بذلك كل من عمل بها : إذا أردت التغلب على نزعة وجدانية لا ترتضيها لنفسك فمن الواجب أن تتعمد — عند أول فرصة تظهر لك — القيام بحركات ظاهرية من شأنها أن تدل على وجود نزعات وجدانية مضادة لتلك التى تود التخلص منها ، ثم سر على هذه الجادة مع الجد والمثابرة ،

(1) See James' Principles, Vol II. pp. 450-53.

فلا ريب أنك ستثاب على هذه المثابرة إثابة عاجلة تتحقق بدون إمهال ، فتتولى عنك الكآبة ، ويذهب ضيق الصدر ، ويقبل عليك — بدلا منهما — السرور وطيب النفس . مر على جبينك برفق — وتحامل على ظهرك بدلا من صدرك ، وتكلم بصوت عال ، وحيِّ أصدقاءك بطيب التحيات . . . وأنا ضامن لك أن قلبك سيبتهج إذا لم يكن من جماد . »

ومن الأدلة التى يبرهنون بها على صحة هذه النظرية :

(١) ما نعلم بالبديهة من أننا إذا رأينا رجلا يُسب ويُلعن ويظل ساكنا هادئا دون أن تظهر عليه علامات الغضب ، فإننا لا نستطيع أن نسميه غضبان ، لأن ملامح وجهه ، وهدوءه وسكينته تدل على أنه لم يتألم لكون غيره سبه أو شتمه ، حتى ولو ظن أنه ينبغى له أن يتألم . وإن مثل هذا الرجل لو أعلن أمام الناس أنه غضبٍ محنَق — رغم هدوء أعصابه ، وانبساط عضلاته ، وبريق أسارير وجهه — ما صدقه أحد . وإذا أخبرنا شخص أنه كئيب حزين من غير أن تسيل عبراته ، ويخفت صوته ، وينسد حلقه ، ويضيق صدره لعلمنا أنه متظاهر بالكآبة ؛ لا كئيب بالفعل .

(٢) أن كثيرا من الممثلين والممثلات ، الذين يقضى عليهم القيام بأدوارهم فى التمثيل أن يتظاهروا بالفرح أو الحزن أو البكاء أو الضحك ، قد يشعرون بالجذل أو الأسف ؛ وما ذلك إلا لأن حركاتهم وسكناتهم أحدثت تغيرات جثمانية من شأنها أن تحدث الفرح والسرور أو الأسى والحزن .

(٣) ومن هذا الباب ما يشاهد من أن من يدعى المرض قد يمرض بالفعل ، ومن يتظاهر بالصحة قد يشعر بالراحة . وقد عملت تجارب على أشخاص لم

يكونوا يشعرون بالمرض ، ولكن لما مهدت لهم وسائله ، وحملوا على أسرة عليها فرش المرضى إلى حجرة العمليات ، ووضعت فوقهم أغطية المرضى أخذوا يشعرون بالمرض .

ولكن يرد على هذه النظرية :

أولاً : بأننا لا نعرف السبب فى أن رؤية بعض الأشخاص أو الأشياء دون غيرها تثير الغضب مثلا فى نفوسنا إلا إذا سلمنا بأن ذلك لمعنى ندركه من غير أن يكون للحس فيه مجال ؛ فالذى يظهر أن الذى يثير الانفعال ليس هو مجرد رؤية الأشياء أو الإحساس بها ، ولكنه الإدراك والفكر . وبعبارة أخرى نقول إن الذى يثير الانفعال إنما هى الأفكار والمعانى ، لا الإحساس ورؤية الأشياء ؛ إذ أن الأشياء فى ذاتها لا تثير الانفعالات ، وإنما تثيرها لأمور أو معان زائدة عليها ؛ فأنت تفرح لرؤية شخص محبوب ، وتغضب لرؤية آخر مكروه ، وتخاف من العدو المخيف ، وتحزن على صديق فقدته ، أو مال خسرته ؛ فمجرد الإحساس ليس كافيا لإيقاظ الانفعال ، بل لا بد من أن يضاف إليه معنى من المعانى المؤثرة .

ثانيا : بأننا لو فكرنا لعلمنا أن لتداعى المعانى والتجارب أثرا بل آثارا كبيرة فى إيقاظ الانفعال ، وحصول التغيرات الجسمية الخاصة . ألا ترى أن الطفل الذى لم ير الضبع ربما لا يخافه ، بل قد يقدم عليه ويلمس شعره الناعم ، ويتمتع برؤية ألوانه البراقة ، ويمسك بأنيابه البارزة ؟ ولكنه إذا رأى غيره يخاف منه ، أو سمع زئيره المخيف ، أو أصيب منه بأذى ، فإنه يفرق فرقا شديدا ، ويقشعر بدنه كلما رآه بعد ذلك .

فالإنسان يسر أو يغضب ، ويفرح أو يحزن لا لأنه يرى السار أو المغضب أو المفرح أو المحزن فقط ، ولكن لأنه يعلم عن الأشياء التي يسر لها أو يغضب أو يفرح أو يحزن أنها سارة أو مغضبة مثلا . وهذا يدل على أن الإدراك — الذي هو من وظائف العقل لا وظائف الحواس — هو عنصر قوى من عناصر الانفعال . وإن وليم جيمز نفسه لا ينكر هذا ؛ لأنه يقول إن بعض الانفعالات القوية ترجع إلى ترابط الممرات العصبية المخية وتهيجها عند إدراك المعانى المتصلة بالانفعالات المختلفة . وإن اعترافه بهذا ليكفى للبرهنة على أن بعض الانفعالات الساذجة ترجع إلى تأثر المخ ، وتأويل هذا التأثر بوساطة العقل ، لا إلى تأثر الجلد والحواس فقط .

ثالثا : بأنه لو كانت هذه النظرية صحيحة من جميع الوجوه لكان اختلاف المظاهر والتغيرات الجسمية يدل على اختلاف فى الانفعالات ، ولدل اتحاد هذه على اتحاد تلك ، مع أننا نرى أن الشخص قد يبكى أو يرقص أو يغنى فى حالة الفرح . وهذه أعمال مختلفة تدل على انفعال واحد . وكذلك نرى أن انسكاب العبرات وحده قد يكون دليلا على الحزن حينا ، وعلى الفرح حينا آخر .

رابعا : بأن تجارب[1] (ماير) التى قام بها لمعرفة آثار الصور الذهنية فى الإفرازات الباطنية قد برهنت على أنه كلما زاد السرور فى أثناء الأكل حسن أثر العصارات الهضمية ؛ فالسرور هنا سبب سابق نشأ عنه تحسن أحوال السوائل الهضمية ؛ فليس تغير الإفرازات الداخلية سببا فى السرور ، ولكن هذا هو السبب فى ذاك .

(1) M. A. Mayer. See Journal de Psychologie. 1904.

خامسا : بأن تجارب شِرِنْجتُن (١) على الكلاب قد برهنت على أنه إذا قطعت صلة الأعصاب الشوكية والأعصاب السمباتوية بالأعضاء الداخلية فى بعض المواضع ، وقطعت فى الوقت نفسه صلة الدورة الدموية بالمراكز العليا فإن هذا لا يحدث تأثيرا فى حالة الكلاب الانفعالية ؛ فالكلبة التى أجريت عليها التجربة كانت تثور ثورتها العادية عند رؤية قط معاد لها ، وتفرح عند رؤية القائم بشئونها ، إلا أن بعض المظاهر الخارجية كانتصاب شعر الظهر لم تعد تحدث .

سادسا : بأن تجارب كَنَن (٢) قد برهنت على أن بعض الانفعالات المختلفة كالغضب والخوف لا تصحبها تغيرات باطنية مختلفة ، بل إن ما يصحب أحدها يصحب غيره . فمن أين يأتى الفرق إذا كان سبب هذه الانفعالات هو التغيرات الباطنية ؟

بعد هذه الاعتراضات والتجارب لا يصح لنا بحال من الأحوال أن نقبل هذه النظرية كما هى . ولكن هل نستطيع أن ندرك ما فيها من صواب، ونحور فيها بحيث تصير مطابقة للواقع ؟ إننا لا ننكر أن للتغيرات الجسمية الباطنية أثرا فى الانفعالات ، بل ربما تكون هى السبب الوحيد فى الانفعالات الأولية أو الوجدانات البسيطة التى يشعر بها الطفل قبل أن تتسع دائرة إدراكه . ولكن الذى ننكره هو أن هذه التغيرات هى السبب الوحيد فى الانفعالات العقلية العليا المركبة التى يشعر بها الكبار ؛ إذ أن هذه قد ترجع إلى الصور الذهنية لتلك التغيرات ، أو إلى أمور اعتبارية ذهنية مرتبطة بالمثير الخارجى

(1) C. S. Sherrington. (2) W. B. Cannon.

فإذا قلنا إن للانفعالات أسبابا هى التغيرات الباطنية، وصورها الذهنية المرتبطة بها ، والمعانى المتعلقة بالمثيرات الخارجية تسنى لنا أن نفهم سلوك كلبة شرنجتن ، ونعرف السبب فى اختلاف الغضب عن الخوف مع اتحاد التغيرات الجسمية الباطنية فيهما كما أثبت كَنُن .

وبعبارة أخرى نقول إن نظرية جيمز — لانج قد تكون صحيحة إذا أخذت على أنها بيان لسبب الوجدان البسيط ، أى مجرد الشعور بالألم أو السرور أيا كان نوعهما ومقدارهما ؛ فالتغيرات الباطنية مسئولة عن عنصر السرور أو الألم كما وكيفية . أما الانفعال فحالة نفسية مركبة ذات ثلاثة عناصر مثل غيرها من الحالات النفسية ؛ فإذا كانت التغيرات الباطنية هى السبب فى عنصر الوجدان فلابد من وجود العنصرين الآخرين — عنصرى الإدراك والنزوع — ليكون الانفعال تاما .

فقد يكون للخوف والغضب أساس (فسيولوجى) واحد ، ولكن لابد من اختلافهما فى الناحيتين الإدراكية والنزوعية ؛ فنحن نسمى التغيرات الباطنية غضبا إذا سبقها سب أو ضرر صادر من شخص أقل من المنفعل قوة ، لدرجة أن هذا يهاجم ذلك ويعاقبه على سبه أو تعديه . أما إذا كان السبب أو التعدى صادرا من شخص أقوى من المنفعل بحيث يخاف هذا ويستعد للهرب فإننا نسمى هذه الحالة الانفعالية خوفا .

والخلاصة أن اختلاف الانفعالات بعضها عن بعض لا يرجع إلى الناحية الوجدانية ، ولكن إلى اختلافها فى الناحيتين الإدراكية والنزوعية أو السلوكية . ومن هذا ترى أن الانفعال حالة نفسية مركبة مثل غيرها من الحالات النفسية

المستكملة العناصر ، إلا أن عنصر الوجـدان فيها أقوى . وهـذا راجع إلى التغيرات الباطنية التى تحدث عند الانفعال. ومن الواجب أن تعرف أن الإنسان لا يحس بهذه التغيرات كما تحصل بالفـعل ، وإنمـا يشعر بها ويدركها بصفتها الوجدانية المعروفة . فهى ليست من قبيل الإحساسات ، ولـكن من قبيـل الإدراكات الغامضـة : وليست هى السبب فى الانفعال ، وإنمـا هى أقوى العناصر المـكونة له .

فالقريب من الصواب أن نقول : إن الإنسان فى حالة الخوف مثلا يرى عدوه ، فيخاف ، فتحصل التغيرات الباطنية ، فيندفع إلى الهرب ؛ أى أن التغيرات الباطنية تقوى الانفعال .

(ج) أثر الإفرازات الداخلية فى الانفعالات :

هذا أيضا من المباحث الحديثة التى قام بها العلماء لمعرفة علاقة الإفرازات الباطنية بالانفعالات . وأشهر الباحثين فى هذا الباب العلامة كنن الذى دون ما وصل إليه من النتائج فى كتاب طريف سماه : «التغيرات الجسمية التى تحدث عند الألم والجوع والخوف والغضب [1]» .

وخلاصة القول فى هذا الباب أن بالجسم الإنسانى العادى سوائل تفرزها غدد داخل الجسم ، وتختلط بالدم، وتذهب إلى جميع أجزاء الجسم ، فتؤثر فى جميع عضلاته وغدده ؛ ولذا تسمى هـذه السوائل الرسل الـكيمياوية [2] » .

(1) Bodily Changes in Pain, Hunger, Fear and Rage.
(2) Autocroids or Hormones.

وبعض هــذه السوائل يحمل العضلات والغدد على النشاط والعمل ، وبعضها الآخر يمنعها من النشاط . وإذا علمنا أنه من الضرورى أن يكون هناك توازن بين النوعين ، تبين لنا أنه إذا اختل هذا التوازن حدث خلل فى حياة الإنسان العقلية ، وبخاصة الناحية الانفعالية .

ولم يصل العلماء بعد إلى معرفة ماهية هذه السوائل بالضبط ، ولكنهم يعرفون أنها تشبه العقاقير والمواد المخدرة بل تفوقها فى تأثيرها ، وهى « بالڤيتامين » أشبه ؛ لأن تناول أقل كمية منها يحدث أثرا بينا فى الإنسان . وهى تعمل عملها فى الإنسان ، وتحدث فى جسمه تغيرات باطنية دون أن تتغير هى . فهى من هذه الوجهة تشبه المحلولات أو المواد الكيمياوية المسماة (كَتَالِسْتَات [1]) أو الخمائر الكيمياوية غير العضوية المسماة (إنزِيمَات) [2] .

وليس بخاف عليك ما لبعض المواد الغولية والعقاقير من الآثار الظاهرة فى سلوك الإنسان العقلى وحياته الانفعالية ؛ فقد وجد بالتجارب أن بعض المواد المخدرة يحدث اضطرابات جنسية عنيفة .

وتكملة للفائدة نذكر لك هنا بعض الغدد الداخلية التى تفرز السوائل المشار إليها ، ونبين لك أثر كل منها فى حياة الإنسان العقلية والجسمية ، فنقول : —

(١) الغدة الدرَقية [3] : غدة لونها يضرب إلى اللون الأرجوانى ، واقعة على جانبى الحنجرة والقصبة الهوائية ، وتتركب من فصين ، كل منهما على شكل جناح ، وتصل أحدها بالآخر قناة أمام القصبة الهوائية . (انظر شكل ١) .

وللمادة التى تفرزها الغدة الدرقية أثر كبير فى نمو الجسم والعقل ؛ إذ أنه إذا كان بها عطب عند الولادة كان نمو الجسم على العموم بطيئا ، وصار

(1) Catalysts. (2) Enzyms. (3) Thyroid Gland.

الجلد جافا ، والشعر خفيفا ، والبطن منتفخا ، واليافوخان مفتوحين . ويقف نمو الخلايا التى باللحاء المخى ، وتظهر أعراض العته على الشخص ، ويصبح بالأقزام أشبه ، ويصير استعداده للتربية محدودا .

وإذا كبر الطفل وأدرك البلوغ مع كون غدته الدرقية لا تزال معيبة نشأ بطيئا كسلا ، ضعيف الشهية والشهوة الجنسية ، ميالا إلى النوم ولو لم يكن به تعب . ويكون جلده غليظا جافا ، منخفض الحرارة ، قليل الشعر .

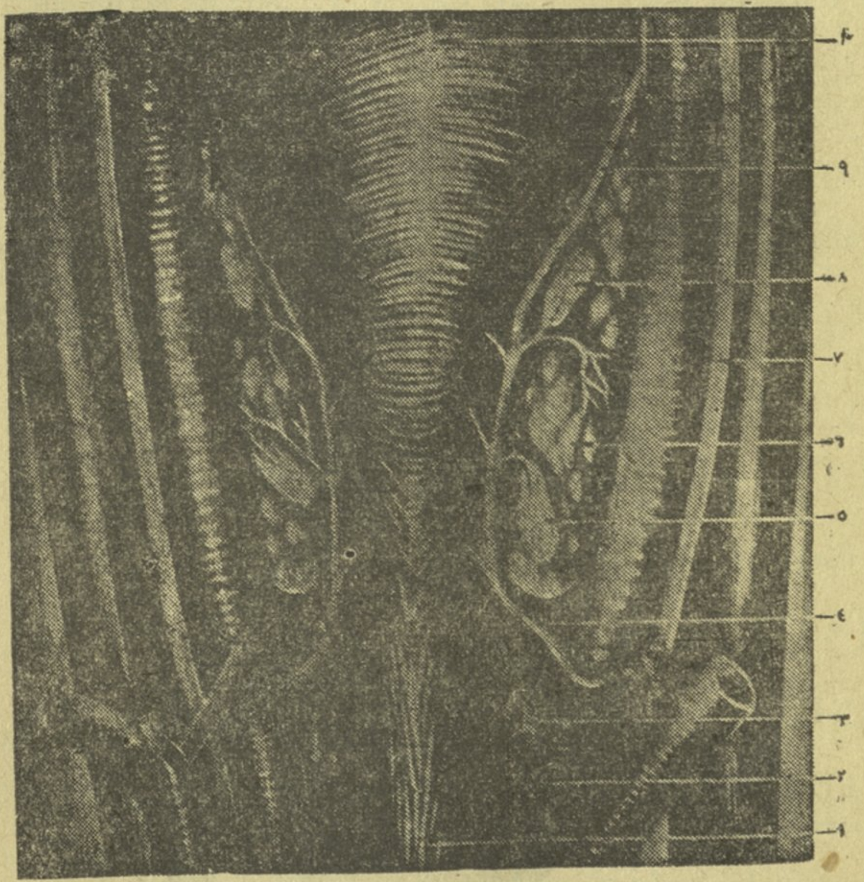

شكل (١) يبين المرىء والقصبة الهوائية والغدة الدرقية

(١) المرىء (٢) القصبة الهوائية (٣) العصب الحنجرى الأسفل (٤) الشريان الدرقى الأسفل (٥) الغدة الدرقية الإضافية السفلى (٦) الغدة الدرقية (٧) العصب الضال (٨) الغدة الدرقية الإضافية العليا (٩) الشريان الدرقى الأعلى (١٠) البلعوم.

عن كتاب « علم النفس على رأى السلوكيين » تأليف العلامة وطسن الأمريكى ص ٢١٠

والعنصر الفعال فى الإفراز الدرقى هو الثايروكسين.[1] ومن المستطاع الحصول عليه بتناول الإفرازات الدرقية المأخوذة من أى حيوان. وأكثر من هذه انتشارا هو ما أخذ من الضأن . وإذا تناول من بغدته الدرقية عطب كمية كافية من هذا السائل صارت حياته عادية ، ونمت قواه الجسمية والعقلية باستمرار .

فللغدة الدرقية إذاً آثار هامة فى نمو الجسم والعقل نموا عاديا ، وفى سلوك الإنسان سلوكا تابعا لذلك النمو .

شكل (٢) يبين الكلية اليسرى ومن فوقها الغدة الكلوية. عن كتاب «علم وظائف الأعضاء» تأليف ثورنتن . ص ٢٣١

(1) Thyroxin.

(ب) الغدتان الـكلويتان [1] وتقعان فوق الـكليتين (انظر شكل ٢). وكل منهما عضو صغير مسطح، على شكل مثلث تقريبا، لونه يضرب إلى الصفرة. وتفرز هاتان الغدتان مادة تسمى (أدْرِنَالين [2])، وتعتبر أهم السوائل وأشدها تأثيرا فى الانفعالات. ولمعرفة تأثيرها قام الأستاذ (كَنُن) المذكور آنفا بعدة تجارب، منها :—

(١) اقتطع قطاعا من أمعاء أحد الأرانب وأعده إعدادا خاصا، ثم وضع عليه كمية من الدم المأخوذ من حيوان هادئ، فوجد أن عضلات الأمعاء لم تتأثر بهذا الدم، بل استمرت تنقبض وتنبسط بحالة طبيعية. ولـكنه لما وضع عليها كمية من دم مأخوذ من حيوان ثائر خائف وجد أنها دائما تتأثر بهذا الدم، وتكف عن الانقباض، فاستنبط من ذلك أن للأُدرنالين الذى يكثر فى الدم عند التهيج أثرا فى حركات الأمعاء.

(٢) مزج جزءا من الأدرنالين بمائتى مليون جزء من سائل مذيب للأُدرنالين، فوجد أن المحلول الناتج يحدث التأثير السابق.

(٣) أطعم هرة ووضع معدتها تحت تأثير أشعة (س)، ثم لاحظ حركات المعدة فى الحالة العادية، فوجد أنها منتظمة. ولـكن لما أظهر للهرة كلبا وهو ينبح وجد أن حركات الهضم اختلت ووقفت، ولم تعد إلى ما كانت عليه، واستمرت كذلك مدة طويلة (من نصف ساعة إلى ساعة)، مع أن الـكلب قد أبعد عنها بعد ظهوره لهـا مباشرة.

---

(1) Adrenal or Suprarenal Glands.
(2) Adrenalin.

وقد أوضحت هذه التجارب العملية السبب فى الظواهر التى لاحظها الناس من قبل ؛ فقد كان من المعروف أن الخوف والغضب من أسباب سوء الهضم وأن الفرح والسرور من دواعى سهولته وسيره سيرا حسنا . ولذا يفضل الأوربيون سماع الموسيقا والمحادثة الظريفة اللذيذة فى أثناء الطعام .

هذه حقائق كانت معروفة، ولكن الذى ظل مجهولا — حتى قام كنن وغيره بالتجارب السابقة وغيرها — هو السبب الأصلى فى اضطراب الهضم عند الخوف والغضب ، وحسن سيره عند الفرح والسرور .

ونستطيع أن نلخص لك النتائج التى وصل إليها كنن فنقول . إن مادة الأدرنالين :—

(١) تكون أكثر انتشارا فى الدم عند الاضطراب الانفعالى الشديد .

(٢) تحدث انكماشا فى العضلات غير الإرادية ، لا سيما عضلات القناة الهضمية . وهذا هو السبب فى أن الحركات الهضمية تتعطل عند الخوف أو الغضب ، أو عند الحقن بالأدرنالين .

(٣) تحلل المادةَ السكريةَ المسماةُ جلْيِكُوجين [1] المخزونة فى الكبد ، وترسلها إلى الدم بصورة سكر دموى مفيد لتنشيط العضلات الإرادية .

(٤) تجعل العضلات الإرادية أقدر على الاستمرار فى العمل المجهد بدون تعب .

(٥) تعطل عمل العضلات غير الإرادية، وبذلك تتوفر كمية من الدم الذاهب إليها فتذهب إلى العضلات الإرادية .

---

(1) Glycogen .

(٦) تجعل الدم أقدر على التجمد بسرعة ، والأوعية الشعرية الدقيقة منقبضة .

(٧) تزيد فى سرعة دقات القلب وحركات الرئتين .

(٨) تزيد فى حركة الغدد العرقية لدرجة أن الجلد قد يفرز عرقا باردا بغزارة .

ويقول كَنُن -على وجه الإجمال- إن كثرة الأدرنالين بالدم، وانتشارها بالجسم تؤثر فى الأعصاب السمباتوية ، وهى مرتبطة تمام الارتباط بالانفعالات الحادة ، -لاسيما الألم والخوف والغضب- وبغزارة الشعر؛ فهى تجعل الإنسان على استعداد تام للمقاومة أو الهرب ، ولها فائدتها الحيوية فى مساعدة الإنسان على المعيشة فى بيئة مضادة له .

(ج) الغدة النخاطية : وهى عضو مخاطى صغير يبلغ حجم الحمصة ، وتقع فى تجويف فى أسفل الفضاء الدماغى ، ويوصلها بقاعدة المخ جسم أسطوانى أجوف . ولها جزءان : أحدهما أمامى والآخر خلفى . (انظر شكل ٣)

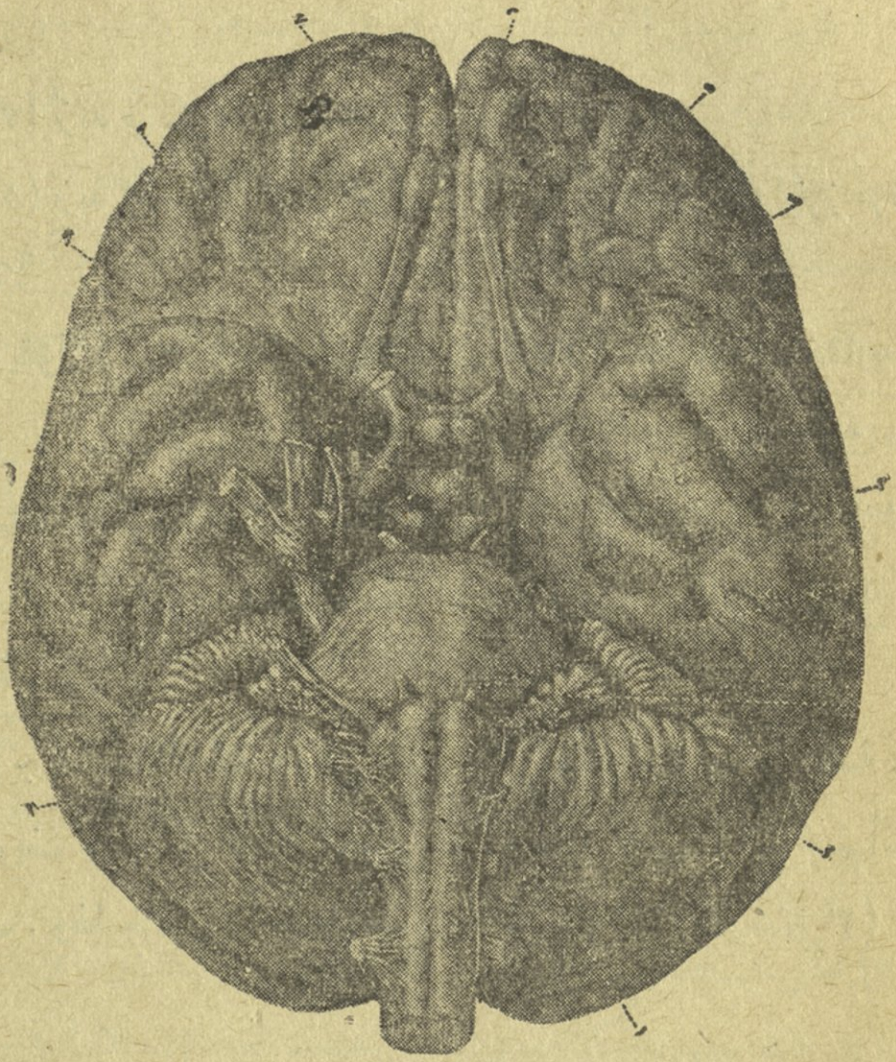

شكل (٣) يبين قاعدة الدماغ وبه الغدة المخاطية ، ويرى فى أسفله نهاية النخاع الشوكى والنخاع المستطيل ، وعلى جانبيه المخيخ .

(١) عصب شوكى إضافى (٢) الشبكة الغشائية المغطية للفجوة الرابعةالدماغية (٣) القنطرة الواقعة بين جزأى المخيخ (٤) الغدة المخاطية أوالعضو المخاطى (٥) طريق الإحساس الشمى (٦) القطب الأمامى (٧) البصيلة الشمية (٨) العصب البصرى (٩) طريق الإحساس البصرى (١٠) العصب السمعى .

عن كتاب « علم النفس على رأى السلوكيين » تأليف العلامة وطسن ص ١٩٣

فالأمامى يفرز مادة لها أثر فى انقباض العضلات الداخلية غير الإرادية ، وضبط الغدد الأخرى ، وبخاصة الغدد الكلوية والثديية . وينشأ عن نشاط هذا الجزء سمن فاحش ، وتأخر فى النمو العقلى ، وضعف فى القوة التناسلية . والحقن بعصير هذا الجزء يحدث نشاطا .

أولاً : فى العضلات غير الإرادية ، كعضلات الأوعية الدموية والقناة الهضمية والرحم. ولذا تتناوله الحامل لتسهيل الولادة .

ثانيا : فى الكليتين والغدد الثديية فيغزر البول ولبن الثديين .

أما الخلفى فله تأثير فى التوازن الجسمى ، ودرجة الحرارة العامة ، ونظام الهضم ؛ فأى خلل يحدث له يؤدى إلى اضطراب فى المشى ، ونقص فى درجة الحرارة ، والنحافة ، والإسهال . وإذا زادت إفرازاته زيادة فاحشة كان ذلك سببا فى طول القامة طولا غير عادى ، أو فى طول الأعضاء البارزة كالأنف والأطراف .

فهذا كله يبرهن لنا على أن لإفراز الغدة المخاطية دخلا كبيرا فى نمو الجسم والعقل ، وسيرهما العادى .

بقى بعد ذلك عدد من الغدد الباطنية التى لها فوائد (فسيولوجية) خاصة ؛ فلا داعى للتفصيل فى الكلام عليها . وهذه هى الغدد التناسلية، والغدة القريبة من الدرقية ، والغدة الصنوبرية فى سطح المخ الأمامى ، وغدد الاثنى عشرى والأمعاء .

(د) مباحث علماء علم النفس التحليلى :

نريد بها المباحث التى قام بها علماء التحليل والعلاج النفسانى ، أمثال فرُويِد، ويُونْج ، ويانْت ، ورفرَزْ ، وإيرنِسْت جونز ، ومورتن برنس وغيرهم من العلماء النفسيين ، والأطباء الروحيين المعاصرين ، الذين درسوا الناحية اللاشعورية من العقل ، وتوصلوا – بعد مباحثهم الطويلة الجدية التى قاموا بها قبيل الحرب العظمى (١٩١٤ – ١٩١٨ م .) — إلى الاعتقاد الجازم بان للانفعالات المكبوتة أثرافى الشخصية على العموم ، وفى حياة الإنسان العقلية الوجدانية على الخصوص .

ولولا أن بعض هؤلاء قد حمّلوا الانفعالات الجنسية مالا تطيق، وأرجعوا إليها جميع الاضطرابات العقلية لكانت أراؤهم سديدة موفقة .

وقد برهنت الحوادث التى وقعت إبان الحرب العظمى على أن الخوف المكبوت من أسباب الاضطرابات العصبية .

والحق أن طريقة علماء علم النفس التحليلى فى علاج مرضى العقول قدأتت بالمدهشات فى هذا العصر ؛ فقد عولج بها علاجا نهائيا آلاف كانت أعصابهم معتلة مختلة . وأساس هذه الطريقة إبراز الرغبات والنزعات والوجدانات والانفعالات المكبوتة التى تضر كيان الشعور ، والتغلب عليها حتى لايصبح لها أثر مضر بالسلوك العقلى العادى .

(هـ) مباحث وطسن (١) وأتباعه

وهى مباحث تستند إلى الملاحظة والتجارب يقوم بها السلوكيون (٢) من العلماء النفسيين الأمريكيين الذين يراقبون نمو الانفعالات وتطورها فى الأطفال، ويعملون تجارب خاصة لمعرفة انفعالات الأطفال ومثيراتها .

وقد وجد وطسن بعد ملاحظة عـدد من الأطفال — لا سيما فى الشهور الأولى من حياتهـم — أن الانفعالات التى يمكن أن يحكم عليها بأنها وراثية — لا محالة — هى الخوف والغضب والسرور ؛ فالطفل يخاف عند لمس أجزاء خاصة من جسمه ، وعند تحريك شىء يستند إليه أو ينام عليه ، وعنـد سماع صوت مرتفع بغتة ، وعند هزه أو دفعه فجأة قبيل استغراقه فى النوم أو استيقاظه منـه . ويغضب إذا تعرضت أو تدخلت فى حركاته وسكناته بأى وسـيلة من الوسائل . ويسر عند لمسه لمسا مريحا ؛ كما إذا لمسته فى إحدى النقط الشديدة الإحساس برفق ، أو أمررت يدك عليـه بنظام وحنان ، أو هززت مهده وهو فيه بتؤدة .

ورغم كون هـذه المباحث لا تزال فى مهدها نرى أنها أتت بنتائج حسنة تحملنا على توقع نجاح كبير لها فى المستقبل القريب .

(1) J. B. Watson. (2) Behaviourists.

(د) قياس الانفعالات

يحاول الآن بعض العلماء أن يصلوا إلى وضع مقاييس معينة لقياس الاستعدادات الانفعالية عند الأشخاص المختلفين تضارع المقاييس والاختبارات التى تستخدم الآن لقياس ذكاء الفرد أو مقدار معلوماته العامة . وقد قاموا بتجارب متعددة فى هذا الصدد . ولكن تجاربهم حتى الآن ليست خاصة بقياس الانفعالات وحدها ؛ لأنها فى الوقت نفسه تتعرض للأخلاق وصفات الشخصية . ولم تبلغ الاختبارات التى وضعوها مبلغ الاختبارات العقلية فى الدقة . وهناك أمل فى أن أمثال وُدْورْث ، ودَاونِى ، وبِرْسِى ، وفُولكَر ، ومدرسة كلومبيا ، يتغلبون على هذه الصعاب ، فيصلون إلى نتائج قيمة يصبح من الممكن معها قياس استعداد الفرد الانفعالى ، كما يقاس ذكاؤه ومقدار معرفته .

الانفعال والغريزة

رأى مكدوجل

يرى مكدوجل أن للغريزة ثلاثة مظاهرَ هى : الإدراك والوجدان والنزوع . وحجته فى ذلك أن الغريزة حالة شعورية كاملة ، فلا بد أن تكون لها هذه المظاهر الثلاثة . ولكنه يذهب أبعد من ذلك فيقول : إن كل غريزة تثير انفعالا أو تصحبها حالة انفعالية . وعلى هذا الرأى لا بد أن يكون لدينا من الانفعالات

عدد مساو لعـدد الغرائز . ومن الجدول الآتى ترى الغرائز وبجانب كل منها الانفعال الذى يصحبها وفق رأى مكدوجل[1] : —

اسم الغريزة	الانفعال الذى يصحبها
(١) الهرب (أو المحافظة على النفس، أو التجنب .)	الخوف (الذعر ، الفزع ، الهلع .)
(٢) المقاتلة (المهاجمة ، الانتقام)	الغضب (التهيج ، الثوران ، التألم) .
(٣) النفور أو التباعد .	الاشمئزاز ، التقزز ، المقت ، التأفف .
(٤) غريزة الأبوة أو الغريزة التناسلية .	الحنو ، الشفقة ، الرفق ، العطف .
(٥) الاستغاثة .	الضيق ، الشعور بالعجز .
(٦) الغـريزة الجنسية (اختـلاط الذكور بالإناث) .	الشهوة أو الرغبة الجنسية .
(٧) الاســتطلاع (الاستفهام ، الابتداع ، البحث .)	التعجب ، الشعور بأن هناك شيئا غريبا مجهولا غير معهود .
(٨) الخضوع .	شعور سلبى نحو النفس ، الشعور بالذلة .
(٩) حب التسلط والظهور .	الاعتزاز بالنفس ، شعور إيجابى نحو النفس ، الغـرور ، العجب ، الشعور بالعلو والرفعة .
(١٠) حب الاختـلاط (الغـريزة الاجتماعية .)	الشعور بالوحدة أو بالوحشة .

(١) راجع : Outline of Psychology, P. 324.

الغريزة	الانفعال الذى يصحبها
(١١) البحث عن الطعام .	الجوع ، الشهية العضوية .
(١٢) حب الاقتناء أو الادخار .	الرغبة فى التملك والحيازة ، الشره .
(١٣) التركيب ، التكوين ، البناء .	الرغبة فى الابتداع والابتكار أو الصنع أو الإنتاج .
(١٤) الضحك .	الانبساط ، الراحة النفسية .

فمكدوجل ومن تبعه يرون أن العمل الغرزى يكون دائمًا مصحوبا بانفعال . ولكن غيرهم أمثال دريفر ، ورِفرْز ، وبراوْن ، وشانْد — مع اعترافهم بوجود علاقة متينة بين الانفعالات والغرائز على العموم — يرون أن الانفعال يصحب الغريزة إذا حصل ما يمنع من مواصلة العمل الغرزى ؛ فالإنسان لا يشعر بالخوف إلا إذا لم يستطع الهرب أو الاختفاء أو غيرهما مما يكفيه شر الخطر . ولا يشعر بالغضب إلا إذا لم يستطع مقاومة عدوه والتغلب عليه وهو قادر على ذلك . أما عند القيام بالعمل الغرزى كما ينبغى فإن الانفعال يزول على رأى هؤلاء .

فالدكتور جيمْز درِيفر[١] يرى أنه ليس من الضرورى أن يصحب العمل الغرزى انفعال ، وأن الذى يصحبه حالة وجدانية خاصة غامضة هى : الشعور بجدارة العمل وملاءمته للحالة الراهنة ، وأن هذه الحالة الوجدانية تنقلب إلى انفعال حاد عند حدوث ما يحول دون القيام بالعمل الغرزى .

وحجته فى ذلك أن هناك غرائز لا يصحبها ولا يتصل بها انفعال واضح ، مثل غريزتى الاقتناء والتكوين ، وأن الأعمال الغرزية التى تثيرها انفعالات

(١) James Drever.

حادة قليلة جدا ، لا تـكاد تتجاوز الهرب والمقاتلة والنفور والضحك .

ويرى رِفَرْز(1) رأى درِيفَر ، ويوافقـه على أن الانفعال لا يأتى إلا عنـد حدوث ما يمنع من القيام بالعمل الغرزى . ويقول إن الإنسان فى وقت الخطر يعمل أعمالا منظمة مدهشة — بيديه بل بجميع جسمه — لا يستطيع القيام بها فى الأحوال العادية . وذلك راجع إلى أن غريزته تمـده بنشاط منظم ؛ فالشخص الذى يتسلق الجبال ، وهو فى خطر محـدق ، يعمل فقط الأعمال الصحيحة التى تنجيه من الخطر . وراكب الدراجة يقوم عند ازدحام الطريق بالأعمال المحتاج إليها تماما ، بدون تفـكير . ثم يقول رفرز إن هذا النشاط المنظم الغرزى إذا سار فى طريقه بنجاح ، دون أن يعوقه عائق ، لا يصحبه انفعال مطلقا . أما إذا منع مانع من نجاح هذا النشاط فإن الخوف يأتى ويقوى بقوة ذلك المانع .

وبما أن هذه هى الحال بالنسبة للخوف الذى يعتبر أقوى الانفعالات فإن رِفَرْز ودِرِيفَر يضعان قاعـدة عامة تنطبق على جميع الغـرائز . تلك هى : أن الانفعال لا يظهر ولا يشعر به الإنسان إلا قبل القيام بالعمل الغرزى ، وعنـد حدوث ما يحول دونه . وفى ذلك يقول رفرز : « ليس هناك قليل من الشك — على ما يظهر — فى أن الخوف مثلا يقوى قوة خاصة عند حدوث عائق يحول دون عملية الهرب ، أو عند توقع حدوث ذلك العائق . وليس من المستطاع أن ننكر أن هرب الحيوانات من الخطر — هربا عاديا لا يمنعه مانع — لا يصحبه انفعال الخوف . »

(1) W. H. R. Rivers.

ويرى الدكتور وليم براون [١] رأى هذين العالمين . ويقول إن مكدوجل نفسه يعترف ضمنا برأيهما ؛ وذلك حيث يقول : إن الانفعال الذى يصحب الغريزة الاجتماعية هو « الشعور بالوحشة » ، وهو لا يظهر إلا إذا لم تنل هذه الغريزة مأربها ، فحدث مانع يمنع الحيوان من الاختلاط بأبناء جنسه . وهذه القاعدة تنطبق - فى رأيه - على الميول المكتسبة ، كما تنطبق على الميول الغرزية ؛ فإذا كان الإنسان فى مأزق حرج اعتراه اضطراب إذا لم يدر ماذا يصنع .

أما شاند [٢] فإنه يخالف مكدوجل أيضا . ويرى أنه ليس من الضرورى أن تكون كل غريزة مصحوبة بانفعال خاص . وذلك لثلاثة أسباب هى :

(١) جواز أن الغريزة قد تظهر ويحدث العمل الخارجى المناسب لها بدون الشعور بانفعال خاص ، لا سيما فى الغرائز البسيطة ، كالأعمال المكونة للوقوف والجلوس والمشى والجرى والطيران . ويذهب شاند أبعد من ذلك ، ويقول : إننا إذا نظرنا إلى بعض الغرائز التى يصحبها غالبا انفعالات خاصة ، كالمقاتلة والهرب ، فإننا نجد أنها قد تظهر فى الإنسان والحيوان دون أن تكون هناك انفعالات ؛ فالإنسان قد يقاتل من غير أن يشعر بالغضب ، وفى حالة الخطر الفجائى قد تهدأ أعصابه ، ويسكن فؤاده ، ويقوم بالأعمال الضرورية لنجاته من الخطر من غير أن يشعر بالخوف . هذا مع أنه قد يشعر بالخوف إذا فكر فى حادثة الخطر بعد حدوثها .

هذا بالطبع إذا لم يمنع مانع من سير الغريزة . أما إذا منعها مانع فيرى شاند أيضا أن الإنسان يشعر بالانفعال ؛ « فليس هناك خوف أشد من ذلك الذى نشعر به حينما نكون عاجزين عن الهرب . وليس هناك غضب أشد

(1) William Brown . (2) A. Shand.

مما نشعر به عند ما يغلى الدم فى شرايينا ، ولا نجد منفذا للطاقة العصبية الفجائية التى ينبغى أن تتوجه نحو الانتقام من عدونا . فمنع الغريزة هو الذى يثير الانفعال المتصل بها . ولذلك نرى أننا — فى الغالب — نشعر بالانفعال قبل الشروع فى السلوك الغرزى ، لا فى أثناء سيره سيرا طليقا . فليس الانفعال ملازما للغريزة ، وإنما اللازم لها - على مايظهر - هو الدافع الذاتى الذى يحمل على العمل أو يصحبه . وبدون هذا الدافع تصير الغريزة أشبه شىء بالعمل العكسى المركب لا أكثر » .

(٢) أن الانفعال الواحد قد يؤدى إلى عدة أعمال غرزية ؛ فالإنسان — فى حالة الخوف من عدو مهاجم — يجرى أو يختفى بإحدى طرق متعددة ، أو يتربص لعدوه حتى يوقع به .

(٣) أن الغريزة الواحدة قد تتصل بانفعالات متعددة ؛ فطيران الطيور مثلا قد يكون ناشئا عن الخوف أو الغضب أو الجوع أو الغريزة الجنسية . والاختفاء قد يتصل بالغضب أو الخوف فى بعض الحيوانات . والمقاتلة قد تصحب الغضب ، أو السرور عند اللعب ، كما هى الحال فى الكلاب التى تلعب ويعض بعضها بعضا .

فلهذه الأسباب الثلاثة يرى شاند أنه ليس من الضرورى أن يكون لكل غريزة عنصر انفعالى .

ومن العدل أن نقول إن هذه الاعتراضات لا تكون وجيهة إلا إذا عرّفنا الغريزة كما يعرفها شاند بأنها ميل فطرى لعمل من الأعمال . أما إذا عرفناها كما يعرفها مكدوجل لم يكن هناك محل لهذه الاعتراضات ؛ إذ أن

هـذا يريد أن الميل الفطرى لا يسمى غريزة إلا إذا صحبه انفعال أو وجدان محدود ، أما إذا لم يصحبه ذلك فإنه يسمى ميلا فطريا فحسب .(١)

والذى يعنينا من رأى شاند هو قوله : إن منع العمل الغرزى من الظهور أو الوقوع هو الذى يثير الانفعال المتصـل به فى معظم الأحوال ، ولذا نشعر عادة بالانفعال قبل حدوث العمل الغرزى ، أكثر مما نشعر به فى أثناء حدوثه .

فالذى عليـه معظم العلماء أن الشعور بالانفعال يأتى قبـل القيام بالعمل الغرزى ، ويشتد عنـد حدوث مانع يمنعه ، أما عنـد القيام به فإن الانفعال يذهب أو يضعف . أما مكدوجـل فيقول : إنه لا يذهب ولا يضعف ، وإنما يتراءى لنا ضعفه أو ذهابه ، لتعلق الشعور بالناحية العملية — دون الناحية الوجدانية — عند القيام بالعمل الغرزى .

وظيفة الانفعال

علمت مما تقـدم أنه مهما يكن من اختلاف بين العلماء فى طبيعة العلاقة بين الانفعال والعمل الغـرزى وفى وقت مصاحبتهما فليس هناك خـلاف فى وجود علاقة بينهما .

ونريد الآن أن نعرف : « هل لمصاحبة الانفعال للعمل الغرزى ، أو تقدمه عليـه فائدة حيوية ؟ » وإن الإجابة عن هـذا السؤال لتظهر لك إذا تذكرت ما ارتآه معظم العلماء من أن الانفعال يظهر قبل الشروع فى العمل الغرزى ، ويقوى عند حصول ما يحول دون هذا العمل ، ويضعف عند القيام به .

(١) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٦٤ و ٨٩ .

فالذى يظهر أن الغرض الأساسى الحيوى من الانفعال الحاد، والشعور به شعورا واضحا هو تحريض الحيوان على القيام بالعمل الغرزى الملائم فى الوقت المناسب، وإمداده بالطاقة العصبية التى تمكنه من القيام بهذا العمل، أو بالبحث عن غيره مما يوصل إلى الغاية التى ترمى إليها الغريزة. هذا رغم أن الانفعال الشديد قد يكون أحيانا عقبة فى سبيل الاستمرار فى العمل أو التفكير فى غيره[1].

فالغضب مثلا يسبق مهاجمةً من أثاره، فإذا ترتب على هذه المهاجمة إيذاء المغضب والانتقام منه انتقاما فعليا فإن ثائرة الغضب تهدأ. أما إذا لم يكن من المستطاع أن ينتقم الغضبان ممن أغضبه فإن الغضب يستمر، ويحمل صاحبه على اتخاذ وسيلة أخرى لإيذاء عدوه كسبِّه والتجنى عليه، والحط من منزلته، وإيذائه إيذاءً أدبيا. والخوف من الخطر يدفع الإنسان إلى الهرب وتجنب الخطر، فإذا استمر الخائف فى سبيله، وصار بعيدا عن الخطر ضعف خوفه، ولا يزال يضعف حتى يذهب. ولكن إذا فرضنا أن حائطا أو بئرا أو قناة أو شجرة عاقته فى طريقه، وحالت دون مواصلة فراره فإن الخوف يعاوده، ويدعوه إلى اتخاذ وسيلة أخرى من وسائل النجاة بالنفس، فإما أن يبقى فى مكانه ساكنا، وإما أن يختفى، وإما أن يلتفت إلى عدوه المهاجم، ويشهر السلاح فى وجهه، أو يرميه بنباله، أو يطلق عليه رصاصه. فالانفعال يحمل من يشعر به على اتخاذ الوسائل المختلفة التى بها يتحقق الغرض من الغريزة، فى الوقت الذى لا يوصل عمل غرزى محدود إلى هذا الغرض.

هذه هى فائدة الانفعال للشخص المنفعل، أما فائدته لغيره فظاهرة أيضا؛ إذ أن آثار الانفعال الظاهرية تعتبر دليلا عليه، وعلى أن المنفعل عرضة للقيام

بالعمل المناسب للانفعال الخاص ؛ فإذا ما رأيت آثار الغضب بادية على شخص علمت أنه غضبان ، وأن غضبه ربما يدفعه إلى الهجوم أو السب أو التعدى بأى وسيلة من الوسائل. وهذه المعرفة هامة جدا لأنها تساعدنا على الاستعداد للطوارئ، وسلوك الطريق المناسب ، فنهدئ من ثورة الغضبان ، ونزيل الذعر عن الخائف، ونتباعد عن أسباب الاشمئزاز ، ونطعم الجائع ، ونغيث المستغيث ، ونسلى الحزين ، ونشارك الفرح فى فرحه ، والمسرور فى سروره وهكذا .

فالتغيرات الباطنية التى تصحب الانفعال ، والشعور الخاص الذى يتحرك فى نفس المنفعل تساعده على القيام بما يتطلبه الانفعال من أعمال . والآثار الظاهرية تساعد غير المنفعل على فهم حاله ، فيقوم بما تتطلبه تلك الحال .

أنواع الانفعالات:(1)

تختلف الانفعالات من حيث القوة والضعف ، ومن حيث التركيب والبساطة . وهى تمثل سلسلة مختلفة الحلقات ، تبدأ بالانفعالات البسيطة الجافة الخشنة ، وتنتهى بالانفعالات المركبة الهادئة الرقيقة . وللعلماء فى تقسيمها آراء مختلفة ، نختار منها رأى مكدوجل ؛ لأنه هو الذى جرى عليه معظم المؤلفين فى عصرنا هذا .

والأساس الذى بنى عليه مكدوجل تقسيمه للانفعالات هو عناصر تكونها من ناحية ، وعلاقتها بالغرائز من ناحية أخرى . فالانفعالات على هذا الأساس ثلاثة أنواع : (١) أولية ، (٢) ثانوية ، (٣) مشتقة .

(1) See: Outline of Psychology, by W.McDougall,PP. 325-50.

(١) أما الأولية فهى الانفعالات البسيطة الجافة الخشنة، كما يسميها العلامة هورن(١) ، ويمثل لها بالخوف والغضب والاشمئزاز وغيرها من الانفعالات المتصلة بالغرائز على رأى مكدوجل . وإنما سميت « أولية » لأنها تظهر فى الإنسان قبل غيرها ، ثم تصير مواد تتكون منها الانفعالات الأخرى المركبة. ومعنى كونها « بسيطة » أنه ليس من المستطاع إرجاع كل منها إلى وجدانات ، أو تحليلها إلى عناصر وجدانية أبسط منها . ويسميها هورن وغيره « خشنة » أو أشد خشونة ؛ لكونها جافة جامحة فى حاجة إلى التهذيب والتثقيف .

وظهور أحد هذه الانفعالات دليل على أن هناك غريزة من الغرائز فى حالة نشاط وتهيج ، ونستطيع أن نعرف أن هناك انفعالا وغريزة ثائرة بملاحظة مظاهر الانفعال الخارجية ؛ فإذا رأينا شخصا أصفر اللون ، مضطرب الأعصاب ، مرتعد الفرائص علمنا أنه خائف ، وفهمنا أن غريزة الهرب فى حالة نشاط . وهكذا يقال فى باقى الانفعالات التى ذكرناها بجانب الغرائز المتصلة بها فى الجدول السابق .

(٢) وأما الانفعالات الثانوية فهى المركبة التى يمكن إرجاع كل منها إلى اثنين أو أكثر من الانفعالات الأولية ؛ وسبب ذلك فى الغالب إثارة غريزتين أو أكثر من الغرائز التى لا يعارض بعضها بعضا فى وقت واحد . مثال ذلك الازدراء الذى يشعر به الإنسان إذا حاول بعض الناس أن يحول بينه وبين الوصول إلى أغراضه بالخديعة والمكر والتحايل ، فهو حينئذ يشمئز من هذه الفعلة ، ويغضب

(1) H.H. Horne. "See his Psychological Principles of Education," pp. 202-4.

من فاعلها ، ويحاول تجنبه ،بل الانتقام منه،لمكره وخديعته. فهذان انفعالان: ﴿ الغضب والاشمئزاز ﴾ متصلان بغريزتين امتزجا وكوّنا حالة انفعالية مركبة ، هى حالة الازدراء .

فالظروف المركبة تثير فى الإنسان غرائز وانفعالات مركبة . وليس معنى هذا أن لعناصر الانفعال المركب وجودا منعزلا ؛ بل الذى نريده أن كل ظرف من الظروف المعقدة يثير فى نفوسنا مزيجا من انفعالين أو أكثر بحيث تترابط وتكون وحدة متصلة العناصر .

وقد تصدى مكدوجل لبعض الانفعالات المركبة ، وحللها إلى عناصرها على النحو الآتى :

الانفعال	وصفه	عناصره
الاحتقار [1] .	ثنائى	الاشمئزاز والأنفة
الازدراء [2]	ثنائى أو ثلاثى	الغضب والاشمئزاز ،وقد يضاف إليهما الأنفة أو الاعتزاز بالنفس.
المقت أو الفزع [3]	ثنائى	الخوف والاشمئزاز ، وذلك كما يحصل عند رؤية بعض الحيوانات كالفئران والسلاحف .

(1) Contempt. (2) Scorn. (3) Loathing of Horror

الانفعال	وصفه	عناصره
الإعجاب [١] .	ثنائى	الاستغراب واستصغار النفس.
البهْت أو الدهَش [٢] .	ثلاثى	الإعجاب والخوف .
الإقرار بالجميل (الشكران [٣]).	ثنائى	انجذاب قلبي نحو صانع المعروف، واستصغار النفس ،
الإكبار والإجلال [٤] .	رباعى	الإقرار بالجميل والبهت .
العطف والرأفة [٥] .	ثنائى	الشفقة والمؤاساة (المشاركة فى الضيق والألم) .
التوبيخ [٦] .	ثنائى	الشفقة والغضب .

(٣) ويراد بالانفعالات المشتقة تلك التى نشاهد آثارها ولا نستطيع إدخالها فى أحد النوعين السابقين. ويعرَف الانفعال المشتق بأنه لا يظهر عند ظهور غريزة من الغرائز أو ميل من الميول الفطرية ، وإنما يظهر فى أثناء سير نزعة من النزعات أو ميل من الميول القوية فى طريقه . مثال ذلك: الثقة، والأمل ، والقلق ، واليأس ، والقنوط . فهذه انفعالات ثانوية قد يجربها الإنسان متوالية على هذا الترتيب، فى أثناء تأثره بميل من الميول أو رغبة من الرغبات. ولتوضيح ذلك نفرض أن شخصا شعر من نفسه بميل شديد نحو دخول أحد

(1) Admiration. (2) Awe. (3) Gratitude. (4) Reverence. (5) Pity. (6) Reproach.

الامتحانات ، فعقد العزم على الاستعداد له ، فشرع فى العمل ، فتبين له وهو يستعد للامتحان أن العلوم التى يدرسها سهلة ، يستطيع التغلب عليها بدون عناء . فى هذه الحالة يشعر بثقة فى نفسه ، ويتأكد من قدرته على النجاح فى الامتحان . ولكن إذا اعتراه مرض فجائى فإن ثقته بنفسه تضعف، ومع ذلك لا ييأس من الوصول إلى غرضه، بل يكون لديه أمل فى النجاح. فإذا اشتدت عليه وطأة المرض اعتراه قلق على مستقبله ، وشك فى قدرته على التقدم للإمتحان . فإذا استبد به المرض تحول القلق إلى يأس معلق فى خيط من الأمل ضعيف واه . وإذا استمر المرض انقطع ذلك الخيط ولم يبق لدى المريض مثقال ذرة من أمل فى البرء قبل الامتحان بمدة كافية للاستعداد ، فحينئذ يتحول اليأس إلى قنوط .

فأنت ترى من هذا المثال أن ذلك الشخص كان سائرا فى عمله ، موجها جهوده نحو غاية خاصة . وترى أن انفعالات متعددة تواردت عليه تباعا من وثوق، إلى أمل، فقلق ، ومن هذا إلى يأس ، فقنوط . وهذه كلها متصلة بميل خاص هو الرغبة فى دخول الامتحان ، ولكنها لم تنشأ معه ، بل تلته على الترتيب السابق . فلكونها متوقفة على هذا الميل ، ناشئة عنه — لا معه — سميت مشتقة .

ويلاحظ أنها انفعالات سابقة لأوان تحقق الرغبة المتصلة بها ، أى أن النظر فيها إلى المستقبل ؛ ولذا تسمى انفعالات الرغبة اللاحقة أو المنتظرة.(١)

(1) Prospective Emotions of Desire.

وهناك انفعالات مشتقة أخرى تسمى انفعالات الرغبة السابقة أو الماضية (١) كالندم ، وتوبيخ الضمير ، والأسف أو الحزن ، والحقد ؛ فالإنسان يندم بعد أن تفوت الفرصة ، ويصير الحصول على رغبته أمرا مستحيلا ، ويدرك أنه قصر فى عمله . ويوبخ ضميره حينما يدرك أنه مسئول عن أذى لحق غيره . ويشعر بالأسف أو الحزن بعد موت حبيب كان يرجو له الشفاء ، أو ضياع مال أجهد نفسه فى جمعه ، وبالحقد إذا رأى عدوا بغيضا لديه سائرا فى طريق التقدم ، رغم معارضته له ، والسعى فى إخفاق مساعيه.

وربما نعد من الانفعالات المشتقة الفرح والدهش. أما الفرح فله صلة بعاطفتى المحبة والكراهة ؛ فأنت تفرح لفرح صديقك وخيبة عدوك . وأما الدهش فيحدث حينما يباغت الإنسان بما لم يكن فى الحسبان ، بعكس ما كان ينتظر . وإنما كان الدهش من الانفعالات المشتقة لأنه لايظهر إلا عند ما يكون المرء فى حالة توقع وانتظار ، فيفاجئه ما لم يتوقع ؛ أى أن الإنسان يدهش بعد ما يصير تحقق ما كان ينتظره فى حيز الماضى .

الفرق بين الانفعالات الأولية والمشتقة :

إن الفروق التى بين هذين النوعين من الانفعالات تظهر لك مما سبق . ومن الجدول الآتى ترى هذه الفروق واضحة جلية : —

(1) Retrospective Emotions of Desire

الانفعال الأولى	الانفعال المشتق
(١) يحدث عند التفكير فى شىء من الأشياء مباشرة .	(١) يتوقف على رغبة أو نزعة سابقة .
(٢) ينشأ عن غريزة خاصة من الغرائز ، ويعتبر دليلا على أن هذه الغريزة المتصلة به فى حالة يقظة .	(٢) لا يرتبط بغريزة خاصة ، بل إنه صالح لأن يحدث فى أثناء قيام الإنسان بأى عمل غرزى راجع إلى رغبة غرزية .
(٣) يعتبر قوة تحمل الإنسان على عمل من الأعمال .	(٣) لا يعتبر قوة ؛ لأنه ينشأ فى أثناء القيام بعمل غرزى ناشئ عن غريزة هى القوة الدافعة إلى العمل .
(٤) يدخل فى تكوين العواطف التى هى صفات عقلية ثابتة .	(٤) لا ينبغى أن يعتبر صالحا لأن يكون عنصرا من عناصر عاطفة أو صفة عقلية ثابتة ؛ لأنه أمر عرضى يحدث عند القيام بعمل غرزى.

ضبط الانفعالات

الآن وقد انتهينا من الكلام على الانفعالات من الوجهة النظرية نريد أن نلفت نظرك إلى أن للانفعالات من الآثار فى حياتنا الخاصة والعامة مايوجب العناية بتهذيبها والقبض على أزمتها ، وتوجيهها إلى النواحى المستحسنة .

فإن كل انفعال صالح للتوجيه إلى إحدى ناحيتين : ناحية الخير وناحية الشر ؛ فهو إذا تهذب واتصل بعاطفة من العواطف المعنوية أو الحسية الراقية صار نافعا مفيدا للفرد والمجتمع ، وإذا أطلق سراحه ، وأهمل شأنه وترك حبله على غاربه ، وأعطيت له الفرص المثيرة له من حين إلى آخر - بحاجة ومن غير حاجة - كان ضرره أكبر من نفعه ، وأصبح وبالاً على الفرد وعلى المجتمع الذى يعيش فيه.

فالخوف مثلا لا بد منه للمحافظة على النفس ، وتجنب مواطن الخطر . وإذا تهذب وتحول إلى الخوف من الله مثلا أو من القانون أو من ارتكاب القبيح صار خلقا قويما يدعو إلى الطاعة وعمل الخير .

أما إذا لم يهذب فإنه قد يصير مرضا من الأمراض العقلية التى تنشأ عنها آلام تصعب معها الحياة ، بل قد يستحيل معها أن يعيش الإنسان عيشة هادئة مرضية . وكيف يستطيع الإنسان أن يعيش سعيدا إذا كان يخاف من كل شىء ، ويعتريه الذعر لأوهى الأسباب ؟ وكيف يستطيع أهله وذووه أن يعيشوا معه إذا وصلت حاله إلى هذه الدرجة المؤلمة ؟ فمن دأبه الخوف والذعر يكون عرضة

للاضطرابات العصبية المتكررة ، وربما يصبح فى النهاية فريسة للصرع أو الجنون .

وكل من الخوف والحزن يذهب بالشهية ، ويحدث اضطرابا فى الجهاز الهضمى ، وضعفا فى الدم والدورة الدموية ، ويؤدى إلى كثرة الأحلام المزعجة ، والقلق المتوالى فى أثناء النوم .

نعم إن الحياة كلها تعب . وكل شخص لا يعدم أن يصطدم بما يؤلمه ويحزنه ويدعوه إلى التفكير العميق . ولكن التجارب قد دلت على أن كثيرا من الأمور التى يحسب الإنسان لها حسابا ، ويأسى عليها أسى شديدا لا تعدو أن تكون هباء فى الهواء ، أو أشباحا متحركة لا تلبث أن تزول ، وتذهب آثارها إذا لم يعرها الإنسان عناية أكثر مما تستحق .

فليس من الحزم أن تذهب نفس المرء حسرات عند ما تحل به شدة ، وإن قلت قيمتها ، وصغرت منزلتها ؛ وإنما الواجب أن يصغى الإنسان إلى ما تقضى به الحكمة ، ويحكم به الفكر السليم ، ويقبض على زمام نفسه ، ويكبح جماحها كما يقول العرب ، أو يمسك بها بيده كما يقول الإنجليز ، ثم يحاسبها ، ويحاسبها حسابا شديدا ، ويفكر قبل أن يفعل حتى لا يعكر على نفسه صفوها ، ولا يسلب حياته العقلية هدوءها ونعيمها .

وربما يكون الغضب الحاد أشد الانفعالات تأثيرا فى الجسم والعقل ؛ فلا شك أن كلا منا يذكر مقدار شعوره بالتعب والضعف العام عقب الثورة الغضبية . ولا نظن أن كثيرا من الناس يفكرون قليلا أو كثيرا فى أسباب هذا الضعف . وإنهم لو فكروا لعلموا أن الغضب يستنفد قوى الإنسان الطبيعية ، ويضيع جزءا كبيرا من نشاطه العصبي المدخر فى خلاياه العصبية ؛

ذلك أن جميع الأجهزة تقريبا فى أثناء الغضب تكون فى حالة هيجان واضطراب ، ونشاط شديد ؛ فتزيد ضربات القلب ، وتسرع الدورة الدموية فى سيرها ، وتضطرب الأعصاب ، وتتوتر العضلات ، وتجهد الأحبال الصوتية وجميع الأعضاء التى لها علاقة بالكلام ورفع الصوت . وقد يبلغ الهيجان أشده فيزيد تمدد الأوعية الدموية حتى تنفجر ، فيذهب الغضبان ضحية غضبه.

حكى الدكتور جون هنتر المشرح الإنجليزى الشهير أنه سقط فريسة فى يد الغضب فضعف قلبه . واشتد خوفه من عواقب الغضب ، لدرجة أنه كان يقول : إن حياتى فى يد من يستفزنى للغضب . وقد حدث أن أحد زملائه الأطباء آذاه فأغضبه ، فهم ليلقى خطابة ضده وهو فى حالة غضب ، فوافاه حتفه قبل أن ينبس ببنت شفة .

وهناك حوادث متعددة تدل على أن شدة الغضب قد تؤدى إلى الصمم ، أو ضعف البصر ، أو اختلال الأعصاب ، أو النحول ، أو الضعف العام فى الصحة. ولا حاجة بنا إلى الإكثار من ذكر تلك النتائج المؤلمة التى تترتب على حدة الغضب ، فمن المستطاع لمن يريد مشاهدتها أن يشاهدها فى نفسه أو فى غيره ممن دأبهم الغضب .

وإذا كانت هذه هى النتائج المؤلمة التى تترتب على الغضب الحاد فمن الضرورى أن يكون للغضب — أيا كانت قوته — آثار مضعفة للأعصاب، منهكة للقوى، ومضيعة لجزء كبير من النشاط الجسمى والعقلى يستطيع الإنسان أن يستفيد منه ويوجهه إلى النواحى النافعة . بل إن الشخص الذى يستسلم للغضب العادى حينا بعد آخر ، حتى يصير الغضب لأقل الأسباب طبعا من طباعه ، قد

يكون أكثر تعرضا للخطر ممن يسمح لنفسه بغضبة شديدة دون أن يكون الغضب ديدنا له .

وليست هذه الآثار السيئة مقصورة على الخوف والحزن والغضب ، فإن للضجر والقلق والحقد والبغض وحب الانتقام والغيظ آثارا مهلكة لا ينبغى إغفالها ؛ إذ من المستحيل أن تسير الحياة الجسمية والعقلية سيرا منسجما إذا كان الإنسان من حين إلى آخر يحمل جسمه وعقله أعباء هذه الثورات النفسية المضادة للصحة الجسمية ، ويجعلها عرضة لهذه المعاول المهدمة لصرح الحياة العقلية .

وكيف يستطيع الإنسان أن يقبض على زمام نفسه ، ويخضع لإرادته هذه الانفعالات ، وتلك الثورات النفسية التى تظهر فى الأوقات المختلفة فتعكر عليه صفو حياته ؟

للإجابة عن ذلك نلفت نظرك إلى ما ذكرنا من أسباب الانفعالات ، وعوامل قوتها ونشاطها ؛ إذ أننا إذا استطعنا تجنب هذه الأسباب والقضاء عليها أمكننا إخضاع الانفعالات والتغلب عليها .

أليست الانفعالات وجدانات عقلية يصحبها تغيرات جثمانية باطنية ومظاهر بدنية خارجية ؟ أليس للأفكار التى تتوارد على النفس أكبر الآثار فى إثارة هذه الانفعالات ؟ ألم يثبت بالتجارب أن هيئة الجسم الخارجية الملائمة للانفعال تقويه ، إذا لم تكن سببا فى حدوثه بالفعل ؟

إذا علمت أن الإجابة عن كل من هذه الأسئلة بالإثبات تبين لك أننا نستطيع إلى حد كبير جدا ضبط الانفعالات بعدة وسائل أهمها : —

(١) ضبط الأفكار وتوجيهها إلى النواحى المضادة للانفعالات : فإذا علمت أن معنى العداوة مثلا هو السبب فى الغضب فحاول ما استطعت أن تنسى هذا المعنى أو تتناساه ، فإذا لم تفلح فى هذا فحول تيار فكرك إلى جهة أخرى ؛ فإذا رأيت عدوك مقبلا عليك فاترك مكانك واذهب إلى آخر . وإذا اشتد بك الغضب وأنت ببيتك فدعه واخرج ، فلعلك تجد فى طلاقة الهواء ، واتساع الفضاء ، وخلو الجو ، ما يلهيك عن الغضب . وإذا تحركت فى نفسك سورة الغضب وأنت جالس صامت فخذ كتابك بيمينك ، واقرأ فيه بعناية فإنك واجد فيه من الأفكار ما يشغل انتباهك حتى يزول الغضب عنك . واجعل نصب عينيك فى جميع الحالات أنك تريد دفع الغضب عنك ، وتحويل انتباهك عنه لأنك تعلم أنه لا يفيد وإنما يضر ، وأن عاقبته الندم حين لا ينفع الندم . إنى واثق أنك إن فعلت ذلك ضعف غضبك ثم ذهبت آثاره .

يقول الأستاذ هُورْن المربى الأمريكى : « إن الفكرة المسئولة ولو جزئيا عن الانفعال صالحة للتغيير بتحويل مجرى الانتباه ، فإذا نسيتها أو أهملتها وفكرت فى شىء آخر ، وشغلت عنها بعمل من الأعمال ضعف الانفعال ثم ذهب . ولكنك إذا تعلقت بها ، وفكرت فيها طويلا ، وتمسكت بأهدابها شديدا ، ولم تطرد عن ذهنك الأفكار المانعة أو المعارضة لها فإن الانفعال الناشئ عنها يجنح إلى البقاء . »

(٢) تغيير الهيئة أو الحالة الجسمية العامة : ذلك أن لكل انفعال حالة جسمية خارجية تلازمه ، فإذا نجح الإنسان فى تغيير هذه الحالة أفلح فى إضعاف

الانفعال ثم إزالتـه . وإذا علمت أن نظرية الأستاذين جيمز ولانج ترجح أن هـذه الحالات الجسمية والتغيرات المادية الباطنية هى أسـباب الانفعالات ، وعلمت أن كثيرا من المشاهدات والتجارب يؤيد هذه النظرية أدركت أنه من المستطاع أن نستفيد بها فى ضبط الانفعالات ؛ لأن هـذه المظاهر الخارجيـة ليست إلا تغيرات تحدث فى عضلات الجسم الإرادية ، فإذا استسلم لها الإنسان أو شجعها وعاونها وزاد فيهـا فإن الانفعال يبقى . أما إذا عارضها ، وحاول التخلص منها ، وبذل قصارى جهده فى معارضتها والحجر عليها فإن الانفعال يخمد ، ولا يلبث أن يزول .

وقد ذكرنا لك فيما سبق فى هـذا المعنى عبارة مقتبسة من كلام الأستاذ جيمز أحد صاحبى النظرية السابقة . وهى عبارة قيمة جديرة بالعناية فارجع إليها فى موضعها[1] .

(٣) تهدئة الأجهزة الباطنية الثائرة ، أو إرضاء الرغبات العضوية ،

أو تغيير البيئة الخارجية بأى وسيلة من الوسائل المشروعة ؛ فالاستحمام مثلا بالماء البارد أو الفاتر يهدئ الجسم ، ويحـدث بطئا فى الدورة الدموية ، ويقلل من ضربات القلب الزائدة التى تحدث عنـد الغضب . وتناول طعام شهى مفيد للجسم يذهب كثيرا من الآلام ، ويحدث نشوة تضعف معها السورات النفسية ، وتذهب بآثار الغضب والضجر . وهناك فريق من الرجال لا يرضيهم إلا الطعام الشهى والشراب اللذيذ ؛ فترى أحـدهم إذا جاع يتأفف ويتضجر ، ويتبرم بالناس ، ويعـتريه البؤس ، ويكون متشائما كل التشاؤم ، فإذا أكل مالذ ،

(١) انظر ص (١٧٦ ــ ١٧٧) من هذا الجزء .

وشرب ما طاب فى عينيه عاد إليه رشده ، ورجعت إليه نفسه الطيبة ، وأصبح راضيا متفائلا ، ونظر إلى العالم بمنظار السرور والبشر . وفى هؤلاء يقول الإنجليز « أطعم الوحش »[1] يريدون بذلك أن إطعام من تشبه أخلاقهم أخلاق الوحوش فى الحدة يذهب بغيظهم وحنقهم . فإرضاء الرغبات العضوية وتمتع الجسم بالراحة ، وخلوه من الأمراض — من أسباب السرور والهدوء النفسى ، ومن وسائل إضعاف الانفعالات وإخمادها والقضاء عليها .

ومن المعروف أن البيئة الخارجية — كما ذكرنا من قبل — قد تكون مسئولة عن الاضطرابات العصبية ، والحالات النفسية المزاجية الانفعالية ، ولذا ننصح لمن تعتريه هذه الاضطرابات أن ينظر فربما يكون هواء غرفته فاسدا ، أو حرارتها أو برودتها شديدة ، أو ضوءها قليلا ، أو ملابسه ضيقة ، أو جسمه فى حاجة إلى النظافة .

فإن لم يكن هناك أحد هذه الأسباب فلينظر إلى جلسائه ، فلعل فيهم من لا يميل إليه ولا يطمئن إلى محضره . فإن لم يكن هذا ولا ذاك فليفكر فلعل ما يشعر به آثار انفعال سابق لا داعى للتأثر بها إلى هذا الحد . وإن لم يكن شىء من هذه فلينظر ؛ فلعل حالته النفسية نتيجة أوهام وخيالات من الواجب طردها من حظيرة الشعور . فإن خفى عليه السر بعد هذا البحث فليعرض نفسه على طبيب نفسى ، فلعله يستطيع أن يصل إلى أعماق عقله الباطن ، ويستخرج دفائن نفسه ، ويحل عقدته ، ويعرف علته .

ولا يبعد أن يأتى يوم من الأيام يستطيع فيه المرء أن يحدث تغييرا فى

(1) Feed the beast

أعصابه وأجهزة جسمه الباطنية بتناول أدوية صالحة مختلفة ، كل منها معد لعلاج حالة خاصة من حالات السورات النفسية . والذى يظهر أن الطب يخطو خطوات واسعة نحو هذا الغرض . وقد أشرنا إلى ذلك عند الكلام على الغدد الباطنية ، وسنشير إليه عند الكلام على الأمزجة .

(٤) قوة الإرادة وضبط النفس : وهذه وسيلة يلجأ إليها الإنسان فيستطيع ضبط أفكاره ، وإحداث تغير فى مظاهر جسمه الخارجية ، ويلجأ إليها أيضا حينما يخفق فى أحد هذين الأمرين أو كليهما ، وتتمكن من نفسه الأفكار المقوية للانفعال الخاص ، ولا يقدر على توجيه انتباهه إلى شىء آخر ، ولا يستطيع تغيير هيئته الجسمية ، ويجد نفسه مندفعة نحو العمل الذى يقضى به الانفعال ، فيميل إلى المهاجمة عند الغضب ، أو إلى التقهقر والجبن عند الخوف ؛ فإذا كان قوى الإرادة ، قادرا على ضبط نفسه كبح جماحها ، وأمسك عن المهاجمة والإيذاء عند الغضب ، أو أقبل بشجاعة وقلب قوى جرىء عند ظهور ما يوجب الخوف .

فالإنسان فى حاجة شديدة إلى قوة الارادة وضبط النفس ليقى نفسه شرورا ومتاعب جمة ، ويخلصها من أخطار كثيرة ، ويوفر عليها نشاطا غزيرا يوجهه إلى النواحى النافعة المفيدة له ولأفراد مجتمعه . وما ضبط النفس إلا مظهر من مظاهر قوة الإرادة التى تعد عادة خلقية نافعة ، أو فضيلة من الفضائل الهامة التى يجب أن يعنى المربون بغرسها فى نفوس الناشئين ، وتعويدهم إياها من عهد الصغر . وسنتكلم عنها مع شىء من الإسهاب فى الفصل الخاص بالإرادة .

(٥) تعلية الانفعالات: ولتعليتها عوامل هي عينها عوامل تعلية الغرائز[١]. وليس لتعليتها معنى إلا توجيهها إلى الخير. وخير وسيلة لذلك تنظيمها وتحويلها إلى عواطف راقية ثابتة في النفس؛ فالانفعال يؤدى وظيفته كاملة إذا دخل في تكوين عاطفة من العواطف الصالحة، التي تعد عناصر عقلية لها اليد الطولى في تكوين الشخصية. وهذا يوجب علينا أن نعرفك بالعاطفة، ونبين لك كيفية تكونها، ونشرح لك علاقة الانفعالات بالعواطف، وغير ذلك من الموضوعات الهامة الخاصة بالعواطف.

(١) راجع ص ١٧٣ من الجزء الأول من كتابنا هذا.

المراجع بالإنجليزية :—

(1) Educational Psychology, by P. Sandiford, ch. VII.
(2) Psychology from The Standpoint of a Behaviorist, by Watson, ch. VI.
(3) An Outline of Psychology, by W. Mc Dougall, Chs. XI & XII.
(4) An Introduction to Social Psychology, by, W. Mc Dougall, Ch. III and its Supplementary.
(5) Psychology of Everyday Life, by J. Drever Ch. IV.
(6) Psychology, by Woodworth, Chs. VII and VIII.
(7) Everyman's Psychology, by J. Adams, ch. XVI.
(8) Bodily Changes in Pain, Hunger, Fear and Rage, by, W. B. Cannon, chs, I-V.
(9) The Foundations of Character, by A. F. Shand, Book II. ch. I.
(10) Groundwork of Educational Psychology, by, J. Ross, ch. IV.
(11) Principles of Psychology, by W. James Vol II. ch. XXV.
(12) Mental Self-Help, by E. Ash. ch. III.
(13) Psychological Principles of Education, by H. H. Horne ch. XVIII.
(14) Self Training, by H. E. Hunt, ch. VII.

الفصل الثامن

العواطف

قد دلت التجارب — كما علمت — على أن الطفل يخاف ويغضب فى الشهور الأولى من حياته ؛ أى أن آثار الانفعالات البسيطة تبدو عليه من حين إلى آخر لأسباب متعددة . ومعنى ذلك أن أشياء متعددة ، ومثيرات خارجية مختلفة تحدث الخوف فى نفسه ، أو تجعله فى حالة غضب بين .

ولكننا نلاحظ أن ظاهرة جديدة تحدث بعد أن ينمو الطفل ، وتتسع دائرة مداركه ، تلك هى : أن انفعالاته تكثر ، ويتصل بعضها ببعض بطرق مختلفة ، فيثير عددا منها شىء واحد أو أشياء خاصة ، فتتكون فى نفسه حينئذ الانفعالات المركبة ؛ فهو إذا رأى ثعبانا أو حيوانا مؤذيا غريب الشكل انفعل ، وظهرت عليه علائم انفعال مركب هو المقت ، المركب — على ما يظهر — من الخوف والاشمئزاز . وإذا رأى رجلا طويلا على فرس مسرج ملجم ، خاضع لسيطرة راكبه ، مؤتمر بأوامره أعجب بذلك الراكب . والإعجاب — كما رأيت — انفعال مركب من الاستغراب واستصغار النفس.

وإذا رأى فرقة منظمة من فرسان الجيش تخترق الطرق بنشاط وسرعة أكبرها وأجلها ، والإكبار أيضا انفعال مركب من الإقرار بالجميل والبهت . ومن هذا الأمثلة ترى أن الانفعالات المركبة التى تظهر فى حياة الطفل الأولى تكون مرتبطة بمؤثرات حسية كالثعبان والرجل والجيش .

يزداد نمو الطفل الجسمى والعقلى فيتبع ذلك نمو انفعالاته ، وانتقالها من عالم المحسوس إلى عالم المعقول ؛ فترى مقته — بعد أن كان مقصورا على الحيوانات أو الأشياء الغريبة — يشمل السلوك القبيح ، والمعاملة السيئة . وتلاحظ أن إعجابه يشمل السلوك الحسن والمهارة ، وأن إكباره يشمل أستاذه ومقدرته العلمية ومهارته العملية .

يغدو الغلام ويروح فى بيئة محدودة ، فيختلط بأشخاص معينين ، وتشتد علاقته بأشياء خاصة ، فينشأ عن شدة علاقته بهذه الأشياء، وتكرر صلته بهؤلاء الأشخاص انفعال أو انفعالات تنمو وتتجمع حول شىء أو شخص أو فكرة خاصة .

وهذا « التجمع » يبدأ بسيطا فى حياة الطفل ؛ فنرى فى أول الأمر أن انفعالا واحدا يرتبط بالتعود بشخص أو شىء خاص . مثال ذلك : الطفل الذى ترمى به المقادير إلى مدرسة مختلة النظام ، بها مدرس من الطراز القديم، يثير غضبه أوهى الأسباب ، ويلهب نار حفيظته أقل الأشياء . ويكون من سوء حظ ذلك الطفل المسكين أن توضع نفسه الطيبة الجوهرية ، وجوهرته النفسية النفيسة تحت رقابة ذلك الأحمق فلا ينفك يغضب ويثور عليه لأقل سبب . إن عملا مثل هذا يبعث الخوف فى نفس الطفل ، فيعتريه الذعر عند رؤية ذلك المدرس،

بل عند ذكر اسمه ، أو التفكير فيه أو فى المدرسة التى يذهب إليها .

فهنا ترى انفعالا واحدا هو الخوف مرتبطا بشخص واحد هو المدرس . غير أن هذا الخوف لا يلبث أن يجر وراءه عددا من الانفعالات تنضم إليه ، وترتبط بالمدرس ، وتتجمع حوله ؛ فيغضب الطفل عند مايعاقبه ذلك المدرس ، أو يحجر على حريته ، ويشمئز للقائه ، ويفرح لفراقه ، ويسر إذا أصابه سوء ، ويحزن إذا مسه خير . وفى النهاية تتكون لدى الطفل عاطفة نحو المدرس هى عاطفة الكراهة أو البغضاء ، التى تشمل تلك الانفعالات المتعددة . فارتباط انفعال أو عدد من الانفعالات بشىء واحد هو الذى يسمى عاطفة .

وهذا هو معنى قول العلامة شاند « إن العاطفة هى مجموعة منظمة من الانفعالات تتجمع حول معنى شىء من الأشياء .

وتسمى العاطفة المكونة من انفعال واحد بسيطة . أما التى تشمل عددا من الانفعالات فتسمى مركبة . والغالب فى عواطف الرجل العادى أن تكون مركبة . أما البسيطة فقلما تقع إلا فى تجارب الحيوانات ، أو الأطفال ، أو الرجال ذوى العقليات الشاذة .

الفرق بين الانفعال والعاطفة :

(١) إننا حينما نتكلم على المحبة أو الكراهة أو الاحترام أو الاحتقار نريد بكل منها نوعا خاصا من الوجدانات يختلف فى مظاهره وآثاره عن الانفعال ؛ إذ أننا إذا قلنا إن فلانا قد غضب نقصد بذلك أن نسند إليه حالة نفسية ، ذات

صفة وجدانية خاصة ، تصحبها تغيرات جسمية باطنية ، ومظاهر خارجية واقعة بالفعل ، من المستطاع مشاهدتها . ولكنا إذا قلنا إن رجلا يكره آخر مثلا فإننا لا نقصد بهذا القول أن نسند إلى ذلك الرجل فى وقت التكلم صفة ذات آثار ظاهرة ، أو أمرا حادثا له أو منه ، ولكننا نقصد بذلك أن نعزو إليه ميلا أو حالة نفسية ثابتة ، تنشأ عنها انفعالات فى ظروف خاصة .

وإذا قلت لك إنك تحب محمدا فليس من الضرورى أنك تفكر فى شأنه ساعتئذ ، ولا أنك إذا فكرت فيه تشعر بحالة وجدانية خاصة ، تصحبها تغيرات جثمانية وآثار ظاهرية ، ولكن الذى أريده أن حبك له يدعو إلى إثارة انفعالات مختلفة مرتبطة به فى أوقات خاصة ؛ فأنت تسر حينما تجالسه ، وتفرح حينما يناله خير ، وتحزن إذا أصابه أذى ، وتغضب إذا اعتدى عليه أحد . وإذا قلت إنك تكره شخصا من الأشخاص فإنى أريد بذلك أن عندك ميلا نفسيا ثابتا يحملك على الغضب عند رؤية ذلك الشخص ، وعلى الفرح إذا حلت به مصيبة ، وعلى الحزن إذا أصاب خيرا . فهذه الميول النفسية الوجدانية الثابتة التى تنشأ عنها انفعالات متعددة فى ظروف مناسبة هى التى تسمى بالعواطف

(٢) وليست العاطفة انفعالا أو انفعالات منظمة فحسب ، ولا صفة نفسية ثابتة فقط ، وإنما هى دافع من الدوافع القوية ، التى تحمل الإنسان باستمرار على القيام بأعمال متعددة فى ظروف مناسبة . أما الانفعال فيحمل الإنسان على عمل من الأعمال ينقضى بانقضائه ؛ فمن عنده عاطفة محبة الأم يسعى فى إكرامها والإحسان إليها كلما وجد لذلك سبيلا . أما الغضبان

فيثور ويندفع إلى الهجوم على عدوه عند الغضب فقط ، فإذا زال غضبه هدأت ثائرته ، وربما ندم على مافرط منه وقت الغضب .

(٣) والغالب أن الأفعال الناشئة عن عاطفة تكون مسبوقة بفكر وروية. أما الانفعال فيدعو الإنسان إلى القيام بعمل وقتى ينبعث إليه بدون تدبر ولا تبصر ؛ فعاطفة محبة الخير تدعو صاحبها إلى التفكير فى أعمال البر والإحسان ، والرفق بالضعفاء كلما سنحت له الفرصة . والمحب للحق كثير التدبر رغبة فى الوصول إلى الحقيقة ، والدفاع عنها . وليس كذلك الخائف الذى يدفعه الخوف إلى الجرى والهرب أو الاختفاء بدون تفكر ، ولا الغضبان الذى يثور على من أغضبه من غير إصرار سابق .

(٤) ومن الفروق الأساسية التى بين الانفعال والعاطفة أن الانفعال مطلق، أما العاطفة فمقيدة ؛ فالخوف من جميع الحيوانات الغريبة مثلا انفعال . أما الخوف العادى من حيوان خاص فعاطفة . ولذا نقول : إن كل انفعال يصبح عاطفة إذا تقيد بشىء من الأشياء أو معنى من المعانى ، كتقيد المحبة بالأم أو الأب أو المدرسة أو الوطن أو الحق ، وقصر الكراهة على العدو أو البخيل أو القبيح أو الظالم، أو على القبح أو الظلم فى ذاته .

(٥) ولا يخفى أن الانفعال فطرى ورائى لا يتوقف على تجربة ولا تعلم. أما العاطفة فمكتسبة ؛ لا تتكون ولا تنمو إلا بالتجارب ، ومرور الزمن ،وتعدد الفرص المثيرة لها ؛ فالعاطفة المدرسية لا تتكون إلا بعد ذهاب التلميذ إلى المدرسة ، وبقائه بها طويلا ، والتحقق من الفوائد التى تعود عليه منها ، ولو بطريق الإيحاء والتحريض . وكذا يقال فى باقى العواطف . وعلى هذا الأساس

يقول علماء النفس إن محبة الولد لأمه أو أبيه ليست من الصفات الوراثية ، وإنما هى عاطفة مكتسبة ، يتوقف نموها على وجود الطفل بين أبويه ، وعطفهما عليه ، والإحسان إليه فى ظروف متعددة .

أما محبة الوالدين لولدهما فلا شك فى أنها عاطفة ؛ لأنها مسبوقة بتجارب استغرقت زمنا طويلا ، انتظر فيه الأبوان قدوم ولدهما ، واستعدا لاستقباله ، وفكرا فى تربيته . وهذا هو السبب فى أن محبة الأم لأولادها ترجح محبة الأب ؛ إذ أن تجاربها فى أثناء الحمل والتربية أقسى وأطول أمدا .

(٦) وتعتبر العواطف أقوى ، وأبقى ، وأشد تأثيرا فى تكوين الشخصية ؛ إذ أن تكون شخصية بارزة قوية ثابتة متوقف على تكون العواطف الحسنة وتنظيمها . والغالب أن يكون لإحدى العواطف اليد العليا والغلبة على غيرها من العواطف والميول . وتسمى حينئذ « سيدة العواطف » ، كما هى الحال فى « عاطفة حب المال » التى قد تخضع جميع العواطف ، وتحمل الإنسان على البخل والجبن . وكذا يقال فى « العاطفة الذاتية » وعاطفة الجمال ، والعاطفة الدينية ، وعاطفة محبة العلم ، والعاطفة الجنسية وغيرها .

فالعواطف إذاً صفات نفسية ثابتة مكتسبة ، لها آثار كبيرة فى تكوين الشخصية ، يتضمن كل منها انفعالات متعددة . وهى تحمل الإنسان باستمرار على القيام بعمل أو أعمال خاصة كلما سنحت له الفرصة مع شىء من التبصر والتروى .

أنواع العواطف :

قلنا إن الغالب أن تكون العاطفة مركبة من انفعالات متعددة كالكراهة والمحبة والاحترام والاحتقار والغضب والخوف والفرح والحزن . وإنك إذا حاولت تحليل أى عاطفة من العواطف المركبة وجدت أنها تتضمن محبة أو كراهة . وإذا اعتبرنا المحبة أو الكراهة الانفعال المتغلب فى العاطفة تسنى لنا أن نقسم العواطف إلى حبيَّة وكراهيَّة . والصفات المشتركة بين العواطف الحبية هى ميل نحو متعلق العاطفة ، وشغف بالبحث عنه ، ورغبة فى التقرب إليه ومصادقته ، وشعور بالسرور عند مشاهدته ، وبالحزن عند مفارقته . وذلك كما فى محبة البيت أو المدرسة أو الوطن أو النوع الإنسانى على العموم ، أو أحد الملوك أو الحكام أو الأصدقاء ، أو الحق أو العدل أو الجمال .

والصفات المشتركة بين العواطف الكراهيَّة هى نفور من متعلق العاطفة ، ومجانبته ، وشعور بالسرور عند مفارقته ، وبالحزن أو الألم أو الغضب أو القلق عند ملاقاته . وذلك كما فى كراهة العدو أو البخيل أو القبيح أو الظالم ، أو الظلم أو القبح أو الإساءة أو سوء الأخلاق على العموم .

فالمحبة أو الكراهة تتغلب فتثير الانفعالات الأخرى فى ظروف مختلفة .

ومن الملاحظ أن كلا منهما يثير الخوف والغضب والفرح والحزن ، ولكن فى ظروف وحالات مختلفة ، فأنت إذا أحببت شخصا تخاف عليه من خطر تتوقعه ، وتشكر من يواسيه ويعاونه ، وتغضب إذا هدده أحد ، وتفرح لفرحه

ونجاحه ، وتحـزن لحزنه أو فقده . وإذا كرهت عدوا عاداك تخاف نجاته من أذى تتوقعه له ، وتغضب ممن يحسن إليـه ، وتفرح لحزنه ، وتحزن لفرحه .

فهذه الانفعالات المتعددة ترتبط بكل من عاطفتى الحب والـكراهة، فإدراك المحبوب أو المـكروه إدراكا حسيا أو عقليا يثير هذه الانفعالات . والانفعالات التى تثيرها عاطفة المحبـة تختلف فى قوتها ، كما تختلف الانفعالات التى تثيرها عاطفة الـكراهة .

وهناك انفعال خاص بعاطفة المحبـة لا تثيره عاطفـة الـكراهة ، وهو : انفعال التودد ، وانفعال خاص بعاطفة الـكراهة لا تثيره عاطفة المحبة ، وهو : الاشمئزاز أو التقزز .

وهـذه الانفعالات مع كونها مرتبطة بفكرة أو شىء من الأشياء ليست مرتبطة بعضها ببعض ، ولا يثير بعضها بعضا ، فالخوف لا يثير الغضب ، وهذا لا يثير الفرح ولا الحزن .

وارتباطها بالعاطفة ارتباط يسير فى طريق واحد ، ويتجه اتجاها واحدا ؛ فتحرك العاطفة يؤدى إلى تحرك الانفعالات المتصلة بها ولا عكس . ولتوضيح ذلك نفرض أن لـكل عاطفة أو انفعال نقطة مركزية بالمخ ، وأن الصلة التى بين العاطفة والانفعالات المتصلة بها تحصل بوساطة تيارات عصبية تسير على خطوط تمتد بين مركز العاطفـة ومراكز الانفعالات . فإذا ثار مركز العاطفة ثارت مراكز الانفعالات تبعا له . والشكل الآتى يوضح هذا الكلام .

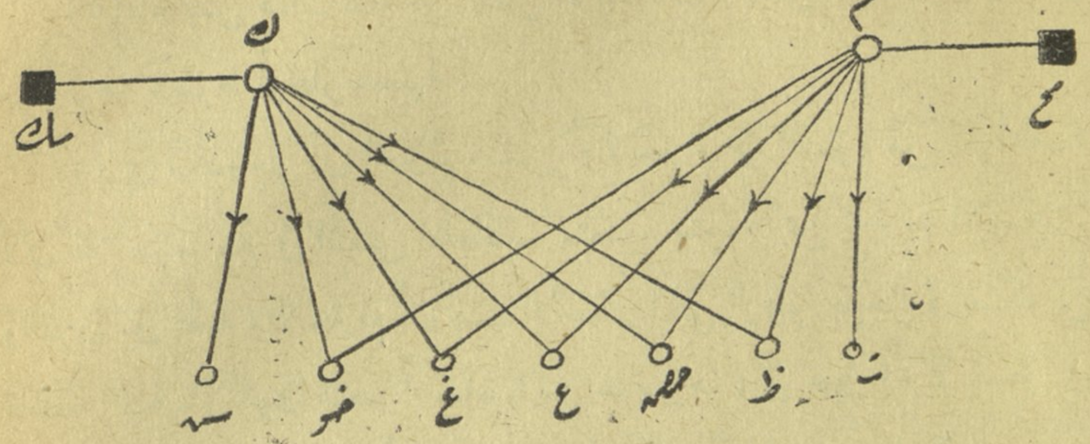

شكل ٤ يبين علاقة العواطف بالانفعالات

(مح) متعلق عاطفة المحبة (م) مركز عاطفة المحبة بالمخ أو العقل (مك) متعلق عاطفة الكراهة (ك) مركز عاطفة الكراهة بالمخ أو العقل (ش) مركز انفعال الاشمئزاز (خو) مركز انفعال الخوف (غ) مركز الغضب (ع) مركز العجب (حض) مركز حب الخضوع (ظ) مركز حب الظهور (ت) مركز انفعال التودد .

فهذا الشكل يبين لنا بوجه تقريبي : —

(١) أن عاطفتى المحبة والكراهة مشتركتان فى إثارة بعض الانفعالات.

(٢) أن هناك انفعالا لا تثيره عاطفة الكراهة وهو التودد ، وآخر لا تثيره عاطفة المحبة وهو الاشمئزاز .

(٣) أن ثورة الخوف والغضب تكون أقوى فى حالة الكراهة منها فى حالة المحبة ؛ لأن مجرى التيار العصبى الذى يخترقه الخوف أو الغضب عند الكراهة أقصر وأوسع . وللسبب نفسه تقوى ثورة استصغار النفس « حب الخضوع » والعَجَب فى حالة المحبة عنها فى حالة الكراهة .

(٤) أن مجرى التيارات العصبية يكون من العاطفة إلى الانفعالات ، أى فى اتجاه السهام المبينة فى الشكل لا بالعكس ، أى أن ثورة العاطفة تؤدى إلى ثورة الانفعالات لا بالعكس .

(٥) أنه ليس هناك صلة بين بعض الانفعالات وبعض ، ولهذا لم توصل مراكزها بخطوط أومجار عصبية .

ويرى مكدوجل أن احترام النفس أوالاحترام على العموم من العواطف؛ لأن كلا منهما يثير فى النفس انفعالات متعددة متعلقة بمن يحترمه الإنسان . والفرق بين المحبة والاحترام أن ذلك الانفعال الحبى الرقيق يدخل فى تكوين عاطفة المحبة ، ويكون عنصرا أساسيا من عناصرها ، فى حين أنه لا يدخل فى تكوين عاطفة الاحترام ، أوعلى كل حال لا يكون من عناصرها الأساسية ؛ إذ أن أهم عناصرها هو استصغار النفس ، أوشعور سلبى نحوها إذا كانت العاطفة عاطفة احترام للغير . أما إذا كانت احترام النفس فإن أهم عناصرها يكون إكباراً للذات أوشعورا إيجابيا نحوها .

وعاطفة احترام النفس هذه إذا نمت وترعرعت دعت الإنسان إلى احترام غيره ، على شريطة أن يكون ذلك الغير محترما لنفسه ؛ فالناس لا يحترمون إلا من يحترم نفسه ؛ كأن احترام النفس شعور ينعكس على الغير فيشعر به ذلك الغير تبعا لنزعة المشاركة الوجدانية . أما الذى لايحترم نفسه فقلما يحترمه الناس ، وإن أعجبوا ببعض صفاته الخلقية القويمة ، وأحبوه وعشقوه من أجلها .

فالمحبة تختلف عن الاحترام فى طبيعتها ، يدلك على ذلك أنك قد تحترم شخصا ولا تحبه ، وقد تحب آخر ولا تحترمه ؛ كما فى حال ابنك الذى تزجره وتؤنبه وأنت تحبه .

فالعواطف العليا تنقسم باعتبار العنصر الانفعالى المتغلب فيها إلى حبية وكراهية واحترامية .

تقسيم آخر للعواطف : ـ

ونستطيع أن نقسم العواطف باعتبار متعلقها إلى حسية ومعنوية ،والحسية إلى خاصة وعامة . فالحسية الخاصة كمحبة الأم أو الأب أو البيت أو المدرسة أو كتاب من الكتب أوأحد الأصدقاء أو الحكام أو الملوك . والحسية العامة كمحبة الأطفال أو المستشفيات أو المساجد أو الكتب على العموم . والمعنوية كمحبة الحق أو الجمال أو الخير .

نمو العواطف (١)

(١) والعواطف تظهر فى الفرد على هذا الترتيب ؛ فأولها ظهورا ، وأسهلها اكتسابا العواطف الحسية الخاصة ، وتتلوها الحسية العامة ، ثم تأتى بعد هذين العواطف المعنوية ، ومنها العاطفة الخلقية .

ومن السهل ملاحظة نمو العواطف على هذا النحو فى الطفل ؛ فهو يولع أولاً بأفراد يراهم فى بيئته ، وتشتد علاقته بهم كوالديه وحاضنته وأقاربه وأصدقائه، ثم يتعلق بلعبه التى يلعب بها ؛ فالأشخاص أولا ، والأشياء ثانيا ، هى التى تثير وجدانات الطفل وانفعالاته المختلفة .

والعواطف المتعلقة بالأشخاص لا تظهر أولا فحسب ، ولكنها تكون أكثر تركيبا وأشد تعقدا ؛ أى أنها تثير من الانفعالات عددا أكبر من

(1) See: Introduction to Psychology, by Loveday and Green P. 148

ذلك الذى تثيره العواطف المرتبطة بالأشياء . فإذا أحب الطفل لعبة من اللعب، وأولع بها ولعه بأمه فإن حبه للأولى لايبلغ منزلة حبه للثانية ، ذلك : —

أولا : لأن لأمه فى نفسه معنى أكبر من معنى اللعبة ، وعلاقاته بها أشد وأكثر .

ثانيا : لأن محبته لأمه تتوقف على العلاقة المتبادلة بينهما ؛ فهى تحبه كما يحبها ، ومحبتها له تثير فى نفسها انفعالات متعددة مرتبطة به . ولا شك أنه يتأثر لانفعالاتها فيزداد حبا لها . أما علاقته باللعبة فليست كذلك ؛ لأن موقفها بالنسبة له سلبى لا حياة فيه ولا وجدان ولا انفعال ؛ فالمحبة من جانب واحد هو جانبه فقط . ولو فرضنا أنه يحب لعبته حبا جما مساويا لمحبته لأحد والديه لكنا على يقين تقريبا من أنه يتخيل أن هذه اللعب أشخاص تتمتع بالحياة وتشاطره المحبة ، بدليل أنه لما يكبر وينمو عقله ، ويعرف أن اللعب مجرد أشياء خالية من الحياة ضعف حبه لها ، ولا يزال يضعف حتى يكاد يزول .

وهذا عينه هو حال البنت بالنسبة لعرائسها ودماها ؛ فإنها تعطف عليها أولا ، وتعاملها معاملة الأشخاص ، حتى إذا ما كبرت وأدركت أنها أشياء لاتبدى حراكا من تلقاء نفسها قل عطفها عليها ثم انقرض .

ومن الناس من يبلغ حبه لأشياء خاصة منزلة أكبر من محبته للأشخاص . مثال ذلك . المولع بجمع طرائف الأشياء وغرائبها — كالأوانى الصينية والتحف والنقود القديمة — فإنه يحرص عليها ويقدسها أكثر من تقديسه لكثير من الأشخاص .

مثل هذا الشخص قد تتمكن هذه العاطفة — عاطفة محبة الطرائف —

فى نفسه لدرجة أنه لايحب الأشياء التى يجمعها ، ولا يحب اقتناءها فحسب ، ولكنه يهوى السعى فى طلبها ، ويحرص على جمعها . وإن افتخاره بها ليعتبر مظهرا من مظاهر العاطفة الذاتية أو عاطفة محبة النفس التى تمتد إلى الأشياء التى يملكها الإنسان ، وتشمل كل مايتصل به وينتمى إليه .

(٢) وبعد محبة الأفراد والأشياء يأتى وقت يشغف فيه الغلام بمعاهد أو جماعات من الناس ؛ فإذا كان يحيا حياة سعيدة أحب بيئته وأسرته على العموم . وإنه ليحب مدرسته إذا تبين له أنها من أسباب سعادته العاجلة أو الآجلة ، ثم يحب بلدته كلها ، ثم بيئته الخاصة ثم العامة .

وبالطبع لا تنمو هذه العواطف المتعلقة بالمعاهد أو جماعات الناس إلا بعد أن يصبح الطفل غلاما يافعا ، ويصل إلى منزلة عقلية يستطيع معها أن يفهم معنى هذه الأشياء وعلاقاتها به ، وارتباط بعضها ببعض .

(٣) أما عصر العواطف المعنوية فمتأخر عن عصر العواطف الحسية ؛ إذ أنه يأتى بعد أن يصير الغلام شابا ، ثم رجلا قوى الخيال ، قادرا على التفكير وانتزاع المعانى العامة من المثل الخاصة والتجارب الجزئية ؛ فيحب الجمال والشرف والحرية ، ويقدس الحق والعدل والإخلاص .

وبنمو هذه العواطف الإجتماعية والمعنوية ، وبقوتها ، وتمكنها من النفس تصبح دوافع فعالة ، وقوى محركة للإنسان ، مسيطرة على سلوكه . وقد لا يصبح للعواطف الحسية الخاصة فى نفسه أثر يذكر .

وتغلب العواطف الاجتماعية والمعنوية مفيد فى تقدم الأمم والشعوب ، وفى رقى النوع الإنسانى على العموم ؛ إذ أنها هى التى عليها يتوقف نبوغ

رجال الفن ، وظهور المصلحين الاجتماعيين ، والزعماء ، والقادة المخلصين المحبين لأوطانهم ، الذين يضحون بمصالحهم الشخصية فى سبيل مصالح بلادهم والمجتمع الذين يعيشون فيه . فلولا هذه العواطف ما استطاع أحد أن ينجح فى حياته نجاحا ظاهرا مستمرا . ولولاها لبقى العالم غارقا فى سذاجته الأولى ، ولظل الناس عبيدا للذاتهم وشهواتهم الحسية الخاصة .

مراحل نمو العواطف :

إن مراحل نمو العواطف هى عينها مراحل نمو الوجدانات ؛ لارتباط هذه بتلك ارتباطا وثيقا . ولذا يحسن أن نقول هنا إن لنمو الوجدانات والعواطف ثلاث مراحل هى : —

المرحلة الذاتية : (١)

وفيها ترتبط الوجدانات والعواطف بالذات ، ويكون الغرض منها السعى فى ترقية النفس ، والحصول على الرغبات الشخصية . وذلك كمحبة اللذة والسرور ، وكالخوف والغضب ، وكمحبة الأم والأب والبيت ؛ لشدة اتصال كل من هذه بالنفس ومصالحها الذاتية . وترجع هذه الوجدانات والعواطف الذاتية إلى الغرائز الفردية ، ولذا كانت أقرب إلى طبيعة الطفل ؛ فهو يميل بطبعه إلى محبة نفسه ، والسعى فى إرضائها ، والحصول على ماتطلب . ويحب كل من يرضى رغباته ، ويكره كل من يحول بينه وبينها . والوجدانات والعواطف الذاتية تسير

(1) Egoistic Stage .

جنبا لجنب مع العواطف الحسية الخاصة . والواجب على المربى إخضاع هذه العواطف إذا خرجت عن حدها . وخير وسيلة لذلك محاربتها بالعواطف الاجتماعية حينما يصل الطفل إلى المرحلة الثانية من مراحل نمو العواطف التى هى : —

(٢) المرحلة الاجتماعية : – وهى التى تظهر فيها العواطف والوجدانات المرتبطة بالغير ؛ ولذا تسمى أحيانا المرحلة الغيرية [1] ، وذلك كالحب والكراهة والاحترام والمؤاساة وحب الثناء والميل إلى الظهور ، وهذه الوجدانات والعواطف الاجتماعية متصلة بالغرائز الاجتماعية ، قائمة على أساسها. وتتجلى بأجلى مظاهرها عند المراهقة ، وتسير جنبا لجنب مع العواطف الحسية العامة السالفة الذكر .

وعلى المربى استخدام ما يمكن استخدامه منها فى إخضاع العواطف الذاتية الشخصية الخارجة عن حدها من جهة ، وفى تقوية شخصية المتربى من جهة أخرى ؛ ذلك لأن الشخصية لا تقوى إلا بالاتصال بالمجتمع ، ولا يقوى العقل الفردى إلا بانتفاعه بالعقل الجمعى، وذلك بطريق الوراثة الاجتماعية . وأهم الوسائل لغرس العواطف الاجتماعية فى نفوس الناشئين المحاكاة ، والتربية المقصودة المدبرة . فإلى المحاكاة يرجع الفضل فى التحلى بعواطف آبائنا وقادتنا ، والتخلق بأخلاقهم . وبالتربية ينقل المربون إلى المتربين عواطفهم ، ويهذبون وجداناتهم.

(1) Altruistic Stage

المرحلة (الأيديالية) أو المثلية (١) : —

فى هذه المرحلة تتوجه عواطف المرء نحو المثل العليا من المبادئ والرجال ، ويصل إلى مرتبة العواطف المعنوية العليا التى هى عاطفة محبة الحق لذاته ، وعاطفة محبة الجمال ، وعاطفة حب الخير والمنفعة العامة .

ويلاحظ أن كل عاطفة من هذه ترجع إلى عنصر من عناصر الشعور الثلاثة ؛ فعاطفة محبة الحق أعلى مراتب الوجدان الإدراكى ، وعاطفة محبة الجمال أعلى منزلة يصل إليها الوجدان من حيث هو ، وعاطفة حب الخير هى أعلى مرتبة يصل إليها الوجدان النزوعى أو الإرادى .

ومن الضرورى أن تعرف أن هذه المراحل تشبه ثلاث دوائر متداخلة ؛ ومعنى ذلك أن العواطف الاجتماعية لا تقضى على العواطف الشخصية، ولكنها تلطف من حدتها ، وتضعف من شأنها . والعواطف المثلية لا تذهب بالعواطف الاجتماعة ، بل تهذبها أو تعززها وفق مايقضى به القانون الاجتماعى .

كيف تتكون العاطفة؟

إن لكل عاطفة من العواطف على حدتها تاريخا طويلا ؛ فهى لاتظهر ولا تنمو فجأة ، ولكنها تنشأ لأسباب ومثيرات تقتضى ظهورها ، وتنمو نموا تدريجيا بكثرة مثيراتها ، وتقوى بتوالى الفرص المثيرة لها ، وقد تضعف ثم تنقرض لقلة هذه الفرص أو لعدمها . فالعاطفة فى هذه الأحوال كلها تشبه

(1) Idealistic Stage.

العادة ؛ ولذا يقال أحيانا إن العاطفة هى عادة الوجـدان ، أو إنها انفعال أو انفعالات أصبحت عادة محدودة الاتجاه .

فعاطفة المحبة مثلا تبدأ صغيرة أولية ، يثيرها عمل من الأعمال التى توجب المحبة كالإحسان فى القول أو العمل ، ثم تنمو وتترعرع حتى تصير عاطفة ثابتة بجمع حولها عددا من الانفعالات .

فأنت إذا أحسنت إلى طفل بكلمة طيبة أو مكافأة مادية ضئيلة ربما لا يلاحظ ذلك فى أول الأمر ، ولـكنه ـ إذا كررت إحسانك إليـه مرات ـ يأخذ فى ملاحظة عملك هذا ، وتأخذ عاطفة محبته لك تتكون فى نفسه ، حتى إذا ما استمررت فى عملك هذا أو زدت فيه ، وبالغت فى إكرام الطفل والإحسان إليه ، فأخذت تطعمه وتكسوه ، وتكلؤه وتربيه ، وتدافع عنـه وتحميه فإن محبته لك تثبت فى نفسه ، وعندئذ تصير المحبة عاطفة محكمة ، ثابتة فى نفس الطفل ، داخلة فى تكوين عقليته ، فيزيد تفكيره فيك ، ولا يهدأ له بال إلا إذا صحبك ، ولا يطمئن له خاطر إلا إذا فعل ما يرضيك ، وترك ما يغضبك ، ودافع عنك ، وحافظ على حقوقك .

فالعمل الحسن والقول الطيب من أقوى الأسباب التى تبذر بذور عاطفة المحبـة ، وتتعهدها حتى تنمو وتترعرع . والمنفعة المادية أو الأدبية تبعث فى النفس هـذه العاطفة وتنميها وتغذيها ؛ فالطفل يحب أمه لأنها تغذيه وتربيه وتحنو عليه ، وتحافظ على راحته ، وتؤدى مطالبه ، وتجلب له السرور ، وتدفع عنه الضرر . وهو يحب مدرسته إذا جنى من ورائها فائدة عملية ، أو علم أنها من أسباب سعادته المادية أو الأدبية . وهو يحب المجتمع الذى يعيش فيه لأنه

هو الذى يساعده فى قضاء مطالبه ، ويزوده بالتجارب التى تعلمه وتهذبه ، ويغذوه بالمعارف، التى عليها تتوقف حياته الروحية . وهو فوق ذلك كله يعطف على وطنه لأن فيه أباه وأمه ومدرسته وأصدقاءه وعشيرته وقومه الذين يشاطرونه المحبة والعطف ، ويشتركون معه فى اللغة والجنسية والعقيدة .

ولا يخفى أن عاطفة الكراهة تنمو وتقوى لأسباب مضادة لأسباب نمو عاطفة المحبة ، فالعاطفتان متماثلتان فى أطوار النمو ، ولكنهما تختلفان تمام الاختلاف فى المثيرات والأسباب ؛ فكل مايثير إحداهما يضعف الأخرى ، وذلك غنى عن البيان .

ولاتنس أن للأفكار والمبادئ التى يعتنقها المرء ، والمثل العليا التى تروق فى نظره آثارا فعالة فى تنمية عواطفه ؛ فالشخص الذى يبحث ويتعلم يؤدى به البحث والتعلم إلى أن الحق أحق أن يتبع ، وأن العدل ضرورى لنظام الحياة الاجتماعية ، وأن عمل الخير ينفع صاحبه أو المجتمع الذى يعيش فيه . ولا ريب أن من يعتنق هذه المبادئ ، ويصمم على العمل بها يصير أرضا خصبة صالحة لنمو العواطف المعنوية العليا التى هى محبة الحق ، ومحبة الجمال ، ومحبة الخير .

ومما تقدم تعلم أن التجارب ، والمحاكاة ، والتربية المقصودة هى وسائل نشأة العواطف ، وأن مرور الزمن وتعدد الفرص وكثرة المثيرات هى أسباب تكوينها وتنميتها .

العاطفة والغريزة :

مما تقدم ترى أن الانفعالات تدخل فى تكوين العواطف ، وبعبارة أخرى

نقول إن الغرائز هى أساس العواطف ، لأن الانفعالات متصلة بالغرائز كما رأيت ، أوهى ميول وجدانية حادة ، غرزية عامة ، إذا تعددت وجهتها ، وارتبطت بأشياء خاصة صارت كل مجموعة منها عاطفة . وبما أن الانفعالات هى النواحى الوجدانيــة للغرائز كما علمت فإننا نقول إن الغرائز هى منشأ العواطف ، فكما أن الأعمال الغرزية التى هى النواحى النزوعية للغرائز تتحدد وتتعين وجهتها وتتحول على مر الزمن وبكثرة الفرص والتكرار إلى أعمــال عادية أو عادات كذلك نرى أن الانفعالات التى هى الميول الوجدانية الغرزية العامة تتحدد وتتحول إلى عواطف بالطريقة عينها ، أى بتوالى الفرص المثيرة لها ، وبارتباطها بأشياء خاصة .

العاطفة والشخصية :

وإن تحول الانفعالات إلى عواطف بالطريقــة السالفة الذكر من أهم العوامل فى نمو الشخصية وتقويتها . فالعواطف إذا مكتسبة فى حاجــة إلى الفرص التى تنميها وتقويها ، فكلما كثرت الفرص المثيرة لهــا قويت وتنظمت وبالعكس ، أى أنه كلمــا قلت الفرص المثيرة للعواطف ضعفت وربما انقرضت . وبقوتها أوضعفها أو انقراضها تتأثر الشخصية على العموم .

فعاطفة الكراهة مثــلا تقوى إذا أطلقنا لهــا العنان ، وخضعنا لمــا تمليه علينا ، وتضعف ثم تنقرض إذا قبضنا على زمامها ، وقدعناها عن شهواتها ، ولم ندع للانفعالات المتصلة بها فرصــة للظهور . وبقوتها أو ضعفها يتأثر سلوك الإنسان وشخصيته .

العاطفة وحدة عقلية كاملة :

ومن الواجب أن تعرف أن العاطفة حالة نفسية أو شعورية خاصة كاملة العناصر، وأن عناصرها هى عينها عناصر الشعور الثلاثة التى هى الإدراك والوجدان (الانفعالات) والنزوع . ولذا يقول العلامة شاند — ملخصا طريقة نمو العواطف وتنظيمها: «إن كل عاطفة تميل إلى أن تضيف إليها جميع الانفعالات والأفكار والنزعات التى تساعدها فى الوصول إلى غايتها ، فى حين أنها ترفض جميع العناصر الزائدة على حاجتها أو المضادة لها : »

فكل عاطفة لا تنمو ولا تنتظم على الوجه الأكمل إلا إذا دخل فى تكوينها من الانفعالات والأفكار والنزعات ماهو لازم لتكوينها ، متمم لكيانها ، ولم تسمح لما ليست فى حاجة إليه بالاتصال بها والانضمام إليها . وهذا هو السبب فى أن من يحب نفسه ينشأ قاسيا فظا غليظ القلب لأنه ليس للرحمة والشفقة على الغير محل فى تقوية عاطفة محبة النفس .

العاطفة والميل :

إن الميول المكتسبة تشبه العواطف فى أنها ترتبط بأشياء أو أغراض معروفة ، وفى أنها عناصر ثابتة تدخل فى تكوين الشخصية ، وفى أنها تحمل الإنسان على اتباع طريق خاص فى سلوكه الحيوى . وفى ذلك يقول المربى الإنجليزى الشهير جون رسكن : « أخبرنى عن ميولك ورغباتك وأنا أخبرك عن حقيقة نفسك وشخصيتك » .

ولكن هذه الميول المكتسبة ليست كالعواطف فى ارتباطها بانفعالات متعددة تظهر فى الظروف المناسبة . وإنا وإن كنا نعترف بأن كل ميل لابد أن تصحبه حالة وجدانية نرى فى الوقت نفسه أن العنصر الوجدانى يكون أشد وأظهر فى العاطفة ؛ فالميل مهما بلغ لا يصل إلى منزلة العاطفة من الناحية الوجدانية ؛ لأنها تثير انفعالات حادة فى أوقات مختلفة .

العاطفة والحالة المزاجية :

تعرف أن كل ثورة انفعالية تعبها حالة مزاجية وقتية خاصة تؤثر فى سلوك الإنسان وفى تجاربه ، حتى بعد زوال المثير الخارجى الذى أثار الانفعال . وهذه الحالات المزاجية تشبه العواطف فى أنها ميول خاصة وجدانية تؤثر فى سلوك الإنسان وفى حالته العقلية العامة ، ولكنها ليست كالعواطف فى أنها استعدادات عقلية ثابتة داخلة فى تكوين العقل الإنسانى ، بل هى صفات طارئة متقلبة تغدو وتروح ، ولا تثبت على حال .

العاطفة الجوفاء :(١)

قد ينغمس المرء فى بحر الانفعالات ، ويتيه فى بيداء العواطف ، دون أن يكون لعواطفه آثار ظاهرة فى حياته العملية . مثل هذا يسمى «رجل العواطف»

(1) Sentimentalism

الذى يشبه رجل أحلام اليقظة الذى يطلق العنان لخيالاته وأوهامه ، ولا يتخذ الوسائل الفعالة لتحقيق هـذه الأحلام ، بل يتركها تسبح فى الفضاء دون أن يقبض على زمامها ، وينزل بها إلى عالم الحقيقة ، ويحولها إلى أعمال جدية نافعة .

يقول وليم جيمز . « إن رجل العواطف هو الذى يستسلم لعواطفه ويطلق لها العنان ، ولا يسمح لها بأن تحتل محلها اللائق بها باعتبارها دوافع تحمل الإنسان على الأعمال » .

ويقول مكدوجل . « إن رجل العواطف الجوفاء هو ذلك الذى يكون عواطف حول عواطف ؛ كالذى يحب محبة الحق بدلا من أن يحب الحق ، وكالذى يحب الوطنية بدلا من أن يحب الوطن ، وكالذى يكره محبة البخل بدلا من أن يكره البخل ذاته » .

وأنت ترى أن العواطف المرتبطة بالعواطف لا تحمل الإنسان مشقة ولا مسئولية ، ولا تدل على متانة الشخصية ، ولا تعد من صفات البطولة ؛ فمن يحب الوطنية يكتفى بكلمات يرددها ، عبارات ينمقها ، ويتمشدق بها فى المحافل والمجتمعات . أما من يحب الوطن فإنه يحمل السلاح للدفاع عنه ؛ ويعرض نفسه للأخطار فى سبيل رفعة شأنه ، ويتخذ جميع الوسائل الممكنة التى تؤدى إلى علو منزلته .

أثر العاطفة فى السلوك

قلنا فيما سبق إن كل عاطفة تدعو الإنسان إلى عمل أو أعمال باستمرار؛ فالولد الذى تكونت عنده عاطفة محبة الأم يخلص لها، ويسعى فى إرضائها وراحتها وإدخال السرور عليها، ويطيع أوامرها، ويتحين الفرص بل يتخذ الوسائل الممكنة لمحادثتها والاتصال بها، ولا يهدأ له بال حتى يرضى ذلك الوجدان القوى الملازم له.

وكذلك ترى أن المحب للخير يعطف على المساكين، ويساعد الضعفاء، ويجد فى ذلك لذة وسرورا قلما يرضى بهما بديلا. وتجد من تمكنت من نفسه محبة الحق دائبا فى نصرته، مجيبا لدعوته، يضحى بمصالحه الشخصية فى سبيل الدفاع عنه. وتلاحظ من اختلطت عاطفة محبة المال بلحمه ودمه، وأصبحت جزءا من نفسه يحرم نفسه اللذات، ويقضى كثيرا من أوقاته مفكرا فى كيفية الحصول على المال، فينصب الشراك لتصيده، مهما لاقى فى سبيل ذلك من شدة، ويحمل من أذى. والعواطف لا تحملنا على القيام بأعمال خاصة فحسب، ولكنها تؤثر فى شعورنا نحو أعمالنا وأعمال غيرنا؛ فإذا ما شاهدنا عملا من الأعمال خيرا كان أو شرا فإن وجداننا يتأثر بحسب ما تشير به العاطفة الخاصة التى لها علاقة بهذا العمل، فنحكم على فاعل الخير بأنه مصيب يستحق المدح، وعلى فاعل الشر بأنه مخطئ يستحق الذم. ولا يقف الأمر بنا عند هذا الحد، بل إننا نسر لعمل الأول، ونسعى فى إثباته بقدر ما يمكن، ونغضب لعمل

الثانى ، ونجتهد فى إرجاعه إلى رشـده ، وذلك كله إطاعـة للعاطفة الخلقية .

وكذلك إذا رأينا شخصا يُظْلَم فإننا نغضب ونحزن لظلمه ونسعى فى رد حقه إليه ، فإذا تم ذلك سررنا ، وذلك إرضاء لعاطفة حب العـدل . وأرقى من ذلك وأعلى منزلة سعينا فى الإصلاح والنصح ، وإرشاد الناس إلى عمـل الخير الذى تقضى به عاطفة محبة الخـير . وهذه هى منزلة الواعظ المرشد التى تمـكنت من نفسـه العواطف الراقية ، فأصبح لا يهدأ له بال ، ولا يطمئن له خاطر ، حـتى يدعو الناس إلى الخير ، ويحملهم على اتباع السـلوك الحسن ، بالحـكمة والموعظة الحسنة ، مصداقا لقوله صلى الله عليه وسـلم « من رأى منكم منـكرا فليغيره بيـده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » .

فالعاطفة تثير فى النفس وجـدانات ملائمة للظروف ، تنشأ عنها رغبة فى عمل أو أعمال مناسبة ، يقوم بها الإنسان ما وجد إليها سبيلا . وتتوقف شدة الرغبة فى العمل ، أو ضعفها ومقدار المثابرة على العمل بعد الشروع فيـه على قوة العاطفة أو ضعفها ؛ فـكلما قويت العاطفة اشـتدت الرغبة فى إرضائها ، واستمرت الأعمال المرضية لها .

ومن الملاحظ أن الرغبة الناشئة عن عاطفة معنوية تضعف فى معظم الناس عن تلك التى تنشأ عن عاطفة حسية.

ومن حيث إن الغالب فى حياة الإنسان أن يحصل تضارب بين العواطف الحسية والمعنوية فى نفسه فإنا نرى أن تلك تتغلب على هذه ؛ أى أن تـكوّن العواطف المعنوية لا يمنع المرء من ارتـكاب أعمال معارضة لها إرضاء للعواطف الحسية .

فعاطفة المحبة لشخص كثيرا ما تتغلب على عاطفة محبة الحق ، فتعمى صاحبها وتجعله يحابى المحبوب ، وينحاز إلى جانبه ، ولو كان على ضلال . وكذلك عاطفة احترام الذات التى قد تجعل المرء ينسى عواطفه المعنوية ، ويقدم على عمل مالا يليق ، وارتكاب مالم يعهد فيه .

ويقول الأستاذ مكدوجل فى هذا الصدد : « إن أرقى العواطف الاجتماعية التى هى عاطفة محبة الخير للنوع الإنسانى على العموم (عاطفة الرفق بالإنسان) ربما لا تكفى لبلوغ المرء أعلى منزلة خلقية » . ولا يبلغ الإنسان هذه المرتبة إلا إذا كانت القيادة الخلقية بيد أعلى العواطف المعنوية منزلة التى هى العاطفة الخلقية ، أى عاطفة محبة الحياة الخلقية الكاملة بالنسبة للنفس وللغير ؛ فإذا تكونت هذه العاطفة وأصبحت المسيطرة على جميع العواطف فإنها ترغم صاحبها - قبل كل شىء - على تكميل نفسه ، والصعود بها إلى مرتبة الرجل الكامل الأخلاق ، وبذلك تتآلف العواطف الذاتية والاجتماعية وتتعاون ، وتسير تحت قيادة العاطفة الخلقية ، وتسعى جميعها فى تكميل النفس ثم الغير ، فينشأ عن توازن العواطف وتعاونها وسعيها نحو هذه الغاية تكوّن شخصية بارزة متينة البناء ، ثابتة الأركان .

هذا وإن عاطفتى حب الجمال واحترام النفس قد تكونان من عوامل تكون العاطفة الخلقية ؛ إذ أن كمال الأخلاق ، وانسجامها ، واتساق السلوك واتزانه ، يجمل المرء وتزينه ، وترغم الغير على النظر إليه نظرة إعجاب واحترام؛ فإذا تكونت عاطفة احترام النفس لدى الناقد البصير الذى يقدر الجمال الخلقى حق قدره ، دفعته إلى الاقتداء بذلك الشخص الذى علت أخلاقه ، وكملت

صفاته ، فتنشأ عاطفة حب الكمال الخلق فى نفسه ، وتنمو وتؤتى أكلها .

تضارب العواطف :

قلنا إنه إذا تعارضت العواطف الحسية والمعنوية فالغالب أن الأولى تتغلب، وأما إذا اجتمعت عاطفتان مهما يكن نوعهما واتحدتا فى الاتجاه فإنه لا يحصل تضارب ، ولكن العاطفة القوية تكون أظهر أثرا . مثال ذلك اجتماع عاطفتى محبة الأم ومحبة الأب ، فإنهما معا تدعوان إلى المدافعة عن كل من الوالدين ، فإذا كانت محبة الولد لأمه أقوى من محبته لأبيه اشتد الدفاع عنها .

فإذا تضاربت العاطفتان فإن القوية تتغلب كما إذا تشاجر الأبوان فى المثال السابق أمام الابن ، فإنه يميل إلى الدفاع عن أمه ضد أبيه . أما إذا كان يحبهما بنسبة واحدة فإن العاطفتين تتعادلان . وفى هذه الحالة يحصل أحد أمرين : فإما أن يسعى الولد فى الصلح بين الأبوين فيفلح ، وإما أن يقف موقف الحيران لا يدرى ماذا يصنع .

العاطفة المقهورة والعاطفة المكبوتة :

تسمى العاطفة التى تخضع لغيرها خضوعا وقتيا عاطفة مقهورة ؛ كما إذا فرضنا شخصا مولعا بجمع المال ، ومحبا لشخص من الأشخاص ، ولكن شغفه بالأول أشد من شغفه بالثانى ، وفرضنا أن الظروف ألجأته إلى الخضوع لعاطفة حب المال ، وإهمال عاطفة محبة ذلك الشخص ، فإن هذه تسمى عاطفة مقهورة لا تلبث أن تظهر فى وقت آخر ، عند سنوح الفرصة المناسبة .

أما العواطف التى تحول الظروف والقوانين الاجتماعية دون إرضائها بحال من الأحوال فإنها تسمى مكبوتة ؛ كما هى الحال فيمن تكونت عنده عاطفة محبة العدل ، ولكنه يرى الظلم سائدا ، ولا تساعده أحواله على هدمه وإقامة العدل مكانه — وفيمن تكونت عنده عاطفة المحبة الجنسية ولا تساعده ظروفه المالية أو الاجتماعية على إرضائها — وفيمن تكونت عنده عاطفة الكراهة لشخص من الأشخاص ، ولم تمكنه الظروف ولا القوانين الاجتماعية من الانتقام منه — وفيمن تمكن من نفسه الذعر من شخص أو شىء مع عدم القدرة على مفارقته والبعد عنه — وهكذا .

فالذى يحصل فى مثل هذه الأحوال (كما يقول فرويد النمساوى) تكون عقدة [1] أى مجموعة من الوجدانات والرغبات ، مرتبطة بمتعلق العاطفة المكبوتة. ثم إن هذه العقدة تعظم بكثرة الأفكار والتجارب المقوية للعاطفة أو المانعة من ظهورها أو تصغر بقلتها . فإذا صغرت العقدة كان معنى ذلك ضعف العاطفة ، وقلة ضررها . وإذا عظمت صارت حياة صاحبها فى خطر ؛ لأن العاطفة القوية المكبوتة تسعى فى إرضاء رغبتها بجميع الوسائل الممكنة ، لاسيما إذا اشتد الضغط عليها ، فإن أفلحت فيها وإلا انفجرت وسببت أمراضا عصبية تسمى بالأمراض (الباثولوجية) . ويقول فرويد هذا إن الناحية اللاشعورية من العقل مكونة على الأخص من وجدانات وعواطف ورغبات شخصية مكبوتة لم يسمح لها النظام الاجتماعى بالظهور ، فكمنت فى قرارة النفس أى (العقل الباطن) ، حتى إذا ماسنحت لها الفرصة ظهرت بصورة مشوهة — كما يحصل

(1) Complex

فى الأحلام — وإلا ثارت ثوران البركان ، فهدمت كيان الحياة العقلية وزلزلت أركانها .

أثر العواطف فى الحكم الخلقى :

الحكم الخلقى هو استحسان أعمال واستقباح أخرى أى الحكم على أعمالنا أو أعمال غيرنا بأنها حسنة أو قبيحة .

ومن المشاهد أن للعواطف الحسية على الأخص دخلا كبيرا فى الحكم الخلقى ؛ إذ أنها تجعل الإنسان يصدر أحكاما خلقية لمصلحته الشخصية ، أو لمصلحة متعلق عواطفه ، وتعميه عن سيئات أحبابه ، وحسنات أعدائه ،لأن الانفعالات التى تحمله على الاستحسان تتغلب فى الحالة الأولى ، فى حين أن تلك التى تحمله على الاستقباح تتغلب فى الثانية .

أما العواطف المعنوية كمحبة العدل أو الحق أو الشجاعة الأدبية ، أو بغض الخداع والمواربة ، وكذلك العاطفة الخلقية على الأخص – فإنها إذا قويت تحملنا على إصدار الأحكام الخلقية الصحيحة فى ذاتها بدون تحيز ولا تهاون .

فالعواطف المعنوية وعلى رأسها العاطفة الخلقية تعتبر أساسا لحياة الإنسان ومبادئه الخلقية ، التى تنشأ عنها الأحكام الخلقية المهذبة الخالية من شوائب التحيز سواء أكان المحكوم عليه أعمال النفس أو الغير .

وإن للبيئة الاجتماعية أعظم أثر وأكبر نفوذ فى تكوين العواطف المعنوية ، ونمو العاطفة الخلقية . فالبيئة الاجتماعية إذاً هى أقوى العوامل وأولها تأثيرا فى حياة الإنسان الخلقية ، فكمال هذه يتوقف على كمال تلك .

الـكلام على بعض العواطف

الآن نريد أن نتصدى لبعض العواطف الهامة فنحللها ، ونبين كيف تنمو، ونذكر وسائل تنميتها وتربيتها مع شيء من التفصيل. ولنختر من العواطف الحسية عاطفة احترام النفس ، ومن العواطف المعنوية العاطفة الفكرية ، وعاطفة محبة الجمال ، والعاطفة الخلقية . فإليك البيان : —

عاطفة احترام النفس

إن وجهة نظر كل منا نحو نفسه تختلف باختلاف أعماله التي تصدر عنه ، وأقواله التي يفوه بها ؛ فهو تارة يحترم نفسه ويقدسها ، وأخرى يحتقرها ويزدريها . فأنت إذا عملت عملا صالحا تسر له ، وتحمد نفسك عليه . وإذا ارتكبت منكرا وبخك ضميرك ، وأنبتك نفسك على ما اقترفت .

ولكن رغم هذا الاختلاف فى تقديس النفس نجد أن كل شخص تقريبا يحب نفسه ، ويفضلها على غيرها ، ويلتمس لها المعاذير مهما أتت من زلات ، وينظر إليها نظرة احترام خاصة مهما ارتكبت من هفوات . وهو فى ذلك كله خاضع لعاطفة خاصة تسمى العاطفة الذاتية ، أو عاطفة احترام النفس .

وهذه العاطفة — مثل غيرها من العواطف — تستند إلى انفعالات متعددة تظهر فى ظروف مختلفة أهمها : الفرح والاعتزاز بالنفس الذى يشعر

به الإنسان حينما يرضى عن نفسه ، ويشعر أنه قد عمل عملا أو قال قولا يحمد عليه . وكذلك قد تكون هذه العاطفة سببا فى تحسر صاحبها عند الخيبة وفى تألمه إذا استصغره الناس ، وجعلوه موضع سخريتهم .

مظاهر محبة النفس:

إن النفس بطبيعتها ميالة إلى تحقيق شخصيتها ، والمباهاة بنفسها ، وإثبات وجودها ، وتعزيز نفسها أمام غيرها . وهى تتبع فى الوصول إلى ذلك طرقا شتى أهمها ثلاث هى :

(١) محبة الحركة ، (٢) محبة الحرية ، (٣) محبة السيطرة والغلبة .

أما محبة الحركة فمرتبطة بالناحية النزوعية العملية من نواحى العقل أو بالنفس الفعالة التى تحاول أن تظهر مواهبها ، وتخرجها من عالم القوة إلى عالم الفعل ، أو من العالم الباطنى إلى الحياة العملية الخارجية . ولذا كانت أهم مظاهر العاطفة الذاتية .

وأما محبة الحرية فتظهر فى عهد الطفولة . وهى التى تجعل خضوع الطفل لأبويه ومعلميه من الأمور الشاقة ، وتحمله على الفرار من جو الاستعباد والتقيد بالقيود إلى جو الحرية حيث الهواء الطلق والمكان الفسيح الأرجاء .

ومحبة الحرية تنشأ عن محبة الحركة ؛ لأن المجال لا يتسع أمام الحركة الحرة التى بها تتحقق الشخصية الكاملة إلا إذا كان هناك استقلال وحرية ؛ فالشخص الذى يعمل حرا مستقلا طليقا ، خاليا من القيود التى تحجر على حريته يعمل بكامل شخصيته ، ويتوجه نحو عمله راغبا آمنا مطمئنا ، وينفسح

أمامه المجال ، فتظهر مواهبه فى ثيابها الحقيقيـة ، وتتجلى مقـدرته بأجلى مظاهرها ، ويكون الحـكم عليه أوله فى هذه الحالة أقرب إلى الحقيقة .

وأما محبة السيطرة والغلبة فتنشأ فى أحوال خاصة حينما يشعر الشخص بأن له مواهب خاصة تؤهله لأن يسيطر على غيره ، ويظهر تلك المواهب الخاصة التى بها تتحقق شخصيته بكامل معناها وأقوى مظاهرها .

ومن هذا يتبين لك أن أظهر غرض ترمى إليه عاطفة احترام النفس هو إظهار المواهب النفسية العملية ، وإعطاؤها الفرص الـكافية لظهورها ونموها إلى أقصى حد .

نشأة محبة النشاط والحركة :

إن الإنسان بطبيعته يحب النشاط والعمل بادئ ذى بدء إذا كان النشاط يؤدى إلى سرور أو يمنع ألما ؛ ذلك أن النزعات العملية القوية ، أو النشاط العصبى الفعال — الذى هو من مواهب الطفل والراشد من بنى الإنسان معا — إذا نال غايته ، ووصل إلى غرضه كان سببا فى سرور شديد . ومن المعروف أن كل نشاط قوى طليق ينال رغبته ويجلب لصاحبه سرورا ظاهرا يحدث نشوة طرب ، ويجعل الإنسان يشعر بالقوة النفسية . وإن ذلك الطرب ليقوى قوة ظاهرة إذا طرأت عقبات تتحدى قوى الإنسان العصبية أو العضلية ، ثم استطاع التغلب عليها . فهذا التغلب ذاته يزيد فى قوة المتغلب العصبية والعضلية . ثم إن هذا الشعور بالقوة المادية لا يلبث أن يتحول إلى شعور بالقوة المعنوية التى هى أرقى منزلة ، وذلك حينما ينتقل الإنسان من دور الطفولة إلى دور البـلوغ ،

فدور الرجولة حيث يستطيع بثاقب تفكيره، وحسن سلوكه أن يحصل على مزايا أدبية أو خلقية؛ فيقدر على الفكر الصحيح، ويستطيع الوصول إلى قرارات صائبة سديدة، والقيام بأعمال موفقة مكللة بالنجاح. وإن نجاحه هذا ليزيده سرورا إلى سرور، وقوة إلى قوة؛ فيقضى حياته وهو ينتقل من نجاح إلى نجاح، ومن قوة إلى قوة، حتى يبلغ ما قدر له من مناصب عالية، ومنازل راقية.

ونمو الشعور بالنفس، وقوته، وتحوله من المستوى الحسى إلى المستوى العقلى يتبع على العموم النمو العقلى العام، واتساع دائرة التجارب؛ فإن هذين يؤديان إلى نمو الفكر، واكتساب مبادئ قويمة جديدة، وأفكار واضحة صائبة عن قيم الرجال، وقيم أعمالهم وصفاتهم النفسية المختلفة. وكل ذلك مما يساعد الإنسان على أن تتكون لديه فكرة منظمة واضحة تنمو بالتدريج عن مقومات الشخصية الكاملة التى يجعلها له مثلا عاليا فى القوة الفكرية، أو فى المقدرة العملية، أو فى القدرة على معالجة المسائل الحيوية بجد ونشاط، أو فى عمل الخير ومساعدة الغير، واتباع السلوك الخلقى القويم. وبذلك ينتقل من طور التفكير فى النفس ومحبتها إلى طور التفكير فى المثل الأعلى والقدوة الحسنة، ومن دور المحبة الذاتية إلى دور احترام النفس.

وبنمو معنى «الذات» تنمو الوجدانات والانفعالات المتصلة بها، وتزداد عاطفة احترام النفس تعقدا وتركبا. ويزيد فى تعقدها ميل الإنسان إلى أن يدخل فى «تكوين» النفس ويضيف إلى عناصرها المكونة لها كل ما يملكه أو ينتمى إليه كملابسه وأملاكه وأهله وأصدقائه؛ فاحترامه لنفسه، ومحبته

لها يشملان احترامه لهؤلاء ومحبتهم . وهـذا هو السبب فى أنه يغضب إذا أصيب أحدهم بأذى، ويفرح إذا أصابه خير .

ومن حيث إن لمحبة النفس ثم احترامها آثارا حسنة فى سـلوك الإنسان نحو نفسه وأهله وأصدقائه فإننا نرى من الواجب على المربين أن يعودوا النشء محبة النفس، واحترامها والاعتداد بها .

احترام النفس والعناد :

إن الذى يغلو فى احترام نفسه لا يقبـل أن يكون لأحد سلطان أو كلمة أو يد عليه ، فإذا ظهر له أن أحدا يود التعرض له أو السيطرة عليه أخـذته الحمية ، واعتراه الغضب ، ووجد فى نفسه ميلا إلى المشاكسة والعناد أو — على الأقل — إلى الدفاع عن النفس ؛ لأنه يشعر أن فى التعدى عليـه إهانة لكرامته الشخصية ومعارضة لشعوره بالقوة الذاتية ، فيتجدد فى نفسه شعور بالضعف أو الضعة ، فلذلك يحاول أن يدافع عن نفسه ليسترد كرامته، ويستعيد قوته . فإذا أفلح فى دفاعه عاد إليه الشعور بالقوة والاعتزاز بالنفس، والسرور بزوال الذلة والصغار ، وعودة الكرامة الشخصية ، ورجوع منزلة النفس إلى ما كانت عليـه من قبـل . وإن لم يفلح فى دفاعه لازمه الغضب ولو بحالة لا شعورية ، وبجد فى نفسه من حين إلى آخر ميل للمعاداة والعناد والمشاكسة. فمعاداة الإنسان لغـيره ، وكراهته له كراهة دائمة ملحة دليـل على أن هناك شعورا قويا بنفسه واحتراما لها من ناحية ، وعلى أن هناك ذكريات كامنة فى أعماق النفس مرتبطة بتجارب قاسى فيها المرء الصـغار والذلة ، وعلى وجود

آمال قوية فى القضاء على هذه الذلة واستعادة الكرامة الشخصية من ناحية أخرى .

العناد والتربية :

قد رأيت أن العناد مظهر من مظاهر احترام النفس ، وأثر من آثاره . وهنا نقول إنه قد يجر وراءه انفعالات وعواطف تحول دون النظام العام ؛ فالشخص العنيد المشاكس يكون دائما شجا فى حلق المجتمع الذى يعيش فيه ، ومصدر شقاء لمن يختلطون به ، ولذا توصف الانفعالات والعواطف الملازمة للعناد بأنها « مضادة للمجتمع » . فيجب على التربية أن تخفف من وطأتها أو تقضى عليها .

ومن المضر أن نترك الطفل يغلو فى غضبه الشهوانى ، ويبالغ فى معارضته لغيره أو تحديه سلطة القوانين عليه . ومع ذلك نرى من الخطأ أن نعارض عاطفة احترام النفس بدون قيد ولا شرط ، أو نقضى على الانفعالات والعواطف « المضادة للمجتمع » قضاء تاما . بل نرى من الواجب المقدس أن يقدر المربون هذه الميول حق قدرها ، لأنها قد تساعد على تقوية الشخصية وتنمية صفات الرجولة ، وبذلك تصبح ضرورية لحياة الفرد ، بل حياة المجتمع على العموم ؛ فالطفل الذى لا يغضب إذا تعدى عليه غيره ربما لا يغضب إذا تعدى أحد على أهله وذويه ، أو على الحق والقانون . ومن يصل به الخمول والذلة والاستكانة إلى درجة أنه لا يتحرك إذا مس شرفه أذى يكون قليل القيمة لمجتمعه ، ولا يرجى منه خير لأمته إذا جد جدها ، وأصبحت فى حاجة إلى المجاهدين

العاملين الذين يغضبون لشرفهم وشرف وطنهم .

فمحبة النفس وما يتبعها من الانفعالات — لا سيما الغضب للشرف — من الميول الطبيعية التي يجب على المربين تشجيعها بعزم ، وحزم ، وحكمة ، وتحويلها إلى عاطفة متينة صالحة .

وكما أنه من الواجب على المربين أن يدرسوا ميول كل طفل على حدة دراسة وافية كذلك يجب عليهم أن يعرفوا أسباب جموحه ونفوره من بعض الأشخاص أو الأشياء ؛ فلعل ذلك يرشدهم إلى أمراض خلقية أو عصبية من الواجب علاجها . ويجب أن يضع المربى نصب عينيه أن للمتربى شخصية من الضرورى الاعتراف بها واحترامها ، فإذا غابت هذه الشخصية عن الأفق فليبحث عنها ، وليخرجها من حيز الخفاء إلى حيز الظهور بأى وسيلة ممكنة ، حتى إذا ماظهرت قواها بحكمة . فليس من حقوق المربى أن يضغط على شخصية المتربى ويحجر عليها أو يهزمها أمام شخصيته ، ولكن من الواجب عليه أن يهذب من سلوكه ويجنبه العجب والكبرياء والغطرسة وحب الظهور الكاذب ، والميل إلى السيطرة الخارجة عن حدها . وإذا عاقبه على إثم اقترفه فليس له أن يظهر بمظهر المنتقم الجبار الذى يريد أن يقتص من الطفل ، وينتزع نفسه من بين جنبيه ، ويسلبه شخصيته التى هى حق من حقوقه المقدسة ، ولكن عليه أن يذكر دائما أن الغرض من العقوبة هو إصلاح حال المذنب قبل كل شىء ، وذلك لا يكون إلا إذا كانت عادلة ملاءمة للذنب وللمذنب معا ، خالية من جميع الاعتبارات الشخصية ؛ حتى يشعر المعاقب بعد إيقاع العقوبة عليه أن له نفسا قادرة على إصلاح نفسها ، وأن لديه شيئا من الأمل فى هذا الإصلاح .

العاطفة الفكرية

تشمل هـذه العاطفة : (١) حب العـلم ، (٢) حب الحق ؛ إذ هى تحمل الإنسان على (ا) جمع العلوم والمعارف وربط بعضها ببعض . وهذا ينشأ عن محبة العلم . (ب) قول الحق والمطالبة به ، والدفاع عنه . وهذه تنشأ عن محبة الحق . وهاك الـكلام على كل من هذين :

(١) محبة العلم :

هذه عاطفة من العواطف المعنوية التى يتوقف نموها على كثرة التجارب ؛ فالإنسان لا يحب العلم إلا إذا ذاق طعمه ، وشعر بالسرور عند الحصول عليه ، وبالفرح عنـد القبض على ناصيته . ومحبة العلم تستدعى بالطبع كراهة الجهل الذى يجعل المرء يشعر بالخجل والخزى والحيرة فى المواقف المؤلمة الصعبة ، التى تتطلب العلم والمعرفة . فالتألم للجهل يزيد فى مقدار السرور بالمعرفة .

ونقص المعرفة أو قلتها مثل الجهل فى هذا الصدد . والإنسان يشعر بقصوره وقلة معرفته حينما تصدمه الحقائق ، ويصبح أمام أمر واقعى علمى ، ولا يستطيع التغلب على ما يصادفه من الصعوبات ، فحينئذ يقـدر العلم حق قدره ، ويسعى فى طلبه حتى إذا ما حصل عليـه فرح وحرص عليـه . وبهذه الوسيلة تقوى عاطفة محبة العلم عنده .

فالجهل أو الشعور بالحاجة إلى المعرفة هو الأساس الذى تبنى عليه عاطفة محبة المعرفة .

والدافع الطبيعى الغرزى الذى يدفع الإنسان إلى اكتساب هذه العاطفة هو غريزة حب الاطلاع المصحوبة بانفعال العَجَب . فالإنسان يعجب إذا رأى أمرا غريبا عليه ، أو عجيبا لا عهد له به ، ولا يفهمه تمام الفهم ، وحينئذ يتحرك فى نفسه ميل نحو العلم بهذا الغريب فيقدم عليه ، فإذا عرفه شعر بسرور وقوة معنوية يدفعانه إلى مواصلة العمل .

فحب الاطلاع إذًا ينشأ عن العجَب والاستغراب ، على شريطة ألا يصير انفعالا أجوف ، وألا يكون غاية مقصودة لا وسيلة للبحث . فالتعجب فى ذاته غير محمود ، بل إنه قد يحول بين الطفل واكتساب المعرفة . ومن الضرورى ملاحظة ذلك فى التربية حتى لا ندع الأطفال غارقين فى بحار التعجب والاستغراب ، بل نمدهم بما يثير التعجب فى أنفسهم من ناحية ، ونحملهم على البحث وكسب العلم من ناحية أخرى .

ومن الواجب أن نلفت نظرك إلى الفرق بين التعجب الأجوف والحيرة ؛ فالتعجب الأجوف قد يكون مبطلا للحركة الفكرية ، مانعا من الرغبة فى الاطلاع . أما الحيرة فتتضمن أن حب الاطلاع فى حالة يقظة ، وأن مساعى جدية تبذل للوصول إلى الحقيقة ، والتغلب على ذلك الشىء الغريب . فالعوائق التى تعترض الإنسان عند الحيرة ترغمه على بذل مجهود كاف للتغلب عليها إذا كان ذلك من المستطاع ، وإلا بأن كان التغلب عليها فوق طاقة الإنسان — أصبح عاجزا عن مواصلة السير ، وانقطعت سلسلة المساعى المبذولة . وربما يكون ذلك سببا فى ضعف الرغبة فى المعرفة ، وعدم نمو عاطفة محبة العلم .

فالواجب أن نذلل الصعوبات أمام المتعلمين حتى لا يزهدوا فى العلم ، ولا يملوا التعلم . ومع هذا لا ينبغى أن نبالغ فى ذلك فنجعل العلم لقمة سائغة يبتلعها المتعلم ابتلاعا ، بل من الضرورى أن نرغمه على بذل المجهود فى سبيل البحث والوصول إلى الحقائق بنفسه ؛ لأنه إذا وصل إليها بمجهوده ومساعيه الشخصية كان أحرص عليها ، وكان لهـا معنى فى نفسه ، وازداد سروره بالحصول عليها. ومن ذلك يظهر لك أن بذل المجهود مما يزيد فى السرور بالعلم ، ويقوى عاطفة محبة المعرفة . وهناك أمر آخر يزيد فى سرور المرء بالعلم ؛ ذلك هو : « ربط المعلومات الجديدة بالقديمة » ؛ لأن الإنسان إذا علم أن للمعلومات الجديدة نظائر بين المعلومات القديمة ، وإذا أدرك أن هذه تزيد فى وضوح تلك ، وتلقى نورا وضاء جديدا عليها سر لذلك أيما سرور ، وشعر بأن عقله فى نمو مستمر ، وبأن قوته العلمية سائرة فى طريق التقدم .

فإذا أردنا أن نؤدى الواجب علينا نحو نمو عاطفة محبة العلم فى نفوس المتعلمين فعلينا : —

(١) أن نشعرهم بالجهل.

(٢) أن نقنعهم بالحاجة إلى المعرفة لما لها من فوائد عملية .

(٣) أن نرغمهم على بذل مجهود معتدل فى سبيل التعلم .

(٤) أن نربط معلوماتهم الجديدة بمعلوماتهم القديمة .

(٥) أن نقرن جمع العلوم والحصول عليها بالفرح والسرور .

(٦) أن نوجد فى نفوس المتعلمين رغبة صادقة فى الحصول على العلم لذاته .

(٢) محبة الحق :

تعتبر عاطفة محبة الحق وليدة عاطفة محبة المعرفة من ناحية، ومقوية لها من ناحية أخرى . فالإنسان بعد أن يصل إلى الحقائق وينظمها يحرص عليها ، ويستمسك بها ، ويقدسها ، ويحاول أن يختبرها ويدرك مغزاها ، ويعرف مبلغ الانتفاع بها فى التجارب العملية . وإذا اقتنع بصحتها حلت لديه محل العقائد الحية الثابتة التى يجب الدفاع عنها ، وحمل غيره من الناس على اعتناقها بجميع الوسائل المستطاعة .

وبعد أن يتذوق معنى الحق ويدرك ماله من روعة وعظمة يسعى فى زيادة ماعنده من معلومات، فتقوى فى نفسه عاطفة محبة المعرفة.

وإن عاطفة محبة الحق لتبلغ أشدها حينما يحافظ الإنسان على الحق المقدس، ويدافع عنه دفاع الأبطال ، ويأبى أن يتلاعب به أحد أو يمسه بسوء ، ويكره كراهية لاهوادة فيها كل شىء يحرض على الباطل كالمحاباة والتحيز الأعمى ، وعدم الدقة فى الفكر أو فى التعبير ، ويفحص بكل قواه العقلية عن كل مايسمع أو يقرأ ، ويمحصه ويزنه بمعيار العقل والحكمة ، بدلا من أن يأخذه قضية مسلمة .

وإنك لترى مع ذلك أن محب الحق صريح ، مستعد لقبول الآراء الجديدة التى تحمل معها برهانها ـ ولو ناقضت آراءه القديمة الشخصية ـ رحب الصدر فى الجدال والمناقشة ، ميال إلى الوصول إلى الحق أيا كان قائله .

ومن أجلى مظاهر محبة الحق الحرص الشديد عند إصدار الأحكام على

أقوال الناس وأفعالهم ، فمحب الحق ينقد أقوال الناس وأفعالهم نقدا منطقيا صحيحا خاليا من شوائب التحيز والمحاباة والأحقاد والاعتبارات الشخصية ، معتمدا اعتمادا كليا على فحص أدلة الإثبات وأدلة النقض معا ، والموازنة بينهما ، والتفرقة بين الغث والسمين منهما .

ولا ريب أن من يكون هذا دأبه ، وتلك عادته تقوى عاطفة محبة الحق فى نفسه، وتصير غايتها الوحدة الوصول إلى الحقيقة لذاتها .

تربية معرفة الحق :

إن الولد الذى ينشأ فى بيئة تحب الحق وتحافظ عليه وتدافع عنه ينشأ محبا للحق أيضا ؛ فإذا كان أبواه فى البيت ومعلموه فى المدرسة ، وأولو الأمر وغيرهم من أفراد المجتمع الذى يعيش فيه يقدرون الحق حق قدره كان لذلك لاشك - أثر فى نفسه؛ فالقدوة الحسنة أكبر عامل من عوامل تربية هذه العاطفة . ولا ريب أن قراءة سير الأبطال الذين أبلوا بلاء حسنا فى سبيل الحق والصراحة فى القول ، وفى الدفاع عن آرائهم تبعث فى نفوس المتعلمين محبة الحق أيضا . ومما يقوى هذه العاطفة كثرة الاطلاع والبحث والنقد وغزارة المعلومات ، والدقة فى حل المسائل الرياضية ، وفى الألفاظ والتعبيرات وغيرها من الأعمال المدرسية . وفوق ذلك كله نرى أن تعويد المتربين التمسك بالحق حتى من عهد الصغر من خير مايستعين به المربون على غرس هذه العاطفة فى نفوس المتعلمين .

ونستطيع أن نقول على وجه العموم إن محبة العلم أو الحق فضيلة أو

عادة حسنة ، فإذا أردنا غرسها فى نفوس الناشئين فمن الواجب اتباع قوانين غرس الفضائل وبث العادات الصالحة المعروفة (١).

عاطفة محبة الجمال

إننا لو بحثنا عن الأشياء التى توصف بأنها جميلة لوجدناها كثيرة متنوعة ؛ فهى تشمل أشياء طبيعية متباينة؛ كالأزهار وسلاسل الجبال، وخرير الماء وعليل الهواء، ومنتجات فنية متفاوتة؛ كالمساجد والمعابد، والصور والتماثيل، والأشعار وأنواع الموسيقا، ومعانى جميلة؛ كالأخيلة العذبة، والأفكار المتسقة، والأخلاق الطاهرة .

وعاطفة محبة الجمال أكبر مصدر لمسراتنا وملذاتنا اليومية ؛ فإننا نسمى الشىء جميلا إذا كان يثير فى أنفسنا إعجابا يصحبه سرور واضح .

وكثيرا ما يكون من تمكنت فى نفسه هذه العاطفة عرضة للتألم ، وذلك عند مايقع حسه على مناظر أو أشياء قبيحة ، أوعند مايسمع أقوالا فاحشة، أو يعثر على آراء وأفكار مستهجنة .

فهذه العاطفة كما تكون مصدر سعادة وسرور كذلك تكون منبع شقاء وألم .

ومن أخص خواص العاطفة الجمالية أنها تحمل صاحبها على الهدوء والسكينة؛ فأنت حينما تتأمل صورة جميلة أو تمثالا حسنا أو زهرة لطيفة الألوان تشعر

(١) راجع الجزء الأول من هذا الكتاب ص ١٨٤ .

بهدوء واطمئنان وراحة نفسية . وإذا أصغيت إلى قطعة شعرية أو نثرية بديعة الخيال، حسنة التنسيق ، لطيفة الإيقاع فإنك تجذب نحوها، وتتجرد من جميع الشواغل والخواطر الهائجة المقلقة .

نعم إننا قد تأخذنا نشوة الطرب وحدة الانفعال حينما نسمع قطعة أونغمة موسيقية لذيذة تذكرنا بحوادث ماضية سارة أومؤلمة . ولكن الغالب أن تأمل الجميل فى ذاته يبعث فى النفس نشوة هادئة وراحة عامة ، فإذا صحب ذلك تهيج أو انفعال حاد فالغالب أن ذلك يرجع إلى تذكر حوادث ماضية كانت سببا فى سرور أو ألم .

وإننا لنلاحظ بجانب الهدوء الذى يصحب تأمل الجميل أن النشاط العصبى لايتوجه إلى المعرفة أوالناحية الإدراكية ، وإنما يتوجه إلى الناحية الوجدانية . ويكون النشاط فى هذه الحالة نشاطا انبعاثيا ليست له غاية خارجية غير إطالة ذلك التأمل اللذيذ. فليس للناحية النزوعية أثر كبير فى عاطفة محبة الجمال؛ فالإنسان عند تأمل الجميل لا يقوم بحركة تستحق الذكر ، غير أنه يقترب من الجميل ويفحص عنه، أو يقربه إليه أو يضعه بجانبه .

والبصر والسمع أهم الوسائل الحسية لحدوث الحالة السارة التى يشعر بها الإنسان عند تأمل الجميل ؛ فالإنسان يدرك جمال المادة والصورة بإدراكهما إدراكا حسيا، وتوجيه النشاط العصبى إلى النواحى السارة منهما كاللون والشكل والنظام والنغمة وهكذا. وقد يكون الخيال من وسائل اللذة الجمالية ؛ فإذا سمع الإنسان قطعة شعرية خيالية رقيقة رشيقة فتخيل مدلولها كان ذلك سببا فى الشعور باللذة الجمالية . وكثيرا ما يكون الإدراك المحض من وسائل اللذة الجمالية كالتفكير فى المبادئ

القوية ، والأخلاق الطاهرة ، والسلوك الحسن المستقيم .

فالعناصر التي تحدث السرور الجمالي إما حسية وإما معنوية :

فالحسية كالألوان والأشكال والنغمات ، فإنها على اختلافها في القوة والنوع مصدر كثير من اللذة والسرور الجمالي بتأثيرها تأثيرا حسنا في المخ بوساطة الحواس وأعصاب الحس . ومن العناصر الحسية حسن تنسيق الأشياء وتلاؤم أوضاعها ، واتصال بعضها ببعض اتصالا ذوقيا فنيا ؛ فأنت إذا نظرت إلى صورة جميلة لا تدرك جمالها ممثلا في شكلها وألوانها فحسب ، ولكنك تنظر إلى تنسيق الألوان وحسن اختيارها قوة ونوعا ، وجمال تنظيمها ، ودقة وضعها . وإذا سمعت قطعة موسيقية فإنك لا تقدرها حق قدرها إلا إذا اعتبرتها كلا لا يتجزأ ، وتبينت أثر كل عنصر من عناصرها في غيره وفي القطعة كلها ، وأدركت توالى النغمات وتواردها على السمع بطريقة تدريجية جذابة خلابة داعية إلى الانتباه . ولعل السرور الذي ينشأ عن إدراك جمال هذه المحسات وأمثالها راجع إلى أنها جذابة تحمل على الانتباه ، خالية من العناصر المنفرة .

والعناصر المعنوية تشمل نشاط الخيال والفكر ؛ فالخيال يلعب دوره بابتداع الصور الطريفة ، وابتكار المناظر الأنيقة ، وكذلك « بتشخيص الأشياء » أي تنزيلها منزلة الأشخاص ، كما إذا تخيلت أن إحدى المنارات شخص مرتفع القامة ، أو أن الماء ينساب انسياب الأفعى ، أو أن الريح تهتف أو تزمجر ، أو أن البحر يثور أو يزأر . وللتفكير دخل كبير في إدراك الجمال والاستمتاع به كما سبق .

نشأة عاطفة الجمال ونموها : —

إن هذه العاطفة — مثل غيرها من العواطف — لا تنشأ ولا تنمو إلا إذا كانت هناك بيئة وظروف ملائمة لها ؛ وهى لا تبلغ أعلى درجاتها وأرقاها إلا فى العصر الأخير من عصور الحياة — عصر الرجولة . وهذا ينطبق على الفرد والنوع معا . فقدرة الطفل فى حياته الأولى على تقدير الجمال محدودة جدا ، واستعداده للاستمتاع به ليس بالطبع كاستعداد الراشد . وباتساع مداركه ، وكثرة تجاربه ، وحسن تربيته تزداد مقدرته على تقدير الجمال ، وتقوى فى نفسه العاطفة الجمالية .

والظاهر أن لنمو هذه العاطفة ثلاث مراحل هى : —

(١) مرحلة الإحساسات المنعزلة : — وفيها يلتذ الوليد رؤية الألوان وسماع الأصوات . ومن أسبق المحسات إلى جلب انتباهه وإثارة وجدانه الجمالى الألوان البراقة والأصوات العذبة ؛ فقد حكى أن طفلا سنه ثلاثة أسابيع كان ينظر بشوق وغبطة وسرور إلى إحدى الستائر الملونة باللون الأحمر الوردى ، وأن آخر لم تتجاوز سنه سبعة أسابيع كان يولع ببعض الأشياء الملونة باللون الذهبى ، وأن ثالثا سنه تسعة وعشرون يوما كان يحب التوقيع الموسيقى إذا لم يكن عالى الصوت . وقد لوحظ أن سرور الأطفال على العموم بالألوان البراقة يزداد إذا كانت متحركة .

(٢) مرحلة الإدراك الحسى أو إدراك الصور : وفيها يتجه ذهن

الطفل إلى الشيء الجميل ، وينظر إليه باعتباره كلا لايتجزأ . ويعتبر تقدير النغمات باكورة تقدير الشكل أو الصورة العامة ، ثم بعد ذلك يأتى إدراك جمال النسب المكانية أو الضوئية أو الزمنية ، ثم انسجام الألوان والأشكال واتساقها .

وحينما ينمو عقل الغلام ، وتغزر معلوماته ينتقل إلى المرحلة الثالثة التي هى :—

(٣) مرحلة المعانى : وفيها تقل عناية الشاب بالألوان والأشكال ، ويتوجه ذهنه نحو معانى الأشياء الجميلة ، ويتخذها رموزا لأشياء تثير عواطفه ، وتهيج انفعالاته ؛ فهو إذا رأى صورة من الصور لا يقتصر تقديره لها على إدراك ما فى شكلها وألوانها من جمال ، ولكنه يذهب أبعد من ذلك ، فقد تذكره الصورة بتجارب وقعت له ، أو بحادثة قرأ عنها ، أو بصورة أخرى رآها من قبل ، أو بحقائق تعلمها . وإذا رأى زهرة من الأزهار تخيل فيها جمال الريف وهدوءه ، وسذاجة أهله ، واتساع أفقه ، وطيب أريجه . ومعنى ذلك أنه ينتزع مما يرى معانى وأخيلة تروقه ، وتقع لديه موقعا حسنا — ولو كانت الألوان غير زاهية ، والأشكال غير منسقة ؛ لأنه ينتقل بعقله من عالم الحس إلى عالم المعنى ، وهناك يجد المجال فسيحا ، والطرق متشعبة ، فيختار أحدها مسرحا لخياله ، وفق ما تملى عليه تجاربه ومعلوماته .

فإذا كان عالما مولعا بعالم العلم عنى بصورة الورد مثلا ، وبمنافعها ، وقصر عمرها ، وبأجزائها وعلاقة بعضها ببعض ، وبوظيفة كل جزء وفائدته للكل . وإن كان مشغوفا بالفن أعجب بألوانها ، وتنسيقها ، وحسن شكلها ، وحسن موقعها بالنسبة لغيرها . وإن تمكن من نفسه الخيال الشعرى رأى فيها غذاء للروح الإنسانية ، وحياة للنفس التعبة ، وراحة للعقل المكدود ، واتخذ

اهتزازاتها دليلا على طربها وفرحها لمداعبة الريح لها ، وعزا نضرتها ورونقها إلى سرورها بهدوء الجو ، وصفاء الهواء ، وجمال البيئة المحيطة بها .

تطور الحكم الجمالى : —

(١) إن الطفل عند إصدار حكم من الأحكام الجمالية يكون فى أول الأمر متأثرا بعواطفه وميوله الذاتية ؛ فهو يعد الزهرة مثلا جميلة لأنها تسره ، وإذا قال إنها جميلة أراد بذلك أن منظرها أو لونها سار له .

(٢) بعد ذلك يلاحظ الطفل أن الناس يحبون بعض الأشياء ، ويعدونها جميلة فيتأثر بآرائهـم ومذاهبهم ، فإذا حكم على شىء بأنه جميل أراد بذلك أنه منبع لذة وسرور له ولغيره ؛ فهو فى هذه المرحلة اجتماعى يعد ما يسره ويسر أفراد مجتمعه جميلا ، ويسمى ما يؤلمه ويؤلمهم قبيحا ، بعـد أن كان فى المرحلة الأولى محبا لنفسه يعد مايسره هو جميلا وأن أغضب غيره ، ومايغضبه ويؤلمه قبيحا وإن سر غيره وأعجبه .

(٣) وفى المرحلة الثالثة التى هى أرقى المراحل يتوجه انتباه الشاب إلى أسباب الجمال أى إلى الصفات التى تكسب الأشياء جمالا ؛ فهو يقول إن هذا جميل لأن ألوانه متسقة ، وشكله منسجم ، وذلك قبيح لأنه مضطرب الألوان ، مهوش المنظر ، غير متلائم الأوضاع . وحينئذ تأخذ قدرته الحقيقية على تقدير الجمال فى النمو ، فيظهر ذوقه الخاص به واضحا جليا .

العاطفة الخلقية

إن كل شخص عادى مثقف إلى حد ما يعرف أن هناك أعمالا توصف بأنها حسنة أو صواب ، وأخرى توصف بأنها قبيحة أو خطأ . ويعلم أن الناس على العموم يحمدون صاحب الأعمال الحسنة ، ويذمون فاعل الأعمال السيئة .

فليس هناك خلاف فى أن هناك أعمالا حسنة وأخرى قبيحة ، ولا فى أن الناس يحمدون الحسن ويذمون القبيح ، وإنما الخلاف فى تحديد معنى الحسن والقبح ، وفى تحديد المقياس الذى تقاس به الأعمال ، ويعرف به حسنها من قبيحها ، وصوابها من خطئها ؛ إذ ليس هناك نظام خلقى واحد ، ولا مقياس خلقى اتفقت عليه جميع الشعوب والأفراد فى جميع العصور .

وليس مما يعنينا هنا البحث فى معنى السلوك الحسن أو القبيح ، ولا بيان المقاييس أو المذاهب الخلقية المختلفة ، والمفاضلة بينها ، وإرجاعها إلى أصولها الفلسفية ، فهذه مسائل يبحث عنها فى علم الأخلاق والفلسفة الأخلاقية . وإنما يهمنا كثيرا أن نقول إن كل فرد عادى يشعر بأنه ينبغى له أن يعمل أعمالا ، ويترك أخرى ؛ أى أنه يشعر من نفسه بأن بعض الأعمال حسن ينبغى أن يعمل ، وبعضها قبيح ينبغى أن يترك ، وأنه إذا فعل الأولى اعتقد أنه قد سلك السلوك الحسن ، وإذا فعل الثانية اعتقد أنه قد سلك مسلكا قبيحا . وقد يصل إلى منزلة خلقية راقية فيشعر بالسرور عند فعل الحسن ، وبالألم عند فعل القبيح ، وبالرضا إذا رأى غيره يفعل الصواب ، وبالغضب إذا رآه يرتكب الخطأ .

فهذه المنزلة الخلقيـة الراقية هى منزلة العاطفة الخلقية التى تحمل صاحبها على فعل الحسن، وترك القبيح، وتؤدى إلى ظهور انفعالات خاصة فى ظروف مختلفة؛ فمن عنده عاطفة خلقية يسر إذا فعل الحسن، أو رأى غـيره يفعله، ويحزن إذا فعل القبيح أو رأى غيره يفعله، ويغضب إذا رأى أحدا يتمادى فى الضلال والباطل، ويرضى وتطمئن نفسه إذا لاحظ نفسه أو غـيره يعود إلى الصواب، ويرجع إلى الحسن، ويتجنب القبيح.

ونستطيع تحت ضوء ماذكرنا أن نعـرف العاطفة الخلقية بأنها: صـفة نفسية وجدانيـة ثابتة ينشأ عنها استحسان أعمال واستقباح أخرى نعملها أو يعملها غيرنا، وتحملنا على اتباع الحسن والحث عليه، وتجنب القبيح والنهى عنه. فهى إذًا مرتبطة بنوع خاص من السلوك هو السلوك الخلقى الذى يمكن الحكم عليه بالحسن أو القبح.

وتمتاز العاطفة الخلقية بارتباطها بالسلوك، كما تمتاز العاطفة الفكرية بارتباطها بعالم الأفـكار والآراء، والعاطفة الجمالية بارتباطها بعالم الجمال. وبعبارة أخرى نقول إن العاطفة الخلقية تدعو إلى العمل، وتحث على السعى لمصلحة الفــرد والمجتمع، وإن العاطفة الفكرية تحمل على التحقيق والبحث الفلسفى الفكرى، وإن العاطفة الجمالية تحمل على مجرد تقدير الجمال، والشعور بالسرور عند مشاهدة الجميل، وإن كانت تحمل على محاكاة الجميل والابتكار الفنى بصفة ثانوية.

وتعتبر العاطفة الخلقية أهم من أختيها من الناحية الاجتماعية، وليس أدل على ذلك من أن المربين يجعلون بثها فى نفوس المتربين من أهم أغراض التربية، إن لم تكن أهمها، وأن نظام الأسرة والمدرسـة والمجتمع العام متوقف على

وجودها ، وأن القوانين السماوية والوضعية ترمى إلى غرسها فى نفوس الأفراد، وأننا لو فرضنا وجودها وجودا حقيقيا فعالا فى نفس كل فرد لم يكن هناك مبرر لقيام الحكومات ووضع القوانين .

والعاطفة الخلقية أقوى العواطف وأشدها تعقداوتركبا ؛ إذهى تتضمن جميع العواطف الحسية والمعنوية الراقية ؛ فمن تمكنت فى نفسه هذه العاطفة يحب والديه ، ويحب بيته الذى يأوى إليه ، ويحب وطنه الذى يعيش تحت سمائه ، ويحب النوع الإنسانى الذى هو فرد من أفراده ، ويحب الحق ويدافع عنه ، ويحب النظام والنشاط ، ويعشق كل ماهو جميل منسق منسجم .

وهنا نتساءل : لماذا لاتعد عاطفة محبة الوالدين مثلا عاطفة خلقية؟ وجوابا عن هذانقول إن علماء النفس قد اختلفوا فى ذلك ؛ فمعظمهم على أننا لانسمى كل عاطفة ينشأ عنها فعل الحسن عاطفة خلقية ؛ فالشخص الذى يحترم والديه لأنه يحبهما فقط ليس متأثرا بالعاطفة الخلقية ، وإنما هو متأثر بعاطفة محبة الوالدين . أما ذلك الذى يحترمهما لأنه يشعر من نفسه بوجوب احترامهما ، ولأنه يعد احترامهما من الأعمال الحسنة التى ينبغى عملها فإنه يكون متأثرا بالعاطفة الخلقية [1] . فهؤلاء يشترطون الشعور بالوجوب لتحقق العاطفة

---

(١) قد اختلف علماء الأخلاق فى أيهما أفضل وأقوم أخلاقا ذلك الذى تصدر أعماله الحسنة عن العاطفة الخلقية أم الذى تصدر أخلاقه الحسنة عن غيرها من العواطف . فقدكان إمانويل كانت الألمانى وأتباعه لايقدرون من الأعمال الحسنة إلا ما كان صادرا عن العاطفة الخلقية . أما شلر الشاعر الفيلسوف الألمانى وأتباعه فكانوا يرون ذلك . وكثير من الناس يوافقونهم على رأيهم فلأن يحسن المرء إلى أبويه لأنه يحبهما أفضل من أن يعمل ذلك لأنه يعد الإحسان إليهما واجبا يحسن القيام به . ولاشك أن الجمع بين الأمرين أتم وأكمل .

الخلقية . ويرى بعضهم كالأستاذ مكدوجل[1] أن كل عاطفة معنوية راقية تعتبر عاطفة خلقية؛ فعاطفة محبة الحق أو عاطفة محبة الجمال تعد فى نظره عاطفة خلقية . وهذا الفريق يرى أن هناك عواطف خلقية متعددة . أما الفريق الأول فيرى أن هناك عاطفة خلقية واحدة هى تلك التى ينشأ عنها الاستحسان أو الاستقباح ، وعمل الحسن لأنه من الواجب عمله ، وترك القبيح لأنه من الواجب تجنبه .

منشأ العاطفة الخلقية :

من المباحث النفسية الهامة التى شغلت قدماء الباحثين ومحدثيهم البحث فى منشأ العاطفة الخلقية ، أو ما يسمى أحيانا بالضمير ، أو بالشعور بالواجب ، أو بمحبة الحسن من الأعمال . فقد تساءل هؤلاء أطبيعية فطرية هى ، أم مكتسبة بالتربية والتجارب ؟

وقد كان العلماء قديما يميلون إلى اعتبارها نزعة ساذجة طبيعية مغروسة فى الفطرة الإنسانية غرسا . وقد اعترفوا بعظم سيطرتها ، وكبر نفوذها على العقل ، وتأثيرها فى النفوس . وقالوا إنه ليس للتربية فيها أثر يذكر . وبرهنوا على ذلك بأدلة منها :

(١) أن حكمنا على الأعمال بالحسن أو القبح حكم مباشر عاجل، لا تأجيل فيه ولا إمهال ولا تردد ؛ فلسنا فى حاجة إلى تردد أو بحث عن الأسباب

(1) See his : "Introduction to Social" Psychology, ch. VIII.

والعلل المساعدة أو المضادة قبل أن نصدر حكمنا باستحسان الصدق والأمانة، واستقباح الكذب والخيانة والسرقة والقتل وما إليها، بل إننا نستحسن أشياء ونستقبح أخرى بسرعة، كما نحكم بأن النهار مضىء والليل مظلم، وبأن الجو حار أو بارد، وبأن شيئا من الأشياء ثقيل أو خفيف؛ فهذه كلها أحكام بدهية، ناشئة عن استعداد فطرى ليس فى حاجة إلى التعلم.

(٢) أن هـذه العاطفة استعداد خلقى عام يشاهد فى جميع أفراد النوع الإنسانى. وهذا مطابق لما قاله شيشرون الفيلسوف الرومانى الشهير: «إن هناك قانونا أساسيا واحدا ثابتا أدبيا شاملا لكل شىء يوافق العقل والطبيعة ويحملنا على اتباع الواجب وتجنب الظلم».

فكون هذا الاستعداد عاما منتشرا بين جميع أفراد النوع الإنسانى دليل فى رأى هؤلاء على كونه فطريا طبيعيا مثل غيره من الميول الفطرية.

(٣) أنها عاطفة تختلف اختلافا أساسيا فى طبيعتها عن غيرها من العواطف والنزعات والعناصر العقلية؛ فالحالة النفسية التى ينشأ عنهـا الاستحسان والاستقباح وميز الصواب من الخطأ حالة خاصة؛ ولذا لا نستطيع تحليلها الى عناصر أبسط منها كالإدراك والوجدان والنزوع؛ فالإدراك يساعدنا فى تمييز الأشياء بعضها من بعض، أو فى معرفة ما بينها من تشابه أو تضاد، أو فى تذكر الحوادث الماضية، ولكن المفروض أن ميز الصواب من الخطأ عملية غريبة فى بابها لا تتضمن هذه الوظائف العقلية. وهناك وجدانات متعددة، تحملنا على العمل أو الترك، ولكن الضمير ينزع بنا نزعة خاصة به؛ ولذا نسميه الصلاح أو التقوى أو القوة المسيطرة أو السلطة العليا الدائمة التى توصف

بأنها انبعاثية ، وتختلف عن غيرها من الدوافع الأخرى كالجوع وحب الاطلاع والسخاء وغيرها مما يوصف بالقوة أحيانا وبالضعف أحيانا أخرى . فبساطة هذه النزعة وقوتها الدائمة مما يبرهن على مخالفتها للعواطف المكتسبة .

والذين يرون أن هـذه النزعة عاطفة مكتسبة مثل غيرها من العواطف يردون على هذه البراهين :

(١) بأن صدور الحكم الخلقى مباشرة بدون تردد ولا تدبر لا ينهض دليلا على أن العاطفة الخلقية فطرية ، لجواز أن يكون للمرانة والتدريب أثر فى سرعة الحكم ؛ إذ كلما كثرت تجارب الإنسان ، واتصلت علاقته بناحية من النواحى ، أو مادة من المواد كان من السهل عليه أن يصدر أحكاما سريعة مرتبطة بتلك الناحية أو المادة . ألا ترى أن المهندس الماهر يستطيع بمجرد النظر إلى بناء أو جسر أو خط حديدى أن يعرف مقدار ما فيه من دقة أو نقص ؟ وأن الخطيب المجرب يستطيع أن يعرف ميول سامعيه بمجرد النظر إليهم ، ويستطيع أن يصدر أحكاما صحيحة دون تردد أو اضطراب أو رجوع إلى قواعد النحو والصرف والبلاغة ؟ وأن القائد المحنك يقدر عند النظر إلى أحد المواقع أن يعرف ما إذا كان محصنا أو عرضة للخطر ؟

فهؤلاء وأمثالهم يصدرون أحكاما صحيحة مباشرة ، تلقوها عن التجارب ، وعلمهم إياها طول عهدهم بأعمالهم الخاصة .

على أن أحكام الضمير لا تكون سريعة مباشرة إلا فى الحالات البسيطة التى يسهل إدراكها والحكم عليها بسرعة ، أما الأحوال المعقدة الصعبة الفهم فقد يتراخى الإنسان فى إصدار الحكم الخلقى فيها حينا من الدهر ، ويكون من

الضرورى أن يتروى ويفكر قبل أن يحمل ضميره مسئولية الحكم السريع .

(٢) بان القول بتشابه الأحكام الخلقية فى جميع الأمكنة والأزمنة مردود لا ينطبق على الواقع ؛ إذ أن الأمم قد اختلفت فى بيان معنى كل من الحسن والقبيح لدرجة أن بعضهم كانوا يبيحون القتل والسرقة ، وإنا لنرى أن مايعده بعض الأمم المتمدينة حسنا مباحا قد يعده غيرهم قبيحا محرما كتعدد الزوجات .

(٣) بأن كون هذه النزعة الخلقية بسيطة قوية مخالفة لغيرها من النزعات لا ينهض دليلا على أنها فطرية ؛ لأن المشاهدات تدل على أنها قد تكون معقدة تتضمن كثيرا من العناصر العقلية ، وأنها قد تكون ضعيفة فى بعض الأشخاص ، وقوية فى غيرهم ؛ ولذلك لا تختلف كثيرا عن غيرها من العواطف

فالرأى الذى يراه المحدثون من علماء النفس أن العاطفة الخلقية مكتسبة كغيرها من العواطف .

وهذا لايمنع من أن أساسها غرزى فطرى ؛ إذ أن لحب الخضوع والاستهواء والمشاركة الوجدانية والمحاكاة آثارا ظاهرة فى تكوينها ؛ فالطفل مستعد بطبيعته لاكتساب العاطفة الخلقية بعد أن يكبر ، ويخضع لنفوذ أبويه ومعلميه ، وتكثر تجاربه وتغزر معلوماته .

ولاكتساب هذه العاطفة ثلاث مراحل هى :

(١) مرحلة المحاكاة والتعلم :

وفيها يكون الطفل مثل البالغ الذى يعيش فى الأوساط المتأخرة فى الحضارة ؛ فيعتقد أن الحسن هو ما أجمع المجتمع على استحسانه ومدحه ومدح

فاعله ، وأن القبيح هو ما أجمعوا على استقباحه وذمه وذم فاعله ، فهو فى ذلك خاضع للرأى العام .

ويكون الطفل فى هذه المرحلة أكثر تأثرا بالأفراد البارزين الذين يحترمهم ويعجب بهم كوالديه ومعلميه ، والكبار النابغين من أصدقائه ورفقائه ؛ فاختلاطه بأفراد الأسرة فى البيت وبمعلميه وإخوانه فى المدرسة وفى الخارج يعلمه على مر الزمن أن الحسن مقبول مفيد ، وأن القبيح مردود ضار ، وأن من يحسن إلى الناس يكون موضع احترامهم ومحبتهم ، وأن من يسىء إليهم يكون موضع احتقارهم وبغضهم ، فيسعى فى إرضاء الناس ومجاملتهم ليكتسب عطفهم ومحبتهم ، وفى الوقت نفسه تراه يتخلق بأخلاق من يختلط بهم — لاسيما الكبار منهم — ويأتمر بأوامرهم ، وينتهى بنهيهم ، ويأخذ عنهم القوانين الخلقية قضية مسلمة ؛ فتتكون فى نفسه مبادئ خلقية تكون أساسا صالحا للعاطفة الخلقية .

(٢) مرحلة التجارب الناضجة :

وفيها يكبر الطفل ويصير شابا ، وتتسع دائرة تجاربه الشخصية المباشرة ، وتغزر معلوماته ، ويقرأ تاريخ الأبطال وسير القادة المصلحين ، ويندمج فى أوساط الناس المختلفة ، ويدرك مشاربهم ، ويعرف مبادئهم ، ويكون على بينة من وجهات أنظارهم نحو الأشياء والأعمال ، ويكوّن لنفسه فكرة خاصة عن الحسن والقبيح ، ويتخذ بعض الأفراد أو الأبطال الذين اتصل بهم أو قرأ

عنهم وأعجب بهم مثلا عاليا ، وقدوة حسنة ، ويأخذ فى أن يشعر من نفسه باستحسان أعمال واستقباح أخرى يعملها هو أو غيره ـ شعورا أدت إليه تجاربه الشخصية لا محاكاته لغيره . وبذلك يصبح عضوا عاملا من أعضاء المجتمع الذى يصدر أحكاما خلقية على الأفراد .

(٣) مرحلة البحث الفلسفى :

وفيها يصير الشاب رجلا ، وينفسح أمامه مجال البحث ، ويتوسع فى العلم والمعرفة حتى يصبح من المجددين والمصلحين ، ويستطيع أن يصدر أحكاما خلقية مبنية على أساس علمى صحيح . وقد يصل إلى منزلة خلقية راقية فيرى نقصا فى سلوك مجتمعه الخلقى ، فيصدر أحكاما خلقية ضده . وهذه هى مرتبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، أو مرتبة المصلحين الاجتماعيين النابهين ، أولئك الذين إليهم جميعا يرجع الفضل فى النهوض بالنوع الإنسانى من وهدة الجهل والرذيلة إلى ذروة المجد والفضيلة ، وفى تقدم العالم ، والقضاء على كثير من العادات الممقوتة ، والتقاليد القبيحة التى كانت منتشرة بين الأمم أيام جهالتها .

ومن ذلك ترى أن عوامل تكون العاطفة الخلقية ثلاثة هى :

(١) المحاكاة والتلقين (٢) التجارب ، (٣) البحث .

والعاطفة الخلقية عاطفة اجتماعية قبل كل شىء ؛ فليس من المستطاع أن

يكتسبها أحد من الناس ـ أيا كانت عقليته ـ بمجرد البحث والفكر والتروى إذا عاش منقطعا منفردا عن أبناء جنسه من فجر حياته. ولا يمكن أن تهديه انفعالاته الشخصية وحدها إلى تكوين العواطف المعنوية، وإنما يساعده على تكون هذه العواطفُ معيشته فى مجتمع راق منتظم، له دين ولغة وآداب، وتقاليد اجتماعية، ومبادئ قومية يسير عليها الأفراد؛ إذ أن كل جماعة مهذبة من الناس تخضع لتقاليد خلقية وقوانين اجتماعية يأخذها الخلف عن السلف، وتنتقل من جيل إلى آخر، ويزيد فى ثروتها ونمائها المشرعون وقادة الجماعة، وزعماء النوع الإنسانى. والفرد الذى ينشأ بين فريق من الناس هذه صفاتهم يسير على منهجهم، ويأخذ عنهم مبادئهم وآدابهم وأخلاقهم قصدا أو بدون قصد.

ثم إن هذه الآداب والمبادئ والأخلاق التى يأخذها الفرد عن المجتمع على مر الزمن تنتظم وتنشأ عنها العواطف المعنوية، ويكمل نموها ويتم رقيها بنمو العاطفة الخلقية ورقيها ورسوخها فى النفس. ومن ذلك تفهم معنى قول الفيلسوف الإنجليزى (جرين[1]): «لا يستطيع أحد من الناس أن يصنع لنفسه ضميرا[2] بل إنه دائما فى حاجة إلى مجتمع ليصنعه له».

ومن الواجب أن نلفت نظرك إلى أن الاستحسان أو الاستقباح الخلقى ليس إلا أحد نوعى الاستحسان أو الاستقباح الاجتماعى؛ فإن المجتمع قد يستقبح كون شخص مصابا بالجدرى، أو مشوه الخلقة مثلا، ولكن استقباحنا لهذين وما أشبههما ليس من الاستقباح الخلقى الذى يترتب عليه شعور المصاب بالخزى والخجل، اللهم إلا إذا كان مسئولا عن إصابته.

(1) Thomas Hill Green 1836-82. (2) Conscience.

فالمسئولية هى علة الاستحسان أو الاستقباح الخلقى ؛ فالرجل لا يحمد على عمل الحسن أو يثاب عليه ، ولا يذم على عمل القبيح أو يعاقب عليه إلا إذا كان مسئولا عنه ، أى إلا إذا كان عمله ناشئا عن إرادة ورغبة فى المنفعة أو الضرر الذى نشأ عن عمله .

والاستحسان أو الاستقباح فى أول الأمر يكون عاما يشمل نوعى الاستحسان أو الاستقباح الاجتماعى ، ولكنه إذا تخصص فيما بعد ، وصار مقصورا على الاستحسان الخلقى الذى يتوقف على تحديد المسئولية فإنه يكون ناشئا عن العاطفة الخلقية .

العاطفة الخلقية والحكم الخلقى :

تعلم أن العاطفة الخلقية إذا نمت وقويت وأصبحت عنصرا من عناصر الشخصية حملت صاحبها :

(١) على فعل الحسن وتجنب القبيح .

(٢) على السرور بالعمل الحسن والتألم لفعل القبيح .

(٣) على إثابة المحسن ومعاقبة المسىء عند القدرة .

(٤) على إصدار أحكام خلقية تتضمن الاستحسان أو الاستقباح .

فمن تكونت فى نفسه العاطفة الخلقية لا يسعه إلا أن يستحسن الأخلاق الطاهرة ، ويحكم على الشخصية الخلقية بأنها متينة يحمد صاحبها ، ويستقبح الأخلاق السيئة ، ويحكم على الشخصية الضعيفة الأخلاق بأنها ممقوتة يذم

صاحبها . وبعبارة أخرى نقول إن للعاطفة الخلقية علاقة وثيقة بالأحكام الخلقية ، وإنها إذا تمكنت من النفس تغلبت على غيرها من العواطف التى قد تعارضها كعاطفة محبة الأب والأم أو المدرس أو أحد الأقارب أو الأصدقاء .

فرجل العاطفة الخلقية المتينة يقول للمصيب أنت مصيب ـ ولو كان أعدى أعدائه ، وللصادق ـ أنت صادق ولو كان يتكلم ضده ، وللمخطئ أنت مخطئ ـ ولو كان أباه أو أحد أصدقائه ، ويستنكر الكذب ـ ولو صدر من أقرب الناس إليه .

ولا يصل الإنسان إلى مرتبة الحكم الخلقى الناضج دفعة واحدة ، ولا يطفر إليه طفرة ، بل إنه يتبع فى الوصول إليه ثلاث مراحل هى :

(١) المرحلة الذاتية أو الشخصية :

وفيها ينطق الطفل بعبارات الاستحسان إذا صدر من أحد أصدقائه أو أقاربه ما يسره ، وبعبارات الاستقباح إذا أساء إليه أحد هؤلاء ؛ فيقول لأخيه مثلا : « إنك رءوف حسن الأخلاق » ؛ لأنه اشترى له لعبة ، أو أتى له بشىء من الحلوى ، أو أعطاه بعض الدراهم . ويسمى أخاه الأكبر منه (شقيا) ؛ لأنه آذاه ولو بدون قصد ، أو خطف لعبته من يده ، أو أخذ بعض أدواته ، أو تعدى على شىء من أملاكه .

(٢) المرحلة الاجتماعية التقليدية :

وفيها يصدر الغلام والشاب أحكاما خلقية يرتضيها الجميع ، فيسمى

ما يستحسنه غيره حسنا ، وما يستقبحه الجميع قبيحا . ويكون حكمه فى هذه المرحلة تقليديا غير ناشئ عن تفكير وبحث فيما يجعل الحسن حسنا والقبيح قبيحا .

(٣) مرحلة التفكير والبحث :

وفيها يصدر الرجل أحكاما خلقية صحيحة ناشئة عن تدبر وترو وشعور قوى ، مبنى على أساس علمى متين . وعلامة ذلك أن يتبع الحكم الخلقى بعلته وسببه ؛ وذلك بإرجاعه إلى قانون أو أصل خلقى ، كأن يقول رجل لآخر: « لقد أخطأت ؛ لأنك حاولت أن تخدع الناس » ، أو « لقد أسأت فى هذا العمل ؛ لأنك أردت به الإيقاع بين الصديقين » أو « هذا كذب ؛ لأنه قصد به الإيذاء » .

والحكم الخلقى لا يصير ناضجا ، ولا يعد صحيحا ، ولا يعتبر دليلا على عاطفة خلقية متينة إلا إذا تجرد من شوائب التحيز ، وتخلص من قيود التقاليد الخاصة المتبعة فى البيئات المحدودة كالبيئة المنزلية أو المدرسية ، وكان مرجعه المقاييس الخلقية الصحيحة التى اتفق عليها أحزم الناس وأصدقهم عقيدة ، وأعلاهم منزلة خلقية .

(٤) العاطفة الخلقية والتربية :

قلنا فيما سبق إن من أهم ما يعنى به المربون التربية الخلقية ، وإن أهم الوسائل

لتكوين النشء تكوينا خلقيا هو بث العاطفة الخلقية فى نفوسهم ، وذلك لا يتحقق إلا بمراعاة قواعد أساسية نقتصر منها على ما يأتى : —

(١) إصلاح البيئة الاجتماعية من الناحية الخلقية ، وجعلها بحيث تحمل النشء على أن يحيوا حياة اجتماعية خلقية مرضية فى البيت والمدرسة وخارجهما ، وذلك لا يمكن أن يكون إلا إذا كان الآباء والمربون على الأخص على جانب عظيم من حسن الأخلاق وكرم الطباع ؛ كى يكونوا قدوة حسنة لأبنائهم وتلاميذهم الذين عهد إليهم بتربيتهم وتهذيبهم .

ومن الضرورى أن يكون هناك تعاون مستمر بين البيت والمدرسة ، وعناية مشتركة بين الآباء والمربين فى هذا الصدد . فمن الواجب أن يكون فى كل من البيت والمدرسة نظام خلقى يرمى إلى أغراض خلقية واحدة ، ويخضع لقوانين خاصة يسير عليه أفراد الأسرة فى البيت وجماعة التلاميذ فى المدرسة . وليس للنظام الخلقى معنى إلا أن تكون هناك قواعد وقوانين خلقية من السهل مراعاتها من جانب المتربين ، وتنفيذها من جانب المربين .

وتعد الحياة المنزلية أو المدرسية حياة اجتماعية بكل معانى الكلمة ؛ إذ هى خاضعة ـ أو على الأقل يجب أن تخضع ـ لحكومة تفرض القوانين وتتولى تنفيذها . وهذه الحكومة تكون فى يد الأب أو الأم أو فى أيديهما معا فى البيت ، وفى يد الناظر والمدرسين فى المدرسة . وإن نجاح التربية الخلقية فى كلتا الحالتين متوقف على حزم الحكام ، وعلى الروح التى بها ينفذون أحكامهم وأوامرهم .

وعلامة نجاح هذه الحكومة أن تسير الحياة المنزلية سيرا منظما بهدوء وسكينة ، بحيث يتعود كل فرد من المحكومين عادات حسنة ، ويعرف كل

منهم واجباته فيقوم بها خير قيام ، ويعرف حقوقه فيطالب بها ، ويحصل عليها بسهولة ، دون أن يحصل نزاع أو شقاق أو تصادم بين الأفراد ، أو بينهم وبين الحكام ، ومن غير أن يضطر الحاكم إلى القسوة واتخاذ وسائل قهرية عنيفة مؤذية لأحد الأفراد أو لهم جميعا .

فالحكومة المنظمة — التي أساسها المحبة والتعاون والعطف والاحترام سواء فى البيت أو فى المدرسة — شرط أساسى من شروط التربية الخلقية الصحيحة المنتجة .

ونحن إذا طالبنا الآباء والمربين بالعطف على أولادهم وتلاميذهم ، وتجنب القسوة عليهم لا نريد منهم أن يغلوا فى ذلك ، بل إننا نريد أن يكونوا على جانب عظيم من الحزم ، وألا ينقادوا إلى الشفقة المطلقة التى قد تضر بالمتربين ، فينشؤون على الاستهتار والاستهانة بالقوانين الخلقية ، ويكون من الصعب إرجاعهم إلى الصواب ، وإصلاح المعوج من أخلاقهم فيما بعد .

فمن الواجب أن يمتزج اللين بالشدة ، والشفقة بالقسوة ، وأن يظهر المربى أمام المتربين بمظهر الجاد فى عمله ، المخلص فى قوله ، الذى يتكلم عن شعور ووجدان قوى صادق ، وأن يظهر رغبة شديدة فى تنفيذ أوامره ، وفى اتباع النظام الذى وضعه بعد الوثوق من صحته .

وقد أصبح من المفروغ منه الآن أن الترغيب خير من الإرهاب ، وأن المربى الذى يحمل المتربين على الطاعة لأنهم يحبونه ويحترمونه خير من الذى يرغمهم على العمل خوفا من بطشه وبأسه .

(٢) إمداد المتربين بأفكار خلقية صالحة . وليكن عمادنا فى ذلك بادئ ذى بدء حياة الأطفال الخاصة ، وتجاربهم الشخصية ؛ فنبين لهم وجوه الاستحسان أو الاستقباح ، مستندين إلى تجاربهم فى البيت والمدرسة وخارجهما ، ونظهر لهم الفرق بين الحسن والقبيح بلفت نظرهم إلى ما يترتب على الأول من منافع ، وعلى الثانى من مضار .

وبعد أن يكبر الطفل نخرج به من دائرة تجاربه المحدودة الضيقة إلى دائرة أوسع منها ، وذلك بأن نعرض عليه نماذج تاريخية تمد مثلا عاليا للشخصية الخلقية الراقية ، وندعه يقرأ تاريخ الأبطال وسير المصلحين الاجتماعيين ، ويختلط بمن هم أكبر منه سنا ، وأقوم أخلاقا .

وبعد أن تنمو مدارك الشاب ، ويستطيع فهم المبادئ الأخلاقية يجدر بالمربى أن يلقنه دروسا فى الأخلاق ، ويبث فى نفسه القوانين الخلقية القويمة ، ويرشده إلى الفضائل العليا ، كى يسير عليها ويسعى فى التحلى بها .

(٣) بث شعور وجدانى خلقى قوى فى نفوس المتربين ؛ فالشعور الوجدانى الخلقى قوة لا يستهان بها ؛ إذ أنه لا بد أن يحمل المرء على اتباع السلوك الحسن ، وتجنب السلوك القبيح . « والوجدانات هو قوى النفس الفعالة » كما يقول بعض المربين . ويقول جون رَسْكين[1] المربى الإنجليزى المشهور : « ما الفرق بين رجل وآخر من ناحية النبل وكرم الأخلاق إلا أن وجدان أحدهما أقوى من وجدان الآخر » .

وليعلم المربى أن البيئة الخلقية والأفكار الصالحة تساعد على تربية

(1) John Ruskin 1819-1900.

الوجدان الخلقى ، وبثه فى نفوس المتربين ، ولـكن شعوره هو ووجدانه أشد تأثيرا وأقوى سلطانا ؛ فإذا أحبه المتربون واحترموه انعكس وجدانه من نفسه على أنفسهم ، وصارت وجداناتهم صورا مصغرة لوجدانه .

(٤) تدريب المتربين على تحمـل المشاق ، والنهوض بالصعاب ؛ وذلك بتعويدهم قوة الإرادة وضبط النفس ، والصبر على المكاره ؛ إذ أن تكاليف الحياة صعبة ، وواجبات الإنسان الاجتماعية تتطلب قوة العزيمة والأناة والمثابرة ، حتى يصل المرء إلى الغاية التى ينشدها ، ويحظى بالغرض الذى يرمى إليه .

ولـكى يقوم المربى بهـذا الأمر الرابع على الوجه الأكمل ، ويسوس المتربين سياسة ملائمة لطبائعهم يجب عليـه أن يعرف معنى الإرادة ، ويلم بمراحل نشأتها ، ويكون على علم بأنواعها ، وأسباب قوتها أو ضعفها ، وبغير ذلك من الموضوعات الهامة التى نشرع فى الـكلام عليها الآن .

المراجع بالإنجليزية :-

(1) An Introduction to Social Psychology, by W. McDougall, chs. V and VI.

(2) The Foundations of Character, by A. F. Shand, chs. II & X.

(3) The Energies of Man, by W. Mc Dougall, ch. XIV.

(4) The Teacher's Handbook of Psychology, by J. Sully, ch. XVI.

(5) Groundwork of Educational Psychology, by J. Ross, ch. VII. PP. 121-129.

(6) Social Psychology, by R. H. Thouless, ch. VII.

(7) Fundamentals of Psychology, by B. Dumville, ch. XIII.

(8) La Psychologie des Sentiments, par Th. Ribot, chs VIII-XII.

الفصل التاسع

الارادة

هى المظهر الثالث من مظاهر الشعور . وهى المقياس الذى نقيس به المظهرين الآخرين ، ونستدل به عليهما ، فلا قيمة للأفكار والوجدانات إلا إذا تحولت إلى أعمال ، وظهرت آثارها فى الخارج .

وهذا هو السبب الذى دعا فريقا من المحدثين من علماء النفس يسمون السلوكيين إلى قصر مباحثهم النفسية على الإرادة أو السلوك ؛ فهم لا يتكلمون عن العقل ، ولا يأبهون بالشعور ، وإنما يعنون بالسلوك الذى هو الإرادة — بأحد معانيها .

وحجة هؤلاء فى اتباع مذهب السلوكية هذا أننا لا نعرف كائنا خاصا يسمى عقلا أو شعورا يمكن إجراء التجارب عليه ، واستنباط حقائق وأحكام علمية بالنسبة له ، وإنما نرى السلوك الحيوانى والإنسانى . وهذا السلوك خاضع لقوانين خاصة نستطيع الوصول إليها بمراقبة الحيوان ، وملاحظة الإنسان عندما يقوم كل بعمله فى ظروف مختلفة .

وأهم ما يؤخذ على هؤلاء أنهم يغلون فى قصر عنايتهم على السلوك الإنسانى والأعمال الخارجية ، والتغيرات المادية التى تحدث داخل جسم الإنسان فتؤثر

فى سلوكه ، مع إهمال الناحية العقلية النفسية التى لها من الأهمية ما لها فى الحياة الإنسانية .

وهم باعتمادهم على الناحية المادية ، وعدم عنايتهم بالناحية الروحية يريدون أن يقولوا لنا إن سلوك الإنسان أقرب إلى السلوك الإجبارى منه إلى السلوك الاختيارى ، وإن الإنسان ـ كالحيوان ـ عبد بيئته ، وابن طبيعته ، ليس لإرادته الذاتية عليه سلطان يذكر .

ومن السهل جدا أن نتبين خطأ هذا المذهب إذا لاحظنا ذلك الرقى المطرد فى الحياة الإنسانية ، وتلك المقدرة البشرية التى جعلت الإنسان يُخضع بيئته ، ويجعلها خادمة له ـ بدلا من أن يكون عبدا لها . وإذا أضفنا إلى ذلك ما هو معروف من الفروق الجوهرية التى بين العقلية الإنسانية والعقلية الحيوانية تبين لنا أن للإرادة الذاتية دخلا كبيرا فى حياة الإنسان وسلوكه. وإسناد نوع من الإرادة إلى الإنسان هو الذى يجعله مسئولا عن أعماله ، ويجعل من الممكن الحكم عليها بالحسن أو القبح . فلولا هذه الإرادة ما كان من المبرَّر أن يثاب المحسن على إحسانه ، أو يعاقب المسىء على إساءته .

ثم إن الاعتراف بالإرادة البشرية يذهب بزعم من يزعمون أن الإنسان آلة ، ويسمون جسمه الآلة الإنسانية ؛ مريدين بذلك أنه خاضع لقوانين آلية بحتة .

فإننا إذا ساغ لنا من باب المجاز أن نعد الجسم الإنسانى آلة فلا مناص من أن نعترف فى الوقت نفسه بأنه آلة عجيبة الصنع ، بديعة التركيب ، فريدة التكوين ؛ لأنها مديرة لنفسها ، مديرة لشؤونها ، مستقلة بنفسها ، ولأنها

تتركب من عدد من الأجهزة يعد كل منها آلة غريبة تقوم بوظيفتها بإتقان محكم، ونظام مطرد، ويقوم كل جزء من أجزاء كل جهاز بوظيفته الخاصة بطريقة يقف أمامها المرء حائراً مبهوتا، مكتوف اليدين، لا يستطيع أن يدرك سرها مهما أوتى من حكمة وذكاء، فليس له إلا أن يقر بضعفه التام، ويعترف بأن هناك شيئا آخر غير الجسم المادى؛ ذلك هو السر الإلهى المعجز، أو هى الحياة أو الروح التى هى من أمر الله.

أليس كل ما وصل إليه العلم الحديث من أمر هذا المخلوق العجيب أن عرف أن له جسما مؤلفا من أجهزة يتركب كل منها من أعضاء، وأن كل عضو مركب من أنسجة وأغشية، وأن أبسط وحدة فى الجسم هى الخلية الحية، وأن هذه الأجهزة متصلة تمام الاتصال، متعاونة فى العمل على حفظ كيان الجسم، وتغذيته ووقايته من الأذى، وتخلصه من الفضلات الضارة، وأنها تؤدى أعمالها دون شعور ولا إرادة من الإنسان متى سارت بنظامها الخاص، وأن المسير لها والمسيطر على حركاتها وسكناتها هو الجهاز العصبى، وأن العضو الرئيسى فى الجهاز العصبى هو المخ، وأن المخ يتصل بالبيئة الخارجية ويتأثر بها بوساطة الحواس وأعصاب الحس، وأن تأثر المخ والمجموع العصبى تنشأ عنه الأعمال المعنوية التى نسميها العمليات العقلية. نعم هذا كل ما وصل إليه العلم الحديث من أمر هذا المخلوق الغريب بعد التجارب الطويلة التى استمرت أجيالا وقرونا.

ولكن: كيف يؤدى المخ أو المجموع العصبى هذه الوظائف الحيوية؟

هل يؤديها من تلقاء نفسه ؟ أم هناك شىء آخر يؤثر فيه ويجعله يقوم بوظائفه ؟ هذا هو السر المغلق الذى لم يصل العلم بعد إلى كشف الستار عنه .

وإننا نكرر هنا ما قلناه فيما مضى من أنه ليس من موضوع علم النفس الحديث البحث فى الإجابة عن هذا السؤال أو غيره من الأسئلة الفلسفية المتعلقة بماهية النفس أو الروح وحقيقة علاقتهما بالجسم .

فالبحث فى هذه الأمور لا يعنينا . وإنما يعنينا أن نذكر لك مرة أخرى أن عمل الجهاز العصبى ليس مقصورا على تحريك الأعضاء الباطنية وتنظيم سيرها بطريقة آلية[1] ، بل إنه مستعد بطبيعته للتأثر بالمؤثرات الخارجية بوساطة منافذ أو أعضاء متصلة مباشرة بالبيئة الخارجية ، تلك هى الحواس التى تنقل إلى المخ الآثار الخارجية بطريق أعصاب الحس .

ثم إن تأثر المجموع العصبى بالمؤثرات الخارجية يظهر فى الأعمال الإنسانية المختلفة الدرجة ؛ فمنها البسيط الساذج ، ومنها المركب المتعدد العناصر ، ومنها الوسط بين هذا وذاك .

فهناك الحركات العكسية التى يحصل معظمها بدون إرادة ، وبعضها بدون شعور ، والأعمال الفكرية ـ الحركية[2] التى هى حركات تتبع فكرة ناشئة عن مثير مفاجىء . وهناك الأعمال الاتفاقية[3] التى تقع من الإنسان بطريق المصادفة ، والأعمال الغرزية التى يقول عنها السلوكيون إنها سلسلة من حركات عكسية يتلو بعضها بعضا ، والأعمال الإرادية الناشئة عن

(1) Automatic. (2) Ideo - motor. (3) Random.

تدبر وترو وتفكير فى الغرض ، وهى أرقى الأعمال الإنسانية منزلة ، وأخطرها شأنا .

وكل نوع من الأنواع الثلاثة الأخيرة صالح لأن يصير عاديا بالتكرار والمرانة ، ويصبح شبيها بالعمل الفكرى — الحركى ، ولذا تسمى الأعمال العادية أحيانا الأعمال شبه الآلية .

فالحركات والأعمال الإنسانية لا تتجاوز سبعة أنواع هى (١) آلية (٢) وعكسية (٣) وفكرية — حركية (٤) واتفاقية (٥) وغرزية (٦) وإرادية (٧) وعادية .

أما الأعمال الآلية فليست من موضوع علم النفس ، إلا على رأى السلوكيين ومن تبعهم الذين يدرسون كثيرا منها دراسية وافية ، لاسيما وظائف الغدد الباطنية والعضلات وآثارها فى التصرفات النفسية .

وأما الأعمال المنعكسة والاتفاقية والغرزية والعادية فقد سبق الكلام عليها فى الجزء الأول من هذا الكتاب .

وأما الأعمال الفكرية — الحركية فقد أشرنا إليها فى الجزء الثانى[1] من هذا الكتاب ، ونزيد على ذلك أنها أعمال ناشئة مباشرة عن أفكار دون أن تكون هناك إرادة ظاهرة سابقة لوقوعها ؛ كما إذا خطر ببالك أنك تريد القراءة فى كتاب خاص فتجد نفسك مندفعا للبحث عنه دون إرادة ظاهرة موجهة نحو البحث . وكما إذا نظرت إلى أحد اللاعبين بكرة القدم فتخيلت أنه

(١) ص ٤٥ .

قام بحركة سريعة موفقة ، فوجدت عضلاتك تتحرك ، وربما تقوم بالحركات التى تخيلتها وأنت فى مكانك . وكما إذا خطر ببالك الجوع فهممت — دون إرادة منك — بالبحث عن الطعام .

وكل فكرة قوية تخطر بالبال تصلح لأن تكون سببا فى عمل من هذا النوع ، على شريطة أن تكون هناك علاقة متينة بين الفكرة والعمل ناشئة عن ارتباطهما فى التجارب الماضية ، وألا تكون هناك فكرة أخرى تحول دون القيام بالعمل الذى تتطلبه الفكرة الأولى .

ومن هذا النوع الأعمال التى تقع من المنوم تنويما مغناطيسيا ؛ لأن الأفكار التى يلقيها المنوم فى نفسه تحمله مباشرة على القيام بالأعمال المطلوبة .

بقى علينا الآن أن نتكلم عن الإرادة والأعمال الإرادية فنقول :—

معنى الإرادة :

قد اختلف علماء النفس اختلافا كبيرا فى بيان معنى الإرادة :

(١) فبعضهم يرون أن الإرادة والنزوع شىء واحد ، وهؤلاء يعرفون الإرادة بأنها العقل فى حالته العملية ، فكل اتجاه نحو العمل يسمى إرادة فى نظرهم ، ويسمى المظهر الخارجى لهذا الاتجاه عملا إراديا ، فإذا نظرت إلى المائدة فوجدت عليها طعاما شهيا ، فاتجهت نفسك إليه ، فمددت يدك نحوه فإن اتجاه نفسك إليه يسمى إرادة ، ومد يدك إليه يسمى عملا إراديا ، ومد اليد هو نتيجة للنشاط العصبى الذى تحرك عند اتجاه النفس إلى الطعام .

وهذا المعنى هو أعم معنى للإرادة ، لأنه يدخل فى الأعمال الإرادية جميع الأعمال السابقة عدا الآلية والمنعكسة. وقد كان (شوبنهور) الفيلسوف المشهور يرى هذا الرأى، لأنه كان يعد من الأعمال الإرادية الأعمال البسيطة الحيوانية، التى تصدر عن النزعات الشهوية الحيوانية ، وكذلك الأعمال الخلقية التى تستلزم بذل الجهد . وهذا يشبه رأى العلامة (بين) الذى لا يرى فرقا كبيرا بين أعمال الإنسان المختلفة وأعمال الحيوان ، ما دام الدافع إلى العمل فى كل هو الرغبة فى الحصول على اللذة وتجنب الألم .

وقد كان هربرت سبنسر ومن تبعه يرون أن كل حركة أو مجموعة من الحركات تسمى أعمالا إرادية على شريطة أن تسبقها فكرة عنها . وهذا المعنى لا يختلف عن سالفه إلا فى اشتراط سبق الفكرة للعمل . وعليه لا تعد الأعمال الاتفاقية أعمالا إرادية ، وكذلك الأعمال العادية التى تقع من الإنسان عفوا دون شعور منه ، أما الأعمال الغرزية فتعد أعمالا إرادية على هذا المعنى ، وكذلك الأعمال العادية التى يفكر فيها المرء قبل حدوثها .

(٢) ويرى البعض أن الإرادة هى اتجاه النفس نحو عمل من الأعمال مع العلم بالغرض الذى يرمى إليه الفاعل . وعلى هذا المعنى لا تعتبر الأعمال الغرزية إرادية ، وبخاصة أعمال الحيوانات ؛ فأعمال الطائر حينما يبنى عشه ليست من الأعمال الإرادية ؛ لأنه على رأى معظم علماء النفس حينما يهم ببناء العش لا يعرف ولا يدرك الغرض الذى يرمى إليه، كما يعرفه من يبحث فى التراب عن الذهب ، ومن يزرع الزرع ليحصده ويجنى ثماره .

(٣) وهناك من يجعل الإرادة مقصورة على الاختيار والتفضيل المسبوق بشيء من التروى ؛ وذلك كما فى حال الطفل الذى يعطيه والده قرشا فتتجدد فى نفسه رغبة فى شراء شيء من الحلوى ، ورغبـة أخرى فى شراء لعبة خاصة ، فيظل معلقا بين رغبتيه مترددا بينهما حتى تقوى إحداهما ، ويكون نصيبها التغلب على الأخرى ، فيهم بإطاعتها وتنفيذها .

(٤) وفريق رابع يرى أن النزوع لا يسمى إرادة إلا إذا كان مسبوقا برغبات وميول متضاربة يتغلب أحـدها بعد التفـكير والتروى والتدبر .

ولتوضيح ذلك نضرب لك المثل الآتى :

هبك شعرت بضيق فى صـدرك ، فعنَّ لك أن تسلى نفسك وتخفف من آلامها ، فتجدد فى نفسك ميل للبقاء فى البيت وسماع الحاكى ، وميل آخر للخروج واستنشاق الهواء الطلق ، وثالث للذهاب إلى إحدى دور التمثيل ، ورابع لزيارة أحـد أصدقائك . فهذه ميول متعددة لابد من ترجيح أحدها وتنفيذه ، وإلا بقيت فى بيتك مكتئبا كاسف البال . فحينئذ تتدخل الإرادة مستعينة بالفـكر ، فتوازن بين بعض هـذه الأشياء وبعض ، فتقرر أن تخرج لاستنشاق الهواء الطلق ؛ لأنه أصح وأقل نفقة ، وإن كان فى الخروج مشقة ، فتأخذ فى الأهبة ، وتنفذ رغبتك بالخروج . فخروجك هذا يسمى عملا إراديا .

وإذا فـكرت وجدت أنه سبقه شعور وجدانى وهو الشعور بالضيق ، وميول متعددة ، وترجيح أحد هـذه الميول الذى أصبح بعد الترجيح رغبة ، وعزم وتصميم على تنفيذ هذه الرغبة . فهناك إذاً خمس مراحل فى كل عمل إرادى بمعنى الإرادة الرابع ـ وهى :

(١) شعور وجدانى (٢) ميول (٣) ترجيح (رغبة) (٤) عزم (٥) عمل .
وهـذا المعنى هو أخص معنى للإرادة ، فللإرادة إذاً أربعة معان : أعم ، وعام ، وخاص ، وأخص . والأولى أن نقتصر هنا على المعنى الرابع ، ونسمى النزوع الذى لا تصحبه فكرة عن الغرض ولا يكون مسبوقا باختيار ولا ميول متعارضة اندفاعا أو انبعاثا[١] ، ونسمى النزوع لغرض معروف رغبة[٢] إذا لم تسبقه موازنة واختيار ، فإذا سبق بموازنة واختيار سميناه اختيارا[٣] .

لم تتغلب الميول الضعيفة ؟

إن الميول الضعيفة التى تتغلب فى حالة الإرادة ترتبط فى الغالب بمبادئ وعواطف . أما الميول القوية التى تغلب على أمرها فتنشـأ عن غرائز وميول فطرية قوية ؛ فمن المشاهد أن الرغبة فى إرضاء النزعات النفسية قوية ؛ لأنها ناشئة عن ميل فطرى موروث ، وأن الرغبة فى البر والإحسان ومساعدة الغير ضعيفة ؛ لأنها مكتسبة فى حاجة إلى التدريب والتعود . ولـكن المشاهد أيضا أن الرغبات التى من النوع الثـانى تتغلب فى كثير من الناس على التى من النوع الأول .

فمن الصعوبات التى نحب أن نسعى فى تذليلها معرفة السبب فى أن العواطف التى تعد ضعيفة فى ذاتهـا تستطيع أن تتغلب على الغرائز والميول الفطرية على ما لها من القوة الجبارة الموروثة . يقول وليم جيمز : « إن النزعات والعواطف

(1) Impulse. (2) Desire. (3) Choice.

إذا أضيف إليها المجهود الذى يبذله الإنسان تصير أقوى من النزعات الغرزية » .

ولكن أنى لنا هذا المجهود الذى به تتغلب العواطف على الدوافع الغرزية ؟ كان المفكرون فى الزمن الماضى يميلون إلى إحالة هذه القوة الغريبة إلى عالم المجهولات ، وعدها كمية مجهولة ليس من المستطاع العلم بها . واليوم نرى السلوكيين من علماء النفس يعتبرون السلوك الإنسانى آليا إلى حد ما ، ويعتبرون الإرادة قوة إضافية فجائية تظهر بغتة عند الشدة ، وتحل محل النشاط الآلى .

وإننا لا نرتضى هذا التعليل ؛ لأنه خارق للقوانين الحيوية ، ولأنه يتضمن انقطاع الصلة والمشابهة بين حياة الإنسان وحياة الحيوان انقطاعا لا مبرر له . فخير لنا أن نقول — كما قال العلامة مكدوجل — إن تغلب العاطفة على الغريزة يرجع إلى قوة العاطفة نفسها إذا اتصلت بعاطفة احترام النفس ، فرغبة الإنسان فى أن يحقق بالفعل السلوك الذى يعتبره المثل الأعلى فى السلوك هى التى ترجح كفة العواطف الخلقية العليا ، وتجعلها تتغلب على النزعات الغرزية القوية . وبعبارة أخرى نقول إن عاطفة احترام النفس التى تنزع بصاحبها إلى المثل الأعلى فى السلوك هى التى تمده بتلك القوة الفعالة التى تنفذ رغبات العواطف الخلقية .

فالإرادة بمعناها الأخص الأسمى هى فى الحقيقة تلك العاطفة الذاتية ؛ أى عاطفة احترام النفس التى تصل إلى أقصى ما تستطيع الوصول إليه من النظام والانسجام ، فتصير مصدر النشاط الخلقى . أو هى — على حد قول ريفرز — النفس المنظمة حينما تكون فى حالة نشاط قوى يظهر فى صورة عمل نافذ .

فالسبب فى التغلب على النزعات الغرزية المفككة ليس هو نشاطا أو قوة جديدة غريبة لا علاقة لها بالغرائز ، ولكنه يرجع إلى الغرائز ذاتها إذا نظمت وتكونت منها عواطف قوية خاضعة لشخصية قوية مهذبة منظمة .

فقوة الإرادة ومتانة الشخصية تتوقفان على تنظيم الميول الغرزية تنظيما عاما شاملا ، وإخضاعها لعاطفة احترام النفس التى هى أهم العواطف ؛ إذ بقوتها تقوى الشخصية ، وتقوى معها الإرادة ، وبضعفها تضعف الشخصية وتضعف الإرادة . ولا نستطيع ضبط الأولى ، وجمع شتاتها ، وتقوية الثانية ، والسموّ بها إلا باستعادة احترام النفس .

النتيجة المباشرة للإرادة :

كان الشائع بين كثير من علماء النفس – مثل : بين وسْتَاوْت [1] – أن النتيجة المباشرة للإرادة أو النزوع ليست إلا حركة جزء من أجزاء الجسم أو الجسم كله . ولكن مكدوجل يرى أن هذه النتيجة هى استحضار الفكرة الراجحة وحلولها مركز الشعور . وحجته فى ذلك أن هذا هو ما يحصل فى جميع حالات الإرادة ، التى هى فى رأيه نوع راق من أنواع الانتباه . أما الحركة التى تتبع الإرادة فهى نتيجة غير مباشرة ؛ لأن الفكرة الراجحة إذا احتلت مركز الشعور ، وتمكنت منه أدت إلى حركة ظاهرة – إذا كان من شأنها ذلك .

---

(1) Bain and Stout.

فالذى يحدث بعد تفضيل النهوض من الفراش على البقاء فيه مثلا أن النائم يقرر أن ينهض ، فتتمكن فكرة النهوض من نفسه ، فينهض بالفعل . فتقريره هو الإرادة ، والنهوض هو العمل الإرادى أو الحركة الظاهرة ، وفكرة النهوض تحتل منزلة بين المنزلتين ؛ فهى من ناحية النتيجة المباشرة للإرادة ، ومن ناحية أخرى السبب فى النهوض بالفعل .

وقد تحتل الفكرة بؤرة الشعور ـ باعتبارها نتيجة مباشرة للإرادة ـ ولا يترتب على ذلك حركة ظاهرة ، كما إذا أراد الإنسان الاستمرار فى النظر إلى شىء من الأشياء ، أو سماع إحدى النغمات ، أو شم إحدى الروائح الذكية ؛ ففى مثل هذه الحالات تتحقق الإرادة والفكرة ولا تتحقق حركة ظاهرة . وكذلك إذا تحولت النفس من الانتباه إلى فكرة ، وتوجهت إلى فكرة أخرى ؛ فهنا أيضا يكون الإنسان منغمسا فى عالم الأفكار بإرادته ، ومع ذلك لا يقوم بحركة مطلقا بحسب ما يظهر . فمجهود الإرادة ينشأ عنه مباشرة انتباه الإنسان إلى فكرة المراد، انتباها تاما به تحتل هذه الفكرة بؤرة الشعور . ولكن بين وستاوت ومن على شاكلتهما يردون على هذا الاعتراض بأن الحركة على كل حال واقعة وإن ضعفت ؛ فاستمرار الحاسة فى التوجه إلى بعض المحسات يستلزم حركة فى الحاسة نفسها تساعد على بقاء موضع الإحساس محتلا بؤرة الشعور ، وكذلك توجه النفس إلى فكرة جديدة يستلزم حركة ولو فى خلايا المخ ومراكزه على الأقل . ويعود مكدوجل فيرد على هؤلاء أولاً بأن هذه الحركات أو التغيرات العصبية أمور ثانوية بالنسبة للانتباه إلى الفكرة وحلولها بؤرة الشعور ، وثانيا بأن استحضار الفكرة هو النتيجة المباشرة للرغبة التى

هى أدنى منزلة من الإرادة بمعناها الأخص ، وثالثا بأن التجارب التى قام بها كثير من علماء النفس تثبت ما يراه من أن نتيجة الإرادة هى تمكن فكرة دون غيرها من بؤرة الشعور . ثم إنه يستدل على رأيه بقول العلامة جيمز :—

إن النتيجة الأساسية للإرادة هى أن ينتبه الإنسان إلى غرض من الأغراض الصعبة المنال دون غيره ، ويضعه نصب عينى عقله دائما .

ومن هنا نعرف السبب فى أن بعض علماء النفس يرى أن الإرادة نوع من أنواع الانتباه ، لأن المجهود الذى يبذله الإنسان فى العناية بموضوع الإرادة أو بالانتباه إليه هو أهم مظهر من مظاهر الإرادة .

ولكن كيف نعلل هذه الظاهرة النفسية الهامة التى هى استحضار فكرة من الأفكار ، وبقاؤها دون غيرها محتلة بؤرة الشعور ؟

يقول جيمز إن قوة هذه الفكرة نتيجة لمنع غيرها من الأفكار من الدخول إلى حظيرة الشعور ، فالفكرة بعد طرد ما يزاحمها من الأفكار تصير قوية فتحتل بؤرة الشعور . ويرى (فندت)(١) رأى جيمز فى ذلك متبعا نظرية الترابط التى مؤداها أن الفكرة التى لها نظائر فى الشعور تجد دخولها إليه سهلا ، أما التى ليس لها نظائر فلا تدخل ، فالإرادة فى نظره ناحية من نواحى الترابط(٢) الذى أخص صفاته منع الأفكار غير المرغوب فيها أو التى ليس لها أمثال ، من الدخول إلى ساحة الشعور .

فوظيفة الإرادة على رأى هذين العالمين سلبية مقصورة على منع الأفكار المعارضة للفكرة المختارة من الوصول إلى بؤرة الشعور . ولكن كيف يحدث

(١) فيلسوف ألمانى معروف Wundt (٢) Apperception.

هـذا المنع ؟ وما القوة التى تحول بين الأفـكار الممنوعة وبين ساحة الشعور ؟

يرى جيمز وفندت ، أن هذه القوة سر من الأسرار . ولـكن مكدوجل يذهب أبعد من ذلك ، ويقول إن المنع يتم بتعزيز الفـكرة المختارة ، وإمدادها بنشاط كاف . وبمقدار قوة الأفـكار والرغبات المعارضة للفـكرة المختارة تـكون حاجة هذه الفـكرة إلى التعزيز والمعونة .

وتشتد حاجة الفـكرة المرغوب فيهـا إلى المعاونة فى حالة السلوك الخلقى الراقى الذى تـكون فيـه النزعات البهيمية أقوى بطبيعتها من النزعات الخلقية لدرجة يكون فيها المرء أحوج ما يكون إلى قوة الإرادة والمقاومة . وقد قلنا فيما سبق إن هذه المعونة تأتى إلى الفـكرة الضعيفة من عاطفة احترام النفس .

فجميع النزعات والرغبات الإيجابية أو السلبية التى تنشأ عن عاطفة احترام النفس هى القوى الدافعة التى تدخل تحت لواء الدافع الخلقى الراقى فى حالة الإقبال على السلوك الخلقى المحتـاج إلى مجهود عنيف ، وبذلك تقوى الفكرة الخلقية ، وتتغلب على ما عسى أن يعارضها من النزعات البهيمية الأولية الساذجة، التى لا تزال من مكونات طبيعتنا البشرية ، وتطرد من دائرة الشعور الأفـكار المرتبطة بهذه النزعات وبالأغراض التى ترمى إليها .

فظهور الرغبات الخلقية الراقية على الرغبات البهيمية الدنيئة بمعونة عاطفة احـترام النفس هو عنصر هام فى الإرادة ، ولذلك يعرف مكدوجل الإرادة بأنها إمداد رغبة أو نزعة أو تعزيزها بنزعة أخرى تثور لها وتأتى لمعاونتها من بين النزعات المنظمة الداخلة فى تـكوين عاطفة احترام النفس .

مراتب السلوك :

مما تقدم تعرف أن المثل الأعلى للسلوك الإرادى الذى تتجلى فيه الإرادة بأخص معانيها هو ذلك السلوك الناشئ عن تغلب عاطفة احترام النفس على الميول الدنيئة .

وبما أن عاطفة احترام النفس لا تنمو فجأة بل إنها تنمو بالتدريج والانتقال من طور إلى طور فإننا لا نستطيع أن نضع حدودا بها نميز السلوك النزوعى الإرادى من غيره ؛ فهناك – من ناحية – الرغبة الساذجة البسيطة التى يشعر معها الإنسان بالغرض الذى ترمى إليه الرغبة ، دون أن يكون لعاطفة احترام النفس فيها دخل ، ومن ناحية أخرى نجد الإرادة الخلقية التى ترجح جانب الدافع المثلى الراقى ببذل مجهود كبير . وبين هاتين مراتب متعددة ومراحل مختلفة يقل فيها أو يعظم مقدار تدخل العاطفة المذكورة . فكر مثلا :

(١) فى حالة الطفل الذى يرغب فى طعام موضوع فى حجرة مظلمة . فرغبته فى الطعام وخوفه من الظلمة دافعان متماثلان فى القوة يدفعانه إلى عملين متماثلين ، فتغلب أحد الدافعين على الآخر لا تظهر فيه الإرادة بمعنى الكلمة .

(٢) فى طفل عاقبه أبوه لأنه استسلم للخوف من الظلمة ، فأقدم على إحضار الطعام . فهل يعد تغلب خوفه من العقاب على خوفه من الظلمة مظهرا من مظاهر الإرادة ؟ إذا صدر مثل هذا العمل من طفل صغير أو من حيوان كالكلب فالراجح أنه لا يعد عملا إراديا .

(٣) فى الطفل نفسه بعد أن يكبر ويكتسب شيئا من الشعور بالنفس ، فيقول لنفسه فى الحالة ذاتها : « لا أحب أن أعاقب ، فالواجب أن أذهب لإحضار الطعام » ، ففى مثل هذه الحالة تعد هذه العزيمة دليلا على إرادة من نوع ما .

(٤) فى سلوك الغلام الذى يقول لنفسه فى الموقف السابق : « يجب أن أذهب لأحضر الطعام ؛ لأنى إذا لم أفعل ذلك احتقرتنى أمى ، وعنفنى أبى » فمن الواضح أن إرادة هذا أرقى من إرادة ذلك .

(٥) فى أرقى منهما إرادة ، وهو الذى يقول لنفسه : « سأعمل هذا العمل ، وإلا عدنى إخوانى التلاميذ جبانا » .

(٦) فى أرقى من الثلاثة ، وهو الذى يحدث نفسه قائلا : « سأفعل ذلك ، لأنه ينبغى للمرء أن يكون قادرا على طرح هذا الخوف السخيف ، وإنى ليعترينى الخجل إذا عرف أحد خوفى من الذهاب هناك » .

(٧) فى شخص محب لغيره ، معروف بأنه يقدم منفعة غيره على منفعته ، رأى النار تلتهم طفلا يكاد يكون الأمل فى نجاته مقطوعا ، ورأى الناس ينظرون إلى الطفل ، ويقلبون أكفهم حسرة ، يائسين من عودته إلى الحياة . فى هذه الحالة قد يخاف الرجل ألم النار ، فلا يسعى فى نجاة الطفل ، ويكون محقا فى ذلك ، ولا يلومه أحد من إخوانه أو أصدقائه على عدم إيقاع نفسه فى الخطر المحقق . وقد يخاطر فيلقى بنفسه فى النار ، وينقذ الطفل ، إما لأنه يود أن يسمع عنه بعض أحبائه أنه شجاع جرىء لا يبالى بتضحية النفس لمصلحة غيره ، وإما لأنه يعتنق مبدأ لا يسمح لنفسه بأن تحيد عنه ، وهو مبدأ التعاون

والتفانى فى خدمة المجتمع ، ومساعدة الضعفاء بكل ما يمكن من الوسائل .

فهنا تتغلب الإرادة على النزعات القوية ، وتتجه إلى الناحية التى تشتد فيها المعارضة للسلوك الخلقى . وهنا تبلغ الإرادة أعلى مراتبها ، وتقدم عاطفة احترام النفس لها أعظم ما تستطيع من مساعدة . وهذا وذاك دليلان على قوة عاطفة احترام النفس .

فمهما نفكر نجد أن لقوة الإرادة ، ومتانة الأخلاق رابطة بعاطفة احترام النفس .

الإرادة والشخصية وعاطفة احترام النفس :ـــ

تعرف الإرادة بمعناها الأخص أحيانا بأنها الشخصية فى حالتها العملية . وهذا دليل على أن هناك رابطة متينة بين الإرادة والشخصية ، ذلك أن قوة الإرادة مظهر من مظاهر قوة الشخصية ، كما أن ضعف الأولى من مظاهر ضعف الثانية .

وكذلك نرى أن لعاطفة النفس صلة بكل منهما ؛ فمن يحترم نفسه تقوى إرادته فتقوى شخصيته ، ومن لا يحترم نفسه يعرضها للنقد ، ولا يبالى بواجباته الفردية والاجتماعية ، وبذلك يوصف بأنه ضعيف الإرادة ، مفكك الشخصية .

فانعدام عاطفة احترام النفس أو ضعفها أكبر عامل من عوامل تفكك الشخصية أو ضعفها . ومن يرتكب القبيح من الأعمال ، أو يقصر فى واجباته الخاصة أو العامة ، ومع ذلك لا تزال فى نفسه بقية من حياء واحترام للنفس ،

وخجل عند ارتكاب مالا يليق ، ومجانبة للتباهى بسوء الأخلاق — أقول إن شخصا هذه صفاته من السهل إصلاحه ، فليس لنا أن نقطع الأمل فى إرجاعه إلى رشده. أما من ينقصه احترام النفس وإكرامها، فيستهين بالآداب والتقاليد الاجتماعية ، ويخرج عن القوانين الخلقية ، ويظل يقول لنفسه أو لغيره إنه ماجن مستهتر إباحى ، لا يعبأ بما يسميه غيره قانونا — فلا أمل فى إصلاحه ، وليس فى وسع إنسان أن يرجعه إلى رشده ، إلا إذا عادت إليه عاطفة احترام النفس .

هل قوة الإرادة صفة عامة ؟

إن قوة الإرادة عادة من العادات التى تكتسب بالتجارب والتدريب ؛ فهى لذلك خاصة . ومعنى ذلك أن قوى الإرادة فى ناحية قد يكون ضعيفا فى ناحية أخرى ؛ فمن يولع بالصيد والقنص يجدُّ فى ذلك ، ولا يدع فرصة تمر دون أن ينتهزها بإرادة وعزيمة . ومن يعنى باقتناء الكتب الطريفة أو الأدوات الأثرية ، أو بعض أنواع الحيوان أو النبات يجدُّ فى جمعها بجميع الوسائل . ومن يولع بالصيد ربما لا يولع باقتناء الكتب النفيسة . وولع الإنسان بشىء أو بشخص يدفعه إلى الجد والنشاط فى قضاء كل ما يتطلبه .

فالإرادة تقوى بقوة الميل . وكل ميل خاص يدعو إلى اتجاه الإرادة وقوتها فى ناحيته الخاصة ؛ ولذا يجب على من يود تقوية إرادته على العموم أن ينمى فى نفسه ميولا متعددة ، أو ميلا متعدد النواحى . ولا يكون ذلك إلا بتربية عاطفة احترام النفس والاعتداد بالذات وتقويتها ؛ لأن من يحترم نفسه احتراما

تاما يسعى فى تكميلها بجميع الوسائل ، ولا تكمل النفس إلا إذا اتسع أفقها بحيث يشمل جميع نواحى الحياة . ومن يعتد بنفسه وبكرامتها لا يهدأ له بال حتى يستطيع قهر ما يعترضه من الصعوبات ، والتغلب على ما يصادفه من العقبات .

ولسنا نريد بذلك أن يغلو المرء فى الاعتداد بنفسه فيطلب المحال ، أو يعرض حياته للآلام والأخطار المحققة ، أو يسير فى طريقه لا يلوى على أحد وهو غير واثق من نتيجة عمله ؛ فإن ذلك عيب من عيوب الإرادة الممقوتة قد يؤدى إلى الجمود العقلى ، أو العناد أو الزهو والغرور ، أو الاستهانة بقوانين الطبيعة البشرية ، وسنن الله الكونية .

فليس من الحزم فى شىء البرهنة على قوة الإرادة بمحاولة تسلق الجبال من غير مساعد ، ولا بالاستحمام بالماء المثلج فى الشتاء ، ولا باقتحام الغابات من غير دليل ، ولا بطعن الصدر بسكين أو خنجر ، ولا بمخالفة الجماعة واتباع مذهب تبين خطؤه ، ولا بالتمادى فى الباطل بدلا من الرجوع إلى الحق .

فقوة الإرادة الرشيدة لا تكون عامة إلا إذا نما الاعتداد بالذات ، وقويت عاطفة احترام النفس بالتدريب والتجارب المختلفة ؛ فإنها حينئذ تمد كل باعث من البواعث الحيوية بقوة عظيمة ، وتساعد الإنسان فى الوصول إلى الغاية المحمودة التى يضعها نصب عينيه ، بعد أن يجزم بأنها غاية مرغوب فيها .

تضارب الميول والعزم :

إن العمل الإرادى بمعنى الإرادة الأخص يستلزم وجود فكرتين

متعارضتين على الأقل تفصل بينهما الإرادة ، وترجح إحداهما على الأخرى ، وينتهى الأمر باختيار العمل وفق ما تقضى به الفكرة المرجحة . ولكن طبيعتنا البشرية من ناحية وبيئتنا المركبة المملوءة بالمثيرات والرغبات من ناحية أخرى كثيرا ما تؤديان إلى ميول ونزعات متعددة متضاربة ؛ فليس منا من يخلو من تضارب الأفكار والميول، وقلَّ منا من لا تضطره الظروف من حين إلى آخر لأن يقف موقف الحائر المضطرب ، المضطر للتفكير العميق للمفاضلة بين بعض هذه الميول وبعض ، والوصول إلى حل للمشكلة ، ووضع حد لهذا التضارب .

والإنسان يتعلم من هذا التضارب ، ويستفيد من التفكير فى حل مثل هذه المشاكل ، والتخلص من التنافر العقلى والتردد المؤلم . وهذا مما يؤدى إلى ضبط الميول ، وتنظيم الشخصية ؛ فى كل مرة يقف فيها المرء هذا الموقف المحير ، ويصل إلى حل نهائى لمشكلة من المشاكل يخطو خطوة نحو تثبيت شخصيته وتنظيمها ، سواء أكانت خُطاه متجهة اتجاها حسنا أو سيئا . فما الشخصية إلا مجموعة الميول الفطرية أو المكتسبة المنظمة ، التى تجعل الإنسان يلبى نداء المثيرات الخارجية بطريقة خاصة ، لاسيما ما يتعلق منها بحياته العامة ، وبعلاقته بمن هم حوله، وبمن يتصل به من أبناء جنسه .

والتضارب قد يكون بين فكرتين إحداهما إيجابية تحفز الإنسان إلى العمل ، والأخرى سلبية تدعو إلى الاستمرار على الحالة الراهنة ؛ كما يحدث أحيانا حينما تدعوك واجباتك اليومية إلى الاستيقاظ من النوم وترك الفراش ، وفى الوقت نفسه تحرضك نفسك على البقاء بالفراش والتمتع بالدفء والهدوء ،

والبعد عن جلبة العالم الخارجى وضوضائه وشروره . ففكرة النهوض إيجابية ، وفكرة البقاء سلبيـة ، والمرء يبقى بينهما حائرا مترددا فترة من الزمن تختلف طولا وقصرا ؛ فربما لا تتجاوز مقدار لمح البصر مع قوىّ الإرادة الحازم النشيط ، وقد تبلغ دقائق كثيرة فى حالة الكسلان المتباطئ .

والنهوض معناه تغلب الفكرة الإيجابية التى تستمد قوتها فى النهاية من عاطفة احترام النفس . والبقاء بالفراش يدل على تغلب الفكرة السلبية التى تستمد قوتها من ضعف تلك العاطفة . ومن قوة محبة الراحة والكسل ، ومن الاستهتار وعدم المبالاة بالواجب .

وهناك حالة أخرى يظهر فيها التردد والحيرة بل القلق والألم العقلى ؛ وذلك حينما تكون هناك فكرتان إيجابيتان تدعوان الإنسان إلى العمل فى ناحيتين متناقضتين ، بحيث إذا تحققت إحداهما ترتب على ذلك عدم تحقق الأخرى ؛ كما إذا دعى الإنسان إلى حفلتين حدد لهما وقت واحد ، وهو يرغب فى كل منهما ، ولا يستطيع تفضيل إحداهما على الأخرى . حينئذ تعتريه حيرة واضطراب ؛ لأنه يعلم أنه إذا حضر إحدى الحفلتين فسيأسف على عدم حضور الأخرى ؛ ومن المؤكد أنه لا يستطيع حضورهما معا . وقد ينتهى الأمر بتركهما معا ، والاشتغال بعمل آخر . ولا ريب أن ذلك حل غير مرض أيضا ؛ لما يترتب عليه من عدم راحة الضمير .

ومن الظواهر الغريبة فى مثل هذه الأحوال أن الإنسان إذا جال بخاطره تفضيل إحدى الفكرتين وهمّ بتنفيذها مر بخاطره أيضا مزايا الأخرى، وخيل

إليه أنها أولى وأحق بالتفضيل ، ولا يزال كذلك حتى يضيق الوقت ، وتأزف الآزفة ، فيجمع أمره ، وينفذ إحدى الفكرتين ، أو يتركهما معا بدون تنفيذ كما سبق .

وكثيرا ما يحدث أن الإنسان بعد اختيار أحد الأمرين يسلى نفسه باعتقاد أنه أحسن الاختيار ، ولا تزال مزايا هذا الأمر تقوى فى نظره ، ومزايا الأمر الثانى تضعف عنده ، حتى يعتقد تمام الاعتقاد أنه أصاب الاختيار. وهذا ما يسمى « تبرير النفس أو تصويبها » (١) . وهو يرجع إلى ميل النفس إلى التخلص من الألم بانتهاج منهج معروف ، وإلى غريزة حب الظهور التى تأبى إلا أن يعتقد الإنسان فى نفسه الحزم وسداد الرأى .

والقرار النهائى الذى يصل إليه الإنسان يصبح أشبه شىء بالعقيدة التى تصير جزءا من نفسه ، لدرجة أن من ينقدها أو يعيبها يكون كمن ينقد صاحب القرار أو يعيبه . مثال ذلك حالة طالب يحصل على شهادة الدراسة الثانوية فى الآداب، فيفكر فى اللحاق بكلية الآداب ، أو بالقسم الابتدائى من معهد التربية مثلا ، ويظل مترددا ، يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، ويرى فى كل من المعهدين مزايا لا تنكر ، حتى إذا ما دنا آخر المدة المقررة للانتساب قدم طلبه إلى معهد التربية. وبعد اللحاق بها يتعصب لرأيه ، ويعتقد أن ما فعله هو الصواب ، ويصير هذا الرأى جزءا من مكونات عقله ، فلا يقبل أن ينتقده أحد ، وتعظم فى نظره قيمة معهد التربية ، وتقل قيمة كلية الآداب . وما ذلك إلا لأن النفس

---

(1) Self Justification or Rationalization.

المترددة المتألمة من التردد تميل إلى الهدوء والسكينة ، ولأن غريزة حب الظهور تحمل الإنسان على تحسين أعماله ، مهما تبلغ من القبح فى نظر غيره .

والناس يختلفون فى طريقة الوصول إلى حل مشاكل التضارب العقلى . بل إن الشخص الواحد قد يسلك طرقا مختلفة باختلاف ظروفه وأحواله ؛ فتارة ينظر إلى كل من الفكرتين المتضاربتين على حدة ، ويفحص عنها فحصا فلسفيا ، ويعرف مالها وما عليها ، ويزنها بميزان الحكمة ، وبعد التفكير والبحث يصل إلى حل يرتضيه . ويساعده فى ذلك مقدرته على التخيل ، وتصور ماينجم عن تنفيذ كل من الفكرتين ؛ فيرى بعينى عقله أن إحدى النتيجتين حسنة مقبولة ، وأن الأخرى سيئة مردودة ، فيجمع أمره ، ويصدر قراره .

وهذه خير طريقة للتفكير الصحيح ، وأصدق مثل لقوة الإرادة . ولكنها قلما تتبع بالفعل ؛ لأن الغالب أن الإنسان ينقصه الوقت الكافى للتروى والتمهل ، ويعوزه الخيال الصحيح ، ولا يستطيع النظر إلى المستقبل نظرة صادقة محيطة بجميع ظروفه وأحواله . وإذا توافرت عند شخص من الأشخاص هذه الشروط فقد يكون مجرد التروى والتمهل مؤلما له إلى حد ما .

فالذى يحدث فى معظم الأحوال أن يتبع المرء طريقا وسطا ، فلا يفرط ولا يفرط فى التروى والتدبر .

وقد يحدث أحيانا أن يعجز الإنسان عن الوصول إلى حل نهائى لوقته وساعته ، فيترك الأمر سواد ليله ، ويصبح الصباح وإذا هو يشعر باطمئنان لأحد الأمرين ؛ فترجح إحدى الفكرتين فى نظره ، بعد أن كان لا يرى بينهما فرقا بالأمس ، وبذلك ينجلى الموقف ، وينتهى الإشكال .

ومن غرائب النفس وأحوالها التى لا نستطيع فهمها تمام الفهم أن الإنسان مع أنه لا يرى أن أحد الأمرين المتضاربين يرجح الآخر فى شىء قد يصل بعد قليل إلى قرار يقضى بتنفيذ إحدى الفكرتين ، وربما يجد نفسه منفذا لها ، دون أن يشعر أنه قد قرر قرارا واضحا يقضى بتنفيذها .

فالفكرتان فى هذه الحالة متعادلتان من الوجهة النظرية ، ولكن إحداهما ظهرت على الأخرى ، وخرجت إلى حيز العمل لغير ما سبب معروف .

وأسوأ حل للتضارب العقلى هو ذلك الذى تتغلب فيه النزعات الممقوتة من الناحية الخلقية على النزعات المحمودة فى نظر العقلاء ، بل فى نظر الفاعل نفسه ؛ فقد يرى شخص من الأشخاص أن اتباع إحدى الفكرتين وتنفيذها هو عين الصواب والحكمة ، وأنه هو المعقول الموافق لقوانين الشرع والأخلاق ، ومع ذلك يقدم على تنفيذ الفكرة السيئة التى يعتقد أنها مخالفة للشرع والعقل .

وذلك الحل السيىء هو نتيجة تغلب الميول السيئة على الميول الحسنة ، وظهور جانب الشر الذى هو جانب اللذات والشهوات البهيمية الذاتية على جانب الخير الذى هو جانب المصلحة العامة والعواطف الإنسانية .

وخير حل لمشكلة التضارب هو حل الرجل المهذب المثقف ، الذى تمكنت من نفسه عاطفة احترام النفس ، ونشأ على حب الخير والمصلحة والخوف من الله ومن القانون ومن الرأى العام ، وعلى الإخلاص للمجتمع الذى يعيش فيه .

فهذه المبادئ إذا ترعرعت وقويت أصبحت كفيلة بالانضمام إلى جانب الميول الحسنة الضعيفة فتقويها كما علمت .

مآل الميول المهزومة :

قلنا إن الغالب أن أحد الميول المتضاربة يتغلب على غيره . وهنا نريد أن نعرف مآل الميول المهزومة المغلوبة على أمرها .

ليست لدينا صعوبة فى أن نعرف أن الميول المغلوبة إذا كانت ضعيفة يشتد ضعفها بالغلبة ، ويكون مآلها النسيان ، فإذا رجعت إلى حظيرة الشعور لا تحظى إلا بالقليل من عنايتنا ، وقد نأسف قليلا على عدم إرضائها ، وعلى تركها دون أن نجرب ما عسى أن يكون لو أرضيناها ؛ فإذا هم شخص بقضاء العطلة الصيفية فى إحدى المدن الساحلية ، وخطر بباله السفر إلى الاسكندرية ، وتجددت فى نفسه رغبة فى ذلك ، ثم تجددت فى نفسه رغبة أخرى فى الذهاب إلى بور سعيد ، بدلا من الإسكندرية ، فإنه قد يظل مترددا بين الرغبتين إلى أن تقوى لديه الرغبة فى الذهاب إلى الإسكندرية فينفذها . أما الرغبة فى السفر إلى بور سعيد فإنها تضعف ، ولا تزال تضعف حتى تنسى . ومع ذلك قد تعود لنفسه فكرة الذهاب إلى بور سعيد ، وقد يأسف لعدم تنفيذ رغبته الأولى ، ويندم على عدم تجربة زيارتها ، ومشاهدة مناظرها ، بدلا من زيارة الإسكندرية .

هذا بالنسبة للرغبات والميول الضعيفة . أما الرغبات القوية المغلوبة على أمرها فلا نقول إن مآلها أن تنسى ، بل نقول إنها قد تؤجل حتى يأتى وقت مناسب لظهورها وتنفيذها . وقد تظهر مستترة بلباس غير لباسها الحقيقى ؛ كما إذا حاول الإنسان إخفاء الرغبة فى الانتقام من عدوه ، وهى رغبة كما تعلم

قوية ، وإنما يريد إخفاءها وتأجيلها لأن ظروفه لا تسمح بإظهارها وتنفيذها ، وترغمه على سلوك مسلك أدبى مع عدوه ، ففى هـذه الحالة يكون سلوكه نحو عـدوه مريبا ، يخالطه عنصر من الحقد والتهكم ، وما ذلك إلا لأن الرغبة فى الانتقام ظهرت بمظهر آخر غير مظهرها الحقيقى ، فلبست لباس الحقد والتهكم . وقد يحل محل الميل الأصلى المغلوب على أمره ميل آخر متصل به تظهر آثاره فى السلوك ؛ كما إذا اضطر من يميـل إلى الإعجاب بنفسه ، والتحدث بمزاياه إلى تسلية نفسه بالإعجاب بأهله ، والتباهى بعشيرته ووطنه .

وحلول ميل حسن محل ميل قبيح متصل به هو ما يسمى بإعلاء الميول ، وهو ظاهرة نفسية يشبه إعلاء الغرائز .

وقد تبقى الميول المقهورة مغلوبة على أمرها دائما حتى تكبت ، وتنتقل إلى حظيرة العقل الباطن . وفى هذه الحال يضطر العقل الشاعر إلى انتحال الأعذار لكبت[1] تلك الميول المكبوتة ، وتبرير نفسه بالنسبة لها ، متبعا فى ذلك عملية خاصة تسمى « عملية الدفاع »[2] ليس هنا موضع شرحها .

ويكفى أن نقول هنا : إن كبت الميول القوية فى نظر علماء عـلم النفس التحليلى معناه انتقالها من عالم الشعور إلى عالم اللاشعور ، حيث تبقى فى حالة نشاط ، وإن لم يشعر به الإنسان . وتظهر آثارها بطريقة رمزية فى أثناء النوم بصور أحلام ، وفى حالة اليقظة بصور أمراض عصبية ، أو شذوذ فى السلوك .

ومن واجبات المربى أن يجد سبيلا صالحا لظهور الميول القوية المـكبوتة ، حتى لا تضر بكيان المتربى العقلى ، فالتلميذ المعتز بنفسه ، المحب للسيطرة قـد

(1) Suppression. (2) Defence Mechanism.

يكون عرضة للضعف العقلى إذا غلب على أمره ، وأرغم على الطاعة العمياء . فالأولى أن نحول ميله هـذا إلى النواحى الصالحة ، بجعله رئيسا لبعض الفرق فى اللعب أو الخطابة أو الموسيقا أو التمثيل أو غير ذلك على حسب استعداده الخاص .

بذل الجهد فى تذليل الصعوبات : —

إن تنفيذ الرغبة ، ووصول الإنسان إلى غرضه لا يتم بمجرد القرار النهائى الذى يصل إليه بترجيح أحد الميول المتضاربة على غيره ، بل إنه قد يضطر بعد ذلك للتغلب على الصعوبات ، وذلك لا يكون إلا ببذل جهود متواصلة حتى يبلغ الإنسان مأربه ، ويصل إلى غايته .

فكما نتغلب على المشكلة النفسية التى هى التضارب العقلى بالوصول إلى قرار نهائى كذلك نتغلب على الصعوبات الخارجية ببذل المجهود والنشاط .

وقد تكون الصعوبة مادية كما إذا اعترض الإنسان فى سيره أحجار أو رمال أو جبال أو أنهار . وقد تكون معنوية كما إذا حالت إرادة خارجية دون تنفيذ إرادتك ، وكما إذا أصيب المرء بمرض تقلب الإرادة أو جموحها ، الناشئ عن عدم القدرة على حصر الانتباه ، والمثابرة على العمل ، وكما إذا لم يستطع الشخص تنفيذ رغبته لنقص فى مهارته أو ذكائه ، أو لأن الميول المكبوتة تظل تقلق راحته ، وتعرقل مساعيه ، وتحول دون اتجاهه إلى غرضه اتجاها مسددا موفقا . وفى جميع هـذه الحالات تشتد حاجة الإنسان إلى بذل المجهود .

فالشعور بالصعوبة ، أو العلم بأن هنـاك عقبة فى الطريق هو الذى يثير نشاط الإنسان ، ويضطره لبذل المجهود إذا كان من دأبه النشاط ، وحب التغلب على الصعوبات . أما إذا كان دأبه التكاسل فإنه يبقى خائر العزيمـة ، ضعيف الإرادة إذا صادفته عقبة ، وإن قلت قيمتها .

وليس مقدار المجهود الذى يبذله الإنسان فى عمل من الأعمال واحدا فى جميع الأحوال ؛ بل إن لذلك ثلاث مراحل هى :

(١) مرحلة البدء .

(٢) مرحلة النشاط والخرق .

(٣) مرحلة المهـارة .

ففى أول الأمر يكون المجهود وسطـا ، لأن الإنسان لا يشعر بصعوبة . وبعد أن يرى الطريق وعرا ، والمسلك صعبـا يقف موقف المستطلع الباحث الذى يريد أن يعرف أين يذهب وأين يسير ، ويقبل على العمل بجد ونشاط ، ويبذل أقصى ما لديه من جهد ، ومع ذلك قد تـكون بعض حركاته زائدة على الحاجة ، ويعتريه اضطراب وخرق فلا يحسن مايعمل . وبعد التدريب الـكافى يكتسب مهارة فى العمل ، فيؤديه بطريقة شبه آلية ، مع بذل قليل من المجهود . وهـذه عينها هى المراحل التى يتبعها التلميذ فى تعلم علم من العلوم أو فن من الفنون كالـكتابة والقراءة والرسم .

وقد يحل الذكاء فى بعض الأشخاص محل بذل المجهود المادى فى بعضهم الآخر ؛ فقوى الجسم والعضلات يحل المشكلة بمجهوده الجسمى ، وقوى الذكاء والعقل يحل المشكلة نفسها بمجهوده الفكرى ؛ فالأول يلطم عدوه لينتقم منه ،

والثانى يؤلم عدوه بالعبارات الجارحة التى تشعل نار حميته ، فيعتريه الخزى ، وتعلو وجهه حمرة الخجل . والأول إذا وجد بابا مغلقا يريد فتحه ولا يستطيع فتحه بمفتاح يدفعه برجله أو بيده بقوة فيفتحه . وأما الثانى فيستعين بمعلوماته عن الروافع فيفتحه بآلة خفيفة الحمل، سهلة الاستعمال .

نشأة الإرادة وتطورها :

إن لنشأة الإرادة وتطورها فى حياة الطفل تاريخا عجيبا ! فالوليد لا تظهر عليه أمارات الإرادة أو النزوع الذاتى نحو عمل من الأعمال ، فإذا كبر وأخذت مداركه العقلية فى النمو أخذت نزعاته الذاتية فى الظهور بالتدريج ، بدليل أنه يقوم بأعمال وحركات عضلية ترمى إلى أغراض ظاهرة ؛ كما إذا بحث عن ثدى أمه ، أو زحف نحوها ، أو نظر إلى بعض الأشياء البراقة ، أو تحرك نحو اللعب الجذابة .

ومن حيث إن الحركات الإرادية أو النزوعية لابد أن تسبقها أفكار فإننا نجزم أنها لا تصدر عن الطفل إلا بعد أن تقوى حواسه ، وتستطيع القيام بوظائفها، وينمو إدراكه بحيث تتكون لديه أفكار يرغب فى تنفيذها بحركاته الإرادية.

فقوة الحواس ونمو الإدراك شرطان أساسيان لنمو الإرادة ؛ إذ الإرادة فى أبسط حالاتها تستلزم وجود فكرة سابقة ، وحركة لاحقة ، ورغبة فى تنفيذ الفكرة تتخلل الأمرين . وحينما يتكرر العمل الإرادى يحل التفكير فى الغرض محل التفكير فى الحركة ، وبذلك تتكون العادة ، وينشأ العمل العادى الذى تكون العناية فيه موجهة نحو الغرض الأساسى ، لا إلى الحركات الموصلة إليه .

كيف تتجدد فى نفس الطفل أفكار عن الحركات ؟

من المعلوم أن المجموع العصبى على العموم ، والخلايا المخية على الخصوص منبع نشاط حيوى ، وأن هذا النشاط منذ خروجه من المراكز العصبية وانتشاره فى العضلات يحمل هـذه العضلات على الحركة انقباضا وانبساطا ، وأن هـذه الحـركات العضلية تسبب إحساسا مؤلما أو سارا ، وتكون بذلك سببا فى حركة أخرى .

وإننا نشاهد الطفل يقوم بهـذه الحركات إبان حياته يقظا كان أو نائما ، ونعرف أن كثيرا من هذه الحركات اتفاق . ولكننا نعرف أيضا أن من بين هذه الحركات حركات يشتد تأثيرها فى شعور الطفل ، وتكون موضع عنايته ـ دون إرادة منـه ـ لكونها تسره أو تؤلمه . فهذه الحركات الشديدة التأثير هى التى تمد الطفل بأفكار واضحة عنها ، وهـذه الأفكار لا تفتأ تطرق باب الشعور ، وتتزاحم أمامه وتحاول الدخول إلى ساحته ثم إلى بؤرته ، ويكون نجاحها فى ذلك بمقدار قوتها . فالأفكار التى تصل إلى بؤرة شعور الطفل بما لها من قوة هى التى تكون سببا فى نمو رغباته ، وظهور إرادته ، فيندفع إلى أعمال مناسبة لها إن كانت سارة ، وتنكمش عضلاته ، وينفر من إطاعتها إن كانت قد ارتبطت بحوادث مؤلمة فى حياته الماضية . وإننا نرى الطفل مع ذلك يقلل من أعماله الاتفاقية التى لا توصل إلى نتيجة ،ويكتفى بالأعمال التى لا بد منها للحصول على رغبته ، وقد يشاهد ذلك فى سلوكه فى أثناء الثلاثة الأشهر الأولى من حياته .

ولا تظهر إرادة الطفل ورغبته الفعالة فجأة ؛ إذ أن هناك مرحلة سابقة للإرادة الذاتية الإيجابية، تلك هى مرحلة الملاحظة السلبية ، التى فيها يكتفى الطفل بأن يكون بمثابة المراقب فقط ، وذلك حينما يرى نفسه منتبها إلى أشياء خاصة متأثرا بها ، ملبيا دعوتها بالقيام بحركات نحوها دون إرادة منه. فحركات الطفل لا تسمى إرادية إلا إذا تدخلت إرادته ورغبته فى أعماله ، واحتلت إرادته منزلة بين التأثر بالمؤثر الخارجى وبين تنفيذ الفكرة الناشئة عن هذا التأثر .

فإذا رأى الطفل جسما براقا فتوجه نحوه مباشرة لم يكن عمله هذا ناشئا عن إرادة ، ولكنه إذا رأى تفاحة فأثارت رؤيتها فى نفسه أفكارا طيبة عنها ، فتجددت فى نفسه رغبة فى القبض عليها وأكلها ، فهم بتنفيذ رغبته بإرادته فإن ذلك يدل على أن له شخصية ، وأن له نزعات إرادية .

وقد دلت التجارب على أنه ليس فى سلوك الطفل حتى نهاية الشهر الثالث من عمره ما يبرهن على أن لديه نزعات إرادية محدودة . ومن المرجح أن الإرادة تأخذ فى الظهور بعد ذلك ، وتظهر آثارها فى ضبط الحركات ، وحسن توجيهها . فإذا تكونت لدى الطفل مجموعة من الأفكار الواضحة المحدودة اشتدت رغباته وتحددت ، وأخذت أعماله الإرادية فى الازدياد .

وليست أفكار الطفل عن أعماله وحركاته هى وحدها المسئولة عما يقوم به من الأعمال ؛ إذ أن مشاهدة غيره يعمل عملا من الأعمال كثيرا ما تحمله على أن يحاكيه ويعمل مثل ما يعمل ، وأكثر ما يكون ذلك فى عهد قوة النزوع نحو المحاكاة والتقليد .

يقول (بولدوين) : « إن أول ما يظهر على الطفل العادى من علامات نمو

الإرادة أنه يحاول محاكاة غيره من الناس فى أقوالهم وأعمالهم ، وتحقيق فكرة خطرت بباله ، أو تمثيل حادثة تخيلها » . والمحاكاة كما تكون للغير كذلك تكون للنفس ؛ فالطفل أحيانا يحاكى نفسه بالقيام بعمل قام به من قبل فأعقب سرورا وتوفيقا . وأظهر ما يكون ذلك فى الأعمال الطبيعية الغـرزية التى يصحبها السرور ، فإن هـذه تلفت نظر الطفل وتسترعى انتباهه ، وتكون بمثابة نماذج يحاكيها عند حدوث ما يتطلبها من الأسباب ، ويثيرها من المثيرات الخارجية التى تعيد إلى ذاكرته ذلك السرور الماضى المرتبط بها ؛ وذلك كما إذا شعر طفل بالجوع فأخذ يبحث عن طعام يطفئ به ناره ، فإذا به يرى خزانة الطعام تحوى مالذ وطاب ، فيحاول فتحها ، فيفلح فى محاولته ، ويأخذ ما يحتاج إليه . فإذا وقع نظره على هذه الخزانة مرة ثانية وهو جائع مر بذاكرته ما فعل فى الماضى، وما شعر به من سرور عند حصوله على طلبه ، فيأخذ فى عمل ما عمل مرة ثانية ، محاكيا فى هذه المرة نفسه فى المرة الأولى . ومثل ذلك كثير مشاهد فى تجارب الأطفال بل الـكبار .

صفات الإرادة عند الطفل :

طبيعى أن الطفل الذى تنقصه التجارب ، والنظر إلى المستقبل ، والتبصر فى عواقب أعماله أن تكون إرادته خاضعة لوجدانه أكثر من أن تكون خاضعة لفكره ورويته ، ولذا تراه يلبى نداء شهوته ، ويندفع إلى أعماله بدافع الرغبة والحاجة الوقتية ، فالذى يريده ويقدم عليه هو الذى يرغبه ويشتهيه .

وطبيعى أيضا أن الطفل الحـديث العهد بالحياة ، الذى تتسابق المؤثرات

الخارجية المحسة إلى حواسه يكون ذا إرادة جامحة متنقلة من حال إلى حال ؛ فهو إذا شرع فى عمل لا يلبث أن يتركه ويبدأ عملا آخر . وهو فى ذلك خاضع لطبيعته وغرائزه ، وعلى الأخص حب الحركة والاطلاع .

ومع هذا وذاك نرى الطفل أحيانا عنيدا متمسكا برأيه ، لا يصغى للنصيحة ، ولا يأبه بالإرشاد . وما ذلك إلا مظهر من مظاهر حب الظهور والسيطرة . والمشاهد أنه لا يتصف بهذه الصفة صفة العناد أو المشاكسة إلا أمام من يظن فيهم الضعف ، أما أمام من يعتقد فيهم الحزم والقوة فإنه يكون سلس القياد ، لين العريكة مطواعا . وفى هذه الحالة يكون أكثر تأثرا بالإيحاء الخارجى الذى يأتى إليه من طريقين هما : أولا — طريق الأفكار والأوامر التى يسمعها ممن يعتقد أنهم يفوقونه بقوتهم الجسمية أو مقدرتهم الفكرية ، وثانيا طريق محاكاة هؤلاء فى أعمالهم وأقوالهم .

ولكون قوى الطفل الجسمية والعقلية محدودة تراه عرضة للشعور بالتعب بعد بذل قليل من المجهود فى عمل واحد ، ولهذا تنقصه المثابرة على العمل ، ويعوزه ضبط النفس ، والانتباه إلى الشىء الواحد مدة طويلة .

وليس فى اتصاف الطفل بهذه الصفات شىء يدل على ضعف فى شخصيته أو إرادته أو منزلته العقلية ، ولكنه دليل على أن إرادته لا تزال فى دور النمو ، وفى حاجة إلى التربية والتهذيب . فليس لنا أن نلوم الطفل أو نوبخه على شىء منها ، ولكن علينا أن نحسن قياده ، ونرشده إلى الطرق القويمة ، ونعوده قوة الإرادة وضبط النفس بالوسائل التى ستعرفها فيما بعد .

أنواع الإرادة :

إن الناس يختلفون فى الطريقة التى يتبعونها لتحويل أفكارهم ووجداناتهم إلى أعمال ، فمنهم :

(١) ذو الإرادة الطائشة ، الذى لا يفكر ولا يتروى ، ولا يوازن بين بعض الميول وبعض ، ولا ينظر إلى المستقبل نظرة جدية ، مسترشدا بالتجارب ، مستعينا بالذكاء والفطنة . ومنهم :

(٢) ذو الإرادة الجامحة ، الذى يندفع إلى العمل مع شىء من الروية ، ولكنه لا يلبث أن ينتقل إلى عمل آخر قبل أن يتم عمله الأول ، فمثل هذا ينقصه ضبط النفس، وقوة الإرادة . ومنهم :

(٣) صاحب الإرادة المعتقلة ، المترددة الضعيفة ، الذى يأتى عند مرتبة الموازنة بين الميول ويقف ، أو يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، فلا يصل إلى قرار نهائى. وإذا وصل فإنما يكون ذلك « بعد فوات الوقت » . ومنهم:

(٤) صاحب الإرادة الحازمة القوية ، وهى المثل الأعلى ؛ إذ أنها تنفذ ما يقضى به التفكير والتروى فى حينه .

وتتجلى الإرادة الطائشة بأجلى مظاهرها فى صغار الأطفال والمجانين ،

فهى فى الصغار طبيعية ، وفى الكبار مرض من الأمراض يسمى « هايبر بوليا [١] » . وهى ترجع إلى عدم قدرة المراكز العليا على ضبط المراكز السفلى ، إما لعدم نمو الأولى كما هى الحال فى الأطفال ، و إنما لخلل فيها ، كما هو الحال فى المجانين .

وتظهر الإرادة الجامحة فى عصر الطفولة الثانى حوالى السنة الثامنة ، حينما يميل الطفل إلى الاطلاع على الأشياء الكثيرة التى تكون ببيئته ؛ فهو يعنى بهذا ، ثم ينتقل إلى ذاك وهكذا . وهذا راجع إلى نمو غريزة حب الاطلاع ، وولع الطفل باللعب والحركة ، وعدم قدرته على ضبط نفسه وحصر ذهنه فى شىء واحد مدة طويلة . « فالمنبهات الخارجية » المتعددة تثير نشاط الطفل ، ولعدم قدرته على حصر ذهنه فى شىء واحد مدة طويلة تراه ينتقل من شىء إلى آخر ، ويكون مثله فى ذلك مثل الجائع الذى يرى أمامه أنواعا كثيرة من الأطعمة فتراه يأخذ جزءا من كل نوع .

وللإرادة المعتقلة أسباب منها : عدم وجود الباعث النفسى على العمل ، أو ضعف هذا الباعث مع وجود المثير الخارجى ، أو عدم الإقدام على التنفيذ مع وجود الباعث والمثير . وقد يصل اعتقال الإرادة إلى مرض من الأمراض يسمى « أبو ليا [٢] » قد يظن الشخص معه أنه غير قادر على تنفيذ إرادته لمعارضته إرادة أخرى لها .

وقد حكى « ريبو [٣] » أن بعض المصابين بهذا المرض كان يترك خادمه

(1) Hyberbulia. (2) Abulia.
(3) Th. Ribot. عالم مشهور من علماء النفس الفرنسيين

واقفا أمامه نحو نصف ساعة دون أن يأخذ منه كوبا من الماء كان قد أمره بإحضاره ، وأن آخر كتب وثيقة قانونية ثم حاول نحو مائة مرة أن يكمل توقيعه عليها . وقد يصل الأمر بالمريض إلى أن يبقى وحيدا هادئا عديم الحركة ، غير قادر على القيام بعمل من الأعمال كأنه مسلوب الإرادة .

وقد يصير الشخص مسلوب الإرادة لا لمرض ولكن لحصر ذهنه فى شىء ما مدة طويلة ؛ كما يحصل لبعض المغالين فى التعبد ، أو الذين يعملون تحت تأثير الإيحاء أو التنويم المغناطيسى .

وقد يكون السبب فى اعتقال الإرادة قوة المانع من العمل ، أو كثرة البواعث وتضاربها ، فيقف الإنسان حائرا أمامها طويلا ، مثال الأول الخوف الشديد من القضاء مثلا أو من ملاقاة الناس أو من انتقادهم . وهذا الخوف يحدث ما يشبه شللا فى الأعصاب والعضلات ، فيحجم الإنسان عن العمل . ومثال الثانى توازن الميول ، وتعادل الأدلة المعاضدة للعمل والمعارضة له ، دون وجود خوف أو ضعف فى العزيمة . وهذا كثيرا ما يحصل لمدمنى التفكير . وقد يكون التردد أو التوانى راجعا إلى عدم الثقة بالنفس أو بالنتيجة التى يصل إليها الإنسان بعد القيام بالعمل . وهنا لا يكون تضارب فى الميول ، ولا نقص فى العزيمة ، ولا خوف من تنفيذ الرغبة ، ولا ضعف فى الإرادة ، وإنما يحجم الإنسان عن العمل لعدم تحققه من الفائدة التى تعود عليه منه .

والخلاصة أن اعتقال الإرادة بمعنى عدم الإقدام على العمل يرجع إلى : (١) مرض عصبى أو (٢) فقد الميل نحو العمل ، أو (٣) عدم القدرة على ترجيح أحد الميول ، أو (٤) ضعف العزيمة ، أو (٥) قوة المانع من العمل ، أو (٦) عدم

القدرة على تنفيذ العمل ، أو (٧) عدم الثقة بالنفس أو بالنتيجة .

ويصحب اعتقال الإرادة فى كثير من الأحيان خوف وذعر واضطراب ذهنى ، وعدم رغبة فى الحياة الاجتماعية ، وانقياد لأحلام اليقظة ، واشتغال بأعمال قليلة الجدوى ككثرة غسل اليد أو الوجه أو تنظيم الملابس أو تنظيفها . وكثيرا ما يشعر المصاب بهذا المرض النفسى بأنه وضيع ضعيف الجاه ، غير قادر على القيام بأعمال هامة ذات نتائج قيمة . ومع ذلك قد تراه يبذل جهدا كبيرا ، ونشاطا غزيرا فى غير طائل لعدم قدرته على توجيه نشاطه إلى غرض يعتد به .

علاج الإرادة الجامحة :

تعلم أن كلا من الإرادة الطائشة والجامحة والمعتقلة غير مرغوب فيها ؛ ولذا يجب على المربى أن يبذل قصارى جهده فى معالجتها .

أما علاج الطائشة فليس من وظيفة المربى ، وإنما هو من وظيفة الطبيب إذا كان طيش الإرادة راجعا إلى خلل عصبى .

وأما الإرادة الجامحة فهى التى قد يرغم المربى على علاجها ، وبذل الجهد فى سبيل كبح جماحها ، وحسن قيادها . فلينظر : —

(١) فقد يكون من الضرورى اختبار مخ الطفل ، ومعرفة مافيه من نقص فى التكوين أو خلل فى التركيب ، فعليه باستشارة الطبيب والاستعانة به على إزالة ذلك الخلل .

(٢) وقد يكون السبب فى جموح الإرادة نقصا فى نظم التربية أو طرق

التدريس ، وحينئذ يكون من الواجب إصلاح هـذه النظم ، واتباع طريقة مشوقة فى التعليم بحيث يضطر الطفل إلى حصر الذهن ، وطول الانتباه .

(٣) وقد يكون الجموح ناشئا عن عدم رغبة الطفل فى المادة التى يطلب منه الانتباه إليها ، فمن الواجب إذاً أن ننتقـل من مادة إلى مادة أخرى يرغب فى تعلمها ، ثم ننتقل من هذه إلى تلك ، أو نبحث عن عنصر مشوق فى التى لا يرغب فيها متبعين فى ذلك وسائل التشويق المعروفة .

(٤) فإذا كان الجموح ناشئا عن قلق أو تعب أو اضطراب وجدانى وجب علينا أن نترك الطفل حتى يستريح ويعود إليه نشاطه .

(٥) وإذا كان الطفل ميالا إلى العناد والمشاكسة اضـطررنا إلى اتخاذ طريقة حازمة معه حتى يعود إلى رشده .

علاج الإرادة المعتقلة أو الضعيفة :

وأما علاج الإرادة المعتقلة أو الضعيفة فمن أهم ما يجب أن يعنى به المربون، لا بالنسبة لمن عهد إليهم بتربيتهم فحسب، ولكن بالنسبة لهم أنفسهم. والواجب مراعاته:

(١) أن يعنى الإنسان عناية خاصة بتحديد الغرض الذى يجب أن يرمى إليه ، إذ بدون ذلك يكون حائرا مضطربا لا يدرى ماذا يصنع . ولا بد أن يكون الغرض حيويا ، ذا قيمة للنفس أو للغـير ، من الممكن الحصول عليـه ؛ لأن الأعمال القليـلة القيمة لا تقبل عليها النفس وهى جادة راضـية ، كما أنها لا تقبل على عمـل ما تعـرف أنه مستحيل الوقوع أو صعب المنال . وإذا كان

الوصول إلى الغرض المطلوب يتطلب الجهود المتواصلة وقتا طويلا فمن الواجب تقسيم العمل إلى أقسام يكون لكل منها غرض فرعى ، بحيث يؤدى الحصول على هذه الأغراض إلى الوصول إلى الغرض الأساسى المطلوب ، لأن العلم بأن الغاية قريبة ، والطريق سهل معبد يحمل على النشاط . ألا ترى أن الطالب يجتهد اجتهادا غير عادى عند قرب الامتحان ؟ وأن المتسابقين ينشطون إذا قربوا من الغاية ؟

(٢) أن يراقب الإنسان نفسه ، ليعرف مقدار تقدمه فى سبيل التغلب على التردد والتباطؤ . وقد عملت تجارب برهنت على أن مراقبة النفس ، وقياس مقدرتها فى ناحية من النواحى مما يؤدى إلى نشاطها ، وزيادة مقدرتها فى هذه الناحية ، ذلك لأن النفس كثيرا ما ترغب فى التقدم والرقى من منزلة إلى أعلى منها . وليس من يسير فى عمله بحسب ميوله كمن يحاول أن يصل إلى غاية خاصة ، وغرض محدود يضعه نصب عينيه .

(٣) أن يحاول الإنسان ما استطاع أن يجعل الغرض الذى يسعى إليه غرضه الخاص المنسوب إليه ، وأن يشعر نفسه أنه مسئول عن أى تقصير أو تباطؤ يحدث فى السعى نحو هذا الغرض ، وأن ينافس فى أعماله العظماء الذين يوثق بهم ؛ فنسبة الغرض إلى النفس ، والشعور بالمسئولية ، ومنافسة العظماء — تصير بواعث نفسية تبث فى النفس النشاط ، وترغمها على الخروج من عالم التردد والأحلام إلى عالم العزيمة والعمل ، وتجعل الإنسان يرغب فى عمله رغبة حقيقية ، تسهل عليه الصعب ، وتفتح أمامه ما أغلق من الأبواب .

وإذا لاحظ المربى فى بعض المتربين ضعفا فى إرادتهم فمن الواجب أن يتنبه إلى ذلك الضعف ؛ لأنه عيب من عيوب الإرادة ، أو مرض من أمراضها .

ومن الضرورى أن يتخـذ جميع الوسائل الفعالة الممكنة للقضاء على ذلك العيب ، والتخلص من ذلك المرض . وهاك أهم الوسائل التى يجب على المربى اتباعها للوصول إلى هذا الغرض :

(١) أن يراقب ضعاف الإرادة من الأطفال مراقبة شديدة بدون إهمال ، وأن يحاول أن يستبدل بضعف إرادتهم قوة .

(٢) أن يزودهم بالأفـكار الصالحة التى تحملهم على العمل .

(٣) أن يبذل جهده فى جعلهم يحولون هذه الأفـكار إلى أعمال بدون تردد ؛ فإن ذلك يعودهم قوة الإرادة ، والسرعة فى تحويل الأفـكار الصالحـة إلى أعمال .

(٤) أن يربى فى نفوسهم قوة الانتباه إلى كل فـكرة صالحة تمر بخواطرهم ، والتفـكير فيها وفى طرق تنفيذها تفـكيرا جديا ؛ إذ لولا هـذا الانتباه لذهبت هذه الفكرة من غير تنفيذ ، أو تحولت إلى عمل صادر عن إهمال وعدم تدبر .

(٥) أن يحملهم المسئولية أحياناً ، ويعهد إليهم ببعض الأعمال التى تحتاج إلى مجهود . ويكون رائده فى ذلك التنشيط والتشجيع لا تثبيط العزائم .

(٦) أن يعود ضـعاف الإرادة الإقدام ولو فى الأمور الصـغيرة فى أول الأمر ، ثم ينتقل بهم إلى غيرها مع اتباع قوانين العادة ، حتى تصبح قوة الإرادة فى عظام الأمور ديدناً لهم ، وعادة من عاداتهم .

(٧) أن يذكر ما للعواطف وقوتها من الأثر فى تقوية الإرادة ؛ فالعاطفة - كما تعلم - باعث قوى يحمل الإنسان على عمل أو أعمال مناسبة لها باستمرار ، فما عليه إلا أن ينمى العواطف المستحسنة ، بإيجاد الفرص المثيرة لها مرات متعددة حتى تثبت فى النفس ، وتصير من عناصر الشخصية ، فتصدر عنها الأعمال الصالحة بدون تردد .

(٨) أن يكون مثلا عاليا للمتربين فى قوة الإرادة ، مع اتباع الحزم فى تصرفاته ، فلا يثير عناد الأطفال ، ولا يوهمهم أنه متظاهر غير جاد فى عمله .

(٩) أن يتعمد أحيانا عدم إرضاء رغبات الأطفال ، وعدم قضاء مطالبهم ؛ ليعودهم ضبط النفس الذى هو عنصر هام من عناصر قوة الإرادة ، أو مظهر من مظاهرها .

مظاهر قوة الإرادة :

كلنا يعرف على وجه العموم الفرق بين قوة الإرادة وضعفها ؛ فالشخص الذى ينفذ عزيمته ويحولها إلى عمل بدون تردد ولا تشكك يسمى قوى الإرادة ، أما الذى يعتريه التردد فى أمره ، والتشكك فى عزيمته ، ويقدم رجلا ويؤخر أخرى فى أعماله فيسمى ضعيف الإرادة .

بيد أنه من الواجب أن تعرف أن قوة الإرادة ليست مقصورة على الإقدام ، ولكنها تشمل الإحجام فى موضعه ؛ فمن يحجم عن الأعمال الضارة ، ويأبى الخضوع للشهوات ، ويبذل جهده فى معارضة النزعات الشريرة العذبة

المقبولة يكون أقوى إرادة من الذى يقـدم على الأعمال السارة التى يترتب عليها منفعة .

فالمرء لا يكون قوى الإرادة إلا إذا كان قادرا على ضبط نفسه ، وبذل جهده فى سبيل تقوية الرغبات الضعيفة المستحسنة ، وإخماد الميول القوية المستقبحة. ولتوضيح ذلك نضرب لك المثل الآتى :

نفرض أنك كنت نائما على فراش وثير صبيحة يوم من أيام الشتاء البارد ، فعنّ لك الاستيقاظ من النوم فى وقت معين ، فشعرت فى نفسك بميل شـديد للاستمرار فى النوم؛ لتتمتع بذلك الفراش الوثير ، وبالمـكان الدافئ الذى كنت به ، ولتتجنب ألم الاستيقاظ والتعـرض للمطر والهواء البارد ، وتـكفى شر الأعمال الشاقة .

ولـكنك بجانب ذلك شعرت أن من الواجب عليك أن تستيقظ وتقاوم هـذه الصعوبات ، فهببت من نومك ، وهممت من فراشـك ، وشرعت فى الاستعداد للخروج وتولى عملك .

فهنا ميل شديد نحو النوم ، وآخر ضعيف نحو الاستيقاظ ، ولـكن جهدك غلب هـذا الميل الضعيف على ذلك القوى وقوّاه فأصبح أقوى منـه . فحينئذ يقال إنك قوى الإرادة ، وما ذلك إلا بتدخـل جهدك الذى بذلته فغلبت به الميل الضعيف على القوى .

وفى ذلك ما فيه من ضبط النفس . أما إذا استسلمت للميل الأول،وبقيت نائما حتى فات الوقت قيل عنك إنك ضعيف الإرادة ؛ لأنك لم تضبط نفسك ، ولم تصبر على مكاره الاستيقاظ ، ولم تبذل جهدا فى سبيل تغلب الميل الضعيف وتقويته . وهاك مثلا آخر :

نفرض أن الظروف جمعتك بعدوّ أثار غضبك ، واستنفد صبرك ، فشعرت بميل قوى للانتقام منه ، ولكنك ضبطت نفسك ومنعتها من الوثوب على عدوك . ففى هذه الحالة أيضا تسمى قوى الإرادة ؛ لأنك ضبطت نفسك ، ولم تطع أمر غضبك ، وبذلت جهدك فى إخضاع ميلك القوى ورغبتك الشديدة فى الانتقام من عدوك . فضبط النفس وبذل الجهد ضروريان فى قوة الإرادة . وتظهر آثارهما فى الإقدام أو الإحجام فى موضعه .

هـذا ولا يكون الإقدام أو الإحجام دليلا على قوة الإرادة إلا إذا تبعه الاستمرار فى العمل أو الترك إلى النهاية ، فالرجـل الذى يشرع فى العـمل المحمود ، ثم يكف عنـه قبل الانتهاء منـه ، وقبل الوصول إلى الغرض المقصود بدون سبب معقول لا يسمى قوى الإرادة ، بل يوصـف بأنه خائر العـزيمة . وإذا انتقل الشخص من عمل قبـل الانتهاء منـه إلى آخر كانت إرادته جامحة أقرب إلى إرادة الأطفال . وكذلك من يكف عن العمل السيئ مدة ثم يرتكبه فيما بعد .

فقوى الإرادة هو من يقـدم على الأعمال التى يعتقد أنها نافعة ، ويستمر فى عملها حتى يتممها ، غـير متأثر بالمغريات الخارجية ، ولا مكترث للصعاب التى تصادفه . أو هو ذلك الذى لا يخضع لشهواته وميوله الشخصية ، ولا يستسلم لهواء الضال ، بل يحسن قيادة ، أو يسعى سعيا حثيثا فى القضاء عليه .

منشأ قوة الإرادة :

إن قوة الإرادة فضيلة من الفضائل ، أو عادة من العادات التى لا تتحقق

إلا باستكمال شروط العادة التى عرفتها ، فهى إذاً من الأمور المكتسبة التى يحصل عليها المرء بالتجارب والتعود . وهى مرتبطة كما علمت بالعواطف وغيرها من الميول الفطرية أو المكتسبة .

وقلما نجد بين مشهورى الرجال وعظماء التاريخ من لم يكن قوى الإرادة ، لا سيما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقادة الجيوش ، وساسة الأمم .

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى فى قوة الإرادة ، يدلك على ذلك قوله لعمه أبى طالب ـ حينما أراده قومه أن يكف عن دعوتهم إلى دين الاسلام : « والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

ولنا فى نابليون من بين رجال التاريخ الحديث أظهر مثل لرجل الإرادة ، فقد حكى عنه أنه كان يكره أن يسمع من أحد أن يقول « لا أعرف » أو « لا أستطيع » أو « مستحيل » ؛ فكان إذا سمع الأولى يقول « تعلم » ، وإذا سمع الثانية يقول « اعمل » ، وإذا سمع الثالثة يقول « حاول » .

ضبط النفس :

قلنا إن ضبط النفس من مظاهر قوة الإرادة . ويراد بضبط النفس منعها من الاتصاف بالصفات القبيحة ، ومن الاستسلام للشهوات ، وارتكاب ما لا يليق من الأعمال المستهجنة .

وهو ضرورى للإنسان ، لا من الوجهة الكمالية فحسب ، ولكن من وجهة التنمية الجسمية والعقلية والخلقية أيضا ؛ فالإنسان لا ينمو فى النواحى المستحسنة

إلا إذا ضبط نفسه ، ومنعها من الاسترسال فى النواحى المستقبحة .

وليس ضبط النفس مقصورا على منعها من الشهوات الجسمية ، ولكنه يشمل عدم الاستسلام للانفعالات والعواطف الخارجة عن حد الاعتدال ، وعدم الخضوع للأفكار الجامحة والميول والرغبات الذاتية ؛ إذ أن الاستسلام للانفعالات والعواطف السيئة سبب كثير من الأمراض الخلقية ، كالشره والإسراف والبخل والشراسة وحدة الطبع وسوء المعاملة . أما ضبط النفس فمن أسباب كمال الصحة الجسمية والعقلية ، ومن دواعى التحلى بفضائل جماعها العفة . ويكفى أن يكون الضابط لنفسه مسيطرا عليها ، مسيرا لها وفق ماتشاء الأفكار السديدة البريئة ، والميول الخيرية الاجتماعية .

ومع ما لهذه الفضيلة من فائدة جسمية عقلية خلقية نرى أن كثيرا من الناس لا يتحلون بها ؛ فالانقياد للرغبات الذاتية من صفات الضعف الظاهرة فى الطبيعة البشرية الميالة للخضوع لما يهاجمها من الأفكار السيئة ، وما يعاودها من الرغبات الدافعة بها إلى الشر .

نعم إن المرء ليس مسئولا عن مرور الخواطر السيئة والرغبات الشريرة بنفسه ؛ إذ أن من دأبها أن تفاجئ النفس مفاجأة الطفيلى الذى لا يحترم ولا يعنى به ، وإنما العيب كل العيب ، والعار كل العار فى الانقياد لهذه الأفكار الشريرة . والمسئولية تتحقق بالخضوع لتلك الرغبات السيئة بتحويلها إلى أعمال ضارة بالنفس أو بالغير .

وربما يكون من أكبر مشكلات التربية كيفية التخلص من هذه الأفكار والرغبات . بل إن أهم عمل يقوم به المربى لنفسه أو لغيره ، المقوم لشخصيته

أو لشخصية الناشئين من أبناء أمتــه أن يفلح فى محاربة الأفـكار الأمارة بالسوء ، ويتمكن من كبح جماحها وإخضاعها ، واستبدال أفـكار صالحة بها .

هـذا وقد برهنت التجارب على أن مجرد الوعظ قـد لا يكفى للقضاء على هـذه الأفـكار والأعمال التى تترتب عليها ؛ فمن الواجب البحث عن عوامل أخرى نفسية نتمكن بها من الوصول إلى هذا الغرض . وليس هناك من عامل أقوى من محاربة الأفـكار بأفـكار مضادة لها ، ومعاكسة الأعمال بأعمال تعارضها . ويدخل فى ذلك :

(١) عـدم السماح للأفـكار والرغبات السيئة بأن تتحول إلى أعمال ؛ لأن الأفـكار والرغبات التى لا تجد لها منفذا ، ولا تتحول إلى أعمال خارجية تضعف ، بل قـد تموت فى مهدها عقب ولادتها ، أما تلك التى يعد فى أجلها ، وتقضى حاجاتها ، وتنتعش وتستوى على سوقها فيصبح من الصعب — إن لم يكن من المستحيل — القضاء عليها .

ولكن الامتناع عن الأعمال الخارجية قد لا يكون قيما إذا بقيت الأفـكار السيئة محتلة بؤرة الشعور ؛ لأنها قـد تغرى المرء ، وتحمله عاجلا أو آجلا على القيام بأعمال أخرى إذا سنحت لها الفرصة ، وإذا لم تسنح لها الفرصة فقد تضر بحياة الشخص الجسمية والعقلية أو الخلقية . ولذا كان من الضرورى :

(٢) السعى فى استئصال هذه الأفـكار والرغبات ، والقضاء عليها ، كى لا تكون سببا فى فساد الإرادة ، وإغوائها ، والتدخل فى شئونها . ويرى بعض المربين أن نتدرج فى القضاء على هذه الأفـكار والرغبات الفاسدة ، أو أن نخلى أمامها السبل ؛ لأن الفـكرة إذا تحولت إلى عمل رضيت وذهب أثرها .

أما التدرج فلا بأس به إذا أردنا التخلص من عادات ثابتة يصعب التخلص منها دفعة واحـدة . وأما إخلاء السبيل فرأى فاسد ، لأن الرغبة الفاسدة إذا رضيت وذهبت آثارها وقتيا فإنهـا لا تلبث أن تعود ، فإذا تـكرر إرضاؤها أصبحت عادة ثابتة من الصعب اقتلاعها .

ومما يساعدنا على إضعاف هذه الأفـكار ، ووضع حد لإلحاحها فى طلب الدخول إلى حظيرة الشعور ، ثم إبادتها بالفعل :

(٣) التزود بالأفـكار والرغبات والعواطف الصالحة المضادة لهـا ، فإن الأفـكار السيئة إذا حاولت مهاجمة الشعور ، ووجدته محصنا بالحصون المتينة ، محوطا بجيوش قوية من الأفـكار الصالحة ارتدت على أعقابها خاسرة . وكلما هاجمت صُدَّت ، ولا تزال تصد حتى تضعف شوكتها ، ويكون مآلها الخسارة ثم الهلاك .

والتزويد بالأفـكار الصالحة يتحقق بالتلقين ، والقدوة الحسنة ، والإيحاء ، والقراءة فى كتب الأخلاق ، والاطلاع على سير الأبطال ذوى الأخلاق القوية ، والشخصيات البارزة . ومن أقوى الأفـكار أثرا فى إضعاف النزعات السيئة :

(٤) التفـكير فى قيمة النزعات ، والنظر فى عواقبها نظرا جديا ، فإن هذا قـد يدعو الإنسان إلى احتقارها ، والتأكد من أنها لا تساوى الأضرار التى تنجم عنها ، ولا تستحق عناية الإنسان بها ، ولا التأثر بهـا ، وبذلك يظهر قبح الاستسلام لها . وهذا ما يسمى مبدأ النظر فى النزعات نظرة فلسفية الذى كان يقول به اسبينوزا الفيلسوف الهولندى (١٦٣٢ — ١٦٧٧م) .

على أن مجرد وجود الأفـكار والرغبات الصالحة ربما لا يكفى لمعارضة

الرغبات السيئة ، لأن هذه فى الغالب أقوى وأشد نفوذا على النفس ؛ ولذا وجب :

(٥) أن تحول الرغبات والعواطف الصالحة إلى أعمال ؛ لأنها بذلك تثبت فى النفس ، ويقوى شأنها ، وتعلو منزلتها ، وتصبح من العناصر المكونة للشخصية . لأنه إذا كانت الأعمال الصالحة على حسب نظرية (جيمزلانج) تكفى لإيجاد الرغبات والعواطف فهى بتقويتها وتثبيتها فى النفس أحرى . وهذا مطابق لما ذكرناه من أن الفرص وتكرر الأعمال كفيلة بتكوين العواطف ، وجعلها عادات من الصعب الإقلاع عنها . ولذا كان من الواجب مراعاة قوانين العادة عند القيام بالأعمال الصالحة المضادة للرغبات السيئة .

ولكى يكون الإنسان فى مأمن من مهاجمة الرغبات السيئة ، وفى حصن حصين يمنعه من تسربها إليه يجدر به :

(٦) الاختلاط بمن حسنت أخلاقهم ، وعرفوا بقدرتهم على ضبط أنفسهم ؛ فإن لأخلاق الأصحاب والجماعات أثرا كبيرا فى تكوين أخلاق الفرد ، فإذا اختلط الإنسان بمن هذه صفتهم لم يجد فرصة للشذوذ والخروج على قانون ضبط النفس . وعلى مر الزمن يصبح مثلهم حسن الأخلاق ، مسيطرا على نفسه ممسكا بزمامها .

والخلاصة أن ضبط النفس من أجلّ الفضائل التى يجب الاهتمام بها ، وأن أهم الوسائل لتكوينها التخلص من الأفكار والنزعات الشريرة ، ومحاربتها بالقدوة الحسنة ، والأفكار الصالحة ، وتكوين الإرادة القوية القادرة على تنفيذ هذه الأفكار وتحويلها إلى أعمال حسنة .

المراجع بالإنجليزية :ـ

(1) Everyman's Psychology, by J. Adams, ch. IX.

(2) Introduction to Social Psychology, by W. Mc Dougall, ch. IX.

(3) Fundamentals of Psychology, by Dumville. ch. XIV.

(4) Psychology, by Woodworth, ch. XX.

(5) The Teacher's Handbook of Psychology, by J. Sully, part IV, ch, XVIII.

(6) The Child, His Nature & Nurture, by W.B.Drummond, ch. X.

(7) Groundwork of Educational Psychology, by J. Ross, pp. 129-134.

(8) Dictionary of philosophy and Psychology, edited by J. M. Baldwin, article "Will".

الفصل العاشر

عوامل الاختلاف فى السلوك

قد تتحد الظروف والبيئة والمثيرات الخارجية ويختلف الناس فى تأثرهم بها ، ويتباينون فى وجهات أنظارهم نحوها . وذلك راجع إلى اختلافهم فى التكون الجسمى والعقلى من ناحية ، وفى النشأة والتربية من ناحية أخرى . فاذا اتحد الناس فى أنهم يسكنون بيئة واحدة أو بيئات متقاربة ، ويخضعون لظروف طبيعية أو اجتماعية واحدة أو متشابهة فمن المشاهد أنهم لا يكونون سواء فى ميولهم ورغباتهم ونزعاتهم ؛ إذ أن كلا منهم يشق له طريقا خاصا فى الحياة ، ويتعود عادات خاصة، ويخضع لعواطف وميول خاصة . وما ذلك إلا لأن للغرائز والانفعالات والعادات والميول والعواطف والمعرفة والآراء المكتسبة آثارا لاتنكر فى سلوك الشخص . ولكون هذه كلها لابد أن تختلف فى شخص عنها فى شخص آخر نجد أن سلوك أى شخص لا يمكن أن يكون مثل سلوك غيره سواء بسواء فى جميع النواحى .

وقد درسنا فيما مضى الغرائز والميول والعادات والانفعالات والعواطف . والآن نريد — إتماما للبحث — أن ندرس استعدادات أخرى لها تأثير قوى بيِّن فى تصرفات الإنسان العقلية ، وسلطان ظاهر على سلوكه الإرادى واتجاه

نشاطه الحيوى . تلك الاستعدادات هى : السجايا ، والطباع ، والأمزجة ، والأذواق ، والفروق الجنسية ، وإليك بيان كل منها .

١ - السجايا Dispositions

يرى العلامة مكدوجل أن السجية هى : «نتيجة امتزاج الميول الغرزية». أو هى : « جزء ثابت من أجزاء الكيان النفسى يجعل اتجاه النشاط العقلى فى ناحية خاصة سهلا ميسورا » . أو هى : « مجموعة الميول الفطرية التى يُحدث فيها مجرى التجارب الحيوية بعض التعديل ، فيضعف بعضها ويقوى بعضها الآخر ، وفقا لذلك القانون الأساسى الذى مؤداه : أن استخدام العضو يجعله أقدر على أداء وظيفته ، وأن إهماله يدعو إلى بقائه ناقص النمو ، أو إلى ضموره أو فساده[١] » .

ويقول الأستاذ جيمز دريفر[٢] : « إن كلمة السجية كلمة اصطلاحية يستعملها علماء النفس ويريدون بها تكوين العناصر العقلية والعصبية تكوينا خاصا ينشأ عنه سلوك طريق خاص فى الحياة العملية التجريبية . وهى إما موروثة وإما مكتسبة بالتجارب . وقد تتدخل التجارب فى السجايا الموروثة فتحدث فيها بعض التغيير والتعديل » .

(1) See. "Energies of Man P. 172.

(2) James Drever. See his "Psychology of Everyday Life, P. 16.

فالسجية على كل حال وحدة أو عنصر من العناصر العقلية ، أو لون ثابت من ألوان العقل ، داخل فى تركيبه وتشكيله .

ثم إنْ هذا العنصر يكون إلى ناحية الوجدان أجنح ، ولذلك يقول وِلْتُون[1] : «إن السجية هى نتيجة امتزاج الميول الانفعالية ، أو نتيجة امتزاج الغرائز باعتبارها أنواعا مختلفة للوجدان » .

وليست السجية وحدة عقلية أو عنصرا نفسيا هادئا ، بل إن لها آثارا فعلية فى تشكيل سلوك الفرد ؛ فليس من كان من سجاياه العطف على الناس والرأفة بهم كالذى يحنق عليهم ويتربص بهم الدوائر ، وليس من ينظر إلى الأشياء التى حوله وإلى الحوادث التى تمر على مرأى منه ومسمع خلال منظار معتم حالك السواد كالذى ينظر إليها خلال منظار أبيض شفاف ، نظرة المتأمل المدقق الذى يود أن يراها كما هى على حقيقتها .

والعطف ، والحنق ، والتشاؤم ، والتفاؤل ، وغيرها من الصفات الوجدانية الثابتة لا تكون مقصورة على النفس ، ولا تقف عند مجرد حركات النفس وتأججات الصدر ، بل إنها تتعدى حدود النفس ، ويصل خيرها أو شرها إلى الغير ، وتظهر آثارها فى تحديد النشاط واتجاهه ، جسميا كان ذلك النشاط أو عقليا ؛ إذ ليس من المستطاع أن تكون الوجدانات بمعزل عن الأفكار والأعمال .

وتعرف السجية بتغلب نزعة من النزعات الغرزية ؛ ذلك أن الغرائز الإنسانية قلما تمتزج فى شخص من الأشخاص امتزاجا معتدلا متزنا ، بل الغالب أن ترجح إحداها ، وعن ذلك الرجحان تنشأ السجية ، ويظهر أمرها .

وذلك مشاهد ؛ فمن الناس سريع الغضب ، الذى تمكنت غريزة الغضب

(1) See his "Psychology of Education" P. 126-7.

من نفسه ، ومنهم من تغلبت عليه غريزة الخوف ؛ فينشأ ودأبه الوجل والذعر ، أو التردد والجبن ، فيقدم رجلا ويؤخر أخرى فى جميع الأمور . ومنهم من تتغلب عليه نزعة الادخار وحب الاقتناء ؛ فينشأ بطبعه حريصا ، محبا لجمع الأشياء وتكديسها . وكذلك ترى من الناس الشهوانى الخاضع للنزعة الجنسية ، والمغرور الذى سيطرت عليه غريزة حب الظهور وهكذا .

وقد عقد مكدوجل فى أحد كتبه (1) فصلا ممتعا لبيان السجايا، فذكر النزعات الفطرية بحسب ما يرى، ووضع بجانب كل منها السجية الناشئة عن تغلبها على النحو الآتى:

النزعة الفطرية	السجية الناشئة عن تغلبها
الغضب .	التهيج — المشاكسة .
حب الإطلاع .	البحث — التعجب — حب التساؤل .
الخوف .	الذعر — الوجل — الحذر الشديد .
حب التناسل .	الشهوة — حب الألفة .
البحث عن الطعام .	الشره — النهم.
حب الظهور .	الغرور — الإعجاب بالنفس — التكبر .
حب الخضوع .	التواضع — الانقياد — الظرف .
حب الاختلاط .	حب الاجتماع والاتصال بالناس — التودد .
النفور .	التأفف — التأنق .
حب الاقتناء .	البخل — الاقتصاد .
الضحك .	المرح — الاغتباط .
الضجر .	الجزع — الاكتئاب — التوسل .

(1) Outline of Psychology P. 352.

ومن هـذا البيان ترى أن تغلب النزعة الغرزية قد يتصور بصور مختلفة الدرجة ؛ فتغلب حب الاطلاع قد يؤدى إلى حب البحث ، أو إلى شدة التعجب عنـد مشاهدة كل أمر غريب ، أو إلى كثرة السؤال عن أسباب الأشياء ، والمغالاة فى اقتفاء آثارها . وتغلب الخوف قد يؤدى إلى شدة الذعر أو الوجل أو إلى شدة الحذر والحيطة . وتغلب حب الاقتنـاء قد يدعو إلى مجرد الجمع والادخار ، أو إلى البخل ، أو إلى الاقتصاد .

فمن السجايا ما هو حسن ، ومنها ما هو قبيح . وكل منهـا صالحة لأن تصل إلى غايتهـا بالتعود ، وإطلاق السراح لهـا ، حتى تصبح صفة بارزة من صفات الإنسان ، وتكسب الشخصية الإنسانية طابعها ولونها الخاص ، وتتغلب على غيرها من الصفات الفطرية أو المكتسبة ؛ فيقال هذا مغرور بنفسه ، وذاك شهوانى ، وذلك شـكاء بكاء ، وهذه مكتئبة ، وتلك مرحة ، وهكذا .

وإذا تكونت سجيـة من السجايا واحتلت محلها من النفس صار من الصعب ـ إن لم يكن من المستحيل ـ تغييرها تغييرا كليـا . وليس فى طوق الفرد إلا أن يعدل من سجاياه بعض التعديل ، إذا كان ذا إرادة قوية ، وعزيمة ثابتـة ، بحيث يستطيع ضبط نفسه ، وعدم الخضوع لسجاياه ؛ فإذا أفلح فى مخالفة سجية ، وإطاعة أخرى معارضة لهـا ضعفت الأولى ، وقويت الثانية ، وظهرت نتيجة الضعف أو القوة فى السلوك الخارجى .

وليس معنى ذاك أن السجية ذاتها التى هى صفة نفسية ثابتة تتغير تمـام التغير ؛ إذ قلما يصير المتشائم متفائلا ، أو الحقود عطوفا ، أو الغضوب حليما .

٢ – الطباع (١)

يراد بالطبع : الطريقة التى تتبعها النزعات النفسية فى سيرها نحو الأغراض التى ترمى إليها .

والناس يختلفون اختلافا فطريا فى طباعهـم ؛ فمنهـم الجرىء المنبعث (٢) الذى تراه دائمـا نشيطا مقداما ، لا يكاد يرى فرصة سانحة لعمل من الأعمال حتى ينتهزها بكل ما لديه من عزم . هذا فى حين أنك تلاحظ شخصا آخر بطيئا متراخيا (٣) فى الإقبال على عمله ، بحيث إذا سنحت له الفرصة لا يستفيد منها بسرعة ، ولا يتحرك لها حتى تضيع ويمضى وقتها .

وبالإضافة إلى اختلاف الناس فى مقدار إقدامهم على أعمالهم تراهم يختلفون اختلافا بينا فى مقدار ثباتهم واستقرارهم فى أثناء العمل ؛ فمنهم من إذا توجهت نفسه نحو عمل من الأعمال سار فيه سيرا حثيثا ، وثابر عليـه حتى يصل إلى غرضه ، مهما صادف من صعاب ، ووجد فى سبيله من عقبات .

وهذا هو صاحب الطبع الثابت (٤) المستقر ، الذى يرجى منه الخير والمنفعة له ولذويه ، وتتوقع منه الأعمال القيمة الجليلة .

أما صاحب الطبع المتقلب (٥) الجامح فلا يرجى منه خـير ؛ لأنه لا ينفك

(1) Tempers. (2)Urgent, energetic or fiery.
(3) Placid or slow. (4) Steadfast or persistent.
(5) Fickle.

ينتقل من موضوع إلى آخر ، ولا تفتأ الأهواء تلعب به فتسير به أنى شاءت ، وتقـذف به إلى حيث تريد ، فلا يستقر له قرار ، ولا يسـتمر له حال ؛ فتراه يشرع فى عمل من الأعمال وما هى إلا دقائق حتى يعدل عنـه ، ويبدأ عملا آخر ، وهكذا دواليـك ، حتى تخور قواه ، وتخبو جذوة نشاطه ، ويقعد به التعب قبل أن يتمم عملا ، أو يقضى أمرا .

وإنك لترى الناس يختلفون فى طباعهـم من ناحية ثالثـة ، تلك هى : ناحية الشعور الوجدانى (١) الذى يسيطر عليهم الوجدان فى أثناء القيام بأعمالهم ؛ فمنهم من له طبع حساس سريع التأثر من الناحية الوجدانية ، يعتريه سرور وفرح عند النجاح ، وألم وحسرة عند الخيبة ؛ فإذا نجح فى عمل - وإن قلت قيمته - ظهرت على وجهه علائم البشر . وكذلك تراه مرحا مسرورا متفائلا إذا برقت له بارقة أمل فى النجاح فى المسـتقبل . أما إذا خاب فى مسعاه ، أو خاف من الإخفاق فى المستقبل فإنك تراه مكتئبا كاسف البال ، شديد التألم . ويسمى هـذا الطبع الطبع الزئبقى (٢) لأنه يشبه الزئبق فى سرعة تأثره بأى تغير يحدث فى درجة الحرارة .

وعلى الضد من هذا الطبع الهادئ المعتدل (٣) الذى لا يشعر صاحبه بفرح شديد عند النجاح أو الأمل فيـه ، ولا يتألم عنـد الخيبة أو توقعها ، بل إنه يؤدى واجباته وشعوره الوجدانى على الحياد تقريبا ؛ فلا ييأس ولا تهن قواه ،

---

(1) Affectability. (2) MurcurialTemper.
(3) EvenTemper

ولا يتحول عن عمله إذا أخفق فيه مرة ، ولا يشعر بنشاط زائد وشجاعة بينة إذا صادفه النجاح والتوفيق ، ولكنه يسير فى عمله بنشاط معتدل فى كلتا الحالتين :

فالطباع تقاس بثلاثة مقاييس هى :

(١) مقياس الإقدام[1] عند البدء فى العمل .

(٢) مقياس الاستمرار[2] بعد البدء فيه .

(٣) مقياس الشعور الوجدانى .

ولكى نحكم على طبع شخص من الأشخاص يجب أن نقيسه بكل من هذه المقاييس الثلاثة . ونحدد نصيبه من كل منها ، فنعرف إذا كان مقداما مثابرا قوى التأثر بالنجاح أو الخيبة ، أو بطيئا متقلبا رزينا ، أو غير ذلك . فطبع الإنسان العام هو نتيجة امتزاج هذه الصفات المذكورة بصور مختلفة . وقد وجد أن الطباع الرئيسية لا تتجاوز ثمانى صور هى :

(١) بطىء مثابر قوى التأثر الوجدانى .

(٢) مقدام مثابر قوى التأثر الوجدانى .

(٣) مقدام متقلب قوى التأثر الوجدانى .

(٤) بطىء متقلب قوى التأثر الوجدانى .

(٥) بطىء مثابر محايد أو معتدل .

(٦) مقدام مثابر محايد أو معتدل .

(٧) مقدام متقلب محايد أو معتدل .

(٨) بطىء متقلب محايد أو معتدل .

(1) Urgency. (2) Persistency.

ومما لا شك فيه أن لكل من الصفات الثلاث الآنفة الذكر درجات مختلفة الكمية ؛ فللإقدام درجات ، وللمثابرة درجات أيضا . وليست كمية الشعور الوجدانى متحدة فى جميع الأشخاص ؛ فهناك إذا مالا يحصى من الطباع التى لا نستطيع إدخالها فى الطباع الثمانية الرئيسية ، ولا نستطيع الإتيان بأوصاف كافية تحددها .

والرجل العادى الذى لا يكون لطبعه تأثير بين فى شخصيته هو ما كان طبعه وسطا ، أو الذى يكون نصيبه من الصفات الثلاث المذكورة وسطا ؛ فلا يكون مترددا بطيئا بطئا بينا ، ولا مقداما لدرجة الطيش ، ولا يبلغ منه الثبات درجة الجمود ، ولا التقلب درجة الجموح والرعونة ، ولا يعرف عنه أنه شديد الفرح ولا شديد التألم ، ولا عديم الشعور والإحساس الوجدانى ، بل إنه يحتل منزلة بين طرفى كل حالة .

أما من تصل فيه إحدى هذه الصفات أو اثنتان منها أو ثلاثتها إلى أحد الطرفين — طرفى القوة والضعف — فإن طبعه يكون بارزا بحيث يصير مظهرا جليا من مظاهر شخصيته ، وصفة ظاهرة من صفاته ؛ فيقال هذا نشيط ، وذاك متباطئ ، وذلك مثابر ، وذى رعناء ، وهذه طائشة ، وتلك قوية التأثر الوجدانى .

٣ – الأمزجة [1]

قد اختلف العلماء فى تعريف المزاج ، وذهبوا فى بيان سببه مذاهب شتى . ولنذكر لك من التعريفات الهامة ما يأتى : —

أولاً : يرى العلامة مكدوجُل أن المزاج هو : مجموعة الآثار التى تحدثها فى الحياة العقلية التغيرات الغذائية والكيمياوية التى تحدث باستمرار فى جميع أنسجة الجسم .

ثانيا : يقول الأستاذ شاند : إن المزاج هو الشخصية الفطرية الطبيعية ، أو هو ذلك العنصر من عناصر الحياة العقلية الذى يختلف باختلاف الأفراد من الناحية الوجدانية ، وكذلك من الناحية النزوعية على ما يظهر .

ثالثا : يرى الأستاذ مَكّن والعلامة وِلْتُون أن المزاج هو نتيجة امتزاج العناصر المكونة للطبيعة البشرية بنسبة خاصة .

ويكاد يكون من المتفق عليه أن للأمزجة آثارا بينة فى الشخصية ، وأنها تختلف باختلاف الأفراد ، وأنها تحدد وجهة نظر الفرد نحو بيئته ، وتؤثر فى سلوكه إلى حد بعيد جدا .

ومعظم القدماء والمحدثين على أن ظهور مزاج ما يرجع إلى تغيرات جثمانية خاصة ، ولكنهم اختلفوا فى تحديد هذه التغيرات ، كما اختلفوا فى عدد الأمزجة ، وفى أمور تفصيلية أخرى نبينها لك بذكر آراء كل من الفريقين .

(1) Temperaments.

آراء القدماء فى الأمزجة :

إن البحث فى الأمزجة قديم ، وقد تأثر الباحثون فيها بالمذاهب الفلسفية والفسيولوجية التى كانت شائعة فى العصور القديمة من عهد برمنيدس (١) وأمبدوكليس (٢) ومن تبعهم من فلاسفة اليونان والرومان وأطبائهم ، وعلى الأخص بقراط الملقب بأبى الطب ، وجالينوس الذى أخذ عنه أطباء العرب كثيرا من آرائه فى الطب .

فقد كان برمنيدس يقول إن العقل هو نتيجة للتكوين الجسمى المادى .

وكان من آراء أمبدوكليس أن العناصر الأربعة التى هى الهواء والماء والنار والتراب هى العوامل الأساسية فى الكون ، وأن امتزاج هذه العناصر بطريقة خاصة ينشأ عنه وجود كائن له صفاته الخاصة به . وإننا لنلمح خلال هذا الرأى أساسا للعقيدة التى كانت سائدة فى ذلك العصر القديم ، تلك هى : أن الصفات الخاصة بكل فرد ترجع إلى كيفية اتحاد العناصر المادية التى يتألف منها جسمه بنسبة خاصة .

ولما أتى بقراط (٣) بعد ذلك بخمسة قرون بنى رأيه فى الطبيعة البشرية على رأى أمبدوكليس فى العناصر الأربعة ، وزاد عليه أن الأجسام تتكيف ، وتتصف بصفات أربع هى البرودة والحرارة والرطوبة والجفاف ، وباتحاد هذه الصفات مثنى تنشأ الأخلاط أو السوائل الأربعة الهامة التى هى :

---

(1) Parmenides : فيلسوف إغريقى عاش فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن الخامس قبل الميلاد . (2) Empedocles : فيلسوف إغريقى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد . (3) Hippocrates

(١) الدم وينشأ من اتحاد الحرارة بالرطوبة .

(٢) البلغم وينشأ من اتحاد البرودة بالرطوبة .

(٣) الصفراء وتنشأ من اتحاد الحرارة بالجفاف .

(٤) السوداء وهى مزيج من البرودة والجفاف .

وكان يعتقد أن هذه السوائل تنبع من الدماغ ، وأن حدوث خلل فى نسبة امتزاجها هو السبب فى المرض . وقد ورد فى كلامه كلمة معناها «المزاج» ، وكان يريد بها الحالة الصحية الناشئة من امتزاج هذه الأخلاط بالنسبة المطلوبة .

وقد قال إن هذه الأخلاط تتأثر بالغذاء والجو ، وإن الحالة الجوية الخاصة بكل فصل من فصول السنة نتيجة لاتحاد اثنتين من الكيفيات الأربع ؛ فالحرارة والرطوبة تتحدان فى الربيع ، وفى الشتاء تمتزج البرودة بالرطوبة ، وفى الصيف تمتزج الحرارة بالجفاف ، وفى الخريف تمتزج البرودة بالجفاف . وفى كل فصل من هذه الفصول يشتد عمل سائل من السوائل الأربعة ، وتظهر آثاره ظهورا بينا ، فيتغلب الدم فى الربيع ، والصفراء فى الصيف ، والسوداء فى الخريف ، والبلغم فى الشتاء ؛ ولذلك تظهر فى كل فصل أمراض خاصة ناشئة عن زيادة السائل المتغلب فيه على كميته العادية .

والذى يعنينا هنا من كلام هذا الطبيب أنه واضع كلمة « مزاج » ، وأنه أول من تكلم عن الأخلاط الجسمية وآثارها فى الجسم .

أما جالينوس[1] فإنه اتبع تعاليم بقراط فى أمر المزاج ، وبسطها وشرحها

(1) Galen or Galenus : طبيب يونانى الأصل ، عاش من سنة ١٣٠ إلى ٢١٠ بعد الميلاد ، وكان ينتقل بين مراكز العلم وهو صغير ، ثم أقام فى رومة من سنة ١٥٦ ، وعاد إلى برجامس مسقط رأسه ، ولكنه زار رومة بعد ذلك ثلاث مرات أو أربعاً .

شرحا وافيا ، وزاد عليها أن عنصر النفس الأساسى هو أيضا مزيج من الكيفيات الأربع ، أو من عناصر مكيفة بها ، وأن الكبد هى مركز الرغبات والشهوات ، وأن المخ مركز الإدراك والفكر ، وأن القلب مركز الطباع ، وأن شخصيات الناس تختلف باختلاف أمزجتهم ، وأن للمشروبات الغولية والعقاقير المخدرة تأثيرا فى الأمزجة وفى الحياة العقلية .

وقد أخذت فكرة الأمزجة المذكورة تنمو وتنضج بالتدريج على مر القرون الطوال ، واعترف بها أطباء القرون الوسطى ،وشاع ذكرها فى الشعر والأدب حينئذ ، ولم يأت العصر الحديث إلا والأمزجة معروفة محدودة ، لكل منها أوصاف جسمية وعقلية وخلقية على نحو ما يأتى :

قالوا إن المزاج (١) الخاص هو نتيجة تغلب أحد الأخلاط الأربعة الآنفة الذكر ؛

فإذا تغلب الدم نشأ المزاج الدموى . ويكون صاحبه ذا طبيعة حارة رطبة ، أبيض الجلد أو أحمر ، أزرق العينين ، ضخم الجسم ، عريض المنكبين ، صغير الرأس ، مستدير الوجه ، سريعا ضعيفا فى انفعالاته ، سريع الفهم ، سريع النسيان ، منشرح الصدر ، متفائلا ، صريحا ، لا يثبت على حال ، سريع الغضب ، سريع العشق أو الكراهة ، أمراضه منتظمة السير لا تستمر طويلا .

(١) ورد فى القاموس المحيط ولسان العرب ومختار الصحاح والمصباح تعريفات للمزاج تشبه هذا التعريف . والظاهر أن كلمة مزاج لم تستعمل بهذا المعنى فى العربية إلا بعد تأثر العرب بالفلسفة الإغريقية والرومانية .

وإذا تغلبت الصفراء نشأ المزاج الصفراوى . ويكون صاحبه ذا طبيعة حارة جافة ، ويعرف بحدة بصره، وشحوب لونه، وسواد شعره وعينيه ، وهو سريع قوى فى انفعالاته . ومن أوصافه العقلية الثبات على العقيدة والمبدأ ، والميل إلى نوع من الأعمال لا يألف غيره . وفيه ميل للطمع وحب النفس ، والتغيظ والانتقام . وعنده استعداد لمرض الكبد والقناة الهضمية المزمن الذى ربما يتحول إلى ماليخوليا .

وإذا تغلبت السوداء نشأ المزاج السوداوى أو العصبى . ويعرف صاحبه بالبرودة والجفاف فى طبيعته ، وبكبر المخ والجمجمة وصغر الجسم ، وبروز العروق ، وسواد الشعر . والغالب أن يكون طويل القامة ، رقيق الجلد ، دقيق العضلات ، ضعيف اللون ، بطيئا قويا فى انفعالاته . ومن أوصافه العقلية الاستعداد للأعمال العقلية الراقية كالتخيل والتفكير ، وهو سريع الفهم، متوقد الذكاء ، وفىّ أمين ، محب للحق ، متشائم ، متئد فى سيره، بطىء التأثر بالحوادث ، ضعيف النوم ، يتخلل نومه أحلام رديئة ، وعنده استعداد لكثير من أمراض المخ .

وإذا تغلب اللمف والبلغم نشأ المزاج البلغمى . وطبيعة صاحبه باردة رطبة . ويعرف بانتفاخ الجسم ، وشحوب اللون ، ورخاوة البدن، وبطء التحرك — يتعبه أدنى حركة — وفقد الشهية ، وقلة الأكل ، وعسر الهضم ، وهو بطىء ضعيف فى انفعالاته . ومن أوصافه العقلية التروى والبطء فى الأعمال العقلية ، والاعتماد على النفس ، والميل إلى المنافسة فى عظائم الأمور مع الصبر والتؤدة .

هـذه هى الأمزجة الأربعة وأوصاف أصحابها . ولـكى تستطيع موازنة بعضها ببعض بسهولة ، وتعرف مبلغ الاختلاف أو الاتفاق بين العلماء فى بيان أوصافها نذكر لك رأيى اثنين من أشهر من بحثوا هـذا الموضوع بحثا تاما ، وهما رأيا رتشراند وستوارت(١) .

أما رتشراند فإنه قسم الأمزجة وبين أوصافها على النحو الآتى :

المزاج	صفات صاحبـــــــه	
	الجســـمية	العقليـــة والخلقيـــة
(١) دموى	أصهب البشرة والشعر ، قوى الجسم ، سليم البنية .	سريع التأثر ـ متقلب ـ قوى الذاكرة ، مولع بالمسرات وتجـديد المنـاظر والأعمـال ، أقرب إلى سرعة الخاطر منه إلى الاتصاف بالعبقرية .
(٢) صفراوى	أسـمر البشرة ، أسـود الشعر .	نشيط ـ قوى الوجدان ـ مثابر ـ قوى الآمال .
(٣) سوداوى	مضطرب الجهاز العصبى ، ضعيف القوى الحيوية .	كثير الظن ـ مضطرب الخيال ـ ولـكنه قادر على أن يكون عبقريا نابغة .
(٤) بلغمى	شاحب الوجـه ، رخو الجسم ، يظهر عليه الخمود .	ضعيف الانتباه والذاكرة ـ كسلان ، وربما يكون عرضة للاضطراب العصبى .
(٥) عصبى	صغير الجسم والعضلات .	خفيف الروح ـ متقلب ـ عرضـة للاضطراب العصبى إلى حد كبير .

(1) Richerand. and Stewart.

عاش الأول فى القرن الثامن عشر ، والثانى فى القرن التاسع عشر الميلادى .

وأما ستوارت فيقسم الأمزجة ، ويبين أوصاف أصحابها على النمط الآتى :

المزاج	أوصاف صاحبه	
	الجسمية	العقلية والخلقية
(١) دموى	أصهب البشرة ـ أزرق العينين ـ مستدير الوجه، ممتلئ الجسم بدين .	مائل إلى الرعونة ـ مرح ـ سريع التأثر ـ متحمس ، غير مثابر ـ قواه العضلية تفوق العقلية .
(٢) صفراوى	شاحب اللون ـ ذابل العينين ـ ممتلئ الجسم بدين .	قوى الوجدان ـ شديد الغيرة ـ مثابر ـ تنقصه شدة الحذر ـ يفضل الحياة العملية .
(٣) لمفى أو بلغمى	أسمر البشرة والعينين ـ مستدير الوجه ـ ممتلئ الجسم بدين .	بطىء متثاقل ـ بطىء التهيج ـ مثابر ـ غير متحمس ـ ملتوى السلوك ـ مولع بالراحة الشخصية .
(٤) عصبى	صافى البشرة . أرمد العينين، مستطيل الوجه ـ طويل العنق ـ نحيف القوام .	أرعن ـ سريع التهيج ـ قوى الخيال ـ مثابر على العمل ـ يحب الأعمال العقلية والعضلية .

ويلاحظ أن ستوارت حذف المزاج السوداوى بحجة أن السوداء هى فى الحقيقة الصفراء فى حالة تركيز ، وأنه قد أحل المزاج العصبى محل المزاج السوداوى .

آراء المحدثين فى الأمزجة :

أما المحدثون فقد برهنوا على خطأ المتقدمين فى تحديد عدد الأمزجة ، وفى إرجاعها إلى تغلب أحد العناصر التى ذكروها . وهم وإن احتفظوا إلى حد كبير بأسماء الأمزجة وصفات أصحابها التى قال بها المتقدمون ـ يرجعونها إلى أسباب أخرى .

فمعظمهم على أنها ناشئة عن تغيرات جسمية تؤثر فى المخ والمجموع العصبى تأثيرا ينشأ عنه ائتلاف مظاهر الشعور الثلاثة بنظام خاص تظهر آثاره فى السلوك ؛ فإذا نشأ عن هذا الائتلاف تغلب عنصرى الوجدان والنزوع نشأ المزاج الدموى ، أما إذا تغلب الوجدان وحده فينشأ المزاج الصفراوى ، وينشأ المزاج السوداوى من تغلب النزوع والتفكير على الوجدان ، والبلغمى من ضعف الوجدان والنزوع وقلة التروى . ولذا نرى من المحدثين من يعدل عن الأسماء القديمة ، ويضع أسماء أخرى بدلا منها وهى : العملى والانفعالى والفلسفى واللا وجدانى (١) .

ومنهم من يقسم الأمزجة على أساس الإفرازات التى تفرزها بعض الغدد الباطنية ، وتؤثر فى سير المخ والجهاز العصبى والسلوك العقلى على النحو الآتى (٢) .

---

(1) Practical, Emotional, Contemplative and Apathetic. See: "Psychology of Education" by J. Welton P. 113-126.

(2) See Temperament, by c. Bloor P. 47-48

الإفراز الغدى المتغلب	المظاهر	
	جسمية	عقلية وخلقية
(١) تايروكسين (إفراز الغدة الدرقية)	صهبة اللون - استقامة الأنف - قوة البنية - قوة الأسنان - غزارة الشعر ، بريق الأعين .	سرعة الإدراك الحسى - قوة الإدراك على العموم - الميل إلى التهيج الشديد - التعرض للتعب العقلى .
(٢) الأدرنالين (إفراز الغدة التى فوق الكلية)	غزارة الشعر وجفافه - انتشار نقط ملونة على البشرة .	النشاط والمثابرة على العمل - النجاح والمهارة - التعرض لبعض الأخطار فى الحياة العملية .
(٣) إفراز الغدة النخاعية		
(ا) الجزء الأمامى	نمو الجسم نموا حسنا ، وتأدية وظائفه بانسجام .	قوة إدراكية فائقة - ضبط النفس إلى حد كبير جدا - النشاط العضلى .
(ب) الجزء الخلفى	النحافة - الشحوب .	حدة المحبة والعشق - وأكثر النساء ومن يتشبه بهن من هذا النوع .

التقسيم الثانى :

يميل بعض المحدثين من علماء النفس إلى تقسيم الناس من حيث أمزجتهم وسلوكهم إلى نوعين حركى وإحساسى (١) . وهذا فى الحقيقة تقسيم للمزاج

(1) Sensory and Motor Types. See "Everyman's" Psychology by Sir J. Adams, P. 153-158.

العصبى أساسه انقسام الأعصاب إلى أعصاب حركة وأعصاب حس ؛ فإذا كان الاعتماد على أعصاب الحركة نشأ النوع الحركى . أما إذا كان الاعتماد على أعصاب الحس فإن الإنسان يكون من النوع الإحساسى .

ويعرف الحركى بأنه يجيب داعى كل مؤثر خارجى بسرعة ، وبأنه إذا رأى رأيا نفذه فى الحال ، وإذا أوحى إليه بفكرة أسرع إلى العمل بها .

فعنصر النزوع والإدراك مرتبطان تمام الارتباط فى النوع الحركى ؛ لأنه إذا سمع أطاع ، وإذا رأى الرأى أتبعه بالعمل .

والحركى عرضة للتسرع فى الأحكام ، والوصول إلى نتائج مبتورة أو خاطئة .

أما الإحساسى فيعرف بالتباطؤ ، وبالتروى قبل الإقدام على العمل ؛ ولذا يوصف أحيانا بأنه كسلان . وتفكيره هادئ مؤد فى الغالب إلى نتائج صحيحة ، فدقته تقوم مقام ماينقصه من سرعة ، كما أن سرعة الحركى تكسبه شخصية خاصة ، وتعوض عليه مافاته من دقة وترو .

ويؤخذ من التجارب التى قام بها (بلدوين وفوييه) وغيرهما أن معظم البنات من النوع الحركى ، وأن معظم البنين من النوع الإحساسى . هذا بين الأطفال ، أما بين الكبار فمعظم الرجال حركيون ، وأغلب النساء إحساسيات .

ويرى العلامة (فوييه) (1) العالم الفرنسى الشهير أن المزاج الإحساسى يرجع إلى تغلب عملية الهدم فى أنسجة الجسم ، وأن المزاج الحركى ينشأ عن تغلب عملية الهدم على عملية البناء .

ويرى أن من الإحساسيين :

(١) النشيطين الذين يسرعون إلى إجابة داعى المثيرات الخارجية وهؤلاء هم أصحاب المزاج الدموى . ومن أوصافهم الجسمية بياض البشرة ،

(1) Fouillée. انظر كتاب السير جون آدمز السابق الذكر ص (١٦١ — ١٦٢)

وشقرة الوجه ، وخفة لون الشعر ، وقصر الرقبة وغلظها ، واستدارة الرأس ، وقوة الأنف وكبره .

ومنهم :

(٢) من يقبلون على أعمالهم بشيء من البطء ، ولكنهم ينغمسون فيها انغماسا تاما وهم السوداويون . ومن صفاتهم الجسمية الميل إلى الشحوب ، ووضوح ملامح الوجه ، وبياض البشرة ، وخفة لون الشعر والعينين ، وطول الرقبة ورفاعتها ، وصغر الأنف ، وسهولة حركة الخياشيم ، ورخاوة الجسم ، وجفافه وسمنه ، وتثلث الوجه .

ويرى فوييه أيضا أن من الحركيين :

(١) من يتأثرون بالمثيرات الخارجية بسرعة ، فيقبلون على أعمالهم بنشاط وينغمسون فيها ، ويؤدونها بكل ما لديهم من عزم ، وهم الصفراويون الذين يعرفون بشحوب الوجه أوسمرته ، وسمرة الشعر ، ومتانة الجسم وجفافه ، وعمق النوم ، واصفرار اللون ، وتهيج الكبد عند الانفعال .

ومنهم :

(٢) من عنده شغف بالأعمال ولكنهم يتباطئون فى الإقبال عليها وفى أثناء القيام بها ، وهم البلغميون . ومن أوصافهم الجسمية رخاوة الجسم ، واتساع الأنف ، وقصر الرقبة فى الغالب ، وعدم نضارة الوجه ، وقلة الشعر ، وسواد لونه أو سمرته ، وانعدام اللحية أو خفة لونها ، وخضرة العينين أو سمرتهما ، وذبولهما .

وبهذه الطريقة جمع (فوييه) بين التقسيم الثنائى وتقسيم القدماء وتسميتهم .

ويقرب من تقسيم الناس إلى إحساسيين وحركيين تقسيمهم إلى تأمليين فلسفيين (١) ونزوعيين عمليين (٢) على رأى يونج (٣) السويسرى العالم النفسى، والطبيب الماهر المعروف .

وأساس هذا التقسيم هو وجهة نظر الإنسان نحو بيئته ، والوسيلة التى يتخذها لمقاومتها ؛ فالتأملى هو ذلك الذى تروق فى نظره الخيالات، بحيث ترجح الحقائق الواقعية ، ويميل إلى إعداد نفسه لبيئته بتكوين الأفكار فى نفسه أكثر من القيام بأعمال خارجية ؛ فهو أقرب إلى أن يكون فيلسوفا من أن يكون عالما طبيعيا مولعا بإجراء التجارب والقيام بالملاحظات المختلفة لاختبار فروض يفرضها ، والبرهنة على صحة نظريات توصل إليها .

أما العملى فيعنى بالحقائق الخارجية الواقعية أكثر من الخيال، ويعد نفسه لبيئته بالشعور الوجدانى القوى لا بالفكر البحت ، ويقاومها بالعمل الخارجى لا بالتخيل والاستسلام للأحلام ، وتتغلب فى نفسه الميول العملية على الميول الفلسفية الإدراكية .

وقد يغلو التأملى فيصل إلى مرتبة الحالم « السارح الشاطح » ، الذى يفقد الصلة بالعالم الخارجى الواقعى ، ويعكف على الخيالات والأوهام .

وقد يصل العملى إلى درجة الصرع أو الجنون فلا يستطيع ضبط نفسه ، ولا يقدر على القبض على زمامها ، ويصير لعبة فى يد الأهواء والأفكار الشاردة . ثم إن التأملى قد يصير محبا لنفسه ، متعلقا بها ، شغوفا بمصالحها؛ فنظراته

(1) "Introverts". (2) Extroverts. (3) Dr, Jung, See his book: "Psychological Types".

تكون فى الغالب ذاتية موضوعية ، لا خارجية غيرية . وهو فى الغالب يكتفى بأن يكون من النظارة لا من العاملين الممثلين ، ويميل إلى الهرب من تحمل التبعات ، ومن التجديد فى النظم والتغيير فى القوانين ، ويحب الانكماش ، ويتملق بالحالات الراهنة .

أما العملى فيشعر بالعظمة النفسية من ناحية ، ولا يقصر جهوده على مصالحه الخاصة من ناحية أخرى ، ويفضل أن يكون من الممثلين على أن يكون من النظارة ، ويشعر بالثقة بنفسه فى المسائل الاجتماعية ؛ ولذا تراه يتصل بالجماعات وهو واثق من أنه سيصادف احترام الناس أينما ذهب ، ويبذل جهده فى أن يجعل الناس يثقون به ويعتمدون عليه فى تدبير شئونهم .

والتأمليون يصلحون للأعمال التى لا تحتاج إلى حركات مستمرة، كالأبحاث العلمية الفلسفية وغيرها من الأعمال الفكرية ، والأعمال الكتابية ، وقيد الحسابات ، وتنظيم المكتبات ، والألعاب الفكرية كلعب النرد والشطرنج .

أما العمليون فيصلحون للأعمال التى تحتاج إلى نشاط دائم كالتجارة والصناعات المختلفة ، وقيادة الجيوش ، والتمثيل على المسارح ، والألعاب والمسابقات الرياضية الجمعية أو الثنائية .

ومن الأعمال الحيوية ما يحتاج إلى الجمع بين المزاجين إلى حد ما ؛ فالشرطى من النوع العملى على الأخص ، ولكنه إذا أحب أن يكون من رجال العسس السرى فعليه أن ينمى المزاج التأملى فى نفسه . والمدرس فى حاجة

إلى مزيج معتدل من المزاجين . وإذا كان له أن يميل إلى إحدى الناحيتين فليكن إلى العملية أجنح لأنه إليها أشد حاجة .

هل من الممكن تغيير المزاج ؟

قد اختلفت العلماء فى الإجابة عن هـذا السؤال ؛ فقال ديكارت (١) : « إن العـقل يتأثر بالأمزجة وبالحالة التى عليها أعضاء الجسم ، لدرجة أنه إذا كان من الممكن أن نجد وسيلة بها نجعل الإنسان على العموم أعقل وأقدر وأعلى منزلة ممـا وصل إليه حتى الآن فإنى أعتقد أنه من الضرورى أن نبحث عن هذه الوسيلة فى عالم الطب » .

وهناك من يقول إنه ليس من المستطاع مطلقا إحداث أى تغيير فى المزاج ، فمن الواجب فى رأى هؤلاء أن يبذل كل فرد قصارى جهده فى الانتفاع بمزاجه الذى منحه الله إياه ، ولا يحاول تغييره ، فإن محاولة كهذه ضرب من العبث .

وهناك فريق ثالث يقول إن المزاج ليس قابلا للتغيير فحسب ، ولـكن تغييره قضاء حتم لامفر منه . ومن هؤلاء هِرْمان لُتزه (٢) الفيلسوف الألمانى الذى رأى أن مزاج كل منا يتغير بانتقاله من مرحلة من مراحل الحياة إلى التى تليها ؛ فـكل مرحلة لهامزاج خاص يناسبها ؛ فالطفل يبدأ حياته بالمزاج الدموى ، ولا شك أن مميزات هـذا المزاج تتمثل فى الطفل لأنه متقلب سريـع التأثر بالمثيرات الخارجية .

---

(1) René Descartes: فيلسوف فرنسى مشهور عاش من سنة ١٥٦٩ الى سنة ١٦٥٠م .
(2) Rudolf Herman Lotze. (١٨١٧ – ١٨٨١م) .

والمزاج الملازم لمرحلة الشباب هو السوداوى ، إذا فهمنا من هـذا المزاج مايشمل قوة العاطفة ، والميـل إلى تمثيل الحوادث والأعمـال . ويمتاز عصر الرجولة بأنه عصر المزاج الصفراوى ؛ إذ الرجل العادى الذى حنكته التجارب يميل إلى التروى والتفكير فى العواقب . أما عصر الشيخوخة فهو عصر المزاج البلغمى ؛ لأن الكهل يكون فى العادة متعبا مثقلا متشائما يتوقع الموت، ويحزن على حرمانه مسرات الحياة وملذاتها .

ونحن وإن كنا نوافق هـذا الفيلسوف على أن المزاج الدموى أظهر فى الطفل ، وأن البلغمى أظهر فى الكهل لا نوافقه على أن جميع الشبان أصحاب أمزجة سوداوية ، ولا على أن جميع الرجال ذوو أمزجة صفراوية ؛ إذ المشاهد أن الناس فى هاتين المرحلتين من مراحل الحياة يختلفون فى أمزجتهم اختلافا كبيرا. على أن هناك عوامل أخرى لتغيير الأمزجة غير عامل السن .

فبعض المحدثين يرون رأى القدماء فى أن للمناخ تأثيرا كبيرا فى الأمزجة ، مستندين فى ذلك إلى مايشاهد من أن أمزجة من يسكنون الأقاليم الباردة ليست مثل أمزجة من يسكنون الأقاليم الحارة ، وأن من ينتقل من مناخ بارد ويستوطن بلادا حارة يكتسب مزاجا غـير مزاجه الأول ، ولكن هـذا الدليل الأخير لا يبرهن لنا تمـاما على تأثير المناخ فى المزاج؛ لجواز أن تكون السن هى المسئولة عن هذا التغير .

هذا وقد دلت التجارب على أن تغيير الأغـذية تغييرا خاصا يحدث تغييرا كبيرا فى الأمزجة ؛ فقد وجـد أن لبعض الميول الإجرامية أو العادات المضرة بالمجتمع الناشـئة عن بعض الأمزجة علاقة بنوع الطعام الذى يتناوله المجرم .

وقـد لحظ بعض الأطباء أن إطعام القتـلة المجرمين نوعا خاصا من الطعام يخفف من أمزجتهم ، ويلطف من طباعهم . وقد وجـد أيضا أن تناول بعض العقاقير والأدوية باستمرار يؤدى إلى تغـير محس فى الأمزجة ، وتقدم فى الأخلاق ، وبعد عن الإجرام .

ومن النتائج التى وصل إليها الأطباء فى العصر الحديث أنه من المستطاع تنظيم الإفرازات الباطنية ، وتـكميل ما فيها من نقص ، ونقص ما فيها من زيادة بطرق مباشرة ؛ وذلك بحقن الدم بمواد تقوى الضعيف ، وتضعف القوى من تلك الإفرازات ، وبذلك يمكن تعديل الأمزجة وتغييرها إلى حد كبير جدا. ولا يبعد أن يأتى يوم يستطيع فيه الإنسان أن يغير من نزعاته النفسية بتناول العقاقير أوالحقن بالسوائل المختلفة، وبذلك يتحقق ما تنبأ به (ديكارت). ولـكن من المشـكوك فيه على كل حال أن تفلح هذه الوسائل الطبية فى تغيير النزعات النفسية إذا لم يكن من العقل نفسه مساعد لها ؛ فليس من المؤكد أن يصـير ذو المزاج الدموى أو البلغمى صاحب مزاج سوداوى مثلا إلا إذا كانت عنده رغبة شـديدة فى ذلك ، وميل قوى نحو إطاعة مايمليه عليـه المزاج الجديد . فللدافع النفسى الإدراكى تأثير كبير فى تغيير الأمزجة .

ونستطيع أن نقول — على وجه الإجمال — إن عنصر المعرفة والإدراك من بين عناصر الشعور يمكن أن يكون بمثابة وسيط بين العنصرين الآخرين: الوجدان والنزوع ؛ فالإنسان بفـكره الثاقب قد يرى أن بعض الأعمال يؤدى إلى نتائج وجدانية غير مرضية، فيفـكر فى اتخاذ الوسائل اللازمة لتحسين هذه

النتائج ؛ إذ ممـا لاشك فيه أن للعقل تأثيرا فى الجسم ، كما أن للجسم تأثيرا فى العقل . وهناك كثير من الروايات التى تروى عن وصول تأثير العقل فى الجسم إلى درجـة إيلامه بدون سبب مادى مؤلم ، وإبرائه من ألم مادى كان يحسه ؛ فمن السهل جدا أن العقل يحمل الجسم على مقاومة بعض النزعات الإيجابية أو السلبية الناشئة عن حالات جثمانية أو عن أمزجة ، وحينئذ يستطيع الإنسان أن يقبض على زمام هذه النزعات المزاجية مرة بعد أخرى حتى يخضعها لإرادته ولو بعض الإخضاع — وإن كان لا يستطيع أن يغير مزاجه الطبيعى تغييرا تاما دفعة واحدة ؛ فصاحب المزاج الحركى مثلا يمكنه أن يمنع نفسه من القيام ببعض الأعمال التى من عادته أن يهـم بعملها بدون تفكير ، كما أن صاحب المزاج الإحساسى يقـدر أن يحرض نفسه أحيانا على أن يعمل أعماله بسرعة زائدة على المعتاد ، مع بقاء هذا إحساسى المزاج وذاك حركيا .

ولكن حذار أن يعمد المرء إلى محاولة ما لا طاقة له به ، أو يرغم غيره على محاكاة مثـل عليا لا طاقة لهم بمحاكاتها ؛ ففى ذلك شىء من المخاطرة . ومن الحزم أن يسير المرء نحو ما يريد بقدر ما يستطيع ، وأن يحاول أن يبرز — إلى أقصى حد ممكن — الصفات الحسنة الكامنة فى نفسه أو فى نفوس من هم تحت نفوذه من المتربين .

وخلاصة القول أن للسن والمناخ والطعام والشراب والعقاقير الطبية والبواعث النفسية آثارا بينة فى تغيير الأمزجة .

وتتميما للفائدة نقتبس لك من كلام المحدثين ما يعاضد ما ذكرناه ، ويوضحه لك توضيحا تاما .

يقول الأستاذ مكن [١] :

« لا ينبغى أن نعد المزاج عنصرا واحـدا من عناصر الطبيعة البشرية ؛ إذ هو — على الأحرى — نتيجة للكيفية التى امتزجت بها هـذه العناصر. وإننا إذا حللنا المزاج وجدنا أنه يتألف من عناصر متعددة . . ولا شك أن هناك فروقا بين كل رجل وغيره من الناس ، ولـكن هذه الفروق ليست فى العناصر الأساسية المكونة لجسم كل منهما وعقله ، بل فى تغلب أحد هذه العناصر على غيره تغلبا نسبيا » .

و« المزاج هو نتيجة ذلك الامتزاج . وهو بدخوله فى نسيج الحياة ذاتها يؤثر فى كل ما يصل إلى عقل الشخص ، وفى كل ما يعمله ، من فجر حياته إلى غروب شمسها . وهو بمثابة واسطة فعـالة تتخلل غضون التجارب وتكسبها لونا خاصا . وهو بدوره قابل للتغير تغيرا ظاهرا ؛ لأن كل مؤثر يغير الـكيفية التى بها ائتلفت العناصر المـكونة لـكيان الشخص لا بد أن يغير المزاج بطبيعة الحال . ومع ذلك نقول إنه قلما نستطيع أن نحدث انقلابا تاما فى أمزجتنا ؛ لأنها مرتبطة تمام الارتباط بالحالة التى تآلفت بها قدرتنا واستعدادنا للإحساس والتفكير والنزوع والوجدان بجميع أحوالها المختلفة تآلفا طبيعيا طبق ما قدره الله لنا » .

« وينتج من ذلك أننا نضل إذا حاولنا أن نرجع المزاج إلى عنصر واحد من عناصر كياننا العقلى أو الجسمى دون غيره ؛ فإننا لن نعثر على سره الغريب فى التكوين الجسمى فقط ، ولا فى الحساسية الانفعالية ، ولا فى الإحساسات

(1) John Maccunn. See. The Making of Character P. 13-15.

العامة أو العضوية التى تلون أحوالنا النفسية ، وتؤثر فيها تأثيرا عميقا وإن كان غامضا » .

« لا جدال فى أن لكل من هذه أثرا فى المزاج ، وأنها تعمل عملها فيه إلى حد بعيد جدا ، ولكنه لا يصل من السذاجة إلى درجة أنه يصير مثل أحدها ؛ فإنه — على الأحرى — يشبه آلة طرب ذات عشرة أوتار تحدث نغمات مختلفة باختلاف كيفية إعدادها، وطريقة الضرب عليها » .

« وينتج مما تقدم أيضا أن المزاج يتشكل بأشكال مختلفة ، ويظهر بمظاهر شتى ؛ فقليل من العناصر يكفى لتكوين عدة وحدات متآلفة مختلفة باختلاف نسبة الامتزاج. وإننا إذا فكرنا كيف أن نواحى حياتنا الإدراكية والوجدانية والنزوعية يمكن أن يختلط بعضها ببعض بطرق مختلفة ظهرت لنا الحاجة الماسة إلى أن نحذر القارئ من أن يسىء فى تمثيل صور الطبيعة البشرية المختلفة المتنوعة بتحديدها وتخفيض عددها إلى ما يعد على الأصابع » .

ويقول الأستاذ مكدوجل [1] : —

« نستطيع أن نعرف المزاج بأنه مجموعة الآثار التى تحدثها فى الحياة العقلية التغيرات الغذائية والكيمياوية التى تحدث باستمرار فى جميع أنسجة الجسم ؛ فبعض هذه الآثار يحدث من تسرب بعض المواد الكيمياوية من أحد أنسجة الجسم إلى الدم، ومنه إلى المخ حيث تؤثر فى أنسجته العصبية .

وإننا ندخل تحت العوامل المكونة للمزاج عددا من العناصر الفطرية الداخلة فى تكوين حياتنا العقلية المؤثرة فى سلوكنا العقلى . وإن تأثير هذه

(١) هذه عبارات مقتبسة من كتب مكدوجل المختلفة .

العوامل قد يكون ضئيلا فى وقت ما ، ولكنه يعتبر مسئولا عن كثير من ميول البالغ العقلية ، لعظمه فى مجموعه ، ولكونه يجعلنا نميل إلى ناحية خاصة من نواحى السلوك باستمرار فى أثناء النمو العقلى » .

« والمزاج كما رأى القدماء يرجع على الأخص إلى التكوين الجسمى ؛ أى أن لتأثير سير أعضاء الجسم الهامة فى الحياة العقلية منزلة ظاهرة فى تكوين الأمزجة . ولكن هناك عوامل أخرى أيضا . ومن المستحيل إدخال هذه العوامل كلها تحت كلى واحد أو كليات محدودة . وليس من الممكن أن نعين أنواعا من الأمزجة محدودة العدد كما فعل المتقدمون وبعض المحدثين ؛ لأن الأمزجة تعد نتائج لتلك العوامل المتعددة المستقلة استقلالا نسبيا » .

« والحقيقة أننا لا نزال على أبواب البحث ، وأننا لم نعرف إلا القليل عن حقيقة المزاج وأحواله ، وأن تقدمنا فى هذه الناحية من نواحى البحث متوقف على التقدم فى علم وظائف الأعضاء بنوع خاص ، وأننا لم نأت بجديد زائد على ما وصل إليه المتقدمون ، اللهم إلا أننا تحققنا من تعقد هذه المشكلة ، فلا يسعنا إلا أن نعترف بجهلنا » .

«ومن المرجح أن لكل نسيج من الأنسجة الجسمية أثرا فى تكوين المزاج بالطريقة الكيمياوية السالفة الذكر — قل ذلك الأثر أو عظم . كما أن هناك عددا من الغدد تفرز مواد تؤثر فى الحياة العقلية ، وأظهر ما يكون ذلك فى الغدة الدرقية الناتئة على جانبى القصبة الهوائية أسفل الرقبة ، فإنها تفرز سائلا إذا زاد نشأ عنه نشاط محس فى الجهاز العصبى وغيره من الأجهزة قد يصير مرضا عصبيا يعرف بالاضطراب والقلق ، وإذا نقص نشأ

عن نقصه ضعف عقلى وهدوء وتباطؤ فى الأعمـال » .

« ومن المشاهد أن لسير الأجهزة — لا سيما الجهاز الهضمى — دخلا فى تكوين المزاج ؛ فإن من يسير جهازه الهضمى بنظام مطرد يكون دائما منشرح الصدر طلق المحيا . أما من يكون جهازه الهضمى فى اضطراب مستمر فإنه يكون دائما كئيبا كاسف البال » .

« وإنك لتلحظ أن طعاما ما يوافق مزاجك فتشعر بعد أكله براحة واطمئنان وطيب خاطر ، فى حين أن آخر لا يوافق طبعك ؛ فإذا أكلته اعتراك ألم وضيق صدر لا تشعر معه بنعيم الحياة ، ولا تقدر ما فيها من ملاذ » .

ويقول الأستاذ ثَاوْلِس :(١)

« لا شك أنه من الضرورى أن نعدل آراء القدماء فى أوصاف الأمزجة؛ لـكى نعـلم أن الشخص الواحد قد تظهر عليـه آثار أمزجة مختلفة فى أوقات متعددة » .

« ومن الظاهر أن أسماء الأمزجة التى وصفها المتقدمون ليست مبنية على أساس علمى ، وإنما هى من بقايا العصور السابقة أيام أن كانت الاختلافات فى الأمزجة تُرْجَعُ إلى تغلب أحد السوائل الأربعة فى الدم . ويؤخـذ على هـذا التقسيم وهذه الأوصاف التى يوصف بها كل مزاج أن فى جميعها شيئا من التكلف ؛ إذ قلما نجد من تنطبق عليهم هـذه الأوصاف التى يوصف بها كل مزاج تمام الانطباق » .

ويأخذ العلامة شاند على المتقدمين (كما يظهر من سياق كلامه عن الأمزجة فى كتابه « تكوين الشخصية » :)

(1) R. H. Thouless. See: "Social Psychology".P.111.

(١) أن وصفهم لبعض الأمزجة بأوصاف ثابتة كالبطء أو السرعة، أو التعمق فى البحث، أو شدة التأثر أو غيرها لا مبرر له مطلقا؛ فإن من الناس من يكون سريعا فى ناحية بطيئا فى أخرى، شديد التأثر لحوادث دون غيرها، مولعا بالتعمق فى البحث حينا، مكتفيا بالبحث السطحى حينا آخر.

(٢) أن هذه الأوصاف نسبية غامضة، لا تدلنا على مقدار تحققها فى أى مزاج من الأمزجة؛ فهم يقولون إن صاحب المزاج الدموى مثلا يميل إلى البحث السطحى، ولكن إلى أى حد؟ فليس من العلم فى شىء أن نستعمل مثل هذه الأوصاف الغامضة التى لا تدل على معان محدودة.

(٣) أن أنواع الأمزجة التى ذكروها مصطنعة، مبالغ فيها، بعيدة عن الحقيقة، لا تمثل الأمزجة الإنسانية؛ فمن المعترف به أن لمعظم الأشخاص مزيجا من الأمزجة.

(٤) أن نظريتهم لا تعطينا قوانين علمية صحيحة يمكن الانتفاع بها فى دراسة الشخصية الإنسانية؛ فتقسيمهم للأمزجة قليل القيمة لا يمكننا من أن نستنبط شيئا فوق ملاحظته فى سلوك أى شخص من الأشخاص. بل إن نظريتهم قد تدعو إلى الخطأ فى الحكم على الأفراد، فتصير حجر عثرة فى تقدير شخصياتهم تقديرا علميا.

٤ – الأذواق [1]

نريد بالذوق ذلك الاستعداد الفطرى – المكتسب الذى نقدر به على تقدير الجمال ، والاستمتاع به ، ومحاكاته بقدر ما نستطيع فى أعمالنا وأقوالنا وأفكارنا .

فالذوق موهبة فطرية طبيعية منحها الله كل إنسان . ومع ذلك فللتربية والتجارب فى تقويته شأن كبير كما سترى .

ومن كان لديه ذوق راق كانت عنده مقدرة : –

أولا : على قدر المنتجات الفنية والأدبية حق قدرها ، وإدراك مافى هذا العالم الذى يحيط بنا وتقع عليه أنظارنا . ونحسه بحواسنا من جمال وتناسب وانسجام .

ثانيا : على الاستمتاع بهذا الجمال الطبيعى والصناعى ، والشعور باللذة والسرور عند إدراكه واجتلائه .

ثالثا : على محاكاة ذلك الجمال الخارجى فى الأعمال والأقوال والأفكار .

فالذوق السليم منبع لسرور ولذة ، ودافع من الدوافع القوية التى تحملنا على ترتيب الأعمال وتنظيمها ، وتهذيب الأفكار والسمو بها عن مواطن القبح والخسة ، وتنسيق الألفاظ وتزيينها ، وجعلها أخاذة بالألباب ، حسنة الوقع على النفس ، بريئة من الاضطراب والتهوش .

---

(1) Tastes

ولا ريب أن الوجدان أهم عنصر من عناصر الذوق ، وإن كان لعنصرى الإدراك والإرادة فيه شأن يذكر . ولذا كان تهذيب الوجدان وتقوية عاطفة حب الجمال خير الوسائل لتنمية الأذواق وتهذيبها .

يقول أفلاطون : « إننا فى حاجة إلى أن نتعلم من عهد الشباب الأول كيف نشعر بالسرور لما هو سار حقيقة ، وبالتألم مما هو مؤلم حقيقة ، فهذه هى التربية الصحيحة . » فذلك الاستعداد الفطرى لتقدير الجمال والاستمتاع به ومحاكاته إذا ترك وشأنه قد يضعف ويكون مآله الفساد والفناء ، ولكنه بالتربية والتدريب يقوى ويؤتى أكله .

الذوق الحسى والمعنوى :

من الأذواق (١) ما هو حسى وهو ما تعلق بالمحسات كالألوان والأصوات والروائح والمناظر ، و(٢) ماهو معنوى وهو ماتعلق بالمعنويات كالأخيلة والأفكار والأخلاق والمبادئ والأنظمة والقوانين ؛ فللأخيلة جمال وعذوبة وطلاوة ، كما أن للأفكار الراقية جمالا لا يدركه إلا من جملت أفكارهم . وجمال الأفكار يكون بتنسيقها وتنظيمها وترتيبها ، وتعلقها بالمعانى الراقية والآداب السامية ، والأنظمة النافعة التى تكمل الحياة البشرية ، وترفع من شأن النفس الإنسانية . وللأخلاق أيضا جمال يظهر فى متانتها وثباتها وحسن سلوكها .

منشأ الذوق :

قلنا فى تعريف الذوق إنه استعداد فطرى — مكتسب الخ ؛ فهو إذًا من

الصفات الوراثية التى تولد مع الإنسان ، ويتوقف نموها على التربية والتجارب ؛ ذلك لأن الإنسان بطبيعته يميل إلى الأشياء التى تسره ، وينفر من تلك التى تؤلمه ؛ فهو يبحث عن السار ، ويعكف عليه أنى يجده وحيثما وجده .

وتجارب الإنسان وتربيته قد تنمى الذوق أو تحدده أو تضعفه أو تقتله ، فهو — كغيره من الاستعدادات الوراثية — متوقف إلى حد كبير على نوع الحياة التى يحياها الإنسان ، وعلى بيئته وتربيته ؛ فالطفل الذى ينشأ فى بيئة جميلة مملوءة بالألوان البراقة ، والمناظر المنظمة الخلابة المنسجمة ، ويرى من حوله متخلقين بالأخلاق الطيبة ، متبعين العادات القويمة ينشأ سليم الذوق ، مستعدا لتقدير ما يرى من جمال فى مستقبل حياته . فإذا ذهب إلى المدرسة تغذى ذوقه بالأدب الظريف الشائق ، وتناول الفنون المتعددة من رسم وتصوير وموسيقا ، ونال قسطا وافرا من مشاهدة الطبيعة وما فيها من جمال وجلال . أما ذلك الذى يكون سيئ الحظ ، ولا يكون من نصيبه المزايا السالفة الذكر فإن ذوقه يضعف .

فالذوق إذًا فى أصله فطرى . أما قوته أو ضعفه أو تحدده أو فساده فأمور مكتسبة .

الصفات التى تكسب الجمال :

إن المفكرين من لدن سقراط حتى الآن قد اختلفوا اختلافا كبيرا فى بيان الصفات التى تجعل الشىء جميلا ، ولكن معظمهم يرون أن أصل الجمال الاتساق والانسجام فى الألوان والأشكال والأساليب والأخيلة والأفكار والأعمال ، طبيعيا كان ذلك الانسجام أو مصطنعا . وأساس الانسجام هو الوحدة

فى التعدد ، أى اجتماع عناصر مختلفة وائتلافها بحيث تكون وحدة مترابطة الأجزاء متناسبة العناصر ؛ فالجمال فى رأى هؤلاء صفة خارجية تتحقق فى عالم المادة ، أو فى عالم المعنى يدركه كل شخص عادى ، ولا يتوقف إدراكه على وجود صفة نفسية مستواها فوق المستوى العادى .

وقليل من الفلاسفة من يرى أن الجمال هو المطابقة للواقع ؛ فالخيالات والأحلام فى رأى هؤلاء ليست جميلة . وأصحاب هذا المذهب هم الواقعيون [1] الذين لا يأبهون بالروحانيات ، ولا يعنون بالخيالات والأوهام التى لا حقيقة لها . وأقل من هؤلاء النفعيون [2] الذين يرون أن كل نافع - مهما يكن - جميل ! فهم يقيسون الجمال بمقياس المنفعة .

آراء بعض الفلاسفة فى صفات الجميل :

نرى تكميلا للفائدة أن نذكر لك بعض آراء الفلاسفة فى صفات الجميل مع شىء من الإيجاز فنقول :

يرى سقراط (٤٦٩ — ٣٩٩ ق . م .) أن الجميل لابد أن يكون مفيدا مؤديا للغرض منه . ونقل عنه أنه قال : « إن الإيمان والفضيلة وإدراك الجمال قرناء » .

وقال أفلاطون (٤٢٩ — ٣٤٨ ق . م .) : « إن الجميل هو النافع الذى ينشأ عن التفكير فيه سرور » .

ويرى أرسطو (٣٨٤ — ٣٢٢ ق . م .) أن الجميل هو المنسجم المحدود الذى

(1) Realists. (2) Utilitarians.

نلحظ فيه الاعتدال والتناسب . وهو يعتبر الفضائل كلها جميلة لأن كلا وسط بين رذيلتين .

وقال شيشرون(١٠٦ — ٤٣ ق . م .): «إن الجمال صفة ذاتية فى الجميل لا تتوقف على منفعة . وإن المظهر الخارجى للشىء ولو كان مصطنعا يكفى لجعله جميلا» .

وكان الرأى الشائع بين فلاسفة القرون الوسطى أن الجمال صفة معنوية لا تتوقف على المظهر الخارجى للشىء ، ولذا لا تستطيع الحواس أن تدركها بدون مساعدة الروح ، فمعنى إدراك الجمال اتصال النفس البشرية بمعنى فى الجميل .

ويرى هَتْشِصَن (١) (١٦٩٤ — ١٧٤٦م) أن الجمال أمر محس لا يتوقف إدراكه على معرفة قواعد خاصة ، ولا على المنفعة التى يؤديها للمدرك .

ومن رأيه أن الجمال إما أصلى طبيعى وأساسه الانسجام والوحدة مع التعدد ، وإما تقليدى ويتوقف على مطابقة التقليد للأصل .

ويرى بويمجارتن (٢) (١٧١٤ — ١٧٦٢م) أن الجمال هو الكمال الذى يشعر به الإنسان بدون حاجة إلى الفكر العميق أو الرجوع إلى قواعد أو مبادئ خاصة .

ومن رأى بيرك (٣) (١٧٢٩ — ١٧٩٧م) أن الجمال يرجع إلى أمور جسمانية كملاسة السطح ونعومته ، والتدرج فى تغير أجزائه ، وصغر الجسم والرقة وتوسط اللون .

---

(1) Hutcheson. فيلسوف إيقوسى (2) Baumgarten. فيلسوف ألمانى.
(3) Burke. من كبار ساسة الإنجليز .

ويقول كانت[1] (١٧٢٤ — ١٨٠٤م) إن الجمال صفة فى الجميل تسر النفس البشرية ؛ فالعنصر الأساسى فى تقدير الجمال عنده هو السرور .

ويميل الفلاسفة الذين أتوا بعد كانت إلى اعتبار كل ما هو ممثل للجمال (الإيديالى) الذهنى جميلا ، متأثرين فى ذلك بروح عصرهم الذى كان يميل إلى الفنون والصناعة .

أما هربارت[2] (١٧٧٦ — ١٨٤١م) فكان يعارض هذا الرأى ، ويرى أن الجمال أمر خارجى[3] من الممكن وضع قوانين لإدراكه ومعرفة عناصره.

أما من تلا هربارت من الفلاسفة فقد انقسموا قسمين ، فمنهم من حاول أن يصف الجمال وصفا دقيقا ، ويبين خواصه الخارجية ، ومنهم من حاول البحث فى العوامل النفسية أو المادية التى ينشأ عنها تقدير الجمال وحصول السرور .

فمن الفريق الأول كثير من فلاسفة الألمان أمثال (بيرجمان وسيبك ولوتزه .)[4] ومن الفريق الثانى كثير من فلاسفة الإنجليز أمثال (دَرْوِين وسبنسر وألين[5]) الذين أرجعوا الأذواق وإدراك الجمال إلى عوامل جنسية أو بيولوجية .

ومما تقدم نستطيع أن نستنبط أن الإنسان يحب الجميل لما يجلبه للنفس من سرور ، لأن النفس بطبيعتها تميل إلى السار وتبحث عنه لأن فيه حياتها وبقاءها . وبذلك نوفق بين معظم الآراء .

---

(1) Kant. فيلسوف ألمانى مشهور (2) Herbart. فيلسوف ومرب ألمانى .
(3) Objective.
(4) Bergman, Seibeck and Lotze . من فلاسفة القرن التاسع عشر
(5) Darwin, Spencer and Allen. من فلاسفة القرن الماضى أيضا .

أهمية الأذواق فى الحياة :

إن الذوق الناضج منبع للسرور ، وعين فياضة باللذات التى تخفف على النفس آلام الحياة ، وتساعد الإنسان على القيام بواجباته وهو مطمئن النفس ، هادئ البال ، مستريح الضمير . وإن من تمكنت من نفسه محبة الجمال ليكون قادرا على أن يرى كل ما حوله متشبعا بروح الجمال فى أثناء القيام بواجباته اليومية ، فينهض بأعبائها من غير أن يشعر بآلام العمل ، ولا ينظر إلى واجباته الاجتماعية نظرة المشمئز المتألم المتبرم بالحياة .

على أن صاحب الذوق السليم يكون أقدر على الانتفاع ببيئته الاجتماعية إلى أقصى حد ، فإن أجدادنا قد تركوا لنا تراثا مجيدا من العلوم والفنون ، وإن قدر هذا التراث حق قدره لا يمكن بحال من الأحوال إلا مع الذوق السليم ، فمن ينقصه الذوق يكون بعيدا عن الحياة الاجتماعية ، غير قادر على الانتفاع بما تركه لنا الأقدمون من نماذج جميلة ، ومبان شاهقة فاخرة ، وتماثيل أنيقة ، وصور بديعة ، وبذا تكون روحه بمعزل عن أرواحهم ، ولا تجمعه بهم أواصر الفن والعاطفة ، ولا تصله بهم أسباب الألفة والمحبة ، وبالاختصار يكون حلقة غريبة مهملة فى السلسلة التاريخية .

هذا وإن للذوق منزلة كبيرة فى تهذيب الوجدان والعاطفة ، وفى هذا

ما فيه من رقى الحياة العقلية ؛ فتربية الأذواق تربية للعقل ؛ فهى ضرورية للإنسان

من الناحية العقلية ، كما هى ضرورية من الناحية الاجتماعية وناحية التسلية .

ولا عجب فى ذلك ؛ فإن الناحية الإدراكية الجافة ، والناحية العملية الضيقة فى حاجة إلى الوجدان ومحبة الجمال ، لترتيب الأولى وتوسيع نطاق الثانية . وكأنى بالجمال يقول للنفس المفكرة : « إن هناك أشياء ذات قيمة لا يمكن وصفها بدقة منطقية ؛ ولكن الجمال وحده يستطيع أن يلمسها ويحسها . » ويقول للنفس الفعالة العملية المادية « إن هناك أشياء لا منفعة لها ولا فائدة لها فى الحياة العملية ، ولكنها قيمة فى ذاتها » . وإن محبة الحق لتجعل المرء بعيد النظر ، ولكنها لا تجعله رقيق المزاج . وإن عمل الحسن من الصواب ، ولكنه لا يكون جذابا لذيذا إلا إذا قاده الذوق . وإن محبة الجمال لتؤلف بين عناصر الحياة وتجمعها فى عنصر واحد هو عنصر المحبة والائتلاف .

وليست منزلة الأذواق فى تقويم الأخلاق بأقل منها فى تهذيب العقل ؛

فإن الفضيلة — ولا شك — مصبوغة بصبغة الجمال ، والرذيلة مشوهة تظهر عليها سيما القبح ؛ فالنفس المحبة للجمال تقبل على الأخلاق الفاضلة ، وتعشق الفضائل لما فيها من جمال ، وتنفر من الصفات السيئة ، ومن الرذائل القبيحة لما فيها من قبح . ولن يغر النفس المتشبعة بحب الجمال تظاهر الفضائل بأنها منفرة ، ولا تظاهر الرذائل بأنها جذابة ، فإن النفس الطاهرة الجميلة تفرق بين الجمال الحقيقى والجمال الزائف ، وتميز الخبيث من الطيب ، فترى ما فى الفضيلة من جمال مهما خفى ، وما فى الرذيلة من قبح وإن احتجب .

تربية الأذواق :

ممـا سبق ترى أن للأذواق من الآثار فى حياة الإنسان ما يبرر تربيتها ، ويوجب على المربين العناية بها ؛ إذ أنها من أكبر العوامل فى تحسين البيئة، وتنظيم الأعمال ، والمحافظة على الصحة ، وتهذيب الوجدان ، وإعـلان شأن العقل ، وتقويم الأخلاق ، والتسلية بالطرق القويمة ، والأخذ بأسباب السرور المباحة فى وقت الفراغ . وهى من أكبر الوسائل للانتفاع بالحياة الاجتماعية ، والاستمتاع بتراث الماضين الفنى .

ومع مالوجود الذوق السليم من المزايا العظيمة ، ومع ما لتربيته من الفوائد الجليلة ، نلحظ أن تربيته تربية منظمة مدبرة تـكاد تـكون مهملة فى بلادنا. أما فى البلاد الأوربية فيخصص القوم شطرا صالحا من أوقات فراغهم بإرضاء الأذواق ، والاستمتاع بمـا فى الحياة من جمـال طبيعى أو صناعى ، ويعنون بتنسيق منازلهم ، وإنشاء المتنزهات والبساتين والحدائق حتى فى أقل بيوتهم منزلة ، وأصغرها مساحة ، ويبذلون جهدهم فى تحلية غرفهم بالرسوم والصور القيمة ، والتحف الرشيقة الأنيقة ، والأزهار والرياحين الظريفة التى ينفقون عليها مقدارا لايستهان به من النقود .

فالعناية بتربية الأذواق والوجدان عندنا تـكاد تـكون معدومة بالنسـبة لعناية هؤلاء . مع أن الذوق من المنح الإلهية العامـة المشتركة بين جميع الأفراد ، فالإنسان — مهما تـكن منزلته — مطبوع على حب الجمال . ومن النزعات الفطرية المعترف بها حب الجمال . وهناك غرائز متعددة متصلة بنزعة

حب الجمال كغرائز حب الاطلاع ، وحب الحركة ، واللعب ، والمحاكاة . وكل هذه وسائل قيمة لتنمية الذوق ، فما علينا إلا أن نثيرها ونجعلها أساسا لاستمالة الأطفال ، وحملهم على قدر مافى بيئتهم من جمال طبيعى أوصناعى .

كيف تنمى الأذواق ؟

إن تربية الذوق وتنميته تـكون من ثلاث نواح ، من الناحية الوجدانية أولاً ، ومن الناحية الإدراكية ثانيا ، ومن الناحية النزوعية ثالثا .

(١) أما من الناحية الوجدانية فعلى المربى أن يمـد المتربى بالفرص التى تدعو إلى تدريب وجدانه وتهذيبه ، وتوجيهه إلى النواحى المستحسنة ، فيضع أمامه النماذج الجمالية من أدب وموسيقا ومنتجات فنية تـكون موضع إعجابه وتقديره ، ويبعد عن عينيه وأذنيـه ويديه — بقدر ما يستطيع — كل ماهو مستهجن من المستحسن كراهته وتجنبه .

فالطفل إذا نشأ نشأة جمالية بحيث لا يرى حوله إلا ما هو جميـل ، ولا يسمع إلا ما هو مستحسن يتربى ذوقه ويتهذب دون شعور منه ، وتتـكون فى نفسه مقاييس صادقة للجمال ، ومبادئ قوية للفضيلة ، لدرجة أنه لا يقبل غيرها، بل ينفر طبعه من كل ما خالفها ، وتمج نفسه كل ماعداها .

وليلاحظ المربى أن الفرص التى يمد بها المتربى لتقوية ذوقه مناسبةملائمة لسنه وطبيعته ؛ إذأن تربية الذوق لابد أن تـكون تدريجية ، فنتائجها تتوقف تمام التوقف علىمقدار مناسبتها لسن المتربى ودرجة نموه العقلى .

وقـد برهن علم النفس التجريبى على أن عصر المراهقة — أى حوالى

السنة الثانية عشرة — أشد عصور الحياة مناسبة للتربية الذوقية .

(٢) وأما تربيــة الذوق من الناحيــة الإدراكية فضرورية جدا ، لأن تنمية الذوق تنمية تامة لا يمكن أن تكون بدون عنصر المعرفة، ولأن الإنسان بطبيعته الإدراكية يرغب فى تعرف أسباب الجمال ، ويميل إلى تحليل الجميل إلى عناصره ، وإلى نقده نقدا صحيحا ، مستندا فى ذلك إلى قوته الإدراكية .

ومع ذلك يجب على المربى أن يكون حريصا فى هذا الصدد ، لأن التعليم الذوق المباشر أو المبالغ فيه قد يضيع سدى ، بل قد يؤدى إلى عكس المطلوب. فليس للمربى أن يضع قوانين جافة يتعرف بها الجمال ، ولا أن يكون «دجماتيا» متحكما فى طبع الطفل ، فيقول له : «هذا جميل» ، و«ذاك قبيح»، و«عليك أن تحب هذا وتبغض ذلك» . ولـكن عليه أن يعرف أنه لا يمكن أن تحـل القوانين والمقاييس الجمالية محل الشعور الوجدانى بالجمال ، فإذا غاب هذا العنصر الوجدانى كان كل كلام عن الجمال لغوا لا طائل تحتــه ، ولا نتيجة له فى التربية الذوقية .

فليبدأ إذاً بتهذيب شعور الطفل ، وترقية وجدانه ، وجعله يجد من نفسه ميلا إلى الجميــل من الأشــياء ونفورا من القبيــح منها . فإذا ما وثق بذلك انتقل إلى تحليل الجميل تحليلا موجزا غير مبالغ فيه ، فالمغالاة فى هذا التحليل كثيرا ما تذهب برونق الأشياء ، وتقضى على طلاوتها . وبمساعدة هذا التحليل المحدود يستطيع المربى أن يلقن المتربى مبادئ عامة عن الجمال ، ويعرفه تعريفا إجماليا الأسباب التى تجعــل الشىء جميلا . وليكن عماده فى ذلك الإيحاء الذى يستطيع به أن ينقل أفـكاره الجماليــة إلى عقل المتربى دون شعور منــه ، كما

يستطيع أن ينقل إليه شعوره الوجدانى ؛ لأن الطفل — كما تعلم — مندفع بطبعه إلى التأثر بآراء غيره ممن هم أكبر منه ، وإلى مشاركتهم فى وجداناتهم — دون علم منه .

ومن هذا يتبين لك أن المربى الذى يود تربية ذوق المتربى يجب أن يكون هو نفسه ذا ذوق سليم ، قادرا على تقدير الجمال ، له وجدان راق دقيق، تظهر آثاره فى أقواله وأفعاله وهندامه ؛ إذ أن من ليس عنده ذوق لا يستطيع أن يربى أذواق الناس . وكيف يعطى الشىء فاقده ؟

فوجدان المربى وشعوره وسلوكه ، وآثار وجدانه وشعوره الخارجية أقوى تأثيرا فى نفس المتربى من أقواله والقوانين التى يضعها ويلقنها المتربى لتربية ذوقه .

(٣) وأما تربية الذوق من الناحية النزوعية فمن المستطاع إلى حد كبير جدا ؛ إذ من المتفق عليه على العموم أن من يجيد العزف مثلا يكون أقدر على الاستمتاع بعزف غيره ، وعلى الإحساس بما فيه من جمال . ومن يحسن صوغ الشعر يستطيع أن يتذوق ما فى شعر غيره من جمال ورقة ، ويقدر على نقد أشعار الناس ، وتبين ما فيها من كمال أو نقص .

وللذوق السليم مظاهر يشاهدها الإنسان فى القول والفعل ، وترتيب الأشياء ، وتنظيم المأكل والمشرب والملبس والمسكن . ولا شك أن المقدرة الإدراكية على الحكم الجمالى تنمو، وأن الشعور الوجدانى الجمالى يرقى بمحاكاة المنتجات الفنية محاكاة موفقة ، لا سيما إذا تركت هذه المحاكاة مجالا لمحاولة الابتكار . لذلك يجب علينا أن نشجع الناشئين بجميع الوسائل الممكنة على

أن يكونوا موسيقيين أو كتابا أو شعراء أو رجال فن، وينبغي ألا نقابل أى مجهود يبذلونه فى هذه الناحية بفتور.

وليس لنا أن نفهم من ذلك أن هذا التشجيع يؤدى حتما إلى تربية الذوق وإيجاد محبة الجميل فى نفوس الناشئين، ولكنا نرى أن محاكاة النماذج الجميلة يساعد على تقوية الوجدان الجمالى، وعلى فهم المقاييس الجمالية حق الفهم. هذا إلى أن من يحاول عمل شىء من الأشياء يكون أقدر على تحليله أو تحليل ما يشبهه إلى عناصره، وعلى فهم ذلك التحليل فهما تاما إذا قام به غيره.

ولا نخالك تجهل أن الغاية القصوى التى يجب أن نرمى إليها فى تربية الذوق من الناحية العملية هى جعل الناشئين قادرين على الابتداع الفنى، وعلى الابتكار فى عالم الجمال. ولكنا مع ذلك نرى أن النجاح فى الوصول إلى هذه الغاية مقصور على أفراد قلائل؛ فليس لنا إذاً أن نطالب المدرسة بإعداد المعدات اللازمة لجعل المتعلمين كلهم رجال فن بارعين فى الرسم أو الشعر أو فى الموسيقا، ولا أن ننسب إليها تقصيرا إذا لم تصل إلى هذه الغاية، ولكن يحق لنا — بل يجب علينا — أن نطالبها بأن تهيىء للنشء أحوالا مدرسية خاصة من شأنها ألا تحول دون النبوغ الفنى، وألا تضع العراقيل فى سبيل من منحهم الله استعدادا للابتكار والإبداع فى عالم الفنون الجميلة.

مراحل تربية الأذواق:

(١) يجب أن تبدأ المرحلة الأولى من مراحل تربية الذوق فى البيت، حيث نبعث فى نفس الطفل محبة السار المفيد للصحة بالقدوة الحسنة، وعملاً

بيئته المنزليـة بما هو سار جميل ، من رسوم وصور ولعب ، ونذهب به أحيانا إلى الريف ليشاهد مظاهر الطبيعة ، ويتوجـه نظره إلى جمالها ، ونكون مثالا حسنا له فى النظام والترتيب فى الأعمال ومراعاة حسن الهندام .

(٢) وتبدأ المرحلة الثانية حين يذهب الطفل إلى المدرسة ، حيث نسلك معه الطريق نفسها ، فنعرض عليـه الصور البديعة الممتعة ، ونستعين على تربية ذوقه ببعض مواد الدراسـة كالموسيقا والرسم والتصوير والأعمال اليـدوية والألعاب النظامية .

وإن أعظم مواد الدراسـة أثرا فى تربيـة الذوق هو الأدب إذا اتبعنا فى دراسته طريقة حسنة أساسها حسن الاختيار ، والتدرج فى التعليم ، وفهم أخيلة الشعراء والكتاب فهما جيدا ، وقدرها حق قدرها ببيان ما فيها من جمال ، ثم محاكاتها أو ابتداع ما يقرب منها . ولا يخفى ما للقراءة الجهرية مع حسن الأداء وتمثيل المعنى تمثيلا تاما من الأثر القيم فى تربية الذوق الأدبى . ولا شـك أن لشخصية المدرس تأثيرا كبيرا فى نفوس المتعلمين من هذه الناحية .

ومن الضرورى فى هاتين المرحلتين لفت أنظار المتربين إلى ما ببيئتهم من جمال فنى وجلال أدبى ؛ كى تتفتح أذهانهم ، وتقوى ملاحظتهم ، ولا يمر بهم شىء جميل جذاب دون مشاهدته والاستمتاع به .

(٣) وتبدأ المرحلة الثالثة يوم يدخل الشاب مدرسة التجارب ، وينتظم فى سلك الحياة الاجتماعية العملية ؛ فلا ينبغى أن تنتهى تربيـة الذوق بانتهاء الحياة المدرسية ، بل يجب أن تستمر بعد ذلك بالقراءة فى الكتب الروائية القيمة ، والاختلاط بذوى الأذواق السليمة ، واختيار بيئة جميـلة للسكنى ، واتباع كل

ما يمكن اتباعه ممـا ذكرنا فى المرحلتين السابقتين .

وعلى المجتمع عامة والحكومة خاصـة من الواجبات فى هـذا الصدد ما لا يستهان به ؛ إذ أن عليها تنظيم الطرق وتنظيفها ، وتزيين المدن وتجميلها ، ومراعاة الانسجام فى بناء البيوت وهنـدستها ، وإنشاء البساتين والمتنزهات العامة ، وإقامة المتاحف والمعارض ، ومراقبـة دور اللهو والتسلية كى لا تخل بقوانين الأدب ، ولا تشذ عما يقضى به الذوق السليم .

وفى هذه المرحلة يظهر أثر الشخص فى تربية ذوقه بنفسه بتدخل إرادته فى ذلك ، متأثرا بحياته الماضية ، وبما تلقاه عن آبائه ومعلميه وغيرهم فى البيت والمدرسة ؛ فنجاحه فى هذه المرحلة — مرحلة التربية الذاتية — متوقف على نجاحه فى المرحلتين السابقتين .

٥ — الفروق الجنسية

إن الرجـل لا يختلف عن المرأة من حيث كونه فردا له مزاجه وطباعه وسجاياه الخاصـة فحسب ، ولـكنه يختلف عنها أيضا من حيث كونه رجلا ، كما أنها تختلف عنه من حيث كونها امرأة ؛ إذ أن الاختلافات الجسمية والجثمانية الهـامة المشاهدة بين الرجـل والمرأة تعد موازية لاختلافات عقلية ليست بأقل منها أهمية . والمعقول أن يكون لهذه الاختلافات الجنسية العقلية آثار فى السلوك . وإن التاريخ الإنسانى يبرهن لنا على أن وظائف المرأة لم تكن فى يوم من الأيام مثـل وظائف الرجـل فى الحياة . وإن قانون الرقى المستمر

الذى يعمل عمله فى الحياة الإنسانية ببرهن لنا على أن الرقى لا يمكن أن يكون إلا بتوزيع الأعمال ، وتخصص كل من الجنسين لأعمال خاصة ، وعلى أن التخصص فى الأعمال والوظائف يتبعه على مر الزمن تغير ظاهر فى التكوين الجثمانى .

وليس لنا أن ننتظر التقارب والتشابه الشديد بين الجنسين إلا إذا كنا ننتظر أن نقترب من الحياة الساذجة الأولى ؛ فمن المشاهد أن اختلاف الجنسين ليس من الظهور بين الأمم المتوحشة التى هى بمعزل عن الحضارة كما هو بين الأمم المتمدينة .

ولا تزال الحوادث التاريخية تبرهن لنا على أن مساواة المرأة بالرجل فى الأعمال والوظائف تؤدى إلى انقلاب اجتماعى . وقد يؤدى هذا الانقلاب إلى ثورة عنيفة ضد النظم والقوانين الاجتماعية لا يعلم مصيرها إلا الله تعالى .

وليس هنا موضع الكلام على هذه الثورة ، ولا البحث فيما يكنه لنا المستقبل ، ولكنا نريد أن نقول إن المشاهدات والتجارب قد برهنت على أن المرأة ليست كالرجل فى الاستعدادات الجسمية ، ولا فى المواهب العقلية ، ولا فى النزعات الخلقية .

وأهم ما بينهما من فروق : —

(١) أن المرأة تنظر إلى العالم متأثرة بوجدانها أكثر من الرجل :

فمزاجها أقرب ما يكون إلى المزاج الانفعالى ، ويشتد تأثرها بجمال الأشياء وتناسبها مع بيئاتها ، وتقل عنايتها بالأفكار المجردة . وإذا حاولت التعميم

والوصول إلى قواعـد كلية فإنها لا تعنى بالتحليل والتدقيق والبحث العميق؛ وهذا هو السبب فى أنها تميل إلى التسرع فى الحكم والخطأ فى التطبيق.

وكراهة التحليل المنطقى العميق الذى يصل به الرجل إلى القوانين العلمية الصحيحة يعد من أهم ما تمتاز به المرأة عند الرجل.

(٢) أن المرأة عملية أكثر منها فلسفية: أما الرجل فيميل إلى النظر، ويجنح إلى التفلسف والتدبر والتفكير فى العواقب؛ فإذا رأى خطرا محدقا به فكر فى طرق تجنبه وهو هادئ الفكر، وربما اعتراه ألم أو ضجر، وقد يثور أو يغضب أو يسب ويلعن إذا لم يصل إلى نتيجة مرضية، أما المرأة فإنها تبكى وتصيح وتولول فى وجه الخطر، وقد يعتريها اضطراب يمنعها من التفكير والتروى.

والرجل ينظر إلى دواخل الأشياء وبواطنها، ويعتد بقيمتها الذاتية الحقيقية وحقائقها الواقعية، ولا يغتر بظواهرها، أما المرأة فتغرها الظواهر، وتعجب بحسن المنظر وإن ساء المخبر؛ فالجواهر الزائفة، الحسنة الشكل، المنسجمة الصوغ تقع لديها موقعا حسنا — وإن كانت قليلة القيمة فى ذاتها.

(٣) أن الرجل مستعد بطبيعته وقواه الجسمية إلى الزعامة والقيادة: لقدرته على التصرف عند المواقف الحرجة، وعلى الابتكار للخروج من المآزق بسرعة، أما المرأة فإنها لا تبلغ منزلة الرجـل فى ذلك، وإن كانت تفوقه فى الصبر والجلد، والقدرة على المقاومة، والسرعة فى التنفيذ؛ ولذا يقال إن الرجل أكثر اسـتعدادا للتشريع والابتـداع، أما المرأة فأكثر استعداد للتنفيذ؛

ومن ثم كانت الأغلبية الغالبة من القادة والمشرعين والمبتدعين من الرجال ، ولم يعرف عن امرأة أنها برزت فى عالم العلم ، أو ابتكرت آلة قيمة . وهى بصبرها، وقوة وجدانها وحنوها ، وشفقتها ، مستعدة استعدادا طبيعيا لأن تكون أما ، وطبيبة ، وممرضة ، وسلوة للرجل إذا حلت به النكبات ، أو استولت عليه الهموم ، أو تحكمت فيه الأمراض .

وإن هذه الاختلافات والفروق التى بين الرجل والمرأة لتظهر واضحة جلية بعد النمو والكبر ، أما فى عهد الطفولة فإن هذه الفروق تكون صغيرة غامضة ؛ فالذكر والأنثى لا يكادان يختلفان عند الولادة ، وبعد ذلك تأخذ فروق ما فى الظهور ؛ فأنت إذا رأيت طفلة صغيرة سنها أربع لا تشك فى أنها بنت صغيرة بمعنى الكلمة . وإذا رأيت طفلا صغيرا فى هذه السن علمت أنه غلام صغير بمعنى الكلمة أيضا .

والبنت فى العادة تسبق الغلام فى القدرة على الكلام ، وقلما تصاب باضطراب فى أعضاء التكلم ؛ ومعنى ذلك أن المراكز العصبية والخيوط العصبية الوصلية المرتبطة بالتكلم تنمو فى الطفلة قبل نموها فى الطفل .

ويلحظ أن لعبها يختلف فى النوع والأسلوب عن لعب الطفل ، سواء ألعبت وحدها أم مع غيرها ، فلعبها ينقصه النشاط فى الحركة ، وسعة النطاق التى تلحظ فى لعب الغلام . وهى تصل إلى مرتبة اللعب التقليدى قبل الطفل ، وتبقى فى هذه المرحلة مدة أطول . ومن المشاهد أنها تولع حتى فى عهد الطفولة الأولى باللعب بالدمى ومعاملتها معاملة الأطفال ، فتلبسها ملابسها ، وتحملها إلى مراقدها ، وتحاول إطعامها ، كما أنها تحنو على الحيوانات الداجنة وتطعمها

كلما سنحت لها الفرصة ؛ أى أنها تحاكى أمها فى أداء وظيفتها ، كأن طبيعتها تملى عليها أنها ستصير يوما ما من الأمهات .

والبنت تفوق الغلام فى إظهار شعورها بحدة ، فهى تضحك وتبكى بصوت مرتفع ، وتظهر تأثرها ببيئتها بسرعة وشدة ، ولكنها تميل إلى الانكماش والانزواء والمقاومة السلبية إذا أغضبها أحد ، فى حين أن الطفل يحتد ويقاوم مقاومة إيجابية عند الغضب .

والبنات لسن كالبنين عند حصول نزاع فيما بينهن ، فهن يشكون ويبكين ويسببن ، فى حين أن البنين يتقاتلون ويتضاربون ، ويهاجم بعضهم بعضا مهاجمة فعلية ؛ كأن طبيعتهم تملى عليهم أنهم سيصيرون رجالا مسئولين عن الدفاع عن أنفسهم وعن ذويهم .

والنزاع لا يحسم بين البنات بصفة نهائية ، ولكن آثاره تبقى مدة طويلة ، وقد يسعى بعضهن فى الكيد والدس لبعض . ولكن البنين كثيرا مايتصالحون ويتصافون بعد انتهاء التشاجر .

وفى الغالب يتلون التنافس بين البنات بألوان سيئة ، وأخلاق مكروهة ؛ كالحقد والكراهة وحمل الضغينة ، لا سيما ضد من كانت منهن موضع التفات وعناية من بعض الأقارب أو الأصدقاء .

وتظهر الفروق التى بين الجنسين من الناحية الإدراكية فى المواد التى تحتاج إلى بحث فكرى واستنباط وابتكار ، فالبنات يساوين البنين بل يفقنهم فى السنين الأولى من سنى الدراسة التى يكون التعليم فيها محصورا فى دائرة المحسات ؛ إذ أنهن يستظهرن المعلومات بسهولة ، ويعنين بالنظافة ، والنظام ،

والدقة فى عمل التمرينات التى يعملنها ، ويقدرن الجمال تقديرا تاما ، ولذا يولعن بالأدب قبل أن يولع به البنون ، ويُجدن الكتابة الإنشائية فى أول الأمر ، لاعتمادهن على محاكاة ما قرأن فى كتب الأدب ، أو على ما كتبه لهن الأساتذة . وهذا يظهر بنوع خاص فى القصص ؛ فالحكاية التى ينشئها الغلام تكون فى الغالب مفككة الأوصال ، أما الفتاة فتنسج حكايتها نسجا محكما ، مترابط الأجزاء ، كامل العناصر ، وتسير بالقارئ إلى نقطة الموضوع الهامة سيرا منسجما .

ولذلك نرى أن الغلمان يكذبون ، ولكن كذبهم يظهر ، لأنهم لا يجيدون التلفيق . أما البنات فيفقنهم على العموم فى إجادة هذا الفن . وقد دلت التجارب على أن كذب البنات أكثر من كذب البنين ، وأن كذبهن يتأثر فى الغالب بنزعات وأغراض شخصية ، فقلما تكذب البنت لإنقاذ غيرها ، أما الولد فكثيرا ما يفعل ذلك . والحق أن الغلام المربى تربية حسنة لا يكذب مطلقا إلا لهذا الغرض ، فالأولاد تنقصهم المهارة ، والتظاهر بمظهر المتأكد عند الكذب ، أما كذب البنات فمنمق ملطف ، موضوع بصيغة توهم السامع أن ما قيل هو الحق الصراح ، وهذا نوع من المهارة اللغوية ، وهو أساس الفرق بين الرجال والنساء فى وصف الحوادث الخارجية ، وتقدير الأعمال ؛ فالحق عند الرجال ما كان مطابقا للواقع — بقطع النظر عن شكله أو صيغته . أما النساء فالذى يظهر أنهن يخدعن بالشكل الظاهرى ، وبالصيغة ، والانسجام ، والزخارف .

وقد أثبتت التجارب التى قام بها كثير من العلماء فى ظروف مختلفة أن البنين يفوقون البنات — فى أدوار التعليم الراقى — فى العلوم والرياضيات ،

وأن البنات يفقن البنين فى الفنون كالرسم والتصوير والموسـيقا والأدب وتعلم اللغات .

وقـد بحثت اللجنة الاستشارية بوزارة المعارف الإنجليزية سـنة ١٩٢٢ الفروق التى بين البنين والبنات من هذه الناحية ، مستندة فى ذلك إلى الدرجات التى حصل عليها كل منهما فى امتحانات كيمبردج المحلية فتبين لها :

« أن الدرجات التى حصل عليها البنون كانت أعلى فى الرياضـة ـ ومنها الحساب ـ وفى الطبيعة ، والـكيمياء ، واللغـة اللاتينية ، وكذلك فى الجغرافية الطبيعية .

وأن البنات فقن البنين فى اللغة الإنجليزية ، والتاريخ الإنجليزى ، وعـلم النبات ، والجغرافيـة ، واللغـة الفرنسية كتابة ومحادثة ، وكذلك فى الرسم والتصوير » .

وهذه الفروق راجعة إلى الفرق الأساسى الذى لخصه (مسيو لافت) بقوله: « نستطيع أن نقول على وجـه العموم : إن المرأة على ما يظهر تتأثر بالحقيقـة الحسية الواقعية أكثر مما تتأثر وتعنى بالفكرة العامـة ، وإننا معشر الرجال نعنى بالعلاقة بين الأشـياء أكثر مما نعنى بالأشياء ذاتها ، وإن عقـل المرأة يتعلق بالحسيات أكثر من عقل الرجال الذى يسبح فى عالم المعقولات أكثر من عقل النساء » .

وقـد وجد تيرمان [1] أن الـكتب التى يميل البنون إلى قراءتها وهم فى الحادية عشرة هى : كتب المغامرات ، والأقاصيص المشتملة عـلى مفاجآت

(1) Terman. See. The Psychology of Adolescence, by F. D. Brooks PP. 296-297

غريبة ، وكتب الميكانيكا والطيران والـكهرباء وكتب الاختراع والـكشف ، وكتب العلوم الطبيعية وغيرها .

أما البنات فيملن فى تلك السن إلى القـراءة فى كتب العشق ، وفى كتب القصص المتعلقة بالحياة المنزلية والمدرسية ، وفى الـكتب المتعلقة بحياة الحيوان والنبات والأزهار أو بفلاحة البساتين . ولا يملن إلى الـكتب العلميـة أو الميكانيكية .

وقد وجد (تيرمان) أيضا أن البنين فى الرابعة عشرة يميلون كثيرا إلى قراءة المجلات ، ويحبون القراءة عن الرياضة البدنية وعشاقها ، ويزداد شغفهم بكتب الميكانيكا ، وبتراجم الرجال ، وكتب الأسفار ، وحكايات الغابات والأدغال .

ويميل البنات فى هذه السن إلى القراءة فى المجلات أيضا ، ويشتد ولعهن بالأقاصيص الغراميـة والشعر ، ولا يحفلن كثيرا بحكايات المغامرات ، ولا بكتب الأطفال .

وقد اختبر « جوردان » عددا من البنين والبنات ليعرف أنواع الـكتب التى يحب مطالعتها كل فريق، فوصل إلى النتيجة المبينة فى الجدول الآتى .

المـادة	النسبة المئوية من ١٢ـ١٣ سنة		النسبة المئوية من ١٤ـ١٦ سنة		النسبة المئوية من ١٧ـ١٨ سنة	
	بنون	بنات	بنون	بنات	بنون	بنات
حكايات خرافية عن الكبار	١١ر٧	٣٤ر٦	١٣ر٩	٤٨ر٣	٢٤ر٦	٥٦ر٩
حكايات خرافية عن الصغار	١ر٣	٣٨ر٥	٢ر٥	١٧ر٣	١ر٩	٩ر٧
كتب المغامرات	٦٢ر١	١٩ر٧	٦٣ر٣	٢٥ر٤	٥٢ر٨	٢٧ر١
« التراجم	١ر٣	ر٦	٢ر٣	ر٨	١ر٣	١
« التاريخ	٢ر٣	—	ر٥	—	ر١	—
« الشعر	ر٥	—	١ر٢	١ر٦	٣	٢ر٦
« العلوم	—	—	ر١	ر١	ر١	ر١
« الأسفار	—	—	ر١	—	ر١	—
« المعلومات العامة	ر٥	ر٢	ر٦	—	ر٦	—
« المزاح	٩ر٩	٢ر٥	٧ر٣	٣ر٣	٨ر٥	١ر٩
« فنون مختلفة	ر٣	ر٤	ر١	—	ر١	—
لا يولعون بشيء خاص	٦ر٥	٣ر٥	٨ر١	٣ر٢	٨ر٩	١ر٧
	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

ولا يجولن بخاطر القارئ الـكريم أن معنى هـذه التفرقة استصغار شأن المرأة أو الحط من كرامتها ؛ إذ أن التفـرقة لا تستدعي الحط من الـكرامة، وصفات المرأة الخاصة لم تنشأ عن تأخرها في سلم الترقي ، ولـكنها نتائج طبيعية للاتجاه العام المستمر نحو التخصص وتوزيع الأعمال .

يقول فوييه : « إن المرأة لم تتأخر عن الرجل بل إنها سارت معـه جنبا لجنب ، ولـكن تقدمها دائما إلى الغاية التي ترغمها طبيعتها على السير نحوها » .

ويقول جيمز ولتون : (١) « إن قياس قوة المرأة الفكرية بقوة الرجل قياس باطل ، وإن استنباط أن الرجل أعلى منزلة من المرأة من عجزها عن التفكير الفلسفى استنباط كاذب . نعم إن تقدير الرجل للقوانين والأحكام العامة شىء ، وتقدير المرأة للأمثلة والنماذج الحسية المادية شىء آخر ، ولكننا لانستطيع أن نقول إن هذا أقل منزلة من ذلك ؛ فكل منهما ضرورى فى الحياة ، والمرأة باتجاهها إلى ناحيتها الخاصة تكمل الرجل فى اتجاهه إلى ناحيته ، كما أنه باتجاهه الخاص يكمل المرأة فى اتجاهها فكل منهما مكمل للآخر » .

« فليست المسألة مسألة تفضيل الرجل على المرأة ، ولكنها مسألة بيان اختلاف كل عن الآخر فى الصفات الجسمية والعقلية ، ولذا نعد عبثا كل محاولة عملية يقوم بها المجتمع ، وكل منهج تسير عليه الأمة يكون الغرض منه جعل المرأة مثل الرجل فى قواه العقلية ؛ لأنها تكون حينئذ محاولة ضالة ، ومنهجا مبنيا على أساس سيكولوجى واه لايلبث أن ينهار » .

ويهمنا كثيرا أن نلفت نظر القارئ إلى أن هذا البحث يفضى بنا إلى نتيجة عملية لا نزاع فى صحتها هى : أنه ليس من الحزم فى شىء أن نرغم البنت على أن تسير مع الولد جنبا لجنب فى أدوار التعليم ، أو أن نجعل المناهج التى نسير عليها فى تعليم البنين مثل التى نسير عليها فى تعليم البنات ، فلكل ميول واستعدادات ، ولكل وظيفة خاصة فى الحياة تنتظره . فلنعد كلا لوظيفته خير إعداد ، متبعين فى ذلك ما تمليه علينا الطبيعة البشرية ، وما يرشدنا إليه القانون الإلهى الأعلى ، الذى يأبى إلا أن يكون الرجل رجلا ، والمرأة امرأة .

إننا إن خالفنا تلك الطبيعة البشرية ، وخرجنا على ذلك الناموس الإلهى فإننا نعرض أبناءنا لأخطار اجتماعية ربما لا يستطيعون مقاومتها ، ونقع فى أخطاء تعليمية ربما لا نستطيع إصلاحها .

(1) See: The Psychology of Education, PP. 131-132

المراجع بالإنجليزية :ـ

(1) An Outline of Psychology, by W. McDougall, Ch. XIII.
(2) The Energies of Man, by W. Mc Dougall, Chs. XII & XV.
(3) Everyman's Psychology, by J. Adams, Ch. VII.
(4) Temperament, by C. Bloor.
(5) The Psychology of Education, by J. Welton, Ch. V.
(6) The Making of Character, by J. MacCunn, Ch. III.
(7) The Foundations of Character, by A. F. Shand, Chs. XIII and XIV.
(8) Social Psychology, by R. H. Thouless. P. 110-113.
(9) Psychological Principles of Education, by H. H. Horne, ch. XX.
(01) The Mixed Sehool, by B.A. Howard, chs. VI & VII.
(11) Youth, by O. A. Wheeler. ch. XII.
(12) The. Co-Education of the Sexes, by M. Hawtrey.

الفصل الحادى عشر

الشخصية

مقـــدمة :

إذا تقدم أحد أقاربك لوظيفة من الوظائف ، ثم سئلت عما تعرفه عنه بالتفصيل ، فقد تجيب بأنه : شاب أمين نزيه ، صادق فى قوله ، كريم الخلق ، حسن السلوك ، سليم القلب ، طاهر السريرة كثير التفاؤل ، قليل التشاؤم ، يقول مايعتقد ، ويعتقد ما يقول ، باطنه كظاهره ، وغائبه كشاهده . هذا من الوجهة الخلقية ، أما من الوجهة العقلية فهو ذكى ، حاضر البديهة ، حسن البصيرة ، صافى الذهن ، صادق الحس . وأما من الناحية الاجتماعية فهو محب للتعاون ، عدو للأثرة ، يشارك الناس فى مسراتهم ، ويؤاسيهم فى أحزانهم ، يوقر الكبير ، ويعطف على الصغير ، مطيع للرئيس ، وفى للنظير . وأما من الناحية الجسمية فهوقوى الجسم ، معتدل القامة ، حسن الهيئة ، جميل الذوق . وأما من الوجهتين العلمية والعملية فهو مثل فى النشاط وأداء الواجب ، واسع الاطلاع ، غزير المادة . . .وما إليها من الصفات المختلفة التى يتصف بهاذلك المثل الأعلى من الشباب .

فمجموع هذه الصفات يصور لك شخصيته العليا بصورة واضحة مفصلة.

وقد أثبت علم النفس التطبيقى أن الشخصية القوية شرط أساسى للنجاح فى الحياة، وأن المؤهلات العلمية وحدها لا تكفى للنجاح، بل يجب أن تصحب بالشخصية القوية، فكثير من الأطباء والمدرسين والمحامين وغيرهم قد أخفقوا فى حياتهم العملية لضعف شخصياتهم، مع كفايتهم من الوجهة العلمية. ولا يفهم مطلقا مما تقدم أن الشخصية مقصورة على الصفات المحمودة، بل إن هناك أشخاصا ذوى شخصيات معروفة متصفين بصفات ممقوتة كالخيانة واللؤم والتشاؤم والخداع والغباوة والأثرة وحب العزلة وقبح المنظر والحمق والمهارة فى التلصص.

ولكن ماتلك الشخصية التى طالما سمعنا الناس ولانزال نسمعهم يتكلمون عنها، ولا ندرى عن كنهها شيئا؟ وإجابة عن هذا السؤال نقول:

تعريف الشخصية:

ليس من السهل أن نحدد الشخصية ونعرفها تعريفا علميًّا جامعا مانعا، فهى — كالكهربا والمغناطيسية والمذياع (الراديو) — لاتعرف إلا بآثارها. ولكن هذا كله لا يمنعنا أن نحاول البحث عن سرها وتعريفها ولو تعريفا تقريبيا فنقول.

(١) الشخصية هى مجموع الصفات والمزايا الذاتية التى يمتاز بها الشخص عن غيره، سواء أكانت تلك الصفات حسنة أم قبيحة. أوهى:

(٢) مجموعة الصفات الجسمية والعقلية والخلقية التي يتصف بها الإنسان.

أو هي :

(٣) مجموعة الفروق التي تميز الشخص عن غيره . والحق أن هذه التعريفات كلها تقريبية ، وأن الشخصية لا يمكن تحليلها إلى عناصرها الأولية تحليلا محسا ، ولكنها تبدو لنا في مقدار ما عند الشخص من الاستقلال الفكرى، وحضور البديهة ، وسرعة الخاطر ، وقوة الروح وما إليها من الصفات المختلفة . وهي كالحب والكره اللذين لا يمكن تعليلهما عادة ، فقد تحب شخصا أو تبغضه لمجرد رؤيته بدون معرفة سابقة ، وقد لا يمكنك إبداء السبب . وكل ما تستطيع أن تذكره هو أن تقول : إنى أحبه أو لا أحبه . أما السبب فلا تعرفه ، لأنه أمر معنوى ، وسر خفى يتعلق بشخصية ذلك الرجل .

وقد يكون الشعور بالحب أو البغض ناشئا عن صفات حسنة وعيوب خاصة في الشخص الذى نعرفه ونقابله من حين لآخر ؛ فنحن نحب فلانا مثلا لأنه مخلص ، كريم ، شجاع ، متفائل ، يواسى الفقير ، ويساعد البائس . ونكره فلانا لأنه لا يعرف الاخلاص ، والاخلاص لا يعرفه ، يتمثل فيه البخل ، والجبن ، والتشاؤم ، والقسوة ، والغلظة ، لا يحسن إلى مسكين ، ولا يتألم لحزين . وفي مثل تلك الأحوال نعرف إلى حد ما سبب المحبة أو الكراهية ، ولكن ليس ذلك بسهل دائما ؛ فقد نحب الشخص في أول لحظة نقابله فيها ، وقد نبغضه لأول وهلة قبل أن نعرف شيئا عنه ، نحبه لمظاهره أو نكرهه لهذه المظاهر ، ولا يمكننا أن نوضح الأسباب التي جذبتنا إليه ، أو التي نفرتنا منه . والسبب الجوهرى هو أن شخصيته محبوبة أو مكروهة . ولكن هذا كله

لايمنعنا من أن نستمر فى بحثنا عن الشخصية ، وعناصرها الرئيسية ، ومكملاتها، وأنواعها وطرق تربيتها . . . الخ .

أفطرية الشخصية أم مكتسبة ؟

الجواب أن الشخصية قد توهب بالفطرة ، وقد تكتسب بالتربية الحقة ، ولكن الطبعية أقوى من المكتسبة . ولو كانت الشخصية هبة طبعية فحسب لكنا ضحايا الظروف ، وما كان للتربية أى أثر فى تكوين العظماء من رجال الدين والعلم والأدب والفن . ولكن أثرها لا ينكر فى تكوين الشخصية والعظمة فى نفوس العظماء .

وهنا نسأل هل قامت التربية وقام المربون حقيقة بواجبهم نحو تربية الشخصية ؟ هل قاموا بواجبهم وقد أصبحنا نفكر فيما فكر فيه غيرنا، ونتكلم بما قاله سوانا ، ونفعل مثل من سبقنا ؟ إننا أصبحنا مقلدين فى أفكارنا وأقوالنا وأفعالنا ، مهملين أنفسنا وشخصياتنا ، لأن التربية تربية اتكالية لا تعرف معنى الثقة بالنفس ، والاعتماد عليها فى التفكير والقول والعمل . وقد نادى كبار المربين وبخاصة (السير برسى نن [1]) المربى الانجليزى الكبير بأن الغرض من التربية هو التربية الاستقلالية ، ولكن كتب التربية فى واد ، والمدارس فى واد آخر . فبينما نقول : يجب أن يربى الفرد تربية كاملة من كل الوجوه أى جسميا وعقليا وخلقيا واجتماعيا ، نجد أن الفرد مهمل إهمالا تاما من جميع الوجوه ، وأن شخصيته تطبع بالطابع المدرسى ،

(1) Sir T. Percy Numn.

وتصب فى قالب خاص ، فتفقد مظاهرها الطبيعية . كل ذلك حبا فى النظام . ولسنا ننكر أن النظام يجب أن يكون سائدا ، بل إننا ننادى بالعناية بالنظام ، ونقول دائما : النظام هو الحياة . ولكننا نعترض على الطريقة التى بها يسود ذلك النظام ، تلك الطريقة التى تقتل شخصية الطفل ، وتضعف مواهبه . ونريد طريقة أخرى بها يستتب النظام ، من غير إضرار بعقلية الطفل أو وجدانه أو إرادته أو جسمه أو شخصيته . وليست هذه الطريقة بسهلة ، لأنها تتطلب مشاركة فى الوجدان ، وفهما لكل فرد من حيث الذكاء والميول والبيئة والظروف . . . وما ذلك بالأمر الهين . فنحن لا نفكر إلا فى المظاهر ، والنظام الشكلى ، والسكون العسكرى ، مهما ضحينا فى سبيل هذه الأشياء من الضحايا . وإذا تحققت الثقة بين المعلم والمتعلم ، ووجدت الصلة الروحية بينهما ، فمن المحال أن تكون هناك صعوبة فى نظام أو غيره ، ولن تضحى شخصية الفرد أو الأفراد بعد .

الاختلاف فى الشخصية :

كما أن الناس يختلفون فى الذكاء والميول الفطرية كذلك يختلفون فى الشخصية ؛ فبينما تجد هذا قوى الشخصية ، قد تجد ذاك خاملا ضعيف الشخصية . وكما أن الشخصية تختلف باختلاف الأفراد كذلك تختلف باختلاف الشعوب ؛ ففى الشخصية الألمانية تتمثل الروح العسكرية ، والطاعة العمياء ، والاتكال على الحكومة فى كثير من الأشياء . وفى الشخصية الإنجليزية تبدو الثقة بالنفس ، واحترام الذات ، وتقدير الحرية الشخصية والاستماتة فى سبيلها . وفى الشخصية

الأمريكية تظهر الروح العامة (الديموقراطية) وعدم الاكتراث للتقاليد ؛ لأن أمريكا أمة حديثة لا تقاليد لها . وفى الشخصية الفرنسية تتغلب العاطفة على التفكير ، والنظريات على الأعمال ، وتكثر الآمال ، والميل إلى الخيال ، وحب الظهور ؛ فكل فرنسى يريد أن يكون ضابطا إذا تقدم للحرب . ولا ندرى من أين يؤتى بالجنود إذا كان الجميع ضباطا . وإذا كانوا ضباطا فإنهم لا يفكرون فى الجنود ، ولا يختلطون بهم خوفا من أن يقل احترامهم . وهذا يقال فى العلاقة بين المدرسين والتلاميذ ، فأولئك فى واد ، وهؤلاء فى واد آخر ، والصلة بين هؤلاء وأولئك لا تتجاوز صلة الحجرة الدراسية ، بل تزول بمغادرتها ، وتتجدد بالعودة إليها.

والشخصية صفة نسبية وقوة سرية توجد فى كل شخص إلى حد ما . وتختلف فى نوعها وقوتها باختلاف الأشخاص . وقد تكون بارزة واضحة فى بعض الأفراد يشعر بها الإنسان فى الحال ، وقد تكون كامنة خفية فى بعضهم الآخر .

ولكل فرد صفة تخصه وشىء يعرف به ، فسيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - كان معروفا بالعدالة ، ومعاوية بالسياسة والحلم ، وحاتم الطائى بالكرم ، ومسيلمة بالكذب ، و(شارلز دكنز[1]) بالدفاع عن الفقراء ، وأديسون بالمثابرة ، وشارلى شابلن ، ولوريل وهاردى بالفكاهة .

وليست الشخصية مقصورة على جنس دون آخر ، ولا على طبقة دون أخرى ؛ فكما تكون بين المتعلمين تكون بين غيرهم ، وكما تكون بين المدنيين تكون بين القرويين ، وكما تكون بين الرجال تكون بين النساء ، وكما تكون

(١) اقرأ ما كتبناه عنه فى كتاب « أروع القصص » .

بين الأغنياء تكون بين الفقراء . ولكل تفكيره وتقاليده وطرقه ومعيشته الخاصة . والعاديون من الناس قد يكونون فى ضنك من العيش ، ولكن لهم شخصية خاصة ؛ فهم يستطيعون أن يتحدثوا عن الحوادث المحلية ، ويذكروا حقائق قومية ، بروح قوية ، لاتنقص عن روح العظماء منهم .

العناصر الرئيسية التى تتكون منها الشخصية القوية

(١) الجاذبية :

وهى قوة طبيعية إن وجدت فى الشخص استطاع أن يجتذب قلوب غيره ممن يتصلون به ، بدون أن يتكلف أو يتصنع . وهذا العنصر يعد من أقوى العناصر التى تتكون منها الشخصية إن لم نقل أقواها. ولكن بماذا يجتذب الإنسان غيره من الناس ؟ الجواب أنه يستطيع أن يجتذبهم ويسيطر عليهم بأدبه وعلمه وضبط نفسه ، وسداد رأيه ، وسرعة خاطره ، وحضور بديهته ، وحسن حديثه، وكرم خلقه ، ومراعاة شعورهم ، ومشاركتهم فى وجدانهم . وهذه الصفات بعضها وراثى ، وبعضها يمكن أن يكتسب بالتربية والتعليم فى البيت والمدرسة والملعب والمجتمع .

وبحسن المعاملة ، واللين فى غير ضعف يجتذب الإنسان قلوب الناس

ويصل إلى أغراض لا يمكنه الوصول إليها لو التجأ إلى الشدة والعنف . وبالسياسة والقوة الروحية تستطيع أن تحصل على غرضك ، وفى الوقت نفسه تكتسب ثقة الناس بك وتقديرهم لك .

(٢) النشاط العقلى أو الذكاء :

العنصر الثانى من العناصر المكونة للشخصية القوية هو النشاط العقلى أو الذكاء ، وبعبارة أخرى حضور الذهن ، وسرعة الخاطر ، وصفاء القريحة . وقد يكون الرجل مثقفا ، واضح التفكير ، غزير المادة ، واسع الاطلاع ، ولكنه ربما لا يكون متقد العقل ، وضاء الفكر ، حاضر البديهة ، فلا يستطيع أن يدرك مايرمى إليه محدثه ، ولا أن يشاركه فى رأيه . وقد تكون المرأة وسيمة الوجه ، حسنة المنظر ، جميلة الملبس ، ولكنها قد تكون فاقدة ذلك النشاط الفكرى ، والاتقاد العقلى ، فتعجز عن التأثير فى غيرها أو اجتذابه والسيطرة عليه . فهى كصورة جميلة المنظر ، ولكنها فاقدة الروح الفنية ، تلك الروح التى تؤثر فى الصورة ، فتعطيها قوة وتأثيرا وحياة معنوية .

فللنشاط العقلى تأثير حسن فى شخصية الإنسان ؛ وفى ارتفاع منزلته بين إخوانه وذويه . وللغباوة وقلة الفطنة والكسل العقلى أثر سيئ فى خمول الشخص وتأخره ، وعجزه ، وارتكابه الجرائم أحيانا . ولا عجب إذا قلنا إن معظم المجرمين من الأغبياء وضعاف العقول . وتبدو شخصية الأذكياء فى أعمالهم وأقوالهم ، كما تبدو فى منطقهم وتفكيرهم المنظم ، وآرائهم المرتبة ، وحججهم القوية ، وقدرتهم على التخلص بسهولة من المشكلات التى تعترضهم بما أوتوا من نشاط عقل ، وحدة ذهن ، وصدق حس .

وممن كان لذكائهم أثر فى نجاحهم فى الحياة (أبراهام لنكولن) أحد رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية الذين تدين لهم تلك الولايات اليوم بما فيها من تقدم ورقى وإصلاح. كان أبراهام متطلعا إلى العظمة منذ طفولته، مولعا بقراءة تاريخ العظماء، حاضر الذهن، متقد الفكر.

ولولا ضيق المقام والخوف من الخروج عن الموضوع لكتبنا عنه الكثير، فارجع إلى تاريخ حياته إن شئت.

وممن كان لحدة ذهنهم وشخصيتهم أثر كبير فى نجاحهم أيضا «اللورد ما كولى» الأسكتلندى؛ فقد كان كاتبا وشاعرا، وكان مؤرخا وقانونيا، وكان خطيبا وسياسيا. أظهر حبا للقراءة، وتعطشا للعلم منذ نعومة أظفاره. فتوسم فيه أبواه كثيرا من علامات شدة الذكاء والمقدرة العقلية منذ طفولته؛ فقد قلد (السير وولتر سكوت) فى كتابته وعمره لم يزد على سبع سنين. وقد نجح فى حياته نجاحا باهرا، لنشاطه العقلى، وتأثيره الخطابى، وإخلاصه فى قوله.

وقد اشتهر بالذكاء وحضور البديهة كثير من رجال العرب ونسائهم نذكر لك منهم على سبيل التمثيل معن بن زائدة؛ فقد دخل على أبى جعفر المنصور، فقارب خطوه، فقال المنصور: «لقد كبرت سنك، قال فى طاعتك. قال وإنك لجلد، قال على أعدائك. قال: وأرى فيك بقية، قال هى لك». فانظر إلى أجوبة معن تجد أنها تدل على سرعة الخاطر، وحسن الجواب.

فالنشاط العقلى يساعد على النجاح فى الحياة، وينقذ الإنسان من أحرج المراكز، ويحفظ شخصيته فى أشد المواقف، ويسهل الصعب، ويقرب البعيد، وله أثر كبير فى حسن الخلق والسلوك. وبالإحصاء وجد أن أكرم حكام أوروبة

خلقا فى القرون الثلاثة الأخيره الماضية كانوا على جانب كبير من الذكاء.

(٣) المشاركة الوجدانية :

العنصر الثالث من العناصر التى تتكون منها الشخصية القوية هو المشاركة الوجدانية ؛ فإذا لم نشعر بشعور الناس ، ونشاركهم فى مسراتهم وأحزانهم ، ونتأثر بآرائهم وأفكارهم فهذا دليل على نقص فى شخصيتنا ، وعلى أننا فى حاجة إلى أن نضع أنفسنا موضعهم ، مهما تكن علاقتهم بنا ، على شرط أن يكون لدينا استعداد للفهم والتفكير والشعور ، مهما تكن مراكزنا بالنسبة إليهم ، من غير نظر إلى رئيس أو مرءوس ، غنى أو فقير ، عظيم أو حقير ، رفيع أو وضيع ، وألا تكون مناصبنا العالية حجر عثرة فى سبيل فهمنا لغيرنا ، وتقدير ظروفه المحيطة به ، بل تكون معينة على أن نشاركه فى حالاته ، فنسر لسروره ، ونتألم لآلامه. وبذلك نملك قلبه. أما صاحب المزاج البارد الذى يتمثل فيه الجمود والقسوة والغلظة فلا يتأثر لما ينتاب غيره من نكبات ، ولا يحب أن يتفاهم مع أحد ، فهو ينفر من الناس ، والناس ينفرون منه ، وهو يؤثر فى غيره بالإيذاء ، كما يؤثر الهواء البارد فى النبات الغض الشديد الإحساس ، فيتجمد قبل أن ينمو أو يترعرع. ومن أكبر العيوب التى كان يتصف بها نابليون شدة قسوته على النوع الإنسانى ، وعدم مشاركته له فى شعوره ، ومن ثم كانت شخصيته غير كاملة. وإننا فى الوقت الذى نطالب فيه بالعدالة نطالب أيضا بالرحمة.

ومن الحكمة إذا كنت رئيسا أن تصل بالمشاركة الوجدانية إلى تنفيذ جميع رغباتك ، من غير التجاء إلى إظهار سلطتك ، وأن تفوز بطاعة مرءوسيك

من غير احتماء بالقانون . ومن المهارة أن تبين لمرءوسيك أخطاءهم ، ونقط ضعفهم، وتسيرهم كيف تشاء بدون أن تحط من كرامتهم ، وبدون أن تظهر لهم أنك أعلى أو أرقى منهم ، ومن غير اضطرار إلى اتباع شدة أو عنف . إذا أمكنك الوصول إلى كل هذا كانت شخصيتك قوية ، وكان تأثيرك كبيرا .

وإن قوة التأثير لا تستدعى شدة أو غلظة ، ولكنها تستدعى أن تشارك الناس فى شعورهم ووجدانهم ، وتتألم لما يدهمهم من حوادث الدهر، وتؤاسيهم فيما يلم بهم من نوائبه ، وتنظر إلى حسناتهم قبل سيئاتهم ، وفى صوابهم قبل خطئهم ، وتقدر حسناتهم إذا أحسنوا ، وتفكر فى البواعث التى اضطرتهم إلى الخطأ إذا أخطئوا ، وتعتدل فى أحكامك إذا حكمت ، لا تنزع إلى جانب الظلم ، ولا تميل إلى ناحية التهاون . وبهذه الوسيلة تكون قويا ، لينا فى غير ضعف ، متواضعا فى غير ذلة ، موفقا فى عملك ، محبوبا عند غيرك . أما هؤلاء الذين يلجئون إلى الشدة والقسوة دائما فهم ضعفاء ، يشعرون بالضعف فى ناحية من النواحى ، فيلجئون إلى الغلظة ، ظانين أنهم بهذه الطريقة يسترون ذلك الضعف ، ويكملون ذلك النقص . وإن من يميلون إلى القسوة حبا للقسوة ، ولا يفكرون إلا فى السيئة حبا للإساءة ، ولا يبحثون إلا عن العيوب حبا لإظهارها ، ويتغاضون عن الحسنات رغبة فى إخفائها ، ويعتقدون أنهم الصادقون ، وغيرهم الكاذبون ، وأنهم العقلاء ، وسواهم الحمق — ينبغى ألا يوضعوا موضع الحاكمين؛ خوفا من أن يظلموا الأبرياء ، أو ينصروا الأقوياء على الضعفاء ، لأنهم بعيدون عن المشاركة الوجدانية ، مثلهم مثل الكلاب تنبح فى الطرق لا فى ضوء النهار ، بل فى ظلام الليل؛

كى تبحث عن فريسة تفترسها ، أو خيانة تخونها ، أو طعام تسرقه . هم كالكلاب تسرهم عيوب غيرهم ، ويفرحون لهفوات سواهم . وأمثال هؤلاء لا شخصية محبوبة لهم ، فأشخاصهم مكروهة ، وأسماؤهم منبوذة ، وأفعالهم ممقوتة مشئومة .

فالمشاركة الوجدانية من أهم عناصر الشخصية القوية ، تجعل القلب متقدا يشعر بشعور غيره ، ويقيس نفسه بمقياس سواه من الناس . يقول (السير وولْتَر سكُوت)[١] الكاتب الأسكتلندى الكبير : إن المشاركة الوجدانية هى الحلقة الفضية أو الرباط الحريرى الذى يصل القلب بالقلب ، ويربطُ العقل بالعقل والجسم والروح » . فإذا كانت الشخصية هى القوة التى بها يجتذب غيرنا فالمشاركة الوجدانية من أهم الأشياء التى بها نتصل بقلوب غيرنا وأرواحهم .

وإذا قدرنا الغير ، وفكرنا فيه ، وسررنا لسروره ، وتألمنا لألمه ، فإننا ننتظر منه أن يقابل المثل بالمثل ، فيقدرنا ويفكر فينا ، ويشاركنا فى سعادتنا وشقائنا بوجدانه وقلبه . أما إذا لم نقدر أحدا ، ولم نفكر فى أحد ، فإننا لا نترقب أن يقدرنا أو يفكر فينا أحد .

ومن آثار المشاركة الوجدانية أن يخلص الأستاذ فى نصح طلبته وإرشادهم ، والتفكير فى عملهم وظروفهم ومستقبلهم ، فيقابل الطلبة ذلك بالوفاء والطاعة والتقدير . فالشخصية الحية تستدعى أن نتأثر لغيرنا ، ويتأثر غيرنا لنا ، ونشعر بشعورهم ، ويشعروا بشعورنا . ولا أثر للتربية والتعليم إذا لم يصحبا بمحبة

---

(1) Sir. Walter Scott (١٧٧١ — ١٨٣٢) من أكبر الكتاب الأسكتلنديين القصصيين المعروفين بالإخلاص ، وصدق العزيمة ، وقوة الإرادة ، له روايات كثيرة تمثل الحياة الاجتماعية فى أسكتلندا وغيرها . وشعره أقل منزلة من نثره .

غيرنا ، والتفكير فيهم بقلوبنا . فالمشاركة الوجدانية يجب أن تتحقق فى القادة ، قادة الفكر ، وقادة العمل ؛ حتى تكون لديهم شخصية جذابة قوية . غير أنه ينبغى ألا يتدخل الوجدان والعاطفة فى أقوالنا وأفعالنا . وحركاتنا وسكناتنا تدخلا كبيرا ، حتى نستطيع أن نزن الشىء بميزان العدالة ، لا بميزان العاطفة. ويجب ألا ننظر فى الأمور من ناحية واحدة وهى الناحية الوجدانية ؛ لئلا يختل التوازن ، ويصبح الإنسان عبدا خاضعا للتأثيرات الوجدانية العاطفية التى تعميه عن حقائق الأشياء وعلاقاتها بغيرها .

(٤) الشجاعة :

ربما كانت الشجاعة أهم عنصر من عناصر الشخصية القوية ، فى أوقات الرخاء والشدة على السواء . ولكن ما الشجاعة ؟ الشجاعة قوة بها يتمكن الإنسان من السيطرة على قواه مع ضبط نفسه وقت الخطر الذى يهدده ، سواء أكان ذلك الخطر حقيقيا أم وهميا . وكما أن الشجاعة فضيلة فى الجندى والملاح كذلك هى فضيلة فى غيرهما من بنى الإنسان . وهى خير مقياس يقاس به الشخص فى أوقات الشدة حيث يتطلب الثبات أو الإقدام . وبهذا المقياس يمكن وضع الشخص فى مرتبته الخاصة بين الشجعان أو الجبناء ، وبين العظماء أو العاديين .

وقد قيل ، وقيل حقا ، إن الشجاعة تتوقف على القوة الجسمية والعصبية والعقلية والخلقية التى لدى الإنسان . وإن المدنية الحاضرة قد قللت من الشجاعة بين الأفراد ؛ فقد صرح أحد النظار السابقين لمدرسة (إيتون)

الإنجليزية المشهورة بأنه رأى غلاما قد دخلت فى عينه ذبابة ، فحاولت أمه وأخواته الثلاث إخراجها بغير جدوى ، ولم يكن الأمر فى حاجة إلى أكثر من أن يتحمل الولد الألم دقيقة واحدة ، ولكنه لم يتحمل آلام دقيقة — إن كانت هناك آلام. فأخذ فى عجلة إلى طبيب فى مدينة تبعد خمسة أميال عن القرية . كل هذا من أجل شىء يسير كان فى استطاعة أى فرد من الأسرة أن يقوم به بسهولة .

هذه حكاية عن شبان الأمس ، وأمهات الأمس بانجلترة،أما اليوم فتجد الأمهات والآباء يغرسون الشجاعة وخلق الرجولة فى نفوس أبنائهم من الصغر، ويعودونهم الصبر ، وضبط النفس ، وكتمان الشعور ، وتحمل الألم من الطفولة الأولى . وبهذه الوسيلة يبثون الشجاعة فيهم . ولا يظهر الخلق المتين ولا تبدو الشخصية القوية إلا بهذا النوع من الشجاعة، وهو القدرة على احتمال الآلام . وإن من يستطيع أن يحتمل خمس دقائق أكثر من غيره يمكنه أن يفوز بالنجاح والنصر ، سواء أكان جنديا أم قائدا ، متعلما أم معلما ، غنيا أم فقيرا . وبالشجاعة يظهر الفرق الكبير بين الشخصية القوية والشخصية الضعيفة . والآن نريد أن نبين مظاهر الشجاعة وأثرها فى النجاح فى العمل ، وفى الحياة الاجتماعية فنقول :

مظاهر الشجاعة :

أولا : الشجاعة فى ضبط النفس ؛ وذلك بأن نقف موقفا طبيعيا بكل شجاعة عند مقابلة الرؤساء ، أو عند الظهور أمام مجتمع لإلقاء محاضرة ، أو

الاشتراك فى مناظرة ، أو التعبير عن رأى ، أو الدفاع عن مبدأ أو عقيدة ، بحيث لا نرتعد ولا نضطرب ، ونظهر بأحسن مظهر فى حديثنا وإلقائنا ، ونبرهن بأعمالنا وآرائنا على مقدرتنا بكل لطف وأدب . وإذا لم يكن لدى الإنسان قدرة على إظهار مقدرته بالعمل وضبط النفس فقد تضيع منه الفرصة الذهبية التى قد لا تصادفه مرة أخرى ، وكثيرا ما تضيع الفرصة من الشخص، ثم يندب سوء حظه ، ويشكو الظروف والمقادير ، مع أنه لم يكن فى حاجة إلى أكثر من الشجاعة فى انتهاز الفرصة حين سنوحها .

ولا سبب يدعو الإنسان إلى الخوف من أبناء جنسه . وقد يكون الخوف مبنيا على وهم لا أساس له . وإذا وثق المتكلم بنفسه ، وعرف ما يريد أن يقوله ، وعرف كيف يعبر عن خواطره ، وكيف يبرهن على نظريته بالعقل والمنطق ، فإنه يستطيع أن يطمئن إلى نفسه ، ويمسك بزمامها ، ويقابل من يشاء ، ويخاطب من يريد ، ما دام متحليا بالأدب ، واثقا بنفسه ، وكان عقله مرتبا ، وأفكاره منطقية ، بحيث لا يتسرع فى ذكر شىء يدل على عقل مضطرب ، أو روح قلق ، ولا يتظاهر بما ليس فيه . وإذا وثقت بما تريد أن تقوله فهذا وحده كاف لأن تؤثر فى نفوس سامعيك ، وتنظر إليهم وتقابلهم بكل قلبك وجها لوجه ، وتجعل قلبك وروحك فى إثبات ما تريد إثباته ، أو نفى ما تريد نفيه . فتتكلم بقلبك لا بلسانك .

ولا شىء يوهن الشجاعة ويخضد شوكتها أكثر من الهلع ؛ فحيثما وجد وجد الألم ، والقلق النفسى ، وتعب الضمير ، واضطراب العقل ، فتضطرب شخصية الإنسان . ولئن كان الخوف ثمنا ندفعه فى سبيل المحافظة على الحياة إنه

الإفراط فيه عيب من العيوب الإنسانية التى يجب تهذيبها ، والتى تقضى بأن يفكر الإنسان فى الشىء وفى نتائجه .

وبجانب المخاوف التى تلحق الشخص فى حاضره ، وتحيط به من وقت لآخر ، هناك مخاوف وهمية يتوهمها ، ويتخيل حدوثها فى المستقبل ، فيقلق باله ، ويضطرب فكره ، وتضعف شجاعته . وكثيرا ما تكون هذه الأوهام المخيفة مبنية على غير أساس ، ويندر أن تقع . وكم اغتممنا لتوقع مصائب لم تحدث ، ولن تحدث . وتكثر هذه المخاوف عادة لدى الشخصيات الضعيفة . أما ذوو الشخصيات القوية فلا يكثرون الهموم من غير ماسبب ، ولأقل سبب ، بل يستقبلون الحياة كما هى ، ويواجهونها بما فيها من مسرات وأحزان ، وسعادة وشقاء على السواء ، يبتسمون بهدوء حتى فى مواطن البكاء ، ويصبرون فى مواقف البأساء . وهؤلاء جديرون بالنجاح فى الحياة ، لشدة ثقتهم بالله .

والحياة مملوءة بالحوادث والمصائب ، والعجائب والغرائب . ولا يستطيع الإنسان أن يعرف ما ينتظره فى الغد من المقادير . وقد تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن ، فيفاجأ الإنسان بأشياء ما كان ينتظرها ، كمرض ، أو فقد مال ، أو خسارة . فبهذه وبكثير أمثالها من الحوادث تختبر رجولتنا ، ويعرف معدن الرجولة فينا . وبالروح التى نقابل بها هذه الحوادث تظهر شخصيتنا أو تستتر . ولا يظهر الرجال إلا عند الشدائد والمصاعب .

ومن حيث إن النجاح فى الحياة ليس من السهل فيجب أن يتعلم الإنسان كيف يبتسم فى الأيام المظلمة ، كما يبتسم عند المسرات فى أيام السعادة والهناءة . وينبغى أن يتعود الشجاعة والاحتفاظ بقواه عند الملمات ؛ حتى يكتسب إعجاب

رفقائه واحترامهم ، ويثبت ثبات الطود فى مهب الرياح . وليس من الشجاعة أن تكثر شكوى الحياة والظروف والأيام ؛ فشكوى سوء الحال لن تغير ماحدث ، بل تذهب بنضرة العقل ، وقوة القلب . وإن الفرَق من الخذلان والهزيمة يؤدى إلى الهزيمة ، وقوة الأمل فى النجاح مع التشجع والمثابرة تحفظ روح الإنسان وهمته ، وتبعث فيه كثيرا من الرجاء فى الفوز ، وخاصة إذا عمل بعقله وقلبه ويده . وإن الاعتراف بالنقص فضيلة ، والعمل على علاجه شجاعة .

فنحن فى حاجة إلى الشجاعة التى بها نستطيع مواجهة المخاوف ، ومقابلتها بكل ثبات وصبر وتفكير حتى نتغلب على مصاعب الحياة ، ونقلل من الخوف الذى يهدم الرجولة من أساسها ، ويقتل الشخصية فى مهدها .

وإن أعظم انتصار فى الحياة هو الانتصار على النفس بضبطها ، وكبح جماحها ، والتغلب عليها . وليست الشجاعة فى أن تنتصر على سبع مفترس فحسب ، ولكن الشجاعة فى أن تسيطر على نفسك التى بين جنبيك . وأرقى مظاهر الشجاعة الصبر والتحمل عند المقدرة .

ثانيا : هناك مظهر آخر للشجاعة يتبين فى التغلب على الصعاب التى تعترض الإنسان فى الحياة ، وإصلاح الأخطاء التى تمر بنا ، سواء أكانت هذه الأخطاء منسوبة إلينا أم منسوبة إلى غيرنا . وهناك كثير من المصاعب التى يمكن التخلص منها بقليل من الشجاعة والحزم والثبات . وكثيرا ما يكون الجبن سببا فى الإخفاق ، وعدم النجاح فى العمل . وكما تكون الشجاعة فى الإقدام على الشىء تكون فى الإحجام عنه عند تحقق التهلكة . ولا تقل الشجاعة فى الإحجام والتريث حينئذ عن الشجاعة فى الإقدام .

وممن كانوا مثلا للشجاعة واقتحام المخاطر بين العرب خالد بن الوليد . ومن أقواله : لقد لقيت كذا وكذا زحفا ، وما فى جسدى موضع شبر إلا وفيه طعنة أو رمية ، ثم هأنذا أموت على فراشى حتف أنفى ، فلا نامت أعين الجبناء .

ثالثا : تظهر الشجاعة فى الإجابة وفى إبداء الرأى : من الشجاعة أن يجيب الإنسان بكل أمانة وإخلاص عما يسأل ، وأن يبدى رأيه بكل صراحة، ويدافع عنه من غير تغيير للحقائق ، ومن غير اضطرار إلى الإنكار ، أو ذكر نصف الحقيقة؛ خوفا من أن يظهر بنفسه الحقيقية كما هى . وإذا اعترفنا بكل إخلاص بأننا فعلنا كذا ، ولم نسمع رواية كذا ، أولم نقرأ كتاب كذا ، أو أننا لانحب فلانا فقد يعجب المستمع العادى ؛ ولكننا لو ذكرنا السبب بطل العجب . وهذا أفضل من تشويه الحقائق بالتغيير والزخرفة ، وتضليل غيرنا . وهناك أسئلة شخصية تدل على تطفل السائل ، وتدخله فى شئون غيره ، فمثل هذه الأسئلة يجب أن تحارب برفض الإجابة عنها بكل أدب ، عقابا لذلك المتطفل .

(٥) الحكمة :

إن شخصية الإنسان لا تكون متينة إلا إذا زانتها الحكمة والعلم والحزم ، ووضع الأشياء فى مواضعها ، وقدرها حق قدرها . والرجل الحكيم هو السديد الرأى ، البعيد النظر ، الحسن التقدير ، الذى يعرف الحق فيتمسك به ، ويفعل مايجب أن يفعل ، ويترك ماينبغى أن يترك ، ويقول مايجب أن يقال ، يرى الفرصة فينتهزها ، ويشعر بالطريق المستقيم فيسلكه، يحس بنتيجة الشىء حتى قبل حدوثها،

ويعامل غيره بما يحب أن يعامل به ، ويحكم على غيره بما يود أن يحكم به عليه ، يحب لأخيه مايحب لنفسه . وإذا حكم على غيره كان حكمه بعيدا عن الأهواء والأغراض ، تتمثل فيه النزاهة والعدالة . كل هـذه الصفات نتيجة الحـكمة وحسن التقدير . والحـكمة صفة أساسية فى تـكوين الشخصية السامية . أما إذا انتفت الحـكمة فإن الإنسان يكون واهن الرأى ، مضطرب البصيرة ، سيئ الحظ ، عاثر الجد ، ضعيف الشخصية ، ويعجز عن تقدير الأشياء ، ويفعل مايجب أن يترك ، ويهمل أمورا تجب العناية بها ، ويهتم بأشـياء لا قيمة لهـا ، يحب ما ينبغى أن يكره ، ويكره ما ينبغى أن يحب ، فيصبح ضحية لوجداناته وأقواله وأفعاله ، ويصير مكروها لدى من يعرفونه .

ومن الحـكمة أن نجتهد فى إرضاء الناس — وإن كان إرضاؤهم جميعا غاية لاتدرك — من غير أن نضحى بمبدأ من مبادئنا ، أو مظهر من مظاهر رجولتنا؛ حتى نملك قلوبهم . وهذا دليل على وجود الشخصية القوية الجذابة .

وكثيرا ماتفسد الحـكمة وتشوه بالفخر ، أو التـكبر ، أو الحقد ، أو الغيرة أو الغش . فينبغى أن يهذب الإنسان نفسه ، ويترك الفخر جانبا ، ولا يتـكبر أو يحقد على غيره ، ولا يغش أحدا أو يضله ، حتى تـكون علاقته بغيره حسنة ، وتـكون شخصيته محبوبة لدى من يتصلون به أو يعرفونه .

(٦) التفاؤل :

من العناصر التى لاتقل أهمية فى تـكوين الشخصية الممدوحة : التفاؤل والتيمن ، والنظر إلى الأشـياء بمنظار الفأل الحسن ، ويمن الطالع ، لا بمنظار

التشاؤم والتطير ، ذلك المنظار الأسود ، منظار الشؤم والطيرة . فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب الفأل ويكره الطيرة . ولا نقصد بالتفاؤل أن نغمض أعيننا عن الحقائق ونتائج الأمور، بل نقصد أن نعتاد فى تفكيرنا النظر الى الأشياء بعين الأمل والرحمة ، لا بعين اليأس والقنوط ، وننظر إليها فى نور الأمل لا فى ظلام اليأس ، من الناحيـة المضيئة من الطريق ، لا من الناحية المظلمة الحالـكة . والمتفائل يرضى بالماضى خـيره وشره ، ويثق بالمستقبل ، ثم يؤدى الواجب ويترك النتيجة لله سبحانه وتعالى. وتعتبر هذه العادة العقلية عادة التفاؤل، من الأمور الجوهرية فى تقوية الشخصية . وكثيرا ما ينشأ التفاؤل عن نشاط الشخص وقوته العقلية والعصبية ، وعن نوع الأفـكار التى يسمح لهـا بالدخول إلى العقل . وإذا تعود الإنسان أن يزود نفسـه بالأفـكار الصحية السارة فإنه لا يتجنب التشاؤم والحزن فحسب ، بل قد يطل من نوافذ العـقل على الناحية السارة المضيئة من الحياة .

وينشأ التشاؤم عن ضعف النشاط وضعف القوة العصبية ، ووهن الرقابة العقلية (mental control) فى الإنسان ؛ فيسمح لنفسه بأن تسبح فى جو مظلم من الأوهام، حتى يصبح عقله متلبدا بغيوم لا حقيقة لها، ودخان لا أصل له؛ هى غيوم التطير ، ودخان التشاؤم . وإن ضبط النفس والنظر إلى الناحية السعيدة دائما مما يزيل عن أولئك المتشائمين وهؤلاء المتطيرين هذه الهموم والأحزان التى تسيطر على نفوسهم .

وإذا كان التفاؤل موقظا للعقل ، ومدعاة للنشاط ، وباعثاً على الإقـدام ، ومحررا للإنسان ، ومنشطا لجميع قواه العقلية فالتشاؤم سبب فى الخمول والـكسل،

وكثرة التردد والإخفاق ، والشقاء والضعف لا فى التفكير فحسب ، بل فى الشخصية أيضا .

فالشخصية الحية القوية ينبغى أن تتمسك بالتفاؤل ، وتلتزم الناحية السارة ، يقودها الأمل ، ويحييها الرجاء . تفكر فى النجاح أكثر من الخيبة ، وفى التقدم أكثر من التأخر . وتميل إلى جانب الثقة أكثر من الميل إلى جانب التردد ، وتثق بما تقول وما تفعل ، ولديها كل علاج ، وهى منبع النشاط والقوة . قال (رُوَبرت برونج)[1] : «من الحكمة أن ترجح جانب الخير على جانب الشر ، واللين على الشدة ، والتعقل على الطيش ، والأمل على اليأس ، والنور على الظلام » .

(٧) التواضع وعدم التصنع :

العنصر السابع من عناصر الشخصية التواضع وعدم التصنع ؛ وذلك بأن يكون لدى الإنسان استعداد به يقدر نفسه ومركزه قدراً يدل على التفكير والحكمة من غير تصنع أو تظاهر بما ليس فيه .

فإذا تصنع المرء وادعى صراحة أو ضمنا ما ليس فيه ؛ كأن يقدر نفسه فوق قدرها ، ويعطيها أكثر من حقها ، ويتعظم وما هو بالعظيم ، ويدعى العلم وما هو بالعالم ، والثروة وما هو بالثرى ، والقوة وما هو بالقوى — إذا ادعى شيئا من هذه الأشياء فقد يتضح أمره لدى الناس ، ويتبين جهله ، أو فقره ،

(١) Robert Browning هو شاعر إنجليزى كبير (١٨١٢ – ١٨٨٩م) مشهور بغموض الأسلوب .

أوضعفه على عكس ما ادعى ، فيعلمون كذبه ، فيحتقرونه ويزدرونه ، وينفرون منه ، ويتباعدون عنه ، ويصبح مكروها ممقوتا عندهم جميعا .

وإن مدح الإنسان نفسه ثقيل لا يقبل ، وإذا قبل فإنه يجب أن يستند إلى حقائق. والأولى أن يترك الإنسان عمله ليدل عليه ، ويتحدث عنه ، بدلا من أن يتحدث هو عن نفسه . وإن كان المرء جديرا بالمدح فسرعان ما تظهر حقيقته ، ويقدر الناس كفايته ، ويزنون أعماله ، ويعترفون بشخصيته ومقدرته . فالتواضع سبيل النجاح والرفعة ، والتصنع سبيل الإخفاق والذلة .

وإننا وإن كنا ضد التصنع والتظاهر لا نمنع أن ننزل أنفسنا منزلتها ، ونعدها وحدة من المجموع ، لها ماله ، وعليها ما عليه ، ونستحسن أن نترك لغيرنا الحكم لنا أو علينا ، وأن نتحلى بالتواضع فى غير ضعف أو ذلة . فالتواضع أساس للشخصية المحبوبة الجذابة . وإننا نجتذب غيرنا بقدر ما يحبنا غيرنا . وإذا كانت الشخصية مظهرا لقوة النفس فهى عدوة الكذب والتضليل . فليس المهم فى أن تدعى كذبا ، ولكن المهم فى أن تعمل حتى تثبت لنفسك العظمة إن كنت عظيما .

(٨) حسن مظهر الإنسان وقوامه :

لمظهر الإنسان وقوامه أثر فى شخصيته ؛ فالرجل الصحيح الجسم ، الحسن القامة ، ربما لا يحتاج فى إظهار شخصيته ، والتأثير فى غيره إلى ما يحتاجه الشخص النحيف الجسم ، المشوه الخلقة ؛ فبينما تجد الأول طبيعيا فى معاملته ، لأنه لا يشعر بنقص خارجى يريد أن يكمله ، إذ تجد الثانى محبا للتظاهر ، متكلفا فى أقواله

وأفعاله، متخذا كل وسيلة يستطيع أن يظهر بها نفوذه؛ فيتظاهر بالعلم تارة، ويفخر بحسبه ونسبه تارة أخرى. وقد يتخذ أحيانا وسائل ثعبانية أوثعلبية، ليظهر بهانفسه أمام من يبغى الظهور بينهم، فيلجأ إلى الوشاية حينا، وإلى الملق حينا آخر. وقد يضطر إلى التجمل فى جسمه ولبسه، أو المداعبة فى حديثه — كل ذلك ليكمل مافيه من نقص جسمى.

فالإنسان حينما يحس بنقص من الناحية الجسمية مثلا تراه يعمل على أن يسد هذا الفراغ، ويكمل ذلك النقص من الناحية العقلية أوالخلقية حتى يظهر شخصيته للملأ. فسقراط [1] مثلا شيخ الفلاسفة من اليونان قدكان أفطس الأنف، غليظ الشفتين، جاحظ العينين، قبيح المنظر، ولكنه قد وصل بمواهبه العقلية والخلقية الأخرى إلى ذروة المجد. ويكفيه فخرا أنه أستاذ أفلاطون، وأنه أكبر فلاسفة اليونان. والجاحظ [2] كان أديب العلماء، وعالم الأدباء، وما لقب بهذا اللقب الذى كان مبغضا إليه إلا لأنه كان جاحظ العينين (بارزهما)، دميم الخلقة، حتى قيل إن الخليفة المتوكل سمع بمنزلته من العلم والفهم، فاستقدمه إليه بسر من رأى ليؤدب ولده، فلما رآه استبشع منظره، وصرفه بعشرة آلاف درهم. ولكنه بجانب ذلك كان خفيف الروح. ذكى الفؤاد، واسع الاطلاع، وكان يعد دائرة معارف فى الآداب والعلوم واللغة والتاريخ؛ حتى أصبح لقبه — الذى كان يكرهه — دليلا على التبحر فى العلم والأدب، والفوق فى فنون البلاغة والبيان. سئل كيف حالك يا أباعثمان؟ فقال:

---

(١) ولد بأثينا سنة ٤٦٩ ق. م، وحكم عليه بالقتل ظلما سنة ٣٩٧ ق. م.

(٢) ولد بالبصرة سنة ١٦٠ هـ. وتوفى سنة ٢٥٥ هـ. فعاش نحو ٩٥ سنة.

« حالى أن الوزير يتكلم برأيي ، وينفذ أمرى ، و يواتر الخليفة الصلات إلى... » والتاريخ حافل بكثير من العظماء المشوهة أجسامهم ، السامية أرواحهم وعقولهم ، فلا حاجة بنا إلى التطويل. وكل ما نريد أن نقوله هو أنه إذا نقص الإنسان من جهة حاول أن يكمل نفسه من جهة أخرى .

(٩) قوة البيان :

إن قوة البيان، وفصاحة اللسان ، وحسن المنطق ، والقدرة على التأثير فى السامع مع رجاحة العقل ، تكسب الإنسان شخصية، وتجعل له منزلة بين سامعيه ، ولذلك لما أمر الله سيدنا موسى عليه السلام أن يذهب إلى فرعون شكا موسى العى فى القول ، وطلب من الله أن يرسل معه أخاه هرون لفصاحته قائلا «وأخى هرونُ هو أفصحُ منّى لسانا فأرسِلْه معِى رِدْءاً[١] يُصَدِّقُنِى» يريد فرعون . وإن القوة الخطابية لدى « أبراهام لنكولن » وسعد زغلول ، ولويد جورج وغيرهم جعلت لهم شخصية قوية فى حياتهم النيابية . وإننا لا نريد بالفصاحة الثرثرة والتشدق والتوعر فى الكلام ، كما لا نريد بها أن يزيد كلام الإنسان على عقله ، بل نريد حسن التعبير عما فى النفس ، وقوة التأثير فى المستمع ، والتكلم من غير تهيب أو تخوف بحيث يكون الكلام حلوا رشيقا ، سهلا عذبا مؤثرا . أما العى[٢] والحصر[٣] واللجلجة[٤] والتمتمة[٥] والفأفأة[٦] و كثرة التردد فى القول ، والخجل فى أثناء التكلم فتقلل من تأثير الشخص فى سامعيه .

---

(١) عونا ومساعدا (٢) البطء فى الكلام (٣) العى وضيق الصدر
(٤) التردد فى الكلام (٥) رد الكلام إلى التاء والميم (٦) ترديد الفاء كثيرا

وحسن التعبير عما فى النفس شرط أساسى لقوة الشخصية . وهو يتطلب العلم بالشىء الذى نريد التكلم عنه ؛ لأن الأفكار إذا عرفت كان من السهل التعبير عنها . وكما يجب أن نعرف ما نريد أن نقول ، وما نريد أن نفعل كذلك يجب أن نحسن القول ، ونحسن العمل . وما أجمل الكلمة الصائبة فى اللحظة المناسبة . وكما ينبغى حسن التكلم والخطاب كذلك ينبغى حسن الإصغاء والاستماع لغيرنا . وقد تكون لدينا الأفكار السامية ولكننا نحتاج إلى الشجاعة فى إظهارها حتى ينتفع بها غيرنا .

(١٠) الثقة بالنفس والاعتماد عليها :

من العناصر الأساسية فى تكوين الشخصية الثقة بالنفس أولاً ، والاعتماد عليها ثانيا . ومتى وجدت الثقة بالنفس فمن السهل الاعتماد عليها فى كل عمل ممكن من الأعمال ، وفى التغلب على مصاعب الحياة ، والسبب فى كثرة الاعتماد على غيرنا أن الغريزة الاجتماعية قوية فى الجنس البشرى متأصلة فيه ، وأننا اعتدنا التفكير الجمعى لا التفكير الاستقلالى . فينبغى أن نعود الأطفال الاعتماد على أنفسهم ، والاستقلال فى تفكيرهم من غير اتكال على أحد ، حتى يستطيعوا فى المستقبل أن يعيشوا معتمدين على أنفسهم . ولا نريد بذلك أن يعتزل الإنسان العالم ، وينقطع عن الناس ، ويفكر فى نفسه فحسب ، فليس هذا من الإنسانية فى شىء ؛ بل إنه باعتزاله غيره يفقد كثيرا ، ولا يربح إلا قليلا . ولكننا نريد تعويد الأطفال الاستقلال الشخصى ، والقدرة على القيام بأعباء الحياة من غير اتكال على غيرنا فى كل شىء ، حتى يمكنهم

أن يقوموا بواجبهم نحو أنفسهم ونحو المجتمع . والاعتماد على النفس يتطلب الثقة بالنفس ، والدقة فى العمل ، والتحقق منه ، حتى تكون أحكامنا صائبة ، وأمورنا نافذة . وأقدامنا ثابتة. أما إذا انتفت الثقة بالنفس ، أو الدقة فى العمل، أو التثبت منه فالاعتماد على النفس حينئذ يكون عبثا ومن قبيل الأحلام .

والرجل الواثق بنفسه ثقة بعيدة عن الغرور والاستبداد ، الواثق بقوله وفعله — يستطيع أن يقف وحده ، مناديا برأيه ؛ مبرهنا على سداده وصوابه . وليس من يستقل برأيه فى أمر من الأمور يكون مخطئا دائما ، بل قد يكون مصيبا فى رأيه ، وقد يسبق فى آرائه المجتمع الذى يعيش فيه بعشرات السنين ، كما هى الحال فى المصلحين ، الذين يكونون غالبا فى واد ، والمجتمع فى واد آخر، لا يقدر رأيهم إلا بعد مماتهم . وبالمصلحين الذين يثقون بأنفسهم يحيا المجتمع . وإذا مدحنا الثقة بالنفس فلا نمدح الإفراط فيها ؛ لأنه قد يكون علامة على الضعف لا على القوة ، كما لا نمدح ضعف الثقة ؛ فإنه دليل على ضعف الشخصية.

(١١) المزاج : Temperament

من العناصر الهامة المؤثرة فى الشخصية : المزاج . وقد تكلمنا عنه بالتفصيل فى الفصل السابق ؛ فارجع إليه إن شئت . وكل ما نريد أن نقوله هنا بالإيجاز هو أن الناس يختلفون فى أمزجتهم كما يختلفون فى شخصياتهم ، فهذا متفائل؛ وذاك متشائم ، وهذا سريع التأثر ، وذاك بليد لا يكاد يتأثر ، وهذا كثير التردد ، وذلك كثير الإقدام . كل له مزاج خاص ، وسلوك يختلف باختلاف ذلك المزاج .

ومجمل القول أن الشخصية القوية يجب أن تتحقق فيها العناصر الآتية :

(١) الجاذبية . (٢) النشاط العقلي أو الذكاء .
(٣) المشاركة الوجدانية . (٤) الشجاعة (٥) الحكمة .
(٦) التفاؤل . (٧) التواضع وعدم التصنع .
(٨) حسن مظهر الإنسان وقوامه . (٩) قوة البيان .
(١٠) الثقة بالنفس والاعتماد عليها . (١١) اعتدال المزاج .

وهناك صفات أخرى كثيرة لا بد منها فى الشخصية ، سنتكلم عنها فيما بعد عند التكلم عن أنواع الشخصية والصفات الكمالية لها . ولكن العناصر المذكورة هى الأساسية فى تقوية الشخصية الضرورية للنجاح فى الحياة .

أنواع الشخصية

الشخصية نوعان : عملية ، وفكرية ، ولنتكلم عن كل منهما بالتفصيل فنقول :

(ا) الشخصية العملية :

كثيرا مايسأل الإنسان : أيهما أفضل الأمور النظرية أم العملية ؟ وبعبارة أخرى أيهما أفضل : الأفكار أم الأعمال ؟ وجوابنا عن ذلك أننا لا نستطيع التفضيل أو التفرقة بين النظريات والعمليات ؛ فنحن فى حاجة إليهما معاً ،

وكل منهما متوقف على الآخر ومكمل له، لا ضده ونقيضه كما يظن بعض العلماء، والأفكار أمهات الأعمال . ومن الممكن اعتبارهما مظهرين لشيء واحد .

وكما أن لكل أمر من الأمور ناحيتين : إحداهما نظرية ، والأخرى عملية، كذلك نقول إن للشخصية ناحيتين : نظرية وعملية ؛ فالرجل مثلا قد يكون موضع الإعجاب ، لأفكاره أو لأعماله ، ولو أن الأعمال فى النهاية نتيجة للأفكار . ومع ذلك قد تغلب على الإنسان إحدى الناحيتين : الفكرية أو العملية ، تبعا لميوله وعاداته ، فهذا يميل إلى الناحية الإدراكية ، فتنمى فيه بطريقة التعود الشخصية الفكرية ، وذلك يتجه إلى الناحية النزوعية العملية فيكتسب بالطريقة عينها شخصية عملية .

ولا شك فى أن الشخصية العملية التى تظهر بالعمل والتنفيذ أشد تأثيرا وظهورا فى الحياة العملية من الشخصية الفلسفية البعيدة عن هذه الحياة . والأولى كممثل يقوم بتمثيل دوره عمليا على المسرح أمام الناس ، والثانية كمن يقوم بتمثيل دوره فى الخفاء ، أو وراء الستار ، بعيدا عن الأنظار . فأثر الأولى أكثر وضوحاً وظهورا من أثر الثانية . وتتمثل الشخصية العملية فى المصلحين والقادة الذين ترى آثارهم فى أعمالهم التى قاموا بتحقيقها وتنفيذها خدمة للإنسانية . وتتمثل الثانية فى الشعراء والفلاسفة والخياليين الذين يقومون بتصوير الأشياء ووصفها ، فيسبحون فى عالم الخيال ، ولا ينكر فضلهم أحد ، ولكن أثرهم فى هذا العالم المادى أقل ظهورا ؛ ففى اليوم الذى اجتاز فيه (بليريوت)(١) القنال الإنجليزى بطيارته كانت الأفكار كلها وأحاديث الفخر والإعجاب موجهة إليه، لا إلى العالِم الذى فكر فيها عدة سنوات حتى اخترعها.

(1) Bleriot

وإننا لا نقصد بذلك أن نقلل من قيمة العلماء والمفكرين أو قادة الفكر، ولكننا نقصد الاعتراف بأن تأثير رجال الأعمال أظهر من تأثير رجال الفكر، وأننا نتأثر بالأعمال النبيلة أكثر من تأثرنا بالأفكار مهما تكن سديدة. ولا ننكر أن الفكر والوجدان ينتهيان بالعمل.

ومن الضروريات الأساسية للشخصية العملية العلم بالشيء الذى يراد القيام به، والرغبة فى النجاح فيه. ولا فائدة فى العلم والرغبة إذا لم يصحبا بقوة تنفيذية؛ معنوية أو حسية، داخلية أو خارجية تعمل للتنفيذ. فكما أن السيارة لا تستطيع السير إلا إذا كانت معدة للسير تمام الإعداد، وكان بها المقدار الضرورى من (زيت الوقود)، وكان الطريق معبدا صالحا لسير السيارات، كذلك الإنسان لا يمكنه أن يقوم بعمل عظيم إلا إذا كان هناك علم به، ورغبة شديدة فيه، وقوة دافعة تدفعه إلى القيام به، هى قوة الإرادة والعزيمة الثابتة.

وطالما صادف الإنسان أشخاصا لديهم الوسائل الضرورية للنجاح فى العمل من علم وخبرة، وذكاء وحسن تقدير، ولكنهم فقدوا صفة واحدة من أهم الصفات الضرورية للنجاح، تلك هى قوة العزيمة والتنفيذ، فلم ينجحوا فى أعمالهم؛ لأنهم يميلون إلى كثرة النقد والتحليل، والتشكك فى كل شيء حتى فى أنفسهم، فيمنعهم ذلك الشك من رؤية فائدة الشيء، فيترددون فى الإقدام، ويرجعون إلى الوراء، فتضيع منهم فرصة النجاح، والفرصة إن أتت مرة ربما لا تعود مرة أخرى. فالعزيمة الصادقة تعد سرا عظيما من أسرار الشخصية العملية، والنجاح فى العمل.

وسائل تقوية الشخصية العملية

هناك وسائل لتقوية الشخصية العملية نذكر منها ما يأتى :

(١) تحديد الغرض ومعرفة الطريق الموصل :

إن تحديد الغرض فى أى عمل من الأعمال مع معرفة السبيل الموصل إلى ذلك الغرض من أهم الوسائل المشجعة للإنسان على الاجتهاد فى العمل ، والسير فيه إلى النهاية من غير تردد ، وخاصة إذا صحب العمل بإرادة قوية ، وثقة به . فمعرفة الغرض لها أثر كبير فى نفوسنا ، سواء أكان ذلك الغرض عاديا أم عظيما . وإن نظرة واحدة إلى العالم تبين لنا أن لكل إنسان غرضا يسعى ليدركه مهما تختلف هذه الأغراض . ولكن المهم أن يكون الغرض محدودا ساميا .

كل له غرض يسعى ليدركه * والحر يجعل إدراك العلا غرضا

فالصياد يقف على شاطئ البحر ، وعصاه فى يده ، ينتظر بصبر عظيم ، وملاحظة دائمة ؛ أملا فى اصطياد السمك ، وما فيه من لذة ، وإرضاء للنفس . وسائق السيارة يسير فى طريقه مهما لاقى فيه من مطر أو ثلج أو ضباب أو غبار ؛ رغبة فى الوصول إلى مكان معين . وقبطان الباخرة العظيمة فى البحر الخضم يقود باخرته فى طريق معين ، نحو ميناء أو موان معينة فى جهات خاصة . وهنا يتمثل تحديد الغرض ، ومعرفة الطريق الصالح ، والتأكد منه ،

والثقة به . وإذا تمثلت هذه الأحوال العقلية فى الشخصية الإنسانية كانت من أعظم القوى العملية فى العالم . فينبغى أن يكون للشخص غرض معين من العمل يسعى ليدركه، ويحققه بكل ما أوتى من عزيمة ، وقوة ، ومثابرة ، وثقة بالنفس حتى ينتفع بقواه العملية . قال (ورد سورث[1]) شاعر الطبيعة من الإنجليز عن الأفراد الذين يسيرون فى الحياة نحو أغراض معينة : « إن اجتهادهم ناشئ عن وازع نفسى ينير الطريق أمامهم دائما ؛ فيقدرون جمال الطبيعة؛ ويعملون بما يعلمون ، ويثابرون على التعلم » .

وبعد الوصول إلى الغرض الأول أو المرحلة الأولى من الحياة يمكن التفكير فى مرحلة أخرى وتحديدها ، والعمل للوصول إليها . وهكذا إلى نهاية الحياة . قال عمر بن عبد العزيز : إن لى نفسا تواقة ، لم تزل تتوق إلى الإمارة ، فلما نلتها تاقت إلى الخلافة ، فلما نلتها تاقت إلى الجنة . وقيل : ذو الهمة إن حط فنفسه تأبى إلاَّ علوا ، كالشعلة من النار يصوبها صاحبها، وتأبى إلا ارتفاعا.

(٢) الرغبة فى العمل :

بعد تحديد الغرض من العمل يجب أن تكون هناك رغبة فيه ؛ وميل إليه ، لأن الرغبة .

(ا) ترفع من شأن العمل الذى نقوم به .

(ب) تؤدى إلى الإقدام والنشاط وهما القوة الطبيعية للشخصية ،

(1) William Wordsworth (١٧٧٠ ـ ١٨٥٠) م شاعر إنجليزى تتمثل فى شعره الإجادة فى وصف الطبيعة، ومحبة الإنسانية .

وتكون كوازع نفسى ، أو باعث داخلى ، يستنهض همتنا ، ويستحثنا على العناية بالعمل .

(ح) تمدنا بالقوة التنفيذية ، والإرادة الحقة الضرورية للوصول إلى أغراضنا .

فالرغبة هى الدافع الطبيعى للإنسان على العمل ، مهما لاقى فى سبيل ذلك العمل من متاعب ومصاعب . والرغبة الحقة هى تلك القوة الروحية التى توحى إلى الشخص القيام بالشىء بهمة لا تعرف الكلل ، ولا تقف دونها أى عقبة . فإذا وجدت الرغبة ثم وجدت الإرادة ، سهل الطريق مهما يكن شاقا . والحاجة تفتق الحيلة . فإذا رغبت فى معرفة صناعة غزل القطن ونسجه كان الذهاب إلى معمل الغزل والنسج أحب الأشياء إليك ، وأخذت تشعر بأنه يجب أن تعرف كل شىء يتعلق بالقطن ، وأين يزرع ، وكيف يزرع ، وكيف تتقى آفاته السماوية ، وما الأحوال الجوية التى يتطلبها ، وكيف يجنى ، وكيف يوضع فى الغرائر ، وكيف يخزن ، وكيف يرسل إلى السفن ، وكيف يحلج ، وكيف يغزل ، وكيف ينسج .

وكذلك القول فى رغبة (أبراهام لنكولن) فى تحرير العبيد يوم ذهب مع بعض العمال إلى السوق ، فوجد جارية تباع وتشترى ، فتألم لبيع الإنسانية وشرائها الألم كله ، فتمنى أن يعطى سلطة كى يضرب على الاسترقاق بيد من حديد ، فأعطى الفرصة بعد زهاء ثلاثين عاما بانتخابه رئيسا لجمهورية الولايات المتحدة بأمريكا ، فكان من أوائل أعماله العمل على تحرير العبيد . وقد أدى ذلك إلى حرب داخلية ، ولكن النصر كان أخيرا فى جانبه .

وبذلك يعتبر محررا للعبيد ، مدافعا عن الإنسانية المظلومة .

وإن الرغبة فى الإصلاح الاجتماعى هى التى جعلت (شارلز دكنز[1]) أكبر كاتب ومصلح اجتماعى بانجلترا فى القرن التاسع عشر . وإن الرغبة فى شراء أسهم قناة السويس بعد التأكد من فائدتها هى التى خلدت ذكرى (دزرائيلى) بين الإنجليز ، وجعلته يعمل بكل ما أوتى من قوة على تنفيذ الشراء ، مع شدة ما لقى من معارضة فى مجلس الأمة ، ومن معارضة مدير مصرف إنجلترا . وإن الرغبة فى أعمال الآلات هى التى جعلت إديسون (Edison) أكبر مخترع (ميكانيكى) فى القرن العشرين . والأمثلة كثيرة لا حصر لها . فبغير الرغبة لا يستطيع الإنسان أن يقوم بعمل عظيم فى الحياة . فإذا أردت القيام بعمل من الأعمال — سواء أكان ذلك العمل دينيا ، أم اجتماعيا ، أم أدبيا ، أم علميا ، أم فنيا ، أم حربيا — فأوجد الرغبة الصادقة وهى كفيلة بالتنفيذ ، والنجاح فى ذلك العمل .

والرغبة نوعان : مباشرة وغير مباشرة ؛ فالمؤلف الذى يؤلف كتابا ، أو يكتب مقالة لصحيفة يومية ، يجب أن يكون تأليفه وكتابته عن رغبة حقيقية إذا أراد أن يكون لعمله قيمة علمية أو أدبية . فالرغبة فى العمل هى الشرط الأساسى للتقدم والنجاح فيه . ولكن هل الرغبة وحدها تكفى للنجاح ؟ الحق أنها ربما لا تكفى . بل ينبغى أن يكون هناك بعض التشجيع الأدبى أو المادى ؛ لأن المؤلف أو الكاتب ربما لا يكتب حبا للكتابة

(١) Sharles Dickens ولد سنة ١٨١٢م. وتوفى سنة ١٨٧٠م. له منزلة كبيرة فى عالم الأدب الإنجليزى ، ومعظم رواياته حول الفقراء وبؤسهم ، وحول الإصلاح الاجتماعى. اقرأ ما كتبناه عنه فى كتاب «أروع القصص» لشارلز دكنز بمكتبة المعارف بمصر

فحسب ، بل قد يكتب ليعيش ، أو ليحصل على ضروريات الحياة أو كمالياتها . فهو ينتظر تشجيعا ، ويجب أن يشجع بقدر عمله ، وإعطائه ما يستحق . وحينما توجد الرغبة المباشرة الطبيعية فى العمل ، ثم تصحب برغبة أخرى غير مباشرة كالربح المادى أو المركز الأدبى فإننا لا نتردد فى أن نقول: إن النشاط يتضاعف ، والاجتهاد يستمر ، والعمل يزداد حسنا . ودواعى النجاح تكون أقوى وأشد ، لأن الرغبة متوافرة فى كلتا الناحيتين : المباشرة وغير المباشرة .

ولا ننكر أن المثل الأعلى هو أن نعمل حبا للعمل ، ونؤدى الواجب رغبة فى أداء الواجب ، ونقوم بالشىء من غير أن ننتظر جزاء أو شكورا . ولكن من حيث إن الإنسان إنسان فهو يفكر دائما فى النتيجة، وفيما يعود عليه من المنفعة ، والمكافأة على العمل . وهذه المكافأة نوع من التقدير يشجعه على العمل ، ويدفعه إلى أدائه كما ينبغى ، وكما يجب أن يكون . وكلما كانت المكافأة قيمة زادت الرغبة فيها ، وكثر التلهف عليها ، والعمل على نيلها . ومعظم الأعمال التى نقوم بها يوميا من قبيل الأعمال التى نؤجر عليها . ويجب أن نصرح بأنه لولا الأجور والمرتبات التى يتقاضاها العمال والموظفون ما قام أحد منهم بعمل قيم .

ولا تكفى الرغبة غير المباشرة — كالرغبة فى الأجر — للنجاح فى العمل ، واكتساب شخصية قوية ، بل لا بد أن تصحب برغبة طبيعية ، وميل حقيقى نحو العمل ذاته ، وإلا كان مكروها لدى النفس ، تبغضه وتنتظر بفارغ الصبر التخلص منه ، كما فى حال العامل الذى لا يجد لذة فى عمله ، فيترقب انتهاء

اليوم، ومجىء ميعاد الانصراف بكل صبر . ونحن لا نبغى ذلك النوع من العمل المقوت ، بل نبغى عمـلا مصحوبا بلذة ورغبة وسرور ؛ حتى ننجح فى ذلك العمل ونجيده ، ونجد شوقا إلى العودة إليه ، ونظهر فيه فوقاً ومهارة . ومن الصعب أن تنبغ فى عمل لا يكون محبوبا لديك .

(٣) الشعور بالواجب : The Sense of duty

من الوسائل التى تساعد على التنفيذ ، وعلى تقوية الشخصية العملية تلك الصفة الحية وهى الشعور بالواجب ، وإجابة نداء الضمير ؛ فالإنسان حينما يشعر بوازع نفسى بأنه يجب عليه أن يفعل كذا ، أو بأنه يجب عليه ألا يفعل كذا . فإن هـذا الشعور وحده يرمى إلى مغزى خلق ، ويستدعى نشاطا عقليا لفعل الشىء أو محاربته ، فهو بمثابة مؤثر داخلى يؤثر فيه تأثيرا قويا . وإن إجابة هذا المؤثر أو الباعث النفسى خـير كفيل لاستنهاض الهمة ، ومضاعفة العزيمة . قال (إمرسون) [١] : « إن الإنسان إذا استحثه الواجب لأن يقوم بعمل ٍ ماقام به . » وليس الشعور بالواجب ، أو تلبية نداء الضمير أو الصوت الداخلى مقصورا على طبقة دون أخرى ، ولا على جيل من الأجيال ، ولا سن من الأسنان .

وإذا تذكرنا أن الشعور بالواجب يتضمن حكم النفس [٢] وضبطها [٣] .

---

(١) Emerson : (١٨٠٣–١٨٨٢) من أكبر الكتاب الأمريكيين الذين لهم أثر واضح فى الأدب الأمريكى. له موضوعات قيمة ، ومقالات ثمينة فى كثير من الأمور الهامة.

(2) Self-discipline (3) Self-control

أمكننا أن ندرك العلاقة بين الشخصية والشعور بالواجب ، وإجابة الداعى النفسى ؛ ففى كل أمر من أمور الحياة نجد أن هدوء البال ، وراحة الضمير ، والاطمئنان ، والجمال — ثمرة من ثمرات الطاعة ، ومراعاة القوانين العلمية والفنية .

وإننا إذا بحثنا فى تاريخ العظماء والأدباء ورجال الفن نجد أن ذوى الشخصيات الخالدة (فى التاريخ) كانوا من ذوى الضمائر الحية الحساسة ، الذين يجيبون نداء الضمير ، ويصغون إلى صوت الله فيهتدون بهديه ، وكانوا يحسون بالواجب فيقومون به ، ويعملون على تنفيذه . وكثيرا ما يكون الضمير الحى والشعور بالواجب سببا فى إنقاذ الإنسان من صروف الحياة ، ومن السقوط إلى الهاوية ، فلا يكون فريسة للنفس الشريرة . فكل إنسان تفتح أمامه السبل المختلفة ، ولكن الروح الطاهرة لا تفكر إلا فى الطرق الشريفة السامية ، أما الروح الدنيئة فلا تنظر إلا إلى الطرق الدنيئة . ومعظم الناس يسلكون طريقا وسطا. وإن الشعور بالواجب ، وحب الفضيلة والتمسك بالخير تكسب الشخص قوة وروعة ووقارا ، وتبعث فى نفسه الحياة ، وتقوده إلى الطريق السوى ، وتعوده الصبر والمثابرة ، وتقوى الإرادة . وهى التربة الصالحة التى فيها تنمو وتثمر الشخصية القوية الغنية .

(٤) قوة الوازع الدينى :

إننا فى البحث فى الشخصية الإنسانية لا يمكننا أن ننسى الدين وأثره ،

والوازع الدينى وقوة تأثيره فى حياة الإنسان ؛ فكثيرا مايواجه الإنسان بأزمات وشدائد لاقبل له بها ، ولولا الثقة بالله والإيمان به لجزع وتملكه اليأس ، واستولت عليه الهموم من كل جانب . ولكن الوازع الدينى هو الذى ينتشله من وهدة القنوط ، ويبعث الأمل فى نفسه ، ويحييه من يأسه ، وينير الطريق أمامه بعد أن كان مظلما ، ويهديه بعد الضلال ، ويسليه عند الشدة . فالعنصر الوجدانى قوى فى العقيدة الدينية ، وهو يستحث الشخص على أداء الواجب ، وإرضاء الضمير ، والصبر ، والمثابرة ، ويوحى إليه فعل الخير ، واجتناب الشر ، ويدعوه إلى الحركة والعمل فى الحياة ، ويرشده ، فيعمل الإنسان العمل وكله أمل وثقة بالله ، يؤدى واجبه ويترك النتيجة لله ، لايفكر فى الماضى ؛ لأنه قدفات . وينظر فى الحاضر ، ويترك المستقبل لله يفعل مايشاء . بهذه الوسيلة يهدأ باله ، ويطمئن خاطره ، وتقوى شخصيته ، ويكون سعيدا فى الحياة .

والإنسان عادة يطمئن إلى رجال الدين والمتدينين الذين يثقون بالله تمام الثقة ، ويفعلون مايفعلون ابتغاء مرضاة الله . أما الرجل الذى لادين له فلا ضمير له ، ولا يمكنك أن تطمئن إليه .

ومعظم المصلحين فى العالم كان الوازع لهم فى الإصلاح دينيا ، أمثال الأنبياء والخلفاء والأئمة من المسلمين ، وهليل [١] والربانى (عقيبة) [٢] من

---

(١) هليل إمام من أئمة الإسرائيليين .

(٢) عقيبة أحد علماء اليهود المصلحين الذين كانوا يثقون بالله ثقة لاحد لها .

الإسرائيليين ، ومارتن لوثر (١) وكارليل (٢) ورسكن (٣) من المسيحيين . فالوازع الدينى هو الذى أمدهم بثروة فى العقل ، وقوة فى الروح ، وعظمة فى الخلق ، فأثروا فى جيلهم ، وفى الأجيال التى أتت من بعدهم . ولسنا اليوم فى حاجة إلى رجال يقومون بالواجب فحسب ، ولكننا فى حاجة إلى رجال يمكنهم أيضا أن يحملوا غيرهم على القيام به .

الخلاصة :

وصفوة القول أننا فى الشخصية العملية نحتاج إلى ما يأتى :

(١) أن يكون لنا غرض معين فى الحياة ، نعمل للوصول إليه ، بحيث نعتمد على أنفسنا ، ولا نكون صدى لأصوات غيرنا ، فنكرر ما يقولون ، ونفعل ما يفعلون ، ولا نتأثر بهؤلاء المترددين الذين لا يعرفون لهم غرضا فى الحياة ، ولا يثبتون على حال ، ولا نشغل أنفسنا بكثير من المشروعات التى لا يمكن تنفيذها ، بل بمشروع واحد ، فى وقت واحد ، ثم نعمل على إجادته وتنفيذه ، ثم الابتداء بغيره وهكذا .

---

(١) Martin Luther : (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦ م) زعيم ألمانى ومصلح دينى .

(٢) Carlyle : (١٧٩٥ ـ ١٨٨١م) كاتب إنجليزى ، ومصلح اجتماعى ، وفيلسوف ومؤرخ ، وهو أول من اعترف من الإنجليز لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالبطولة والإخلاص فى كتابه (الأبطال) . ومن أحسن كتبه الثورة الفرنسية .

(٣) Ruskin (١٨١٩ ـ ١٩٠٠ م) كاتب إنجليزى ، ومصلح كبير ، ومحسن عظيم ، محب للطبيعة ، والفن الجميل .

(٢) أن يكون لدينا حب شديد لأعمالنا، ورغبة كبيرة فى تكملتها، ونعمل على ألا نفقد تلك الرغبة، ونسعى فى تهذيبها ومضاعفتها.

(٣) الشعور بالواجب، والقيام به فى الحال على أكمل وجه، من غير تأخير عمل اليوم إلى الغد، وبدون تفكير فيما سنحصل عليه من الجزاء عند القيام بالعمل، بل نجعل الجزاء أمراً ثانويا، ونؤدى العمل لا لشىء إلا لأنه يجب أن يؤدى، ونثق بغيرنا كما نثق بأنفسنا، ولا نهزأ بالمثل العليا التى يتخذها غيرنا.

(٤) قوة الوازع الدينى مع التمسك بالدين، بحيث لا نفكر فى الماضى، ونعمل على الانتفاع بالحاضر، ونقوم بواجبنا كما ينبغى، ونترك المستقبل لله. وبهذه الوسيلة نستريح وتستريح نفوسنا.

(ب) الشخصية الفكرية أو الخلقية

بعد أن تكلمنا عن الشخصية العملية نريد أن نتكلم عن الشخصية الفكرية والخلقية. والفرق بين الشخصيتين العملية والفكرية هو أن الأولى توجه قوتها نحو عمل الأشياء العظيمة، فى حين أن الثانية تصرف قوتها فى أن يكون الإنسان قويا فى روحه، عظيما فى خلقه. وإن العالم الذى نراه بما فيه من مدنية وحضارة، وتقدم فى العلم والاختراع - مدين لتلك الشخصيات القوية التى فكرت وتخيلت، وجربت ونفذت. وقد يظن أنه لا أثر للشعر والفلسفة والفنون الجميلة فى الأعمال الهامة العظيمة فى الحياة، والحق أن لها أثرا كبيرا فى تلك الأعمال؛ لأنها لا تزود

الشخص النشيط العامل بالمثل العليا فحسب ، ولكنها تبث فيه أيضا القوة والنشاط والروح الضرورى لتنفيذها والوصول إليها .

الصفات التي يجب أن تتحقق فى الشخصية الفكرية أو الخلقية

هناك صفات تعتبر عناصر للشخصية الفكرية الصامتة ، تلك هى : (١) الهدوء العقلى (٢) الرضا بالحياة (مع العمل.) (٣) حسن الطبع . ولنشرح كلامنها فنقول :

(١) الهدوء العقلى :

يراد بالهدوء العقلى اطمئنان البال ، وهدوء الخاطر ، وعدم التفكير فى أشياء تؤدى إلى القلق أو الاضطراب النفسى . وهذا الهدوء قد يكون فطريا ناشئا عن طبيعة المزاج ، وقد يكتسب بالتربية والتهذيب وضبط النفس ، وضبط العواطف والوجدانات التى تتأثر بالظروف الخارجية فى الحياة . والخوف أكبر عدو مزعج للعقل ، وأقوى سبب فى الاضطراب العقلى . وما دام العقل متأثراً بالمخاوف فالهدوء محال . وقد ينشأ الاضطراب عن الغيرة أو الحقد ، أو عن طلب المحال والتعلق به . نعم يجب أن تكون آمالنا كبيرة ، ولكن يجب أيضا أن يكون من الممكن تنفيذها .

وقد ينشأ الاضطراب العقلى عن كثرة الرغبات التى لانهاية لها ؛ فالإنسان منا يريد أن يذوق الحياة ويتمتع بما فيها من لذات فى لحظة واحدة ، من غير تفكير فى ترك شىء للتمتع به فى المستقبل . يريد أن يقطف الحياة كما يقطف عنقود العنب ، وياليته ينتفع بما يقطف ؛ بل قد يضغط على العنقود لشدة حرصه فيتلفه ، ويبقى جائعا كما كان من قبل . وإن كثرة الرغبات لاتترك أثرا للمسرات القلبية ، وكثيرا ماتؤدى إلى التألم والحرمان ؛ فالحريص محروم ، لو بلغ الرزق فاه ، لولاه قفاه . كماقال بديع الزمان الهمذانى .

(٢) الرضا بالحياة مع العمل :

وليس معنى الرضا أن يقبل الإنسان كل شىء كماهو ولو كان خطأ ؛ فهذا يعد ضعفاً وجبناً ، بل المعنى أن يكون حيا ، يفعل ما يجب أن يفعل ، ويرضى بما يجب الرضا به ، ويحتج على ماينبغى الاحتجاج عليه ، ويرد على ما يقتضى الرد . هذا هو الرضا ، وهو معنى الحياة . وفى اللحظة التى ينقطع فيها الرد أو الاحتجاج تنقطع الحياة ، ويتلوها الموت والفناء . أما الرضا المصحوب بالكسل والخمول فليس برضا ؛ وإنما هو الموت فى الحياة . فالرضا بالحياة يجب أن يصحب بالجد والعمل والمثابرة ، مع الاقتناع بما يجب الاقتناع به . وفى البيئة والحياة أمور برهنت التجارب على خطئها ، فهذه يجب ألا نقتنع بها ، بل نعمل بكل قوة على علاجها وإصلاحها ، وإلا وقف العالم مكانه ، وتأخر الفكر والحضارة .

وينبغى أن نقنع القناعة التى بها تستريح نفوسنا ، ونكون سعداء ، بحيث نرضى من جهة ، ونعمل للرقى والكمال من جهة أخرى .

ومن الخطأ أن ينتظر الإنسان المحال ، أو يطلب أشياء ينبغى ألا يجاب إليها ، ومن العيوب التى كانت تؤخذ على (جيته [١]) الفيلسوف الألمانى أنه كان يعارض ولا يقنع حتى بالأمور التى لامفر منها ، وليس منها بد ؛ وذلك ناشئ عن العجز عن ضبط النفس ، وهو نقص خلقى شائع . وما الفائدة من طلب المحال ؟ إن عدم الرضا لن يقربنا من تحقيق رغباتنا ، لأنها رغبات يستحيل تنفيذها ، ولا يمكن الوصول إليها . ولو حددت الآمال والأحلام ، ثم عملنا بجد وطيب خاطر ، ونفس مستريحة ، فمن الممكن إدراك هذه الآمال ، وتحقيق تلك الأحلام ، بالوصول إليها أو إلى مايقرب منها . فليس من الحكمة أن نحزن أنفسنا ، ونحرق قلوبنا ، فى سبيل أحلام لا يمكن تحقيقها .

فنحن لا نريد قناعة تصحب بالضعف أو الإهمال ، كما لا نريد جشعاً يؤدى إلى القلق الفكرى ، والاضطراب العقلى ، والألم النفسى ، ولكننا نريد قناعة تؤدى إلى السعادة ، وتستدعى العمل ، وتتطلب المثابرة فى سبيل الرقى المستمر ، مع راحة الضمير ، وهدوء البال . وبهذه الوسيلة تكون حياتنا هادئة سعيدة ، مملوءة بالثقة والأمل . وما الحياة إلا حزمة كبيرة مكونة من عيدان صغيرة ، وللوصول إلى هذه الحزمة الكبيرة يجب أن نحصل أولاً على العيدان الصغيرة.

---

(١) Goethe (١٧٤٩ـ١٨٣٢ م) هو شاعر وفيلسوف ألمانى له شهرة ذائعة بين فلاسفة العالم وعلماء الطبيعة .

البشاشة ورحب الصدر :Good Temper

إن للبشاشة أثرا كبيرا فى الشخصية الفكريه أو الخلقية ، وتنشأ عن ضبط النفس ، وحسن التفكير ، وسلامة الأعصاب ، واعتدال الصحة ، والنجاح فى الحياة ، ورقى البيئة . أماسوء الطبع أوضيق الصدر فينشأ عن ظلام الفكر ، أو شدة تأثر الأعصاب ، أوضعف الصحة ، أو الإخفاق فى العمل ، أو تأخر البيئة ، أوعنها كلها مجتمعة . ومن السهل معالجة ذلك النقص بالنصح تارة ، ومقاومة النفس تارة أخرى ، والاتصال كثيرا بالمثل العليا فى الأخلاق ، والعمل دائما على مراعاة شعورغيرنا ، والمحافظة على روح الصداقة مع الأصدقاء .

ومن مظاهر الشخصية الفكرية أن تتغلب على عاطفتك ، وتشارك الناس سرورهم لنجاحهم فى أعمالهم ، مهما تكن فى دياجبر الشقاء ، وفى غياهب البؤس ، متمثلا بذلك الرجل الضال ، الشريد فى العالم ، تطرده تلك البلدة ، فينتقل إلى أخرى ، وهو يغنى تلك الأغنية : أيتها الحياة ! ما أجملك ! وماأجمل الليل والنهار ، والشمس والقمر ! الهواء عليل ، والسماء صافية ، والحياة عذبة . ما أحلى الحياة ! الحياة هنا إلى الأبد !

مضعفات الشخصية

هناك أشياء كثيرة تؤدى إلى إضعاف الشخصية ، وتعد عائقاً لها ، منها :

(١) الاتكال على الغير بتقليده فى أقواله وأفعاله وحركاته وتفكيره ، بحيث

يصير الإنسان صورة مقلدة لا شخصية لها ، ولكنها متأثرة بشخصية غيره .

(٢) التأثر بالعادات والتقاليد ؛ فالرأى العام كثيرا ما يكون حسناً ، ولا نستطيع أن ننكر ذلك ، ولكننا نريد أن يكون الرأى العام بمثابة القائد المرشد ، لا بمثابة القائد المستبد الذى يتحكم فى الأفراد فيضلهم أحياناً ، ويقودهم إلى حيث يبتعدون عن الحياة ، وينفصلون عن حقائق الحياة ، وينقطعون عن العالم انقطاع عجلات القطار عن القاطرة الأمامية التى بها يسير القطار ، ويتصلون بعالم آخر هو عالم الموت أو عالم الحقائق الميتة التى فقدت كل حياة .

نحن نريد احترام العادات ، ونطالب باحترام التقاليد ، وتعليم الأطفال احترامها ، وتعويدهم تقديس الرأى العام ، ولكننا نريد بجانب ذلك أن نعودهم التفكير بأنفسهم ، حتى لا يكونوا عبيدا لغيرهم فى آرائهم ، كما نعودهم الخضوع للحق ، والانقياد لما تمليه عليه عقولهم وضمائرهم ، حتى يحافظوا على شخصياتهم ؛ فالشخصية لا يمكن أن تنمو فى قفص من حديد لا يجد فيه الطفل حرية فى الرأى ، وحرية فى التفكير . وفى حدود العادات والتقاليد يجب على كل منا أن يكون له رأياً ، وأن يقبل من الآراء ما أثبتته التجربة والبراهين ، ويتمسك بالصواب ، ويترك ما يتبين خطؤه . ومن المحال أن نضل الطريق المستقيم إذا أسس الرأى العام على الحكمة والعقل والصواب والمصلحة العامة .

أما العادات والتقاليد الدينية المتصلة بالدين القويم فيجب أن تحترم وتؤخذ كما هى ؛ لأنها تتفق مع العقل والمنطق ، ولو أننا ربما لا نصل إلى إدراك الحقيقة أو السر أحياناً ؛ لأن التفكير الإنسانى محدود . ولو فكرنا فى الأمور الدينية

لوجدنا أن لكل أمر حكمة أو سرا قد لا ندركه . فتهذيب الشخصية لا ينافى مطلقا مراعاة الروح الدينى والتقاليد الدينية .

(٣) ومن الأشياء التى تتحكم فى الشخصية التمسك بالأفكار التى يقرؤها الإنسان فى الكتب العادية . وجدير بالإنسان أن يقرأ ، وأن يقرأ كثيرا ، ثم يحكم عقله ، ويأخذ الحسن ثم يترك القبيح ، ولا يعتقد كل مايقرأ ، ولا يصدق كل مايقال . كما يعتقد ويصدق كثيرون من القراء . إننا لانريد ذلك الكسل العقلى ، والخمول الفكرى ، بل نريد أن نفكر فيما نقرأ ، ونستعمل عقولنا ، فلا نتقبل كل بضاعة تعرض علينا ولو كانت مزجاة . ولسنا بذلك نقلل من قيمة القراءة والاطلاع ، أو من قيمة من يقرءون ويطلعون ، ولكننا نريد أن يكون لكل منهم شخصية مستقلة فى التفكير ، فيفكر فى كل شىء ، وفى كل كتاب يقرؤه .

ومما قاله (جن جاك روسو [١]) عن نفسه . «إننى لاأشبه أحدا آخر عرفته ، ومع ذلك فإنى إذا لم أكن أحسن ، فإنى مختلف عن غيرى على الأقل » ؛ فأساس الشخصية هو فى وجود شىء خاص فى كل منا يميزه عن غيره . وقد يخجل الإنسان أو يعتذر إذا وجد نفسه يختلف عن غيره ، وليس فى حاجة إلى الخجل أو الاعتذار ، ولكنه فى حاجة إلى الشجاعة فى أن يرى نفسه مختلفا عن غيره ، ويرى غيره يختلف عنه فى أمور هى أساس الشخصية ، ومظهر من مظاهر النفس الحقيقية .

---

(١) Jean Jacques Rousseau (١٧١٢-١٧٧٨) هو بطل من أكبر فلاسفة التربية وعلماء الاجتماع فى القرن الثامن عشر .

(٤) ومن مضعفات الشخصية تحكم ميول الشخص فيه ، وعجزه عن ضبط تلك الميول ، فيثور ويهيج ، ويبتدئ اليوم بعمل ، ويتركه غدا ، ويفكر اليوم فى مشروع ، وغداً فى آخر . ومثل هـذا الشخص عادة نشيط وليس بكسلان ولا ضعيف الإرادة ، ولـكنه فى حاجـة إلى التربية ، تربيـة الميول ، وضبط انفعالاته ، وتوجيه همته نحو مشروع من المشروعات ، وعدم تركه إلا بعد الانتهاء منه .

الصفات الكمالية للشخصية

الآن وقـد تكلمنا عن ماهية الشخصية ، وتعريفها ، والاختلاف فيها ، والعناصر الأساسـية التى تبنى عليها ، وأنواعها ، ووسائل تقوية الشخصية العملية ، والصفات التى يجب أن تتحقق فى الشخصية الفـكرية الخلقية نريد أن نذكر الصفات الـكمالية للشخصية على العموم ، وهى كثيرة، منها :

(ا) الفردية أو الاستقلال الذاتى[١]. (ب) الإخلاص[٢]. (جـ) الحماسة[٣] أو شدة الغيرة والإقدام . (د) قوة الوجدان[٤] أو الإحساس . ولنتكلم عن كل منها فنقول :

(1) Individuality (2) Sincerity
(3) Enthusiasm (4) Sensibility

(ا) الذاتية أو الاستقلال الذاتى :

الذاتية هى أهم صفة من الصفات الكمالية . وقد عرِّفت بأنها : مجموعة الصفات العقلية الخاصة بالفرد . وتختلف هذه المجموعة باختلاف الأفراد ؛ فقد تكون كبيرة لدى بعض الأشخاص ، صغيرة لدى بعضهم الآخر .

وتختلف الشخصية [1] عن الذاتية فى أن الأولى أعم من الثانية ؛ لأن الشخصية تشمل الصفات العقلية والعملية والجسمية والروحية أو الخلقية الخاصة بالفرد ، بخلاف الذاتية فإنها عنصر هام من عناصر الشخصية يتعلق بمجموعة الصفات العقلية للفرد ليس غير .

وإننا نشعر بالملكية الذاتية فى نسبة الشىء إلى الفرد أو الأفراد فنقول هذا كتابى ، وذاك كتابه ، وهذا كتابكم ، وذلك مستشفى الجمعية الخيرية ، وتلك مدرسة الطائفة الإسرائيلية ، وهذه جمعية الشبان المسلمين أو المسيحيين، وهكذا. ولكل إنسان طريقة معينة، وأفكار خاصة فى الحياة يمتاز بها عن غيره.

أما العوامل التى تمتاز بها الذاتية فهى :

(١) الصراحة وعدم الالتواء فى الفكر والقول والعمل :

يراد بالصراحة إظهار ما فى النفس بغير التواء أو اعوجاج أو لف بعيد ؛

(1) Personality.

بحيث تكون أفكار الإنسان ظاهرة ، وأقواله واضحة ، وأعماله تتفق مع أقواله ؛ يقول ما يعتقد ، ويعتقد ما يقول ، ولا يلقى القول على عواهنه ، ولا يتردد فيما يقول ، لا يثبت اليوم شيئا ثم ينفيه غدا ، إذا تكلم كان كلامه عن عقيدة يدل على سداد رأى ، وحسن تفكير، وتقدير للنتائج . وإن كثرة التردد فى الرأى والقول والفعل تقلل من شخصية الإنسان ومنزلته ، وكثيرا ما تعوقه عن النجاح فى الحياة العملية والاجتماعية ؛ كأن يطالبه رئيسه بإبداء رأيه فى شأن من الشئون ، فيختلط عليه الأمر ، ويضطرب عقله ، وتضطرب أفكاره،وتكون غامضة . وهو فى هذاالموقف لا يحتاج إلى أكثر من أن يفكر فى الأمر مليا ، ثم يبدى رأيه بعبارة موجزة ، واضحة ، قوية ، مؤثرة ، ولا يخرج عن الموضوع .

(٢) حب المسئولية وعدم الفرار منها :

إن حب المسئولية وعدم الفرار منها ينشئان عن الثقة بالنفس.وقد لوحظ أن الأفراد الأمناء الذين يستحقون أن يتحملوا المسئولية يفرون منها ، وأن الأفراد الذين لا يستحقون الثقة بهم يحبون تحملها . وفى كلتا الحالتين خطأ بين . وإننا الآن لا نتكلم عن هؤلاء الذين يزجون بأنفسهم فى أشياء ليسوا أهلا لها ، ويقفون فى مواقف غيرهم أولى بها ، بل نتكلم عن أولئك الذين منّ اللهعليهم بالمقدرةالطبيعية ، والكفاية والقدرة علىالقيام بالعمل، ولكنهم يميلون إلى الفرار وتجنب العمل . وهذا الفرار فى كثير من الأحوال دليل على ضعف الذاتية ، أو ضعف الاستقلال الذاتى ، ودليل على الخوف أيضا ؛ الخوف

من النتائج والظروف ، والخوف من الغير . نحن نعلم أن تحمل التبعة قد يعرض الإنسان للخطر . ولكن بماذا تجتذب قلوب الناس ؟ إنك تجتذبهم بالإقدام ، وعدم الفرار من التبعة ، والتعرض للأخطار . قد تفر من الشيء خوفا من نقد الناقدين ، وحسد الحاسدين ، ومنافسة المنافسين ، ولكن ماذا يهمك من هؤلاء ؟ ولم تعبأ بهم ما دمت مخلصا لله ، مرضيا ضميرك ؟

(٣) الصبر :

الصبر فضيلة تمكن العقل من القيام بوظائفه العقلية فى هدوء وثبات ، وتنقذه من الاضطراب عند الشدائد ، وتجعل الإنسان هادئاً ، رزينا ، بعيداً عن الطيش والاندفاع فى الأشياء من غير تفكير فى العواقب . والصبر ضرورى لا للرؤساء فحسب ، ولكن للمرءوسين العاديين أيضا . كان خالد بن الوليد يسير فى صفوف الحرب ، يشجع الناس ، ويقول لهم : إن الصبر عز ، وإن الفشل عجز ، وإن النصر مع الصبر . وقد سأل سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه بنى عبس : كيف كنتم تقهرون من ناوأكم ولستم بأكثر منهم عددا ولا مالا ؟ فقالوا كنا نصبر بعد اللقاء (لقاء الجيشين) هنيهة .

أما الجزع فمعناه العجز عن ضبط النفس ، والإخفاق فى توجيه القوة والحمية والحرارة التى تسير العقل نحو الصبر والظفر ، والخيبة فى العمل . والشخصية القوية تنافى الجزع وعدم الصبر . وكما أن الصبر يؤدى إلى النجاح فالجزع يؤدى إلى الإخفاق فى كل شيء . ولا توجد العظمة بين الرجال إلا حيث يوجد الصبر . والضعيف الصبور قوى بصبره ، والقوى الجزع ضعيف بجزعه . وإذا

وجد الصبر أرسلت أشعة من النور إلى الشخص فيثق بنفسه ، ويجتهد فى إيجاد جو للفوز والنجاح فى العمل .

(٤) المثابرة : Determination :

إن المثابرة والإرادة القوية من أهم صفات الشخصية العظيمة . وممن عرفوا بالإرادة الحديدية خالد بن الوليد ، والإسكندر المقدونى ، ونابليون بونابرت ، وجورج واشنطون وكثير غيرهم من عظماء الرجال . ومنهم السير (فوول بكستون [1]) الذى لعب دورا عظيما فى حركة تحرير الأرقاء فى أيام (ولبر فورس[2]) ، فقد كان (بكستون) لايعرف الرجوع إلى الوراء . ومن نصائحه المأثورة عنه للقراء :

(ا) لا تترك كتابا تقرؤه حتى تتمه .

(ب) لا تظن أنك قد انتهيت من الكتاب إلا إذا فهمته جيدا .

(حـ) حكم عقلك فى جميع ماتقرأ .

وفى نهاية حياته التى لم يشعر فيها براحة قال : إنى واثق بأن الفرق العظيم بين الناس قويهم وضعيفهم ، وعظيمهم وحقيرهم فى النشاط ، وقوة العزيمة ، وتحديد الغرض ، ثم النصر أو الموت » .

وحيثما وجدت الإرادة الحديدية وجدت قوة الشخصية . ولا يكفى أن تقول : أريد أن أكون كذا ، أو أحب أن أفعل كذا ، أو أرغب فى كذا ، بل يجب

(1) Sir Fowell Buxton (2) Wilberforce.

أن تكون الإرادة قوية ، والحب شديدا ، والرغبة كبيرة ، ثم تصحب هذه الرغبة بعزيمة ثابتة لا تعرف الضعف ، وهمة عظيمة تستلذ التعب ، وتثابر فى عملك حتى تنجح فى الوصول إلى أمنيتك . وإنك لا تستطيع أن تنتفع بالحديد وتصوره كيف شئت إلا إذا كان مصهورا شديد الحرارة . فإذا ما تركته حتى أصبح باردا فمن الصعب أن تكون منه شيئا .

(ب) الإخلاص

الإخلاص هو الصفاء ، هو الصدق فى القول والعمل ، هو المروءة ، هو أن تعمل فى السر مالا تستحي منه فى العلانية ، هو البعد عن الكذب والرياء والنفاق .

يقول الشاعر العربى :

فسرى كإعلانى ، وتلك خليقتى * وظلمة ليلى مثل ضوء نهاريا .

وهذا هو الإخلاص عينه ، وهو روح الشخصية . وإذا قيل : إن فلانا أبيض القلب ، صافى السريرة ، صادق صريح فى قوله فاعتقد أنه مخلص ، وأن له شخصية جذابة .

فبالإخلاص يظهر العقل حقيقته من غير زيادة أو نقص ، أو مبالغة ، أو رياء أو كذب . وحينما ينتفى الإخلاص يحاول العقل أن يخفى حقيقته فيغير الحقائق عمدا أو من غير عمد ، ويجعل الحق باطلا ، والباطل حقا ، والبعيد قريبا ، والقريب بعيدا . وليس هذا من الاخلاص فى شىء .

يقول (إمرسون) الأديب الأمريكى : إن الشرط الأساسى للنجاح فى العمل

هو الغيرة على العمل ، والغيرة نتيجة الإخلاص . وإن عدم إخلاصنا يقلل من ثقتنا بغيرنا ؛ فاللص يعتقد أن الناس جميعا لصوص ، والخائن يعتقد أنه كغيره من الناس ، وأنهم كلهم خونة · والمجرم يظن أن الكل مجرم مثله. وفى الوقت الذى يرتكب فيه الشخص عمدا خطيئة من الخطايا قد يعتقد عدم إثمه فى هذه الخطيئة ، ولا يثق بغير ذلك .

والتظاهر بغير الحقيقة ينشأ من عدم الإخلاص ؛ لأن فيه تشويها للحقائق ، وتضليلا لغيرنا ، بالكذب حينا ، والمبالغة الممقوتة حينا آخر . وإذا عرفت حقيقة المتظاهر — وسرعان ماتعرف — واتضح أمره ، شك الناس فى كلامه ، وقلت أو فقدت ثقتهم به . وحينما تذهب الثقة بالشخص ضاعت شخصيته . ولا يتظاهر بالغنى إلا الفقراء ، ولا يدعى القوة إلا الضعفاء . وإذا استطاع الإنسان أن يخدع الناس جميعا فإنه لا يستطيع أن يخدع نفسه . وإذا ضاعت ثقته بنفسه فمن المحال أن يشعر بالقوة .

يقول (مارك رَذَرْفُورْد) [1] : إنه لا يوجد إنسان كله رياء أو كله إخلاص ، فنحن جميعاً مراءون فى كل أقوالنا ، وفى كل أفعالنا ، وفى جميع أفكارنا .

ولهذا القائل العذر فيما قال ؛ فالحياة مملوءة بالمخجلات من الرياء والنفاق والغش والتضليل والنقائص المنافية للإخلاص . ومع ذلك فإننا نأسف إذا قبلنا هذا القول على علاته من غير أن يذكر لنا دليل يثبته . ولكننا نسلم بأن الإخلاص نادر ، والمخلصين قليلون .

(1) Mark Rutherford.

ومما يساعد على الإخلاص :

(١) الدقة فى القول تدقيقنا فى النقود . وإن أقوال الإنسان هى المرآة التى منها يرى عقله . ومن العيوب الشائعة التهاون فى استعمال الكلمات ، وادعاؤنا معرفة أشياء قد نجهلها .

(٢) الدقة فى التفكير ، فنزن ما نقوله بميزان الحقيقة خدمة للحقيقة ، ونذكر مانعتقد بكل شجاعة وأمانة .

وإننا لا نتطلب الإخلاص فى القول فحسب ، بل نتطلب أيضا الإخلاص فى الكتابة ، والإخلاص فى العمل ؛ كى لا نخدع أنفسنا ، ونضلل غيرنا .

(ج) الحماسة Enthusiasm

الحماسة نوع من الشجاعة يصحب بالشعور القوى والإقدام . ولا نريد بالحماسة تلك التى تؤدى بنا إلى السير فى الطريق المظلم فى الحياة ، ولكننا نريد الحماسة المصحوبة بقوة الإيمان من جهة ، والتفكير من جهة أخرى . ولا يكفى للنجاح فى الحياة أن يكون الإنسان ذكيا ماهراً ، بل يجب أن يصحب الذكاء والمهارة قوة أخرى هى الحماسة ، والغيرة الطبيعية . وما الفائدة فى أن يصل العالم الباحث إلى نظرية من النظريات ، أو فكرة من الأفكار ولكنه لا يستطيع أن ينفذها ، لعدم وجود الحماسة أو الشجاعة الكافية لديه ؟ إنه لافائدة فى نظريات لا يمكن تطبيقها عمليا .

ولكن هل يمكن أن نبث الحماسة ونولدها فى النفوس الباردة؟ الجواب :

نعم يمكننا أن نعود الطفل من الصغر الإقدام والشجاعة ، والقيام بالعمل مع الاعتماد على النفس فى كثير من الأعمال . وهناك أشياء ليست بالقليلة نثق بأنها مفيدة، ونتائجها حسنة ، ومع ذلك نتردد فى تنفيذها ، ونقدم رجلا ونؤخر أخرى ، لقلة حماستنا ، وخور عزيمتنا ، وضعف إرادتنا . وكثيرا ماتمر الفرص أمام أعيننا، وتضيع منا بسبب ذلك النقص . وكل ما نحتاج إليه لمعالجة هذا النقص هو أن نفكر فى الشىء أولاً ، فإذا بدا لنا صوابه فلنصحبه بالعمل وقوة العزيمة . وإذا وثقت من طريقك فأسرع فى خطاك ، وسر فى سبيلك حتى تصل إلى النهاية ، وبالله توفيقك .

وتكون الحماسة بتشجيع الطفل على أن يطلع على ما يحسن الاطلاع عليه ، وأن يرى ماتحسن رؤيته ، وأن يبحث عن الحسنات أكثر من البحث عن المساوى ، وأن يستحسن أكثر مما يستقبح ، وأن يوافق أكثر من أن يخالف ، وأن يثبت أكثر مما ينفى ، وأن يشجع أكثر من أن يثبط .

ومن الخطأ أن يظن الإنسان أنه أصبح كبير السن ، ولا يرجى منه عمل . وقد تعجب إذا سمعت أن (مستر جلادستون (١)) لم يبتدئ بأعماله العظيمة إلا فى سن الخمسين . فعامل السن لا يؤثر فى الحماسة كل التأثير كما يظن . والشباب شىء نسبى ؛ فقد تجد روح الشباب فى بعض الشيوخ ، وتجد روح الشيوخ فى بعض الشبان . والإنسان يأسف إذا قال إن معظم الشبان منصرفون إلى الملاهى ، لا يفكرون إلا فى اللذات ، وآمالهم ضعيفة فى الحياة ، وكلها موجهة إلى الوظائف مهما تكن وضيعة . أما الإقدام على الأعمال الحرة فقليل .

(١) اقرأ : Life of Gladstone, by John Morley

وإذا دخلوا ذلك الميدان كانوا مضطرين . والحماسة بعيدة عنهم ، والإيمان بعيد عن قلوبهم ، فهم يعملون عن غير عزيمة أو عقيدة .

وعدم الحماسة ينشأ عن الشك وعن الخبث ، وهما من ألد أعداء الشخصية. فلنترك كثرة التشكك والتردد ، ولنتجنب الوسوسة فى كل شىء ، ولنتمسك بالجد والعمل والإقدام ، حتى نتصل بالقوى العظيمة فى الحياة، ولنسر مع الجماعة ، ولا نبق فى عزلة ؛ ففى الجماعة قوة ، وفى العزلة ضعف ، وفى القوة عظمة ، وفى الضعف مذلة .

(د) قوة الإحساس : Sensibility

إن قوة الإحساس من أكبر المؤثرات فى الشخصية القوية ، وبعضها ينسب إلى الوراثة ، وبعضها مكتسب بالتربية والخبرة والتهذيب . وإن الإنسان الصادق الحس ، الحسن البصيرة ، ليس بذكى فحسب ، ولكنه حسن التقدير والحكم على الأشياء ، يرى الفرصة فينتهزها ، وينتفع بها . والفرص تمر بنا جميعا ، ولكن تمر عبثا ولا نحس بها ، وإذا أحسسنا بها فقد نتركها حتى تمر مر الرياح ، وتذهب سدى . فالمساواة فى الفرصة لا تكفى وحدها ، ولكن يجب الشعور بها ، والاستفادة منها . ولو أمكن أن نعطى كل شخص فى الغد فرصة واحدة فإنك تجد قليلين جدا لديهم المقدرة على رؤيتها أو الانتفاع بها فى حينها . أما الكثيرون فربما لا يلحظون مجيئها أو مرورها إلا بعد انتهائها ،

ولكنهم يظهرون أنهم عقلاء حكماء يتمثل فيهم العقل والحكمة بعد زوال الفرصة.

وهناك أفراد لهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . وليس السبب فى قلة الرؤية أو السمع ناشئا عن ضعف ما أوتوا من إحساس ، ولكنه ناشئ عن إهمال مالديهم من قوة الإحساس ، وعن عدم الانتفاع بما منحوا من مواهب وميول وأمزجة وسجايا .

وإذا مدحنا صدق الحس ، وإجابة الداعى ، وقوة الإحساس فى الإنسان لا نمدح أن يكون شديد الإحساس بحيث يتأثر لأقل شىء ، بل نطالب أن يُحَدَّدَ هذا الإحساس ، حتى يعتاد الشخص ضبط نفسه ، وكتمان شعوره ، فلا يكون شديد التأثر لأتفه الأسباب ؛ فضبط النفس هو روح الشخصية ، وقوتها المعنوية .

ومما يقوى إحساس الشخص يقظته العقلية ، ومتانة دينه وخلقه ، واتصاله بالمجتمع اتصالا وثيقا ، ودقة ذوقه ، وحسن تقديره للجمال .

اضطراب الشخصية (١) وانقسامها

الآن وقد تكلمنا عن الشخصية وماهيتها ، وعناصرها وأنواعها ، ومضعفاتها ومكملاتها ، لا يفوتنا قبل أن نختم هذا الفصل — أن نذكر كلمة موجزة عن اضطراب الشخصية وانقسامها ؛ لما للموضوع من الأهمية . وقد كتبت عنه

(١) Disorders of Personality

كتب (١) باللغات الأجنبية المختلفة ، فارجع إليها إن شئت .

إن الإنسان وإن كان يعتبر وحدة لا تتجزأ غير أن ميوله الفطرية المختلفة ورغباته المتعددة ربما لا تتحد دائما ، وقد يتعارض بعضها مع بعضها الآخر ؛ فيختلف سلوك الإنسان باختلاف الظروف . وكثيرا ما نقول : إن سلوك فلان اليوم يختلف عن سلوكه العادى ، أو نقول : إن فلانا كامل دائما ، مريدين بذلك أنه لا يتغير مطلقا ، وأن ميوله متحدة ، فى حين أننا نحكم على شخص آخر بأنه رجل لا يمكن التأكد منه ، أو الثقة به ، لأنه كثير التغير والانقلاب ، وليس على حال واحدة . ولكن من الكمال تهذيب الميول المختلفة ، والتوفيق بينها بحكمة حتى تكون شخصية الإنسان كاملة .

انقسام الشخصية : (٢)

قد تنقسم الشخصية وتتعدد ، وتسير فى أكثر من طريق واحد ، فيكون للإنسان شخصيتان أو أكثر ، شخصية له فى عمله ، وأخرى له فى منزله مثلا . وقد تكون الغرائز والميول والرغبات المسيطرة على الإنسان فى هاتين الجهتين مختلفا بعضها عن بعض ؛ فيختلف سلوكه تبعاً لاختلافها ؛ فبينا تراه فى عمله قاسيا فظا غليظا جافا إذ تجده فى منزله مع زوجه وأبنائه وديعا سهلا كريما .

---

(١) راجع :
(A) Diseases of Personality, by Ribot, Eng.trans., 1891
(B) Alterations of Personality, by Binet, Eng.trans, 1896.

(٢) Dissociation of Personality.

والشواهد على ذلك كثيرة . وإن رواية « دكتورجيكل [(١)] ومستر هايد » مثل واضح لتعدد الشخصية ، وإن كان ذلك المثل أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة ؛ لأنه بعيد عن الحياة الحقيقية . وإذا قلنا بتعدد الشخصية وانقسامها فكأننا سلمنا بأن هناك شخصين فى جسم واحد . وفى هذا القول نظر . ولكن قد أثبته الدكتور « مُورْتُون برنس [(٢)] » كما سيأتى .

وقد تمرض الشخصية الإنسانية وتضطرب تبعا لاضطراب الأعصاب والعقل ؛ فتختل الذاكرة أو تفقد ، ويضطرب التفكير ، وتتغير بعض مظاهر الجسم ، وتختلف قوة الإحساس كما يختلف الميل والمزاج ؛ فيظهر المريض فى حالة غير حالته الطبيعية ، ويشعر شعوراً مختلفاً ، ويبدى آراء تخالف آراءه وهو فى حالته الطبيعية الأولى ، ويقوم بأعمال غريبة آلية قد تعد فوق الطاقة البشرية العادية ، ويسيطر عليه فى ذلك الوقت العقل الباطن . وقد يفكر فى أشياء لا وجود لها مطلقا ، وقد يتكلم فى أمور بعيدة عن العقل والمنطق ، وقد يعتقد أن له جسمين ينامان على سريرين مختلفين ، والواقع أنه جسم واحد له شخصيتان أو أكثر .

وفى حالة الذهول واضطراب الشخصية ، والنوبة العصبية قد يشعر بعض المرضى أنهم فقدوا أسنانهم ، أوفقدوا معدتهم ، أو أصبحوا بغير أرجل ، وما فقدوا شيئا من أسنانهم أومعدتهم أو أرجلهم . ويظن آخرون أن أجسامهم زجاجية أو خشبية أو مصنوعة من الزبدة . وقد يشعر المريض بأنه خفيف الروح ، ويزعم بشخصيته الجديدة أنه عنترة فى القوة والبطولة ، أو أنه ملك

(١) Dr Jekyll & Mr Hyde. (٢) Dr Morton Prince

من الملوك، ويتخذ له تاجا، ويأمر وينهى، ويتظاهر بمظاهر الأبهة والعظمة، أو أنه إله خالق لهذا العالم، منظم لهذا الكون، أو أنه أعلم العلماء، وشيخ الفلاسفة، وكبير المشرعين، لا آخر لعلمه، ولا نهاية لفضله. أو أنه (فورد) فى ثروته، مصانعه لا تتسع لها بقاع الأرض، وشركاته تحتل الجو، وتملأ البحار والأنهار ... وما إلى ذلك من التخيلات التى لا حد لها ولا ضابط، مما يتخيله المجانين فى كثير من الأحيان.

أمثلة لانقسام الشخصية :

ولنذكر هنا بعض الأمثلة لانقسام الشخصية، وتعاقب شخصيتين أو أكثر على شخص واحد، فى حالات الأمراض العقلية المزمنة عند الذهول، حيث يفقد المريض شعوره، ويتشنج :

(١) امرأة قضت شطرا من حياتها فى العهر، تلك الرذيلة التى يندى لها جبين الإنسانية، ثم ذهبت إلى الدير، وقد قضى على أعصابها، لتقضى الشطر الأخير من حياتها فى الرهبنة. ففى أثناء النوبة العصبية كانت تتعاقب عليها حالتان : حالة العهر، وحالة الرهبانية ؛ فتتكلم آونة بلسان العاهر، معتقدة أنها عاهر، وما هى الآن بالعاهر، وتتكلم حينا بلسان الراهبة، ممثلة حياة الراهبة. وفى كلتا الحالتين يتغير صوتها وحديثها وأفكارها. وتتبدل حالها، وتغير ملابسها، وتجدها فى حالة غير حالتها الطبيعية وقت اليقظة، كأنها امرأة أخرى، وشخص آخر، وكأن المتكلمة شخصية أخرى غير الشخصية التى تعرفها من قبل، شخصية جديدة مختلفة كل الاختلاف، ولا عهد لك بها.

(٢) ضابط فرنسى انتابته الأمراض العصبية بعد الحرب العالمية الكبرى، فترك حياة الجندية ، ولحق بالدير ليحيا حياة الرهبنة . فكان أحيانا فى حالة ذهوله يتخيل أنه رجع إلى الجندية ، وأصبح جنديا كما كان ، فيحلق ذقنه ، ويقص شاربه ، ويخلع ملابس الرهبنة ، ويلبس ملابس الجندى ، ويغير عاداته، ويتحدث حديث الضباط ، ويسير سيرهم ، ويظهر بشخصيته الأولى ، حتى يظن من رآه أنه عاد ضابطا كما كان .

(٣) ولد كان مريضا بالماليخوليا ، لم يجد فى طفولته أى عناية ، وحرم كل شىء يدعى تربية أو تعليما . كان الشارع مأواه ، والطريق ملجأه ، والاستجداء مهنته ، يستجدى حينا ، ويسرق حين لا يجد من يعطيه ، أخذ يسرق حتى حكم عليه ، فأخذ إلى إصلاحية الأحداث ، وهناك تعلم صناعة الخياطة . وفى بعض الأحيان عند ذهوله واضطرابه كانت شخصيته الأولى تعود إليه ؛ فينسى حياته الأخيرة ، وينسى معها صناعة الخياطة ، ولا يتذكر شيئا عنها ، ولا يستطيع أن يخيط شيئا . ويصبح ثانية مثلا للشريد الطريد ، واللص الماهر ، والسائل المسكين ، فينتقل من الحالة الجديدة — حالة النظام وحسن السلوك — إلى حالته الأولى حالة التشرد والسرقة والبذاءة والاستجداء . وهناك حالات أخرى ، وأمثلة كثيرة يضيق المقام عن ذكرها ، فارجع إليها فى كتاب (بينيه) السابق الذكر ، أو فى كتاب (ماكنيش[١]) إذا أردت .

وتلك الحالات كلها تبين أن الإنسان قد تتعدد شخصيته بغير ضابط ، وبغير نظام معين ، فتختلف شخصيته ، ويختلف سلوكه من حالة إلى أخرى ؛

---

(١) The Philosophy of Sleep, by Mac Nish. 1930

فبينما يكون فى حالة اليقظة هادئاً ساكناً وديعاً قد يكون فى حالة الذهول شكساً غضوباً شريراً . وبقوة العقل الباطن تحتل الشخصية الثانية أو الشاذة مكان الشخصية الأولى أو الطبيعية بالتدريج . وفى أثناء النوبة قد يتذكر المريض تجاربه السابقة ، وما حدث له فى الماضى ، ويتكلم كأنه يتكلم عن شخص آخر . وبعد اليقظة لا يستطيع أن يتذكر ما قاله أو فعله وهو فى حالته الشاذة إلا بطريقة الإيحاء لو نُوِّم . وقد تتجسس الشخصية الثانية على الشخصية الأولى فتلاحظها من وراء ستار ، وعلى هذا ينقسم الشخص قسمين يعملان فى وقت واحد ، ولكن فى جهتين مختلفتين .

وبالطريقة الآتية قد رد الدكتور (مورتون برنس) على من يشك فى وجود شخصية ثانية ؛ فقد استطاع أن يمكن فتاة من أن تنتقل من حالتها الطبيعية إلى الحالة الشاذة ، ثم يعيدها إلى حالتها الأولى بطريقة تشبه طريقة التنويم المغناطيسى . وأخبرها وهى فى أثناء نومها أنها مكلفة أن تحل مسائل حسابية معينة ، ولم يرها الأعداد الحقيقية فى الجواب حتى رجعت إلى حالتها الأولى وهى حالة اليقظة ، فأراها إياها مدة وجيزة من الزمن . ولما نومت ثانية وسئلت عن الأجوبة أجابت فى الحال ، وقالت إن الأجوبة كانت معدة لديها ، وكانت تنتظر إعلانها بفروغ صبر . وهذا على الأقل مظهر من المظاهر التى تؤيد رأى الدكتور (برنس) فى أن جزأين مختلفين من الشخص كانا يعملان فى وقت واحد عمداً . ولكن هل يحدث مثل ذلك فى الحياة العادية ؟ نعم قد يحدث، للإنسان أمران : أحدهما محزن ، والآخر سار فى وقت واحد ؛ فبينما تراه حزيناً لفقد عزيز لديه ، إذ تراه مسروراً لربحه عشرة آلاف من الجنيهات فى التجارة فى ذلك اليوم .

أسباب انقسام الشخصية وما يعترى المريض فى حالته غير الطبيعية :

إن انقسام الشخصية حالة غير طبيعية للإنسان تنشأ عن صدمة وجدانية عنيفة ، أو حادثة مرعبة ، أو مفاجآت كلها أهوال ونكبات ؛ فتختل أعصاب الشخص ، ويضطرب عقله ، وتتبدل حالته الطبيعية ، وتتغير إلى حالة أو حالات أخرى ، يختلف الشخص فى أثنائها فى تفكيره وآرائه ، وصورته ، وشعوره ، وميله ومزاجه ، وأقواله وأفعاله . والانتقال من حالة إلى أخرى قد يصحبه نوم عميق أو غيبوبة ؛ بأن يمكث مدة لا يشعر فيها المريض بشىء . وقد يُلحظ هذا الانتقال قبل حدوثه ، وقد يظهر التغيير بغتة ، كما قد يختفى بغتة فى غير الموعد المعروف .

وقد حدث أن رجلا سكيرا وجد ابنته الصغيرة التى تبلغ من العمر أربع سنوات نائمة على سريره ، فألقاها وهو فى حالة السكر على الأرض بعنف ، ففزعت الطفلة أيما فزع . ومن تلك اللحظة تغيرت شخصيتها ، فبعد أن كانت فرحة مرحة ، مبتسمة ضاحكة ، أصبحت فى حالة أخرى تمثل الكآبة الدائمة ، والحزن المستمر ، وأخذت الأمراض العصبية تنتابها حتى قضت نحبها فى العاشرة من عمرها ولسان حالها يقول :

هذا جناه أبى علىَّ وما جنيت على أحد

وذهبت الفتاة ضحية السكر وسوء التصرف .

والشخصية الثانية قد ترث الشخصية الأولى علما وعملا ، وربما لا ترثها فى

شيء مطلقا ؛ فيترك الفرد كأنه طفل حديث الولادة ، لا يعلم عن الحياة شيئا ، ولا خبرة له بشيء ، وعليه أن يتعلم كل شيء من جديد ، وإن كان يُرَى كبيرا في جسمه . وقد يكون التغير وقتيا في ساعات معينة ، في أيام معينة ، وقد يكون دائما .

تحليل الشخصية :

وبالتنويم المغناطيسي ، والتنويم الصناعي أو الطبي بالمخدرات المختلفة [١] تمكن دراسة بعض الحالات العصبية ، وتحليل الشخصية . والمنوَّم — وإن كان فاقد الشعور ، لا يدري ما يدور حوله [٢] — يمكنه أن يحس تحت تأثير الإيحاء . ويعد اضطراب الشخصية حالة من الأحوال الشاذة التي تعد من المحال وقت اليقظة ، كما في حالة مشي النائم ، وقيامه بأشياء غريبة تحت تأثير العقل الباطن ، وتختلف الشخصية الثانية عن الأولى كل الاختلاف . وفي حالة التنويم يمكن تذكر الحالات المنسية بسبب المرض واضطراب الشخصية . وعلى أي حال لا يمكننا أن نعتمد من الوجهة العلمية الدقيقة على النتائج التي يمكن الوصول إليها بمثل هذا التحليل .

وختاما نشكر الله على توفيقه شكراً لا نهاية له ، ونسأله دوام عنايته ورعايته ، إنه سميع مجيب .

---

(١) التنويم بالكلوروفورم أو الكوكايين أو الأثير .
(٢) إذا كان التخدير عاما غير موضعي .

المراجع بالإنجليزية :ـ

(1) Alterations of Personality, by Binet, Eng. trans., 1896.

(2) Dictionary of Philosophy and Psychology, Edited by J. M. Baldwin, Vol. 11, pp. 284-86.

(3) Psychology; by Woodworth, ch. XXI.

(4) An Outline of Psychology, by William McDougall, ch. XVIII.

(5) Manual of Psychology, by Stout, Bk IV, chaps. VII, & X.

(6) Character and the Conduct of Life, by W. Mc Dougall, chaps. V and X.

(7) The Psychology of Education, by Welton, ch. XIII.

(8) Psychology for Teachers, by Lloyed Morgan, ch. X.

(9) Introduction to Psychology, by Loveday and Green, ch. XVI.

(01) The Changing School, by P.B. Ballard, ch. VII·

(11) Education: Its Data and First Principles, by Sir Percy Nunn.

فهرس

كتاب فى علم النفس

«الجزء الثالث»

الفصل الأول

«الفكر»

صفحة		صفحة	
٦	مراحل الفكر	١٩	استعمال الصفات
٨	إدراك الكلى	٢١	مدة النمو التام
٩	مراحل إدراك الكلى	٢٢	المدرك الكلى وتكوينه
١٣	نشأة إدراك الكلى	٢٣	فوائد المدرك الكلى
١٦	الفكر الأولى	٢٤	اختلاف المدركات الكلية
١٧	نمو القوة الإدراكية	٢٥	التعريف والمدزكات الكلية
١٨	إدراك الكلى والتمييز	٢٧	تحديد الأفكار وتوضيحها بالتعريف

صفحة

٢٨ علامات قوة الإدراك
٢٩ الاختلاف فى قوة الإدراك
٣٠ الصلة بين إدراك الكلى والخيال
٣٢ وضوح المدركات الكلية وخفاؤها
٣٣ أسباب خفاء المدركات الكلية
٣٥ دقة المدركات الكلية
٣٦ عدم الدقة فى المدركات الكلية ينشأ عن النقص فى التجريد وعن فقد العناصر ونسيانها

صفحة

٣٨ مراجعة الأفكار وإعادتها
٣٩ تنويع المدركات الكلية وتقسيمها
٤١ تربية قوة التجريد
٤١ وسائل تربية قوة التجريد :
٤١ التدرج فى ترتيب المواد
٤٥ شرح معانى الكلمات
٤٦ مراقبة الطفل عند استعمال الكلمات
٤٧ المراجع

الفصل الثانى

« الحكم »

٤٨ معناه
٥٢ مقتضيات الحكم
٥٢ نشأة قوة الحكم
٥٤ العلاقة بين المدرك الكلى والحكم
٥٦ عملية الحكم
٥٨ الإثبات والنفى
٦٠ الحكم فى نظر علماء المنطق وعلماء النفس

٦٣ أنواع الحكم
٦٣ الحكم العملى
٦٦ الحكم العقلى أو الإدراكى
٦٨ الحكم البدهى أو السريع
٧٠ الأحكام الخاصة أو الفردية
٧٠ الأحكام العامة أو الكلية
٧٠ الأحكام الجزئية
٧١ الأحكام التحليلية

صفحة

٧١ الأحكام التركيبية
٧٢ صفات الحكم
٧٣ الصفات التي يجب أن تتحقق عند الحكم
٧٣ الوضوح
٧٤ أسباب الغموض في الحكم
٧٥ الدقة
٧٦ عدم التردد

صفحة

٧٧ ثبات الحكم واستقراره
٧٨ الاستقلال في الرأي مع احترام آراء الغير
٧٨ العلم بالشيء
٧٩ ترتيب الأحكام وتنظيمها
٨١ تربية قوة الحكم
٨٤ المراجع

الفصل الثالث

« الاستنباط »

٨٥ تعريفه
٨٦ الاستنباط أرقى أنواع التفكير
٨٧ أمثلة للاستنباط
٨٩ الشروط التي يجب أن تتحقق في الباحث
٩٠ الاستنباط الأولي والراقي
٩١ الصلة بين الحكم والاستنباط
٩٢ أنواع الاستنباط
٩٢ الاستنباط الاستقرائي
٩٧ الاستقراء العلمي
٩٩ الاستنباط القياسي أو الاستدلال
١٠٠ استخدام الاستنباط القياسي في تطبيق القواعد وشرحها
١٠٠ الفرق بين نوعي الاستنباط وأثرهما في التعليم
١٠٣ المراجع

الفصل الرابع

« التعليل »

صفحة

١٠٤ تعريفه وأمثلة له

١٠٥ تعليلات الأطفال

١٠٧ نشأة قوة التعليل

١٠٩ الاختلاف فى المقدرة على الحكم والتعليل

صفحة

١١١ تربية قوة التعليل

١١٤ المواد التى يمكن استخدامها فى تدريب قوة التعليل

١١٥ المراجع

الفصل الخامس

« التفكير الراقى »

١١٦ أهميته

١١٧ الداعى إليه

١١٨ الأمور الجوهرية فى التفكير

١٢٠ الفرق بين تفكير الطفل وتفكير الرجل

١٢٢ تفكير الطفل فى نفسه ونمو أفكاره الخلقية

١٢٣ تفكير الطفل وآراؤه عن غيره

١٢٤ التفكير الإنسانى والسلوك الحيوانى

١٢٧ اختلاف الناس فى التفكير

١٢٨ طريقة التفكير

١٢٩ بين هربارت وديوى فى طريقة التفكير

١٣٣ طريقة المشروع وأثرها فى التفكير

١٣٦ أنواع التفكير

صفحة

١٣٦ التفكير لحل المسائل العملية
١٣٨ التفكير المنطقى أو تبرير النفس
١٤٠ الشرح أو التعليل
١٤١ التطبيق
١٤٢ الشك

صفحة

١٤٢ التحقيق
١٤٤ التفكير فى علمى النفس والمنطق
١٤٦ الخاتمة
١٤٧ المراجع

الفصل السادس

« الوجدان »

١٤٨ تعريفه
١٥١ صفاته
١٥٢ مراتبه
١٥٢ علاقته بالإحساس
١٥٣ اختلاف الوجدان باختلاف الإحساس
١٥٤ الفرق بين الوجدان والإحساس
١٥٦ علاقة الوجدان بالإدراك على العموم
١٥٦ علاقة الوجدان بالنزوع
١٥٩ تعليل الوجدان

١٥٩ التعليل المادى الجثمانى
١٦١ التعليل العقلى
١٦٣ التعليل البيولوجى
١٦٤ التعليل الفطرى
١٦٥ أنواع الوجدان
١٦٥ الوجدان الحسى
١٦٨ الوجدان المعنوى
١٦٩ نشأة الوجدان وتطوره
١٧٠ صفات الوجدان عند الطفل
١٧٢ المراجع

الفصل السابع

« الانفعالات »

صفحة

١٧٣ أهميتها فى الحياة

١٧٤ تعريف الانفعال

١٧٦ وصف عام للانفعالات

١٨٣ الحالة المزاجية

١٨٩ مباحث عامة فى الانفعالات

١٨٩ (ا) مباحث دارون

١٩٠ قاعدة العادة النافعة المصاحبة للانفعال

١٩٠ قاعدة التقابل

١٩٠ قانون التأثر العصبى

١٩١ (ب) نظرية جيمز — لانج

١٩٤ أدلتها

١٩٥ الرد عليها

١٩٩ (ج) أثر الإفرازات الداخلية فى الانفعال

٢٠٠ الغدة الدرقية

٢٠٢ الغدتان الكلويتان

صفحة

٢٠٣ آثار الأدرنالين

٢٠٥ الغدة المخاطية

٢٠٨ (د) مباحث علماء علم النفس التحليلى

٢٠٩ (هـ) مباحث وطسون وأتباعه

٢١٠ (و) قياس الانفعالات

٢١٠ الانفعال والغريزة

٢١٠ رأى مكدوجل

٢١٣ رأى دريفرو رفرز

٢١٤ رأى براون وشاند

٢١٦ وظيفة الانفعال

٢١٨ أنواع الانفعالات

٢١٩ الانفعالات الأولية

٢١٩ الانفعالات المركبة أو الثانوية

٢٢١ الانفعالات المشتقة

٢٢٣ الفرق بين الانفعالات الأولية والمشتقة

صفحة

٢٢٥ ضبط الانفعالات

٢٢٩ وسائل ضبط الانفعالات

٢٢٩ ضبط الأفكار

٢٢٩ تغيير الهيئة الجسمية العامة

صفحة

٢٣٠ تهدئة الأجهزة الباطنية

٢٣٢ قوة الإدراك وضبط النفس

٢٣٣ تعلية الانفعالات

٢٣٤ المراجع

الفصل الثامن

« العواطف »

٢٣٥ معنى العاطفة

٢٣٧ العاطفة البسيطة والعاطفة المركبة

٢٣٧ الفرق بين الانفعال والعاطفة

٢٤١ أنواع العواطف

٢٤٣ علاقة العاطفة بالانفعالات

٢٤٥ تقسيم آخر للعواطف

٢٤٥ نمو العواطف

٢٤٨ مراحل نمو العواطف

٢٤٧ المرحلة الذاتية

٢٤٩ المرحلة الاجتماعية

٢٥٠ المرحلة المثلية (الأيديالية)

٢٥٠ كيفية تكوين العواطف

٢٥٣ العاطفة والغريزة

٢٥٣ العاطفة والشخصية

٢٥٤ العاطفة وحدة عقلية كاملة

٢٥٤ العاطفة والميل

٢٥٥ العاطفة والحالة المزاجية

٢٥٥ العاطفة الجوفاء

٢٥٧ أثر العاطفة فى السلوك

٢٦٠ تضارب العواطف

٢٦٠ العاطفة المقهورة والعاطفة المكبوتة

٢٦٢ أثر العواطف فى الحكم الخلقى

٢٦٣ الكلام على بعض العواطف

٢٦٣ عاطفة احترام النفس

٢٦٤ مظاهر محبة النفس

٢٦٥ نشأة محبة النشاط والحركة

صفحة

٢٦٧ احترام النفس والعناد
٢٦٨ العناد والتربية
٢٧٠ العاطفة الفكرية
٢٧٠ محبة العلم
٢٧٣ محبة الحق
٢٧٥ عاطفة محبة الجمال
٢٧٨ نشأة عاطفة محبة الجمال ونموها
٢٧٨ مراحل نمو عاطفة محبة الجمال
٢٧٨ مرحلة الإحساسات المنعزلة
٢٧٨ مرحلة الإدراك الحسى أو إدراك الصور
٢٧٩ مرحلة المعانى
٢٨٠ تطور الحكم الجمالى
٢٨١ العاطفة الخلقية

صفحة

٢٨٣ معناها
٢٨٤ منشؤها والخلاف فيه
٢٨٧ مراحل اكتسابها
٢٨٧ مرحلة المحاكاة والتعلم
٢٨٨ مرحلة التجارب الناضجة
٢٨٩ مرحلة البحث الفلسفى
٢٩١ العاطفة الخلقية والحكم الخلقى
٢٩٢ مراحل نمو الحكم الخلقى
٢٩٢ المرحلة الذاتية أو الشخصية
٢٩٢ المرحلة الاجتماعية التقليدية
٢٩٣ مرحلة التفكير والبحث
٢٩٣ العاطفة الخلقية والتربية
٢٩٨ المراجع

الفصل التاسع

« الإرادة »

٢٩٩ أهميتها
٣٠٠ الرد على مذهب السلوكيين والآليين فيها
٣٠٢ الأعمال الإنسانية
٣٠٤ آراء العلماء فى معنى الإرادة والعمل الإرادى

صفحة

٣٠٧ لم تتغلب الميول الضعيفة ؟
٣٠٩ النتيجة المباشرة للإرادة
٣١٣ مراتب السلوك الإنسانى
٣١٥ الإرادة والشخصية وعاطفة احترام النفس
٣١٦ هل قوة الإدراك صفة عامة ؟
٣١٧ تضارب الميول والعزم
٣٢٣ مآل الميول المهزومة
٣٢٥ بذل الجهد فى تذليل الصعوبات
٣٢٧ نشأة الإرادة وتطورها
٣٢٨ كيف تتجدد فى نفس الطفل أفكار عن الحركات ؟

صفحة

٣٣٠ صفات الإرادة عند الطفل
٣٣٢ أنواع الإرادة
٣٣٣ أسباب اعتقال الإرادة
٣٣٥ علاج الإرادة الجامحة
٣٣٦ علاج الإرادة المعتقلة
٣٣٨ علاج ضعف الإرادة
٣٣٩ مظاهر قوة الإرادة
٣٤١ منشأ قوة الإرادة
٣٤٢ ضبط النفس
٣٤٧ المراجع

الفصل العاشر

« عوامل الاختلاف فى السلوك »

٣٤٩ (١) — السجايا
٣٥٣ (٢) — الطباع
٣٥٤ مقاييس الطباع
٣٥٦ أنواع الطباع
٣٥٧ (٣) — الأمزجة
٣٥٧ الآراء المختلفة فى تعريف المزاج
٣٥٨ آراء القدماء فى الأمزجة
٣٦٠ أنواع الأمزجة فى نظرهم

صفحة
٣٦٢ رأى رتشراند فى الأمزجة
٣٦٣ رأى ستوارت فى الأمزجة
٣٦٤ آراء المحدثين فيها
٣٦٥ تقسيم الأمزجة على أساس الإفرازات الغدية
٣٦٥ التقسيم الثنائى للأمزجة
٣٦٦ رأى فوييه فى المزاج الإحساسى والمزاج الحركى
٣٦٧ رأى يونج فى التأمليين والنزوعيين
٣٧٠ هل من الممكن تغيير المزاج ؟
٣٧٤ رأى مكن فى الأمزجة
٣٧٥ رأى مكدوجل فيها
٣٧٧ رأى ثاولس
٣٧٧ رأى شاند
٣٧٩ (٤) — الأذواق
٣٧٩ معنى الذوق وآثاره

صفحة
٣٨٠ الذوق الحسى والمعنوى
٣٨٠ منشأ الذوق
٣٨١ الصفات التى تكسب الجمال
٣٨٢ آراء بعض الفلاسفة فى صفات الجميل
٣٨٥ أهمية الأذواق فى الحياة
٣٨٧ تربية الأذواق
٣٨٨ كيف تنمى الأذواق ؟
٣٩١ مراحل تربية الأذواق
٣٩٣ (٥) — الفروق الجنسية
٣٩٤ الرجل والمرأة
٣٩٦ البنت والغلام
٣٩٧ البنون والبنات فى المجتمع الخارجى
٣٩٨ البنون والبنات فى المدرسة
٤٠٠ الخلاصة
٤٠٣ المراجع

الفصل الحادى عشر

« الشخصية »

صفحة

٤٠٥ تعريفها
٤٠٧ أفطرية هى أم مكتسبة ؟
٤٠٨ الاختلاف فى الشخصية
٤١٠ العناصر الرئيسية التى تتكون منها الشخصية القوية
٤١٠ الجاذبية
٤١١ النشاط العقلى أو الذكاء
٤١٣ المشاركة الوجدانية
٤١٦ الشجاعة
٤١٧ مظاهر الشجاعة
٤٢١ الحكمة
٤٢٢ التفاؤل
٤٢٤ التواضع وعدم التصنع
٤٢٥ مظهر الإنسان وقوامه
٤٢٧ قوة البيان
٤٢٨ الثقة بالنفس
٤٢٩ المزاج المعتدل
٤٣٠ أنواع الشخصية

صفحة

٤٣٠ (ا) الشخصية العملية
٤٣٣ وسائل تقوية الشخصية العملية
٤٣٣ تحديد الغرض ومعرفة الطريق الموصل
٤٣٤ الرغبة فى العمل
٤٣٨ الشعور بالواجب
٤٣٩ قوة الوازع الدينى
٤٤٢ (ب) الشخصية الفكرية أو الخلقية
٤٤٣ الصفات التى يجب أن تتحقق فيها
٤٤٣ الهدوء العقلى
٤٤٤ الرضا بالحياة مع العمل
٤٤٦ البشاشة ورحب الصدر
٤٤٦ مضعفات الشخصية
٤٤٩ الصفات الكمالية للشخصية
٤٥٠ (ا) الذاتية أو الاستقلال الذاتى
٤٥٠ العوامل التى تمتاز بها الذاتية :
٤٥٠ الصراحة
٤٥١ حب المسئولية

صفحة
٤٥٢ الصبر
٤٥٣ المثابرة
٤٥٤ (ب) الإخلاص
٤٥٦ (جـ) الحماسة
٤٥٨ (د) قوة الإحساس
٤٥٩ اضطراب الشخصية

صفحة
٤٦٠ انقسام الشخصية
٤٦٢ أمثلة لانقسام الشخصية
٤٦٥ أسباب انقسام الشخصية
٤٦٦ تحليل الشخصية
٤٦٧ المراجع

فهرس الأشكال التوضيحية التى وردت بهذا الجزء

نوع الشكل	رقمه	صفحة
شكل للمرىء والقصبة الهوائية والغدة الدرقية	١	٢٠١
شكل الكلية اليسرى ومن فوقها الغدة الكلوية	٢	٢٠٢
شكل لقاعدة الدماغ لبيان موقع الغدة المخاطية أوالنخاعية	٣	٢٠٦
رسم توضيحى لبيان علاقة الانفعالات بالعاطفة	٤	٢٤٣

كتب أخرى للأستاذ محمد عطيه الإبراشى

مكتبة العرب لصاحبها الشيخ يوسف توما البستانى بشارع الفجالة بمصر

	مـ
(١) الشخصية .	٢٠
(٢) التربية الإنكليزية .	٣٥
(٣) روح التربية والتعليم .	٥٠
(٤) الإتجاهات الحديثة فى التربية .	٥٠
(٥) التربية والحياة ، أو تعميم التعليم .	٥٠
(٦) أروع القصص لشارلز دكنز .	١٠
(٧) قصص فى البطولة والوطنية	١٥
	مـ
(٨) فى علم النفس ، ﺟ ١ ، بالاشتراك مع الأستاذين عبد القادر ومظهر	٤٠
(٩) فى علم النفس ، ﺟ ٢ « « الأستاذ حامد عبد القادر	٥٠
(١٠) « ﺟ ٣ « « « « «	٦٠
(١١) خليفة فى الخيال ، بالاشتراك مع الأستاذين جوهر وعبد اللطيف	٦
(١٢) الحصان المسحور ، « « « « «	٦
(١٣) فى سبيل الوطن « « « « «	٧

(١٤) المفصل فى اللغة السريانية وآدابها ، طبعة الوزارة .

(١٥) الأساس فى اللغة العبرية وآدابها ، طبعة الوزارة بالاشتراك مع الأستاذين : المرحوم الدكتور على العنانى والأستاذ ليون محرز .

(١٦) جان جاك روسو وأثره فى التربية الحديثة (تحت الطبع)

(١٧) تربية الطفل « «

AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

150
A612FA
V.3
C.1